



الكسرى تولستوى

درب الآلام

ثلاثية
الكتاب الاول

الشقية تان



دار التقدم
موسكو

لذلك الزمن ، وكاتبه . (رواية «قلب قلق» وقصص بعنوان «مكان منسى» . وبعد ذلك جملة من كتب للأطفال وأكثرها شعبية هو «الصديقة» ...

انقضت طفولتي في ضيعة زوج امي المسماة سوسنوفكا . بستان ، وبرك يحيط بها الصنفاص ، وينمو فيها القصب . والنهر السهبى تتماغرا . والرفقاء هم اولاد القرية . وخيول الركوب والسهب المشعوشوب ، حيث الربي وحدها كانت تكسر خط الافق الريب . . . وتعاقب فصول العام مثل احداث ضخمة وجديدة دائما . ان كل ذلك ولا سيما نشأتي وحيداً قد وسعت دائرة احلامي .

حين كان الشتاء يحل ، وتتراكم الثلوج في البستان وحول البيت كان عواء الذئاب يرتفع في الليل . وحين تغنى الريح في مداخن المواقد ، يضاء مصباح معلق فوق مائدة مستديرة في غرفة الطعام ، وهي حجرة مجصصة الجدران ومفروشة بشكل بانس ، ويقرا زوج امي في العادة نكراسوف ، وليف تولستوى وتورغينيف بصوت عال . . .

وكانت امي تصغى وهي تحيك الجوارب . وكنت ارسم او الوّن صوراً . . . ولم تستطع اية حادثة ان تخسرق صمت تلك الامسيات في ذلك البيت الخشبي القديم حيث تفوح حرارة المواقد المجصصة ، المدفأة بالروث المجفف او القش ، وحيث لا يد من شمعة للتنقل من حجرة مظلمة الى اخرى . . .

لم اقرأ كتب اطفال غالباً ، فمن المحتمل انها لم تكن لدى . وكان كاتبى المفضل تورغينيف . وقد بدأت اسمعه في امسيات الشتاء وانا في سن السابعة تقريبا . ثم ليف تولستوى ونكراسوف وبوشكين . (كان اهل البيت ينظرون الى دوستوفسكى بشيء من الرعب باعتباره كاتباً «قاسياً») .

وانا في نحو العاشرة اخذت اكثر المطالعة ، كسل ما لهؤلاء الكلاسيكيين . وبعد حوالى ثلاثة اعوام حين ادخلونى بصعوبة (لاننى حصلت في امتحانات القبول على درجة سقوط تامة تقريبا) في مدرسة ثانوية استطعت الحصول في مكتبة المدينة على جيول فيون وفينيومور كوبر وماين ريد والتمتهم بتعطش ، رغم ان امسى وزوجها كانا يتعيان على هذه الكتب فقاعتها .

وقبل دخولى الى المدرسة الثانوية كنت اتعلم في البيت ، فقد استقدم زوج امسى من سامارا معلما هو اركسادى ايفانوفيتش سلفوفاخوتوف وهو طالب مدرسة ثانوية دينية ، وكان مجدورا احمر كالنار وشخصا ممتازا انسجنا معا ولكننا درسنا العلوم على مهل .

ذات شتاء ، وكنت في نحو العاشرة ، نصحتنى امي بكتابة قصة . وكانت تود كثيرا ان اصبح كاتباً . . . وقد قضيت امسيات كثيرة منكباً على مغامرات الصبي ستيبكا . . . وانا لا اذكر شيئاً من هذه القصة غير عبارة : كان الثلج يتلألا تحت ضوء القمر كالاماس . وانا لم ار الاماس قط ، ولكن هذا التشبيه اعجبني . ولم تكن قصة ستيبكا موقفة على ما يبدو ، فلم تكرهنى امي مرة اخرى على الكتابة .

قبل الثالثة عشرة ، قبل دخولى الى المدرسة الثانوية عشت حياة تأملية حاملة . ولم يعنى هذا بالطبع من ان اقضى اياما كاملة في حصد العشب ومكان حصاد الحبوب ودراسها ، وعند النهر مع اولاد القرية ، والتردد شتاء الى المعارف من الفلاحين لاستمع الى الحكايات والحوادث والاغاني ، ولعب الورق والكعاب ، والعراك على اكوام الثلج بالقبضات ، والتقمص في اعياد الميلاد ، وركوب الخيول غير المروضة بلا لجام ولا سرج ، والى غير ذلك .

تركت سنوات المجاعة الثلاث من عام ١٨٩١ حتى عام ١٨٩٣ اثرا عميقاً فى ما زلت احسه حتى الآن . كانت الارض آنذاك مشققة والخضرة قد ذبلت قبل الاوان وتناثرت ، والعقول صفراء محروقة . وفى الاقح عمدة كدرة احترقت كل شيء .

وفى القرى تعرت سطوح الاكواخ لان الناس استخدموا قشها علغا للماشى ، وربطت المواشى النجيلة السليمة بالسيور الى الزوافد . . . فى تلك السنوات نجت ضيعة زوج امي بالكاد من الخراب . . . ومع ذلك فقد اضطر بعد بضع سنوات الى بيعها . . . ان ولاية سامارا كلها اصبحت تعود الى كبير مالكي الاراضى شاخوبالوف الذى كان يشتري اراضى الاعيان كلها ويأخذ من الفلاحين اجور الاستئجار السنوى بالقدر الذى كان يشتهي . . .

في عام ١٩٠١ انهيت المدرسة الثانوية في سامارا وسافرت الى بطرسبورغ للاستعداد لامتحانات القبول . واديت امتحان القبول الى المعهد التكنولوجي ودخلت فرع الميكانيك .

ارجع تجاربي الادبية الاولى الى سن السادسة عشرة ، وهي عبارة عن اشعار هي تقليد عاجز لنكراموف ونادسون . وانا لا استطيع ان اذكر السبب الذي حداني الى كتابتها ، فقد يكون الحلم الطائش الذي لم يجد شكلا له . كانت الاشعار فجأة فتركت العكوف عليها .

ولكنني كنت اشتاق مرة بعد اخرى الى عملية خلق لم تتبلور بعد . واجبت دفتر العبر والريشة . وعندما كنت طالبا كنت اعود بين الفينة والاخرى الى تجربة الكتابة ، ولكن ذلك كان بداية شيء ما لا يستطيع ان يتشكل ، ان يكتمل . . .

تزوجت في وقت مبكر ، في التاسعة عشرة ، طالبة في معهد الطب ، وعشنا سووية عيشة طلابية عاملة اعتيادية حتى نهاية عام ١٩٠٦ . واشتركت مثل الجميع في الاضطرابات والاضرابات الطلابية ، وانضمت الى كتلة الاشتراكيين الديوقراطيين ، والى لجنة مطعم المعهد التكنولوجي . وفي عام ١٩٠٣ كادت اقتل بحجارة طائرة اثناء مظاهرة عند كاتدرائية قازانسكي ، فانقذني كتاب كنت قد حشرته تحت المعطف على صدري .

وعندما اغلقت المعاهد التعليمية العالية سافرت في عام ١٩٠٥ الى درزذن ، حيث قضيت سنة في مدرسة تكتيكية . وهناك عدت الى كتابة الشعر مرة اخرى ، وكانت هذه تجارب ثورية وغنائية . في صيف ١٩٠٦ عدت الى سامارا ، واطلعت والدتي عليها . فقالت في اسي انها جميعا غثة جدا . ولم احتفظ بهذا دفتر . ان لكل عصر شكله الذي يصوغ به الافكار والمشاعر والحواف . ولم يكن لدى هذا الشكل الجديد ولم اكن قادرا بعد على خلقه .

في صيف ١٩٠٦ توفيت امي الكسندرا ليونتييفنا بالتهاب السحايا . فرحلت الى بطرسبورغ لاتابع دراستي في المعهد التكنولوجي .

وبدا عهد الرجعية ، ويطلع الرمزيون معا على اضواء المسرح .

عند ذلك ، في ربيع ١٩٠٧ ، كتبت اول ديوان لي وهو اشعار «منحلة» . وكان ذلك كتيباً تقليدياً ساذجا ردينا . ولكنه بالنسبة لي شققت به الطريق الى فهم الشكل الحديث للشعر . وبعد عام اصدرت الديوان الثاني : «وراء الانهار الزرقاء» . وانا لا اتيرا منه حتى يومنا هذا . فان «وراء الانهار الزرقاء» حصيلة اول تعرفي بالفولكلور الروسي ، بالابداع الشعبي الروسي .

حينذاك بدأت تجاربي الاولى في النشر «حكايات القمع» . وقد حاولت فيها ان اصف على شكل حكايات انطباعاتي في الطفولة . ولكن استطلعت بعد سنوات عديدة ان اوفق في ذلك بقدر اكثر كما لا في قصة «طفولة نيكيتا» .

وانا مدين ببداية عملي ككاتب قصي لصلتي بالشاعر والمترجم م . فولوشين . في صيف ١٩٠٩ سمعت فولوشين وهو يقرأ ترجماته من هنري دو رينيه . وقد بهرنى سبك الصور . ان الرمزيين في بنهم عن الشكل والجماليين ، مثل رينيه ، اعطوني مبادئ الشيء الذي لم يكن لدى آنذاك ، ولا سبيل للابداع والشكل والتكنيك بدونه .

في خريف ١٩٠٩ كتبت اول قصة طويلة لي هي «اسبوع في ضيعة تورغينيفو» وهي احدي القصص التي دخلت فيما بعد في كتاب «ما وراء القولغا» وبعد ذلك في المجلد الموسع «تحت اشجار الزيزفون القديمة» وهو كتاب عن تقليدات حياة الاعيان من ذلك القسم من اصحاب الاطيان الذين طحنهم سلاطين الارض الجدد - آل شاخوبالوف . لم يمس كتابي الاعيان المترسخين على الارض الذين انتقلوا الى الاشكال المكثفة من الاقتصاد . فلم اكن اعرفهم . ثم تتبع ذلك روايتان «السيد الاعرج» و«غريبو الاطوار» . وبذلك ينتهي عهدي الاول في الفن القصصي ، المرتبط بالبيئة التي كانت تحيطني في صباي .

استنفدت موضوع الذكريات ، واقتربت تماما من الواقع المعاصر . وهنا منيت بالفشل . فقد كانت قصص واقاصيص الواقع المعاصر فاشلة وغير نموذجية . والآن ادرك سبب ذلك . فقد واصلت العيش في دائرة الرمزيين الذين لم يكن فنههم الرجعي يتقبل الواقع المعاصر الغائر بغف وتهديد في اتجاهه نحو الثورة .

ابتعد الرمزيون في التجريد ، في العوض قابعين في «الأبراج العاجية» حيث كانوا يتنون انتظار انتهاء ما كان يزحف .

لقد احببت الحياة ، وكرحت بكل جوارحي التجريد والمذاهب المثالية . والذي كان نافعاً لي في عام ١٩١٠ اضرنى واعاقنى في عام ١٩١٣ .

كنت ادرك جيداً ان من المستحيل الاستمرار في ذلك . كنت اعمل كثيراً دائماً ، والان اعمل باصرار اشد ، ولكن النتائج كانت بائسة : فانا لم ار الحياة الحقيقية للبلاد والشعب .

وبدأت الحرب العالمية الأولى . وكنت في جبهات القتال كمراسل حربي لجريدة «روسكيه فيدموستي» ، ووزرت إنجلترا وفرنسا (عام ١٩١٦) . وانا منذ زمان بعيد لا اعيد اصدار كتاب اللوحات الادبية عن الحرب لان الرقابة القيصرية لم تسمح لي بكل قوة ان اقول ما رأيته وما شعرت به . ولم تدخل غير بضع اقايصيص ذلك الوقت في مجموعة مؤلفاتي .

ولكنني رايت الحياة الحققة ، وسامعت فيها بعد ان نزعتم عنى رداء الرمزيين الاسود المسدل كلياً . ورايت الشعب الروسي . في الأشهر الأولى من ثورة شباط تحولت الى موضوع بطرس الاكبر . ومن المرجح ان سلبقة الفنان اكثر من الوعي هسى التي جعلتني ابحث في هذا الموضوع عن مفاتيح لغز الشعب الروسي ، والدولة الروسية .

وانا ارجع بداية عملي المسرحي ككاتب مسرح الى الايام الأولى من الحرب . وقبل ذلك ، في عام ١٩١٣ ، كتبت كوميدياً «المغتصبون» وعرضتها على مسرح «مالي» في موسكو . . . وقد اثارت حماسة في قسم من المشاهدين ، وسرعان ما منعت من قبل مدير المسارح الامبراطورية .

ما بين عام ١٩١٤ و١٩١٧ كتبت وعرضت خمس كوميديات : «الطلقة» و«الشیطان» و«السنونو» و«الصاروخ» و«اللون المر» .

ومع قيام ثورة اكتوبر عدت الى النشر مرة اخرى ، وانهى المسودة الأولى لـ «يوم بطرس» وكتب قصة «كوتونا رحما» التي هي اول تجربة لنقد المثقفين الليبراليين الروس في ضوء لهيب اكتوبر .

وفي خريف عام ١٩١٨ سافرت مع العائلة الى اوكرانيا ، وقضينا الشتاء في اوديسا ، حيث كتبت كوميدياً «الحب كتاب ذهبي» وقصة «كاليوسترو» . ومن اوديسا سافرت مع العائلة الى باريس ، وهناك بدأت في تموز عام ١٩١٩ بكتابة ملحمة «درب الآلام» .

كانت الحياة في الهجرة اتسسى فترة في حياتي . هناك ادركت ما تعنى ان تكون منبوذاً ، انساناً مقطوعاً عن الوطن ، بلا وزن ولا ثمة ، ولا حاجة لاحد بك في كل الاحوال .

وكتبت بحماس رواية «درب الآلام» (الجزء الاول «الشقيقتان») وقصة «طفولة نيكيتا» و«مغامرات نيكيتا روتشني» وبدأت عملاً كبيراً امتد عدة اعوام : اعدت من جديد عمل كل ما هو متعين مما كتبته حتى ذلك الوقت . . .

وكان باكورة عملي بعد العودة الى الوطن مؤلفان : قصة «على العتبة» . وبذلك انقطعت في الحال كل صلاتي بالكتاب المهاجرين . و«لبس الحداد على» اصدقائي السابقون . وفي ربيع ١٩٢٢ وصل من روسيا السوفيتية الكسي مكسيموفيتش بشكوف * . وانعدت بيننا علاقات ودية .

في فترة اقامتي في برلين كتبت رواية «آيليتا» وقصص «الجمعة السوداء» ، و«مقتل انطوان زيفو» و«المخطوطة المكتشفة تحت السرير» وهي اكثر هذه الاعمال اهمية من حيث الموضوع . . . في ربيع ١٩٢٢ سافرت مع العائلة الى روسيا السوفيتية .

وكان باكورة عملي بعد العودة الى الوطن مؤلفان : قصة «ايبكس» وقصة غير طويلة هي «المدن الزرق» . . .

في عام ١٩٢٤ عدت الى المسرح : كوميدياً «طرد الشيطان الضال» ومسرحيتاً «مؤامرة الامبراطورة» و«آزيف» وكوميدياً «العاجيب في المنخل» و«الشباب العائد» وتحولات مسرحية «تمرد الآلات» و«انا كريست» و«درج اعمال» (حسب موضوعات مسرحيات الشاعر الالمانى غازينكليفر) .

* مكسيم غوركي .

وفي عام ١٩٢٦ كتبت رواية «هيبربولويد المهندس غارين» ،
وبعد عام بدأت بكتابة الجزء الثاني من رواية «درب الآلام» وهو
«عام ١٩١٨» .

وفي نفس الوقت لم اكف عن تحوير وتنقيح كل ما كتبه من
قبل ...

في عام ١٩٣٠ كتبت الجزء الاول من رواية «بطرس الاول» .
وبعد عام ونصف العام الرواية الهجائية : «الذهب الاسود» التي
اعدت صياغتها في عام ١٩٣٨ ونشرتها تحت عنوان «المهاجرون» ،
وانهت الجزء الثاني من «بطرس الاول» في عام ١٩٣٤ .

ان كلا الجزئين التي نشرتهما من «بطرس الاول» ما هما الا
مدخل الى الرواية الثالثة ، الى العمل الذي بدأت به (في خريف
١٩٤٣) .

ما الذي ساقني الى ملحمة «بطرس الاول» ؟ ليس صحيحا انني
اخترت ذلك العهد لتفسير الواقع المعاصر . لقد جذبني الاحساس بكمال
القوة الفؤادة والابداعية للحياة التي تفتح فيها الخلق الروسي
بتصوع فريد .

ان اربعة عهود تجذبني الى التصوير لنفس هذه الاسباب :
عهد ايفان الرهيب ، وعهد بطرس الاول ، والحرب الاهلية
١٩١٨-١٩٢٠ وعهدنا الحالي المنقطع النظير بسعة نطاقه واهميته .
ولكن الكتابة عنه رهن بالمستقبل . ولهم سر الشعب الروسي
وعظمته يجب ان يعرف ماضيه معرفة جيدة وعميقة : ان يعرف
تاريخنا ، وعقده الجذرية ، والجهود التراجيدية والابداعية التي
تشكل فيها الخلق الروسي .

في عام ١٩٣٥ بدأت بكتابة قصة «الخبز» التي هي ثقلة
ضرورية بين رواية «عام ١٩١٨» ورواية «صباح غائم» التي كنت
اعمل الفكر فيها في ذلك الوقت . وانهت «الخبز» في خريف ١٩٣٧ .
وقد سمعت الى العديد من الانتقادات لهذه القصة ، وهي في غالبيتها
تنحصر في انها جافة و«عملية» . ولتبرير ذلك استطيع ان اقول
شيئا واحدا هو ان «الخبز» كانت محاولة لتمثيل مادة تاريخية
دقيقة بوسائل فنية . ومن هنا جاء جموح الخيال . ولكن من الممكن
ان تتفع هذه المحاولة احدا من الناس في وقت ما . وانا ادافع عن

الحق للكاتب في التجربة وفي الاخطاء المرتبطة بها . ويجب احترام
تجربة الكاتب ، فلا فن بلا جراءة . والطريف ان «الخبز» شأنها
شأن «بطرس الاول» يمكن ان تترجم الى جميع لغات العالم تقريبا ،
وربما في اعداد كبيرة .

وسوية مع هذه الاعمال الادبية اقوم باعداد خمسة اجزاء من
الفولكلور الروسي لدار النشر للاطفال . وانا ارفض تحوير وتنقيح
الحكايات . وباحتفاظي ببقاء القصة الشفاهية اربط روايات الموضوع
المروي في موضوع واحد مع الاحتفاظ بجميع خصائص الكلام
الشعبي ومع تنقية الموضوع من جميع التفاصيل والهوامش التي
ادخلت اما بان يعمد الراوي على ادخال تفاصيل حكايات اخرى
بشكل آلي ، واما بسبب عدم تضوج الراوي ، واما بسبب خصائص
الكلام المحلية غير المميزة .

في اليوم الذي بدأت فيه الحرب الوطنية الكبرى ، يوم ٢٢
حزيران ١٩٤١ ، فرغت من رواية «صباح غائم» . وعند اعدادي
الثلاثية كلها للطبع قمت بتنقيح الكتابين الاولين من هذه الملحمة .
وقد كتبت الثلاثية خلال اثنين وعشرين عاما . وموضوعها العودة
الى البيت ، الطريق الى الوطن . والواقع ان كتابة السطور الاخيرة
والصفحات الاخيرة من «صباح غائم» يوم كان وطننا في نار الحرب
تقنعني بان سبيل هذه الرواية صائب .

عندما اعود بنظري الآن الى السننتين الرهيبتين المدمرتين
من الحرب اجد ان الايمان بقوى شعبنا التي لا تضعب ، الايمان
في صحة طريقنا التاريخي ، الطريق الباهظ والصعب والمستقيم
والانساني نحو الحياة العظيمة ، وحب الوطن وحده ، والتألم
المض بعداياته ، وكرامية العدو- كل هذا قد اعطى القوى
للنضال والنصر . وقد امنت بانتصارنا حتى في اصعب الايام من
تشرين الاول- تشرين الثاني عام ١٩٤١ . ويومذاك بدأت في
زيميتكي (على مقربة من مدينة غوركي على شاطئ الفولغا) قصتي
الدرامية «ايفان الرهيب» . فكانت ردا على المهانة التي عرض الالمان
وطنى لها . فاخرجت من العدم الروح الروسية الملتهبة- ايفان
الرعب- لاسلح «ضميرى المضطرم» . وواصلت كتابتي المقالات ،
وانا اعمل في هذه المسرحية ، ومن بين اكثر هذه المقالات صدى :

وايه ، ايها الأرض الروسية ! ..
من قصيدة ملحمة قديمة بعنوان
«حديث عن فصيلة إيغور»

ان اى انسان غريب على بطرسبورغ يدخلها يعين مراقب من
احد الشوارع الضيقة المعرشة بأشجار الزيزفون لأية بلدة نائية
سكنتها ، في لحظة الانتباه ، شعور معقد من الانفعال الذهني
والانسحاق النفسى .

انه يجوب شوارع مستقيمة ضبابية ، ويمر بيوت كنيية ذات
نوافذ داكنة ، على بواباتها حجاب ناعسون ، ويطيل النظر الى
انبساط نهر النيفا الغزيرة المياه العابسة ، والى الخطوط المزرقة
للجسور ذات المصابيح التى تضاء قبل هبوط الظلام ، والقصور غير
المريجة الغالية من الهجة المزينة واجهاتها بالاعمدة ، ويتطلع الى
كندرائية بطرس ويولس بارتفاعها الشاهق غير المألوف للمهندسة
الروسية والى القوارب البائسة المترائبة فى الماء الداكن ، والى
المراكب التى لا حصر لها مثقلة بالخشب الرطب ، وممتدة على
الشطآن الغرائبية ، ثم ينقل بصره فى وجوه المارة الشاحبة
المهمومة ذات العيون الكدرة كدرة المدينة ذاتها ، ان هذا المراقب
الدخيل بعد ان يمتلأ بصره وسمعه بكل ذلك سيخفى رأسه عميقا فى
ياقته ، اذا كان حسن النية ، اما اذا كان سيئ النية فانه سيتصور
ان افضل شيء ان تسمدّد ضربة قاضية على كل هذه الفتنة الجامدة
وتمزق اربا .

ذات مرة فى عهد امبراطور بطرس الاول تملك الرعب الشديد
شماسا من كنيسة ترويتسكايا القائمة حتى الآن على مقربة من جسر
ترويتسكى ، حين رأى فى الظلام ، وهو نازل من برج الجرس ،
شبح ساحرة نحيلة حاصرة الرأس ، وفيما بعد صرخ فى حانة :

كانت بطرسبورغ ، مثل اية مدينة أخرى ، تعيش حياتها الخاصة المتوترة المثقلة بالهموم . وكانت القوة المركزية فيها توجه هذه الحياة ، الا انها لم تكن مندمجة مع ما يمكن ان يدعى بروح المدينة : لقد كانت القوة المركزية تسعى الى استتباب النظام ، والهدوء ، والعقلانية ، بينما كانت روح المدينة تسعى الى تحطيم هذه القوة . وكانت روح التهديم منتشرة في كل مكان تغذى بالسم الفتاك المضاربات الهائلة في البورصة لساكيلمان الشهير ، والحقن القاتم في نفس العامل في مصنع الفولاذ ، والامنيات المشوها لشاعرة على الموضة جالسة حتى الساعة الخامسة صباحا في قبو «الاجراس الحمراء» للفنانين . وحتى اولئك الذين كان عليهم ان يكافحوا هذا التهديم كانوا دون وعي منهم يأتون كل شيء لتسعيه وزيادة حدته . ذلك زمن كان فيه الحب ، والمشاعر الطيبة والسليمة تعتبر ابتداء ومن مخلفات الماضي ، وكان الناس فيه لا يحبون ، بسبل يشتهون الحب ، ويتهاكون ، كالمسومين ، على كل ما هو حاد ومثير للالام في بواطنهم .

كانت الفتيات يخفن بكارتهن ، والازواج وفاءهم . وكان التهديم يعتبر اماراة على حسن الذوق ، والاعياء العصبي علامة على رهاقة الحس . وكان المروجين لذلك كتاب على الموضة كانوا يبيزون من العدم خلال موسم واحد . وابتكر الناس لانفسهم الموبقات والانحرافات لمجرد انهم لا يريدون ان يعتبروا عاديين . تلك هي بطرسبورغ في عام ١٩١٤ . كانت منهوكة بليالي السهر ، تفرق سامها بالخمور والذهب ، والحب الفارغ ، بانغام التانغو الممزقة لنياط القلب والحسية اللامتناهية - رقصه الموت - فكانها كانت تعيش على انتظار يوم مهلك رهيب . وكانت لذلك يوارده : فان شيئا جديدا غامضا كان يتسلل من كل الشقوق .

٢

- . . . نحن لا نريد ان نتذكر شيئا . نحن نقول : كفى ، ولندرس ظهورنا الى الماضي ! ومن وراء ظهري ؟ فينوس دو ميلو ؟ وهل هذه يمكن ان تؤكل ؟ ام تستطيع ان تطيل وتنمي شعري ؟

انا لا افهم لماذا انا بحاجة الى هذا العملاق الرخامي ؟ ستقول انه الفن ، الفن . كفى ! اما تزال معجبا بدغدغة هذه الفكرة لك ؟ انظر الى يمينك وشمالك ، والى امامك ، وفي موضع قدميك . انك تحتذي حذاء امريكا ! عاشت الاحذية الامريكية ! ان الفن هو سيارة حمراء ، اطارات من المطاط ، وصفيحة من البزيرين ، وسبعون ميلا في الساعة . فان ذلك يثير في نفس التهام المسافات . والفن ايضا اعلان مساحته ستون ذراعا يصور فتى انيقا عليه قبعة عالية مشعة كالشمس . والفن خياط فنان ، عبقري يومنا هذا ! انا اريد ان التهم الحياة ، وانت تطعمني ماء سكر يوصف لمن يعانون من الضعف الجنسي . . .

ارتفع ضحك وتصفيق من نهاية القاعة الضيقة وراء الكراسي ، حيث كان طلاب من الدورات الدراسية ومن الجامعة يقفون متزاحمين . عدل المتحدث سيرغي سيرغيفيتش سابوچكوف من وضع نظارته الانفية الناطة على انفه الكبير ، متمسكا من فم ميلل ، وهبط درجات المنبر البلوطي الكبير بحركة رشيقة .

كان اعضاء «جمعية الامسيات الفلسفية» يجلسون على جانب من القاعة وراء منضدة طويلة يضيؤها شمعدانان خاماسيا الشموع وهؤلاء هم رئيس الجمعية انتونوفسكي الاستاذ في اللاهوت ، ومحاضر اليوم المؤرخ فليامينوف ، والفيلسوف بورسكي ، والكاتب الماكر ساكوتين .

وكانت «جمعية الامسيات الفلسفية» قد تعرضت في هذا الشتاء الى هجوم شديد من جانب شبان معومرين ولكنهم ذوو السنة لاذعة ، هاجموا الكتاب الموقرين ، والفلاسفة المحترمين بضراوة عنيفة ، وقالوا اشياء جريئة ومغرية جعلت الفيلما القديمة مقسرة الجمعية في شارع فورتناكا تغص بالناس ايام السمبوت ، حين تكون الدعوة مفتوحة للجميع .

وهذا ما حدث اليوم ايضا . عندما اختفى سابوچكوف في الحشد وسط تصفيق صعد الى المنبر اكوندين ، وهو رجل قصير ذو جمجمة حليقة الشعر نائنة ، ووجه فتى اصفر بارز الوجنتين . كان حديث العهد في الحضور الى مثل هذه الامسيات ، وافر العظ من النجاح ولا سيما في الصفوف الخلفية من القاعة . وكان العارقون

يبتسمون بغموض حين يتساءل المتسائلون : من هذا ومن اين جاء ؟ وعلى اية حال لم يكن اكوندين اسمه الاصلى ، وقد جاء من خارج الحدود ، ولم يكن تحدثه في هذه الامسيات يخلو من غرض .

اجال اكوندين بصره في القاعة التي تخيم عليها السكون وهو يداعب لعينه الهزيلة الشعر ، واخذت شفقاته تشفقان عن بسمه خفيفة ، وشرع يتحدث .

في تلك الاثناء كانت فتاة شابة تجلس في صف المقاعد الثالث عند الممر الاوسط تسند ذقتها بجمع يدها . كانت ترتدى فستانا اسود من الجوخ عاليا حتى العنق . وكان شعرها الناعم الرمادي مرفوعا فوق اذنيها ، ومعقوصا في عقصة كبيرة ، يسندها مشبط . كانت الفتاة تتعفن في الجالسين وراء المنضدة الخضراء دون ان تتحرك ولا تبتسم ، واحيانا كانت عيناها تستقران على الشموع .

وعندما ضرب اكوندين المنبر البلوطى ، وصاح : «الاقتصاد العالمي يوجه اول ضربة من قبضته الحديدية الى قبة الكنيسة» زفرت الفتاة زفرة خفيفة ، وانزلت قبضتها من تحت ذقتها المحمر قليلا في اسفله ، ووضعت قطعة ملبس في فمها .

وتكلم اكوندين :

... وانتم ما تزالون تحلمون احلاما غامضة عن ملكوت الرب على الارض . بينما هو ماض في سباته رغم كل جهودكم . ام لعلمكم تاملون انه سيستيقظ في آخر الامر ، ويتكلم مثل اتسان بلعام ؟ اجل ، انه سيستيقظ ، ولكن لا على اصوات شعرائكم العسولة ، ولا على دخان المبخار . بل ان صافرات المصانيع وحدها قادرة على ايقاظ الشعب . انه سيستيقظ ، ويتكلم وسيكون صوته غير مريح لاسماعكم . ام لعلمكم تعتمدون على سباتكم وجهالتكم ؟ اذكر لكم انكم تستطيعون ان تسدروا فيها نصف قرن آخر . ولكن اياكم ان تسموا ذلك الخلاص المنتظر . ان ذلك ليس هو المستقبل بل الماضى . هنا في بطرسبورغ في هذه القاعة الفاخرة اختلقوا الفلاح الروسى على اوهاهم ، وكتبوا عنه مئات المجلدات ،

* حسب الانجيل تكلمت انا بلعام بصوت اناسى احتجاجا على ضربات انزلت عليها . (المترجم) .

والفوا الاوبرات . وانا اخشى ان تنتهى هذه التسليمة بدم كثير يراق ...

الا ان رئيس الجمعية اوقف الخليطيب في هذه اللحظة . ابتسم اكوندين ابتسامة باهتة ، واخرج من جيب سترته منديلا كبيرا ، ومسح جمجمته ووجهه بحركة معتادة . وصدرت اصوات من اقصى القاعة :

- دعه يتكلم !
- من الغلظة ان يغللق فم انسان .
- هذه سخريه !
- اسكتوا ، ايها الجالسون في الخلف !
- اسكتوا انتم !

واستمر اكوندين يقول :

... الفلاح الروسى نقطة تجذب افكار الكثيرين . اجل . ولكن اذا لم تكن هذه الافكار مرتبطة ارتباطا عضويا بمطامعه العريضة ، وبمفهومه الفطرى عن العدالة وهو مفهوم الانسانية جمعا ، فانها ستقع كما تقع البذور على الصخور . وطالما بقى الناس لا ينظرون الى الفلاح الروسى كائنسان ذى معدة خاوية ، وظهر موفر بالعمل ، ولا يجردونه من خصائصه المسيحية التى الصقها به بعض السادة في حقبة من الزمن ، فسيبقى القطبان على وجودهما الماساوى : افكاركم الفخمة التى ولدت في ظلام المكاتب ، والشعب الذى لا تريدون ان تعرفوا شيئا عنه ... ونحن هنا لا نريد حتى ان توجه نقدا حقيقيا لكم . فسيكون غربيا ان نضيع الوقت في اعادة النظر في هذه الكتلة الضخمة - هذه النزوات الانسانية . لا ، بل نقول لكم اتقدوا انفسكم قبل فوات الاوان . لان افكاركم وكنوزكم ستلقى في مزيلة التاريخ دونما اسف . . .

لم تجد الفتاة ذات الفستان الاسود في نفسها الرغبة لتفكر فيما قيل من على المنبر البلوطى . فقد كان يبدو لها ان جميع هذه الاقوال والمناقشات مهمة جدا بالطبع ، وكثيرة الدلالة ، الا ان الاكثر اهمية شىء آخر لم يتحدث عنه هؤلاء الناس ...

وفي غضون ذلك ظهر رجل آخر وراء الطاولة الخضراء . جلس متمهلا الى جانب الرئيس ، واحنى راسه يمينا وشمالا بالتحية ،

ثم مرر يده المحمرة على شعره الكتاني المبلل من الثلج . وبعد ان اخفى يديه تحت الطاولة جلس منتصباً في سترته السوداء الضيقة جدا . كان لهذا الرجل شعر طويل وكثيف مثل قبة ، ووجه نحيل كامد له حاجبان مقوسان ، تحتهما عينان رماديتان وسبعتان محاطتان بظليل . بيسونوف كان نسخة طبق الاصل للصورة التي نشرتها له مجلة اسبوعية في عددها الاخير .

والآن لم تعد الفتاة ترى غير هذا الوجه الجميل بشكـل يبعث على الفجور . كانت تتمعن بما يشبه الرعب في تلك التقاطيع الغريبة التي كثيرا ما راودت احلامها في ليالي بطرسبورغ العاصفة . ما هو الآن قد قرب اذنه من جاوه ، وابتسم بسمة مشوبة بسذاجة ، ولكن الغرور والعجرفة ، وشيئا آخر لم تستطع ان تبينه ، وان كان اشد ما يثير قلقها لاح في منحنيات منخرجه الدقيقين وحاجبيه المفرطين اثوة ، وفي تلك الجاذبية الناعمة الخاصة المظلة من وجهه .

وفي اثناء ذلك كان المحاضر فليامينوف ، وهو رجل احمر الوجه مرسل اللحية ، ذو نظارة مذهبة وخصلات ذهبية شائبة تحيط بجمجمته الكبيرة يرد على كوندرين قائلا :
- انت محق احقية الانهيار الجليدي في تدهوره من الجبال . ونحن ننتظر منذ زمن بعيد حلول العهد الرهيب ، ومنتبها بانتصار حقيقتكم .

انتم ستتغلّبون على عناصر الطبيعة ، لا نحن . ولكننا نعلم ان العدالة المثلث التي تصرخون لدعوتها بصفارات المضاعف ان تكون الا كومة من حطام ، وفوضى يتيه فيها انسان مصعوق . ان هذا الانسان سيقول «انا عطشان» لانه سيكون خلوا من اية قطرة من الفيض الالهي . فحذار ، - وهنا رفع فليامينوف اصعبا طويلة كالقلم ، وراح يظفر ان صفوف المستمعين بعده من خلال نظارته ، - انتم تريدون ان تحولوا الانسان في الجنة التي تحلمون بها وباسم هذه الجنة الى آلة حية ، الى رقم كذا - الانسان الى رقم - وفي هذه الجنة الرهيبة يكمن خطر ثورة جديدة ، افطع كل الثورات ، ثورة الروح . فقال اكوندين من مكانه ببرود :

- تحويل الانسان الى رقم هو مثالية ايضا .

مال فليامينوف على الطاولة ونشر ذراعيه فوقها فالتفت الشوم لعاننا على صلغته . اخذ يتحدث عن الغطينة التي سيتردى العالم فيها ، وعن القصاص الرهيب المقبل . وسرت نحنخة في القاعة .

حلت فترة الاستراحة فخرجت الفتاة الى المشرب ، ووقفت في بابها معسبة ومستقلة بنفسها . كان بعض المحامين وزوجاتهم يشربون الشاي ، ويتحدثون بأصوات اعلى من اصوات الآخرين . وكان الكاتب الشهير تشيرنوبيلين يأكل السمك بمرق التوت قرب الموقد مديرا عينيه الغيبيتين التملتين على الرائحين والغادين بين لحظة واخرى . وعند منصة المشرب وقفت سيدتان في منتصف العمر من المشتغلات في الادب لهما عتقان قذران وعقدتان كبيرتان على راسيهما تلو كان الشطائر . وكان التساوسة يقفون في منأى وبتقوى ولا يختلطون باهل الدنيا . بينما وقت تحت الثريا رجل وخط الشيب شعره المنقوش بافراط وقد طوى ذراعيه خلفه تحت سترته الطويلة مهتزا على كعبيه . انه الناقد تسميرفا ينتظر ان يتقدم احد من الناس اليه . دخل فليامينوف ، فاندفعت احدي السيدتين الاديبتين نحوه ، وتشميت بكمه ، وكفت الاخرى عن مضغ الطعام ، ونفضت عنها الفتات ، واحنت راسها ، ووسعت عينيهما . فقد تقدم بيسونوف منها موزعا الانحناء المؤبدة من راسه ذات اليمين وذات الشمال .

احست الفتاة ذات الفستان الاسود بكل جلداه ان الاديبة قد انكشمت بشدة داخل مشدها النسائي . قال بيسونوف شيئا لها ببسمة كسلي . فبسطت هذه ذراعيها الممثلتين ، وضحكمت مقابلة عينيهما .

هزت الفتاة كتفها ، وتركت المشرب . سمعت من يناديها . كان شاب اسمر نحيل في سترته من المخمل يشق الجمع نحوها . انحنى لها فرحا ، وغضض انفه اماراة على الغبطة ، وامسك يد ها . كانت كفه رطبة ، وعلى جبينه تدلّت خصلة مبللة من الشعر ، بينما كانت عيناه السوداوان الطويلتان تنظران اليها برقة طرية . ان هذا الفتى يدعى الكسندر ايفانوفيتش جيروف . قال لها :

- ما هذا ؟ ماذا تفعلين هنا ، يا داريا دميترييفنا ؟

- مثل ما فعلت انت .

ردت الفتاة عليه بذلك ، وحررت يدها منه ، ودستها في الفراء الذي تدفئ فيه يديها ، ومسحتها بالمندبل الذي كان في داخله . فهقه الفتى ، وزادت نظرة عينيه رقة :

- عجيب اذا كان سابوجكوف لم يعجبك في هذه المرة ايضا ! انه تكلم اليوم كئيب . وما يشرك منه حدته وطريقته الفريسة في التعبير . ولكن جوهر تفكيره ، ليس هو ما نريد في سرنا ، ونخشي ان نبوح به ؟ بينما هو يملك الجراءة على قوله . اسمعي :

كلنا شباب في شباب
وفي المعدة جوع والتهاپ
غدا سنلتهم السراب ...

انه يا داريا دميتريفنا شيء غير اعتيادي . جديد ، وجريء ليس من المعتاد انك لا تحسبن بذلك ! شيء جديد كل الجودة يشق طريقه ! انه منا ، جديد ، نهم ، جريء . وكذلك اكوندين . حقا انه مفرط في منطقيته ، لكنه جاد وجارح في تعابيره . وما هو الا شتاء او شتاءان او ثلاثة من مثل شتائنا هذا حتى ينهار كل شيء ، ويتفتق اعظم جدا !

كان الشباب يتحدث بصوت خفيض ، مبتسما بخلابة ونعومة . واحسنت داشا * بان كل شيء فيه يرتعش ارتعاشا دقيقا ، وكأنه من افعال رهيب . احنت له راسها دون ان تدعه يكمل كلامه ، وراحت تشق طريقها نحو مشجب المعاطف .

كان الحاجب الغاضب المزين صدره بالمعدليات ، الموكل عن حفظ المعاطف مشغولا يتسلم المعاطف والكالوشات فلم يعر التفاتا الى داشا التي كانت تمد الفيشمة له . كان عليها ان تنتظر طويلا ، وكان تيار من الهواء البارد يهب على قدميها من خلال باب دائما الانفتاح مفض الى رواق فارغ . وقف فيه حوزية طولال في قفاطين زرق مبللة يعرضون خدماتهم على الخارجين بمرح ووقاحة :
- على حسان سريع ، يا صاحب المقام !

* صيغة التحجب والتصغير لداريا ، وتسد هذه الصيغة كثيرا فيما بعد . (المترجم) .

- اركب معي ، الى منطقة بسكيه .

وفجأة صدر من وراء داشا صوت بيسونوف واضحا ، باردا :

- يا حاجب ، هات معطفي ، وقبعتي ، وعصاتي .

واحسنت داشا بمثل الأبر الدقيقة في ظهرها . ادارت راسها بسرعة ، وحدقت بعيني بيسونوف . قابل بيسونوف نظرتها بهدوء كئيب ، يستحقه ، الا ان جفنيه رفا ، وظهرت نداوة حية في عينيه الرماديتين ، وكانهما استسلمتا ، وشعرت داشا بخفقان قلبها .

قال بيسونوف وهو ينحن لها :

- احسب اننا التقينا عند اختك ، ام انا مخطيء ؟

- نعم ، التقينا .

واختلطت معطفها من الحاجب ، وركضت الى المدخل الرئيسي ، وفي الخارج حركت الريح الرطبة الباردة ثوبها ، ورشقتها بقطرات صدف . التفت داشا بياقتها الفرائية حتى عينيتها . سبقها شخص ، وقال في اذنيها : «يا للعينين !»

حنت داشا خطاها على الاسفلت المبلل ، عبر الاشرطة المهترئة من الضوء الكهربائي . وترامت الى سمعها انغام الكمان من بساب مطعم مفتوح . انها انغام للفالس جعلتها تدندن مع نفسها من خلال موفة الفراء الشعشعا التي تدفئ فيها يديها :

- ليس بالامر السهل ، لا ، ابدا ، ابدا !

٣

سالت داشا خادمتها لوشا ، وهي تفك ازرار معطفها الفرائي

المبلل :

- لا احد في البيت طبعاً ؟

وكانت لوشا تلتقب بالمغفول العظيم لوجهها العريض الوجنتين كوجه صنم ، والمغفط بطبقه كثيفة من البودرة . اجابت لوشا بصوت نحيب وهي تنظر الى المرأة ، بان السيدة غائبة حقا ، الا ان السيد بالبيت في غرفة مكتبه ، وانه سيتناول العشاء بعد نصف ساعة . ذهبت داشا الى غرفة الجلوس ، وجلست الى البيانو ، ووضعت ساقا على ساق ، وطوقت ركبتها بيديها .

ما دام نيقولاى ايفانوفيتش زوج اختها في البيت ، فمعنى ذلك انه قد تشاجر مع زوجته ، وانه الآن وعق المزاج وسيشكو لها . والساعة الآن العادية عشرة ، وليس لديها ما تفعله حتى الساعة الثالثة حين يراود النوم مقلتها . فهل تزجى الوقت بالقراءة ؟ ولكن ماذا تقرا وليس لها من رغبة في القراءة ؟ ام تظفل جالسة تفكر ، وذلك ابهظ على نفسها . حقا ، ما اتعب الحياة في بعض الاحيان !

زفرت داشا ، وفتحت غطاء البيانو ، وجلست مولية جنبها الى المفاتيح ، وراحت تسترجع في يد واحدة لحننا لسكرياين . ان الانسان ليجد عسرا في الحياة اذا كان في سن غير مريحة كان يكون في التاسعة عشرة ، ولا سيما اذا كان فتاة ، وذكية جدا ، وصارمة كثيرا ، بسبب من نقاء ابله ، مع اولئك الذين كانوا يريدون رغبتهم في تبديد ضجر الفتاة ، وما اكثرهم !

في العام الماضى وصلت داشا الى بطرسبورغ قادمة من سامارا لتدخل دورات الحقوق ، واقامت عند اختها الكبيرة يكاترينا دميتريفنا سموكونفيكوفا التي كانت متزوجة من محام يتمتع بشهرة كبيرة ؛ فكانت حياتهما صاخبة ومرفهة .

كانت داشا اصغر من اختها بحوالى خمسة اعوام ، وكانت ما تزال صبيبة حين تزوجت اختها ، وكانت لقامت الشقيقتين في الاعوام الاخيرة قليلة ، والآن بدأت بينهما علاقات جديدة : علاقات محبة عند داشا ، وعلاقات حنان عند يكاترينا دميتريفنا .

كانت داشا في البداية تحاكي شقيقتها في كل شيء ، وتعجب بجمالها ، وذوقها ، وقدرتها على التصرف مع الناس . وكانت تخجل في حضرة اصدقائها ، ولكن حياها كان يجعل كلامها لاذعا مسع بعضهم . كانت يكاترينا دميتريفنا تسعى الى ان تجعل بيتها نموذجا للذوق والجدة التي لم تصل بعد بين عامة الناس . وكانت لا تترك معرضا دون ان تشهده ، وتشتري اللوحات لرسامين مستقبليين . ومن جراء ذلك كانت لها مع زوجها احاديث شديدة في السنة الاخيرة ، لان الزوج كان يحب اللوحة التي تم عن فكرة عميقة ، بينما كانت الزوجة بكل حماسها النسوى تفضل ان تعانى في سبيل فن جديد على ان تعتبر متأخرة في الذوق .

وكانت داشا ايضا معجبة بتلك اللوحات الغريبة المعلقة على جدران غرفة الجلوس ، الا انها كانت تقول لنفسها مفحومة : ان هذه الشخصى الربعة بوجوها الهندسية وبعدد من الايدي والارجل اكثر من اللازم ، وتلك الالوان الباهتة كالصداع ما هي الا نوع ثقيل هازى* من الشعر اعلى بكثير مما تستوعبه مخيلتها الخاملة . جرت العادة ان تجتمع في بيت آل سموكونفيكوف كل ثلاثاء مجموعة من الضيوف صاخبة مرحة لتتناول العشاء فى غرفة الطعام المؤنثة برياش مصنوع من خشب التيقب . كان بينهم معامون من هواة الكلام ، وزيارة نساء ، ومتبعون متحمسون للتيارات الادبية ؛ وصعفيان او ثلاثة علمون فهامون باصول ممارسة السياسة الداخلية والخارجية ؛ والناقد العصبى المزاج تشميرفا المبيئت ابداء لكارثة ادبية اخرى . وفي بعض الاحيان كان ياتى في وقت مبكر شعراء شبان كانوا يتركون دفاتر اشعارهم في جيوب معاطفهم في رواق البيت . وقبيل بدء العشاء كانت تصل شخصية شهيرة ، وتتقدم من ربة البيت على مهل ، وتتخذ مجلسها في مقعد وثير عظمة وقوار . واحيانا ، والعشاء في منتصفه كان الضيوف يسمعون خشخشة كالوشين جلددين يغلغان في الرواق ، وصوتا مخمليا يقول :

«السلام عليك ، ايها المغولى العظيم !» وبعد ذلك كان وجهه حليق ذو خيشومين متدليين ، وجه فنان يمشل على الدوام دور العاشق ينحني على كرسي ربة البيت ، ويقول :

- يا عزيزتى كاتيوشا * ، هاتى يدك !
كانت داشا تعتبر اختها الشخص الرئيسى فى هذه الحفلات ، وتحقق على من كان لا يعيرها اهتماما كبيرا ، وهى العذبة ، الطيبة ، الصافية القلب ، وتغار ممن يفرط فى التودد اليها . فتحدثه بعينين غاضبتين .

ثم اخذت داشا تنفذ بالتدرج الى هذا العدد المذمل من الوجوه . فصارت الان تزدري مساعدى المعامين ، اذ لم تر شيئا مهما فيهم عدا سترهم الطويلة الورياء ، واربطتهم البنفسجية ،

* او كاتيا صيغة التحجب والتصغير لاسم يكاترينا . (المترجم) .

ومفارقهم عبر رؤوسهم كلها . كما كرهت الفنان العاشق ، لأنها لم تر له الحق في أن يسمى اختها يكاترينا «كاتيوشا» ولا أن يدعو المغول العظيم بلقبها البيتي هذا ، ولا أن يقول وهو يضيّق عينيه المرتخيتين صوب داشا ، ويجرح كأس الفودكا :

«أشرب نخب شجرة اللوز المفتوحة»

وكانت داشا تتميز غنيظا كلما أقدم الرجل على ذلك .

كانت وجنتاها متوردتين حقا ، ولكنها لم تستطع التخلص من لون زهر شجرة اللوز هذا ، اللون الملعون ، فكانت وهي وراء المائدة تحس وكأنها دمية خشبية ملونة .

ولم تسافر داشا في الصيف إلى ابينا في سامارا المغيرة القائظة ، وقبلت بفرح أن تظل عند اختها على ساحل البحر في سيسترووريتسك . فالتقت هنا بنفس الناس الذين التقت بهم في الشتاء ، لكنهم كانوا يلتقسون أكثر من قبل راكبين القوارب ، سابحين ، جالسين في الغابة يأكلون الدوندرمه . وفي الأماشي كانوا يستمعون إلى الموسيقى ، ويتناولون عشاءهم تحت النجوم ، في شرفة الكازينو مضموضين صاحبين .

وكانت يكاترينا ديمترييفنا قد أوصت لداشا على ثوب أبيض مطرز بالساتان ، يتوسطه نطاق حريري عريض ينتهي بعقدة كبيرة عند ظهريها ، وقبعة كبيرة من الكريشة البيضاء محاطة بشريط أسود . وإذا بداشا تجد نفسها موضع حب تكاتور يوريفيتش كولييتشيك مساعد زوج اختها ، وكأنه فتحوا عيني هذا الرجل قفأة .

إلا أنه كان من «المحترمين» . وتميزت داشا غنيظا ، ودعته إلى الغاية ، ودون أن تتركه يتفوه بكلمة واحدة في الدفاع عن نفسه (كل ما استطاع هو أن مسح بمنديل يشد عليه قبضته) قالت له أنها لن تسمح لأحد بأن ينظر إليها «كأنثى» ، وأنها حانقة ، وتعتبر شخصا ذا مخيلة فاسقة ، وأنها ستشكوه اليوم حالا إلى زوج اختها .

وقد شككت إلى زوج اختها في ذلك المساء ذاته . اصغى نيقولاي إيفانوفيتش إلى قصتها كلها ، وهو يمسد لحيته المعنى بها جيدا ، ناظرا بدهشة إلى وجنتيها المتوردتين من الغيظ ، وإلى

قبعتها الكبيرة المهترئة غنيظا ، وإلى كل قوامها الرشيق في ثوبها الأبيض ، ثم جلس على الرمل عند الماء ، وراح يقهقه حتى أخرج منديله من جيبه ، ومسح به عينيه قائلا :

— أذهبى ، يا داريا ، أذهبى ، ستجعلينى أموت من الضحك !

فانصرفت داشا غير فاهمة شيئا ، في حيرة وارتيباك . ومنذ ذلك الحين لم يجرا كولييتشيك على أن يرفع عينيه إلى داشا ، وقد نحل ومال إلى الوحدة . وانفذ شرف داشا . إلا أن هذه القصة كلها أثارَت فجة مشاعر كانت غافية في أعماق عنزيتها . واختل التوازن الرقيق ، وكان ذاتا أخرى خائفة ، حاملة ، عديمة الشكل ، كربة قد نمت في جسم داشا كله من الرأس حتى أخمص القدم . فاستشعرته بكل جلدها ، وتعذبت وكأنها من دنس ، واستولت عليها الرغبة في أن تزيل عن نفسها نسيم العنكبوت غير المرغى هذا وتعود من جديد غضة ، متبردة ، خفيفة .

وصارت تقضى ساعات بكاملها في لعب التنس ، وتسبح مرتين في اليوم ، وتستيقظ في الصباح الباكر حين تكون قطرات الندى الكبيرة ما تزال متلاثلة على أوراق الشجر ، والبخار يتصاعد من البحر الليلقي ، الصقيل كالمرآة ، المقاعد الندية موزعة على الشرفة الفارغة ، والممرات الرملية الرطبة مكنوسة .

إلا أن تلك الذات الثانية كانت ترتد حية بعد أن تتدفأ في الشمس ، أو في الفراش الناعم ليلا ، وتتسلل إلى قلب داشا بعذر ، وتعصرها بيدها الطرية . وكان من المستحيل اقتضاؤها عنها ، أو إزالتها ، تماما مثل الدم على المفتاح المسحور في حكاية اللحية الزرقاء .

وصار جميع المعارف ، واختها الأولى بينهم ، يرون داشا قد رقت محاسن في هذا الصيف وهي تزداد حسنا كل يوم . وذات صباح جاءت يكاترينا ديمترييفنا إلى شقيقتها ، وقالت :

— ماذا سيكون علينا إن فعل بعد الآن ؟

— ما الأمر ، يا كاتيا ؟

جلست داشا في قميص النوم على السرير ، ولوت شعرها في عقدة كبيرة .

- أنت تزادين حسنا ، فماذا سنفعل بعد هذا ؟

حدقت داشا الى شقيقتها بعينها الصارمتين المظلمتين بزموش طويلة ، واعرضت عنها . ولون الدم وجنتيها واذنها .

- لا اريد ، يا كاتيا ، ان تتحدثي معي على هذا النحو . فان ذلك يضايقني . اتفهمين ؟

جلست يكاترينا دميترييفنا على السرير ، وضغطت خدها على ظهر داشا العاري ، وضحكت مقبلة شقيقتها ما بين دفتي كتفيها . وقالت :

- ما اسرع الغضب اليك ! من انت ؟ قنفذ او هرة برية ؟ ذات مرة ظهر في ساحة التنس رجل انجليزي نحيل ، حليق ، بارز الذقن ، طفولي العينين ، في قيافة لا شائبة فيها جعلت بعض الشبان من بطانة يكاترينا دميترييفنا في جزع من امرهم . دعا الانجليزي داشا الى اللعب ولعب معها كالألة . وبدا للفتاة ان ملاعبها لم يلق نظرة عليها خلال اللعب كله . بل كان ينظر خلالها . وخسرت داشا اللعبة ، وعرضت عليه ان يلاعبها مرة اخرى . طوت داشا كمي بلوزتها البيضاء لتكون اخف حركة . وخلال اللعب تدلت خصلة شعر من تحت طاقيتها من البيكة ، ولكن داشا لم تعدها الى موضعها . وفكرت في سرها وهي تصد الكرة بضربة قوية قرب الشبكة تماما :

«للفتاة الروسية البارعة رشاقة لا تلمح في كل حركاتها ، وتورد الوجنتين يلائم مجيها» .

وربح الانجليزي اللعبة الثانية ايضا ، وانحنى لداشا بمنتهى الجفاف . واشعل سيكارة شذية الرائحة ، وجلس على مقربة ، بعد ان طلب لنفسه قنحا من شراب الليمون .

ولعبت داشا اللعبة الثالثة مع طالب مدرسة مشهور ، فكانت اثناء اللعب تلقى من طرف عينيتها نظرات على الانجليزي ، فتراه جالسا وراء طاولة صغيرة وقد وضع ساقا على ساق وطوق بيديه رسغ قدمه بجوربها الحريري ، ودفع قبعة القش الى مؤخرة راسه ، وراح يحدق في البحر دون التفات .

وفي الليل ، حين كانت داشا مضطجعة على سريرها استرجعت كل ذلك ، متصورة نفسها بوضوح وهي تقفر في ساحة اللعب ،

محجرة الوجه ، متهدلة خصلة الشعر ، فاذا بها تبكي من كبريائها الجريفة ، ومن شيء آخر كان اقوى منها .

وكفت عن الخروج الى التنس منذ ذلك اليوم ، حتى قالت لها يكاترينا دميترييفنا ذات مرة :

- يا داشا ، ان مستر بيلس يسأل عنك كل يوم لماذا كفت عن اللعب ؟

فغرت داشا فاما من شدة الفزع . ثم قالت حانقة انها لا تريد ان تسمع «اقاويل حقا» ، وانها لا تعرف شخصا بهذا الاسم ، ولا تريد ان تعرف ، وهو ، بصراحة ، وقع اذا كان يتصور انها بسببه قد كفت عن الاشتراك في «لعب التنس الحقا هههه» . ورفضت داشا الخروج الى الغداء ، ووضعت في جيبيها خبزا وحيات من عنب المتعب ، وخرجت الى العابة . وبينما كانت تمشي في ذلك الحرش الصنوبري الفواح برائحة صمغ حار ، بين الاشجار الطويلة الحمراء الجذوع واعاليها المتمايلة مع خفيف الريح قررت مع نفسها ان اية امكانية لم تبق للتمادي في اخفاء الحقيقة المؤسفة : غراها بالانجليزي ، وتعاسمتها اليانسة .

وهكذا نما الشخص الثاني في نفس داشا ، ورافعا راسه شيئا قشينا . في بسادي الامر كان وجوده كبريا كالدنس ، مؤلما كالدمار . وبعد ذلك عودت داشا هذه الحالة المعقدة ، مثلما تعود النساء في الشتاء على المشد والثياب السمميكة بعد انتباه الصيف والتنسيم الطري ، والماء المنعش ببرودته .

وقضت داشا اسبوعين في حبها الأنوف للانجليزي . كانت تكره نفسها ، وتحقق على هذا الرجل . وقد رآته عدة مرات ممن بعيد يلعب التنس بتكاسل وبراعة ، ويتعشى مع البحارة الروس ، فكانت تقول لنفسها انه اكثر رجال الارض جاذبية على الاطلاق . الا ان فتاة قارعة الطول نحيلة ترتدي لباسا من الفانيلة البيضاء ظهرت الى جانبه فجأة . انها خطيبته الانجليزية . واذا بهما يرحلان . وقضت داشا ليلة مؤرقة ، وبغضت نفسها بغضا مشوبا باشمزاز ضار . وقبيل الصباح قالت لنفسها : لتكن هذه آخر غلطة في حياتي .

وهذات بهذا التفكير ، بل وادهشها ، فيما بعد ، ان يزول

كل ذلك يمثل هذه السرعة والسهولة . ولكن لم يزل كل شيء ، فقد اوضحت تحس الآن وكان «الشخص الثاني» ذاك قد اندمج فيها ، وذاب في داخلها ، واختفى ، وهي الآن فتاة أخرى : انها كما كانت من قبل خفيفة ، غضة ، ولكن كيانها كله كانا اضحى اطرى وارقي ، واكثر غموضا ، وبشرتها اوضحت اشرف ، حتى انها لم تعرف على وجهها في المرآة . ثم ان عينها بوجه خاص ، عينيهما الراضعتين اوضحتا عينين أخريين ، اذا نظر المرء فيها صعد الدوار الى راسه . في اواسط آب انتقل آل سموكوفنيكوف مع داشا الى شقتها الكبيرة في شارع بانتليمونوفسكايا بطرسبورغ . وعادت من جديد حفلات العشاء أيام الثلاثاء ، ومعارض الصور او حفلات العرض الاول الصاخبة في المسارح ، ودعواى الفضائح في المحاكم ، وشراء اللوحات ، وتفخيخ الماضي ، والرحلات الليلية الى العجر في مطعم «سمرقتند» . وظهر الفنان العاشق من جديد وقد لقي عن جسمه في مصح المياه المعدنية ثلاثة وعشرين رطلا . وازيغت في كل هذه المسرات الالغية شائعات مبهمة ، مثيرة وسارة عن حدوث تحول وشيك .

ولم يعد لداشا متسع من الوقت للتفكير ولا للشعور : في الصباح كانت تختلف الى المحاضرات ، وفي الساعة ، الرابعة تخرج للتنزه مع اختها ، وفي المساء للمسارح والحفلات الموسيقية ، والدعوات الى العشاء ، والناس ، ولا ذقينة واحدة تخلو فيها الى نفسها .

وفي امسية من امسيات الثلاثاء ، بعد ان فرغ الضيوف من العشاء ، وراحوا يحسون خمرة «الليكور» دخل الكسى الكسييفيتش بيسونوف غرفة الجلوس ، ولما وقع بصر يكاترينا دميترييفنا عليه قرب الباب صبغت وجهها حمرة قانية . وقطع الضيوف حديثهم المشترك . جلس بيسونوف على الأريكة ، وتناول فنجان القهوة من يد يكاترينا دميترييفنا .

جلس بالقرب منه مجاميان ، هما من المتضلعين في الادب ، الا ان بيسونوف ابتدر يقول على غرة ، وهو يرمق ربة البيت بنظرة طويلة غريبة ، ان الفن لا وجود له على الاطلاق ، بل هناك دجل ، وشموذة جاو يجعل قردا يتسلق السماء على حبل .

«ولا يوجد شعر ، ان كل شيء قد انقرض منذ زمان قديم : الناس ، والفن . اما روسيا فهي فطيسة يحوم عليها سرب من الغربان في وليمة للغربان . وجميع الذين يكتبون الشعر سيبدخلون جهنم» .

كان يتكلم بصوت واطى الثبرة خال من الرنين ، وتسودت بقعنان على وجهه العائق الشاحب . وكانت باقة قميصه مدعوكه ، ورماد السيكائر متناثرا على سترته . وكانت القهوة تنسكب على البساط من القدح الصغير الذى يسكه .

كان متضلعا الادب يريدان اثارة جدال ، الا ان بيسونوف ظل يتابع يكاترينا دميترييفنا بعينين غشمتها دكنسة ، دون ان يعيرها التفاتا . ثم نهض وتقدم نحوها ، وسمعت داشا قوله :

— انا لا اطيق مجتمع الناس ، فاسمحي لى بالانصراف . طلبت اليه يكاترينا دميترييفنا بوجل ان يقرأ شيئا . فنهز راسه . ووقف طويلا ضالضا يدها الى شفتيه . يودعها ، حتى احمر ظهرها احمرارا شديدا .

وبدا النقاش بعد انصرافه . اجمع الرجال على ان : هناك حدودا ، على اية حال ، ولا يجوز له ان يتقرر مجتمعنا بهذا الشكل السافر . وتنقل الناقدة تشرفا من واحد الى آخر ، وهو يكرر : «ايها السادة ، انه سكران قليلا» . واتفقت السيدات على ان «بيسونوف سواء اكان سكران ام منساقا مع مزاجه الخاص فانه رجل مثير على حد سواء ، وليكن ذلك معلوما للجميع» .

في اليوم التالى قالت داشا عند الغداء انها تعتبر بيسونوف واحدا ممن اولئك الاشخاص «العقبيين» تعيش حلقة يكاترينا دميترييفنا باسرها على انفعالاته ، واثامه ، وذوقه ، وكانها على الضوء المنعكس منه . «انا افهم ، يا كاتيا ، ان مثل هذا الرجل يمكن ان يفقد المرأة صوابها» .

ارتبك نيولاي ايفانوفيتش وقال : «مجرد ان شهرته قد صعدت ، يا داشا» . واعتصمت يكاترينا دميترييفنا بالصمت . ومنذ ذلك الحين لم يزر بيسونوف آل سموكوفنيكوف . وشاع انه يطيل البقاء في غرفة الممثلة تشاراديفا وراء كواليس المسرح . وذهب كوليشتشيك مع اصحابه ليروا تشاراديفا نفسها ، فاصبوا

بخيبة ظن ، فقد كانت تحيلة كالهيكال العظمى مجرد تنسورات
مدتلة .

ذات مرة التقت داشا ببيسونوف في احد المعارض . كان
واقفا عند النافذة يتصفح فهرس المعرض بلا مبالاة ، بينما وقفت
امامه طالبتان قميمتان تنظران اليه باهتمامين خامدتين ، وكانها
امام تمثال في متحف الشمع . مرت داشا به بطيئة الغلطي ، ودخلت
القاعة الأخرى وجلست على مقعد ، فقد شعرت بتعب في قدميها ،
وبكتابة .

وبعد هذا الحادث اشترت داشا تصوير ببيسونوف ، ووضعت
على الطاولة . وقصائده - المجموعة في ثلاثة دواوين صغيرة بيضاء
الغلاف - قد تركت في نفسها بادي الأمر شعورا بالتسمم : قضت
ثلاثة ايام غير متمالكة شعورها ، وكانها اوضحت شريكه في قضية
سرية خبيثة . الا انها بعد ان اعادت قراءة قصائده صارت تجد
متعة في تلك الاحاسيس الموجعة بالذات وكان احدا يهمس لها
داعيا اياها لان تفقد صوابها وترتخي ، وتنتثر شيئا ما غاليا ،
وتجن الى شيء لن يكون .

وبسبب ببيسونوف اخذت تتردد على جمعية «الاسميات
الفلسفية» . وكان ببيسونوف يأتي الى الجمعية في وقت متأخر ،
ويتحدث بندرة . الا ان داشا كانت تعود الى البيت في كل مسرة
مستثارة وكانت مسرورة اذا رأت في البيت ضيوفها . صمعت
كبرياؤها المهانة .

واليوم كان عليها ان تسترجع الحان سكريابين في وحدة .
كانت الأصوات ، كالكرات الثلجية ، تتساقط ببطء في داخل
صندوقها ، نافذة الى اعماق تلك البحيرة المظلمة التي لا قعر لها .
وحيث كانت تسقط كانت تغضن سطح الماء وتفرق . ويصير الماء
بين مد وجزر ، وفي الظلمة الساخنة ، يدق القلب دقا اجوف
مذعورا ، وكان شيئا مستحجلا سيحدث عاجلا ، الآن ، في هذه
الحظة .

ارخت داشا ذراعها على ركبتها ، ورفعت رأسها . في الضوء
الهادئ لظليله المصباح البرتقالية كانت وجهه قرمزية ، منتفخة ،
ذات عيون جاحظة تطل من الجدران ، وكانها اشباح فوضى منا

قيل الطوفان ، المتشبهة بعطش بسياج جنة عدن في اليوم الاول
للخليقة .

قالت داشا لنفسها : « نعم ، يا مولاتي ، ان قضيتنا
لغائرة» . وتحركت اصابعها سريعة في سلم موسيقي من اليسار الى
اليمنى ، ثم انزلت غطاء البيانو دون ان تحدث صوتا ، واخرجت
سيكارة من علبة يابانية ، واشعلتها . وسعلت ، وسحقتها في
التفأضة .

صاحت داشا بصوت يمكن ان يسمع عبر اربع حجرات :

- يا نيقولاى ايفانوفيتش ، كم الساعة ؟

سقط شيء في المكتب ، ولم تتلق داشا جوابا . ظهرت
«المغولى العظيم» ، واعلنت ، وهي تتطلع الى نفسها في المرآة ،
ان العشاء جاهز .

جلست داشا في غرفة الطعام امام زهرية فيها زهور ذابلية .
واخذت تقطعها باصبعها فتتساقط اوراقها على مفرش المساندة .
قدمت «المغولى العظيم» الشاي ، واللحم البارد ، والبيض المقل ،
واخيرا جاء نيقولاى ايفانوفيتش في بدلة زرقاء جديدة ، ولكنها بدون
ياقة . وكان شعره غير مصفف ، ولحيته مائلة الى اليسار ، وقد
تعلقت فيها ريشة من وسادة الاريكة .

انحنى نيقولاى ايفانوفيتش لداشا عابسا ، وجلس في طرف
المائدة ، وقرب منه مقلاة البيض ، وشرع ياكل بنهم .

وبعد ذلك اسند مرفقه الى حافة المائدة ، ووضع خده على
قبضته الكبيرة المشعرة ، وثبت عينيه غير الرائيتين الى كومة الوريقات
المقطوعة ، وقال بصوت واطى غير طبيعي تقريبا :

- في الليلة الماضية خانتني اختك .

٤

ان شقيقتها ، كاتيا ، اقرتفت شيئا رهيبا ، غامضا ، اسود .
في الليلة الماضية استقر رأسها على وسادة ، وقد اعرض عن كل
شيء ، حتى ، عزيز ، دافى ، بينما انسحق جسدها ، وتشوه . على هذا

النحو فهمت داشا ، وهي ترتعش فزعاً ، ما سماه نيقولاى ايفانوفيتش خيانة . وفوق كل ذلك لم تكن كاتيا فى البيت ، كأنما لم يعد لها وجود فى الدنيا .

فى الدقيقة الاولى كادت داشا تغيب عن الوجود ، واطلم بصرها . وانتظرت مكتومة الانفاس ان ينفجر نيقولاى ايفانوفيتش منتحبا ، او يصرخ بشى مغزع . الا انه لم يصف كلمة اخرى الى ما اعلمه ، وراح يدير بين اصابعه حمالة الشوكات . ولم تجرؤ داشا على النظر فى وجهه .

وبعد فترة طويلة من الصمت دفع الكرسي عن المائدة بحركة حادة وذهب الى مكتبه . وقالت داشا لنفسها : «سيطلق النار على نفسه» . ولكن هذا ايضا لم يحدث . وتذكرت داشا بأسف حاد خاطف يده الكبيرة المشعرة على المائدة . ثم اختفى عن بصرها ، وظلت داشا تكرر : «ما العمل ؟ ما العمل ؟» ورن فى رأسها ؛ كل شىء ، كل شىء قد فسد وتحطم .

ظهرت «المغولى العظيم» من وراء ستارة الجوخ تحمل صينية ؛ نظرت داشا اليها ، وادركت فى الحال ان «المغولى العظيم» لن تكون بعد الا ان . فاضت دموعها من عينيها ، وصكت اسنانها بقوة ، وركضت الى غرفة الجلوس .

هنا ، كانت كل الاشياء ، حتى اصغر الدقائق ، قد رتبته ، وصفتها يسدا كاتيا فى رعاية وحب . الا ان روح كاتيا قد غادرت هذه الغرفة ، وانقلب كل شىء فيها حوشيا وخاليا من الحياة . جلست داشا على الأريكة ، واستقر بصرها بالتدريج على لوحة اشترت منذ وقت قصير . ولأول مرة رأت داشا وفهمت ما كان مرسوما فيها .

كانت اللوحة تصور امرأة عارية رسمت بلون احمر متقبح ، وكان جلدھا مسلوخ . فيها منحرف الى جانب ، وفى موضع انفها ثقب مثلث ، ورأسها مربع ، وقد الصقت بها قطعة قماش . والساقان مثل خشبتين مستديرتين منفصلتين . وفى اليدين زهرة . وبقية التفاصيل فظيعة . واطلع ما فى اللوحة الركن البنى الكدر الذى جلست فيه المرأة منفرجة الساقين . وقد اطلق على اللوحة اسم «حب» . وكانت كاتيا تسميها فينوس الحديثة .

«لهذا السبب ، اذن ، كانت كاتيا معجبة كثيرا بهذه الأنتى الفاسقة . وهى الآن مثلها ، تحمل وردة فى ركن» . انبطحت داشا ، ووجهها الى الوسادة ، واخذت تبكي عاضة على شفتيها لتكتم صوت بكائها . وبعد برهة من الوقت دخل نيقولاى ايفانوفيتش غرفة الجلوس . باعد بين ساقيه ، وراح يضرب زناد قداحته فى غضب ، وتقدم من البيانو واخذ يدق على مفاتيحه . واذا بدقانه تحول فجأة الى اغنية بسيطة . وشعرت داشا ببرودة تسرى فى اوصالها . صفق نيقولاى ايفانوفيتش غطاء البيانو ، وقال :

— كان يجب توقع ذلك .

اعادت داشا هذه الجملة فى سرها عدة مرات ، ومحاولة ان تفهم معناها . وفجأة رن الجرس رنة حادة فى السرواق . امسك نيقولاى ايفانوفيتش لحيته ، الا انه قال بصوت مكتوم : «او - او او» . ولم يفعل شيئا سوى انه اسرع فى الدخول الى مكتبه . وارسلت خطوات «المغولى العظيم» فى الدهليز صوتا مثل صوت الحوافر . ووثبت داشا من الأريكة . غامت الدنيا امام عينيها ، وقلبها يخفق بشدة ، وخرجت الى الرواق .

كانت يكاترينا دميترييفنا هناك تفك الاشرطة الليلقبيصة لقلنسوتها الفرائية بأصابع خدرها البرد ، وكانت تغضن انفها . عرضت لاختها غذاها المتورد البارد لتقبله ، الا انها لم تتلق القبله المرجوة فنفضت رأسها لتلقى القلنسوة عنه ، وتفرست عيناها الرماديتان باختها . وسالت بصوتها الواطى العميق العذب الفاتن ايدا :

— هل حدث شىء عندكم ؟ هل تشاجرتما ؟

اخذت داشا تنظر الى كالوش نيقولاى ايفانوفيتش الجلدى ، وكان يسمى فى البيت بـ«الكالوش المتحرك بذاته» . وكان فى تلك اللحظة يقبع مهملًا ، وارتعش ذقن داشا .

— لا ، لم يحدث شىء . مجرد مزاج .

فكث يكاترينا دميترييفنا بيده الازرار الكبيرة على معطفها من فراء السنجاب ونضته عنها بحركة من كتفيها العاريتين ، وها هي بكليلتها دافئة ، حنون ، تعبى . وانختت بشدة لتفك حذاءها الطويل ، وقالت :

- تبيللت قدماي ، وانا ابحت عن سيطرة .

عندئذ سألت داشا بحدّة ، وهي مستمرة في النظر الى كالوش
نيقولاي ايغانوفيتش :

- اين كنت ، يا كاتيا ؟

- في عشاء ادبي ، يا عزيزتي ، تكرّما لشخص لا اعرف حتى
اسمه ، قسما بالله . نفس النمط . انا تعبّة الى حد الاعياء ، واريده
ان انام .

ودخلت غرفة الطعام . واثقت حقيقتها الجلدية على المفروش ،
ومسحت انفها الصغير بمندبليها ، وسألت :

- من قطع وريقات الزهور ؟ واين نيقولاي ايغانوفيتش ؟
اهو نائم ؟

وتملك الحيرة داشا ، فان شقيقتها لا تشبه المرأة الفاسقة
في اللوحة مطلقا ، ولم تكن غريبة عليها ، بل وهي اليوم ، لسبب
ما ، اقرب اليها من اي وقت مضى ، حتى لودت لو تمسد عليها
بكليتها .

ومع ذلك فقد قالت داشا بكل ما في روحها من حُضور ،
واظفراها يغدس المفروش في الموضوع الذي تناول فيه نيقولاي
ايغانوفيتش البيض العقل قبل نصف ساعة :

- يا كاتيا !

- ماذا ، يا عزيزتي ؟

- انا اعرف كل شيء .

- ماذا تعرفين ؟ بالله ، ما الذي حصل ؟

وجلست يكاترينا دميترييفنا الى المائدة ، ماسّة بركيبتها
وسألت داشا ، متطلعة اليها بفضول من الاسفل الى الاعلى .

قالت داشا :

- كسفت لي نيقولاي ايغانوفيتش كل شيء .

ولم تنظر الى وجه شقيقتها ، لترى ما يعصف في داخلها .
وبعد صمت طويل جدا يكاد يفتك بالنفس قالت يكاترينا

دميترييفنا بصوت حائق :

- اي خبر عاصف اعلن نيقولاي ايغانوفيتش ؟

- انت تعرفين ، يا كاتيا .

- لا ، لا اعرف .

وقد قامت بـ«لا اعرف» هذه ، وكان كرة ثلجية تكورت من
هذه الكلمة .

وفي الحال هوت داشا على قدميها :

- اذن ، فقد يكون ذلك غير صحيح ؟ كاتيا ، يا عزيزتي ،
ويا مهجتي ، يا شقيقتي الجميلة . قولي لي : كل ذلك غير صحيح ؟
وغطت داشا بالقبيل السريعة يد كاتيا الرقيقة ، العابضة
بالعطر ، ذات العروق الزرقاء كالجداول .

اجابت يكاترينا دميترييفنا ، مغمضة عينيها في وني :

- غير صحيح ، طبعا . وها انت تبكين فورا . وغدا ستصبح
عيناك حمراوين ، وانفك منفوخا .

ورفعت داشا ، وظلت تطبق شفيتها على شعرها طويلا .
وهمست داشا في صدرها :

- انا حمقا !

وفي تلك اللحظة صدر صوت نيقولاي ايغانوفيتش العالي
الواضح من وراء باب مكتبه :

- انها تكذب !

التفتت الشقيقتان فجأة ، الا ان باب المكتب كان مغلقا .
قالت يكاترينا دميترييفنا :

- لذعبي للنوم يا صغيرتي ، اما انا فذاهبة لاستوضح
الأمر . يا له من أمر ممتع ، وانا لا اكاد اقف على قدمي .

رافقت داشا الى غرفتها ، وقبلتها ساهمة ، ثم عادت الى
غرفة الطعام ، فاخترت محفظتها ، وعدلت من وضع المشط على
راسها ، ودقت باب المكتب باصبعها بهدوء .

- افتح ، نيقولاي ، ارجوك .

الا انها لم تتلق جوابا . كان صمت منحوس ، اعقبه نخير
من انف ، وقلقلة مفتاح ، ودخلت يكاترينا دميترييفنا ، فرأت ظهر
زوجها العريض . لم يلتفت اليها ، بل سار نحو الطاولة ، وجلس

في المقعد الجلدي ، وتناول سكيننا من عظم العاج ، ومرره بحدّة
على كتاب (هو رواية فاسيرمان «رجل الاربعين»)

فعل كل ذلك وكان يكاترينا دميترييفنا لم تكن في الغرفة . جلست يكاترينا دميترييفنا على الأريكة ، وجذبت تنورتها على ساقها ، واخفت منديلها في المحفظة ، وسدت قفلها . وبتلك الحركة ارتجفت خصلة الشعر على هامة نيقولاى ايفانوفيتش .

قالت يكاترينا دميترييفنا :
- شئ واحد لا أفهمه . انت حر في ان تظن ما تشاء من الظنون ، ولكنى ارجو الا تشرك داشا في امرجتك .

عندئذ استردا على مقعده بحمية ، ومد رقبته ولحيته ، وقال من خلال اسنانه :

- اذن ، عندك الوقاحة الكافية لتسمى ذلك مزاجى ؟

- انا لا افهم .

- رائع ! لا تفهمين ؟ اما ان تتصرفى كأمراة رخيصة ، فانت

تفهمين ، كما يبدو ؟

فتحت يكاترينا دميترييفنا فمها قليلا عند سماعها هذه الكلمات . وقالت بهدوء وهى تنظر اى وجه زوجها المحمر بشدة حتى تضمد بالعرق وجهه المشوه غيظا :

- قل لى : متى بدأت تتحدث معى بهذه اللهجة المهينة ؟

- ارجو المعذرة ، يا مولاتى ! ولكننى لا اجد التحدث

بلهجة اخرى . وباختصار اود لو اعرف التفاصيل .

- اية تفاصيل ؟

- لا تكذبى على فى وجهى .

- هذا ما تعنيه اذن ، - قالت ذلك ، وتقلبت عينها

الوسيعتان وكان ذلك من منتهى التعب ، - اليوم قلت لك شيئا ما . . . ونسيتته مطلقا .

- اريد ان اعرف مع من حصل ذلك .

- انا لا اعرف .

- مرة اخرى ارجو الا تكذبى . . .

- انا لا اكذب . ولا داعى للكذب عليك . ولكننى قلت . وما

اكثر ما اقول ساعة الغضب ! قلت ، ونسيت .

خلال هذا الكلام كان وجه نيقولاى ايفانوفيتش جامدا كالبحر ، الا ان قلبه غاص ووجب من الفرح : «حمدا لله ، كانت تكذب على

نفسها» . والآن كان من الممكن بامان ان يتظاهر فى صخب بانه لا يصدق شيئا تنفيسا عن كرب قلبه .

نهض من مقعده ، وراح يتمشى على البساط ، متوقفا بين الحين والآخر ، شاقا الهواء بضربات من سكينه العاجية ، وهو يتحدث عن سقوط العائلة ، وفساد الخلق ، وعن الواجبات المقدسة المهمة الآن ، واجبات المرأة - الزوجة ، ام اولادها ، ومساعدة زوجها . ولام يكاترينا دميترييفنا على خواتمها الروعى ، وعلى تبذيرها الأهرج للنقود المكتسبة بالدم (صححت يكاترينا دميترييفنا : «ليس بالدم ، بل بتحرك اللسان») . لا ، بل وأكثر من الدم ، بحرق الاعصاب . ووبخها على عدم عنايتها باختيار الاصحاب ، وانعدام الترتيب فى البيت ، وولعها «بتلك البلهاء» الغولى العظيم ، وحتى «اللوحات التى تثير قرفى فى غرفة جلوسك المبتذلة» .

وباختصار ، نفس نيقولاى ايفانوفيتش عما فى صدره . تجاوزت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل . وعندما بح صوت الزوج وصمت ، قالت يكاترينا دميترييفنا :

- لا يمكن ان يكون هناك ابغض من رجل سمين وهستبرى . ونهضت ، ودخلت مخدعها .

الا ان نيقولاى ايفانوفيتش لم يتكدر الآن حتى من هذه الكلمات . خلع ملابسه ببطء ، وعلقها على ظهر المقعد ، ودور الساعة ، واندمس فى الفراش النظيف المفروش على الأريكة الجلدية ، وارسل زفرة خفيفة .

فكر وهو يفتح كتابا ليهدي نفسه بالقراءة انتظارا للنوم : «اجل ، ان نمط حياتنا ردى . ويجب ان تعيد تنظيم حياتنا كلها . مؤلم ، مؤلم» . الا انه انزل الكتاب فى اللحظة التالية ، وارغف سمعه . كان الهدوء يسود البيت . مخط شخص من انفه ، فوجب قلبه لهذا الصوت . وفكر مع نفسه : «انها تبكى ، اى ، اى . يبدو اننى تعاديت فى القول» .

وعندما اخذ يسترجع كل حوارهما ، وتمثل كاتيا جالسة تصغى ، اخذه الاشفاق عليها . رفع جسمه على كوعه ، واستعد

للخروج من تحت الدثار ، الا انه شعر باسترخاء يدب في جسمه كله ، وكأنه من تعب ايام كثيرة ، فالتقى راسه على الوسادة ، وغفا . خلعت داشا ملابسها في غرفتها النظيفة المرتبة ، واخرجت المشط من شعرها ، وهزت راسها حتى تطايرت دبابيس الشعر فورا ، وانسلت في فراشها الأبيض ، وسحبت الغطاء حتى ذقتها ، وقلصت عينها ، وقالت لنفسها : «شكرا لله ، كل شيء على ما يرام ! وليس لي الآن ما يشغل بالي ، فلأنم» . وتصورت امامها وجها صغيرا مضحكا . فابتسمت ، وعكفت ركبتيها قليلا ، وطلقت الوسادة . وغشمتها سئنة لذبة مظلمة من النوم ، وفي الحال ترددت في ذاكرتها صوت كاتيا بوضوح : «غير صحيح ، طبعاً» . فتحت داشا عينها ، «لم اقل لكاتيا كلمة واحدة . سألتها فقط : صحيح ام غير صحيح . فاجابتنى وكأننا كانت تفهم تماما مدار الحديث» . وكان الوعي يوخز جسمها كله وخز الأبر : «هدعتنى كاتيا !» ، وبعد ان تذكرت كل دقائق الحديث ، وكلمات كاتيا وحركانها رأت بوضوح ان في الأمر خدعة حقا . واحسنت داشا بصدمة . لقد خانت كاتيا زوجها ، ولكنها بعد اقتراف خيانتها ، وانماها ، وكذبها ، اصبحت اكثر فتنة . والأعمى وحده لا يستطيع ان يلحظ فيها شيئا جديدا ، ورقة وافية ذات نكهة خاصة . وهي تكذب بطريقة تأخذ باللب ، تغري بالحب . ولكنها جانية . انا لا افهم شيئا ، لا افهم . وقلقت داشا وتحررت . شربت ماء ، واشعلت المصباح ، ثم اطفأته ثانية ، وظلت تتقلب على الفراش حتى الصباح شاعرة بأنها لا تستطيع ان تدبر كاتيا ، ولا تدرك ما اقترفته .

ولم تستطع يكاترينا ديمتريفنا ايضا ان تغفو في تلك الليلة . انطرحت على ظهرها خائرة القوى ، ملقبة ذراعها فوق الدثار الحريري ، وبكت ، دون ان تسمح دموعها ، على احساس مبهم في نفسها سني ، وغير نظيف ، ولكنها غير قادرة على ان تغير من الأمر شيئا ، ولأنها لن تكون مثل داشا ابدا متقدمة العاطفة وقوية الخلق ، كما بكت لأن نيقولاى ايفانوفيتش نعتها بالمرأة الرخيصة ، ووصف غرفة الجلوس بالابتذال . وبكت مر البكاء لأن الكسى الكسيسيفيتش بيسونوف اخذها في منتصف الليلة الماضية على عربة سريعة الخيول الى فندق خارج المدينة ،

وهناك امتلكها غير عارف ، ولا محب ، ولا شاعر بكل ما كان قريبا اليها ، عزيزا عليها ، امتلكها بتماهل وترف وكانها دمية وردية ، من تلك الدمى الموضوعة في مخزن مدام دوكلية للازياء الباريسية في شارع مورسكايا .

٥

اتخذت جمعية اطلقت على نفسها اسم «المجمع المركزي لمكافحة العرف السائد» مقرا لها في شقة المهندس ايفان ايليتش تليغين في الطابق الخامس من بيت حديث البناء في الشارع التاسع عشر في جزيرة فاسيليفسكي .

وكان تليغين قد استأجر هذه الشقة «للسكن» لمدة عام ، يسعر مخفض . فخصص له غرفة واحدة . اما سائر الغرف الموثنة بأسرة حديدية ومناضد ومقاعد من خشب الصنوبر فقد خصصت للمستأجرين من «العزاب ايضا ، وعشاق المرح حتما» . ولم يجد صديقه وزميل صفه السابق السابق سيرغى سيرغيفيتش سابوجكوف كبير عناء في ان يوفى هؤلاء له .

فسكن الشقة طالب كلية الحقوق الكسندر ايفانوفيتش جيروف ، والمخبر الصحفي انتوشكا ارنولدوف ، والرسام فاليت ، والأنسة الشاببة يلزافيتا راستورغوييفا ، التي لم تجد حتى الآن مشاغل على ذوقها .

كان نزلاء الشقة يستيقظون في وقت متأخر - ساعة عودة تليغين من المصنع لتناول فطوره ، وكان كل واحد منهم يقبل على عمله متعاهلا . كان انتوشكا ارنولدوف يستقل الترام الى مقهى في جادة نيفسكي ، ليعرف آخر الأخبار ، ثم يذهب الى مقر جريدته ، ويجلس قاليت في العادة ليرمم صورة شخصية له . ويعلق سابوجكوف عليه الباب ليعد خطبا ومقالات عن الفن الجديد . وكان جيروف ينسل الى غرفة يلزافيتا كيفيتنا ، ويناقش معها امور الحياة بصوت ناعم كاللواء . وكان يكتب اشعرا ، ولكن كبريائه تآبى عليه ان يطلع احدا عليها . وكانت يلزافيتا كيفيتنا تعتبره نايغة .

كل الخرافات . منذ الآن لن يكون هناك وجود للفضائل . تلغى العائلة والاعراف الاجتماعية ، وغقد الزواج . اننا نطالب بذلك . يجب على الانسان ، امرأة كان او رجلا ، ان يكون عاريا طليقا . والعلاقات الجنسية ملك للمجتمع . ايها الشباب والشابات ، ايها الرجال والنساء اخرجوا من جحوركم ، واطلعوا عراة سعادا الى الرقص تحت شمس الحيوان المتوحش ! ..»

وبعد ذلك قال سابوجكوف ان الضرورة تستدعي اصدار مجلة مستقبلية باسم «طبق الآلهة» سيقدم تليغين قسما من المال الصروف عليها ، والقسم الآخر يجب ان يتوزع من فوكو البرجوازيين و المجموع ثلاثة آلاف روبل .

وعلى هذا النحو اسس «المجمع المركزي لمكافحة العرف السائد» ، والاسم من ابتكار تليغين الذي ضحك بشدة من مشروع سابوجكوف ، حين عاد من المصنع . وجرى في الحال الاعداد لاصدار العدد الاول من «طبق الآلهة» . قدم بعض رعاة الفنون الاغنياء ، والمحاميين ، وحتى ساشكا ساكيلمان نفسه المبلغ المطلوب - ثلاثة آلاف روبل ، ووصى بطبع استمارات على اوراق لثف تحمل اسما غريبا هو «المركز النايد» ، وبدأت الدعوات توجيه الى المحررين اللازمين ، وصارت المواد تجمع للمجلة . واقترح الرسام فاليت ان تشوه جدران حجرة سابوجكوف التي حولت الى مقر لهيئة التحرير ، بالرسوم الماجنة . فرسم على الجدران اثنتي عشرة صورة شخصية له ، ونوقشت مسألة تأثيث الغرفة مناقشة طويلة ، واخيرا اخلت الفرقة الا من طاولة كبيرة الصقت عليها اوراق مذهبة .

وبعد صدور العدد الاول من المجلة بدأ الناس في المدينة يتحدثون عن «طبق الآلهة» . فأعلن البعض عن سخطه ، واكد آخرون على ان الامر ليس بالبساطة الذي يبدو فيها ، وفي المستقبل القريب قد تودع اعمال بوشكين في الارشيف . واصيب الناقد تشيرفا بالذهول ، فقد تعت في «طبق الآلهة» بالوعد . واسرعت يكاترينا دعبتريفينا بالاشتراك في المجلة لسنة كاملة ، وعزمت على ان تنظم عشاء يوم ثلاثاء مع المستقبلين .

اوفد «المجمع المركزي» سيرغي سيرغيفيتش سابوجكوف للعشاء في بيت سموكونفيكوف . فجاد مرديا ستررة طويلة قذرة

كانت يلزافيتا كييفنا ، الى جانب احاديثها مع جيروف والنزلاء الآخرين تحرك من صوف متعدد الالوان اشربة طويلة لا تنفص لأغراض محددة ، وتغنى بصوت عميق قوى زائف اغاني اوكرانية ، او تبتكر لنفسها تصفيقات شعر غير مالوفة ، او تكف عن الغناء ، وتفل شعرها ، وتستلقى على السرير تطالع كتابا ، وتغفر في المطالعة حتى تصاب بصداع . ويلزافيتا كييفنا جميلة فارعة موردة الخدين ، تبدو عيناها التصيرات النظر وكانها مرسومتان على صلحة وجهها ، وملابسها لا تنم عن ذوق ، فكانت موضع نقد حتى من نزلاء شقة تليغين .

حين كان يظهر شخص جديد في البيت كانت تدعوها الى غرفتها ، ويبدأ حديث يدير الراس ، قائم بكليته على التظرف في الحدود ، وبعد ذلك كانت تستدرج محدثها لتعرف هل هو متعطش الى الجريمة ؟ وهل هو مقتدر على القتل ، مثلا ؟ وهل يستشعر في نفسه «التحريض الذاتي» ؟ فقد كانت تعتبر هذه الخاصية علامة على روعة الانسان .

بل ان نزلاء شقة تليغين علقوا هذه الاسئلة على باب غرفتها ، لقد كانت يلزافيتا كييفنا ، عموما ، فتاة غير راضية ، وكانت دائما تتوقع «تعولات» و«احداثا مروعة» تجعل الحياة جذابة تعاش بكل كيان الانسان ، بدلا من الملل قرب نافذة صغيرة اعتمها العطر .

وكان تليغين نفسه يجد غير قليل من التسلية في مرابضة نزلاءه ، ويعتبرهم جماعة من الممتازين وذوى الصبوات ، الا انه لم يشترك في ملاحظتهم الا قليلا ، بسبب قلة الوقت .

وذات يوم في عيد الميلاد جمع سيرغي سيرغيفيتش سابوجكوف نزلاء الشقة ، والقي عليهم الخطبة التالية :

- ايها الرفقاء ، ان اوان العمل قد حان . نحن كثيرون ، ولكننا مبعثرون . واعمالنا حتى الآن تتسم بطابع التشتت والتهيب . وعلينا ان نؤلف فصيلة ، ونسدد ضربة الى المجتمع البرجوازي . ولهذا الغرض ينبغي اول الامر ان نكون من بيننا الجماعة المبادرة ، وبعد ذلك نذبح هذا البيان ، وفيه نقول : «نحن الكولمبسيون الجدد ! نحن الدعاة التوايح ! نحن بذور الانسانية الجديدة ! نحن نطالب المجتمع البرجوازي السابح في الدسم ان ينبذ

من الفستيان الأخضر اخذها بالاستعارة من حلقة المسرح ، وكانت قد استعملت في مسرحية «مانون ليسكو» . واكل بافراط مبالغ فيه في العشاء ، وضحك ضحكا مجلجلا بغیضا حتى لسمعه هو ، وسمى النقاد ، وهو ينظر الى تشريفًا ، «بنات آوى اكلة الفطاس» . بعد ذلك استرخى ، وراح يدخن آعدلا نظارته الانفية على انفه المبلل . وبشكل عام كان الحضور يتوقعون اكثر من ذلك .

بعد صدور العدد الثاني تقرر اقامة حفلات عشاء تحت اسم «التدنیسات الرائعة» . وقد شهدت داشا احدى هذه التدنیسات . ففتح جيروف الباب الامامي لها ، وانشغل بها في الحال . اخذ منها كالوشها ، ومغفلها الفرائس ، بل ورفع خيطا صغيرا كان عالقًا بثوبها من الجوخ . ودهشت داشا لرأعة الكرتب في الرواق . سار جيروف وراها في الممر جنبًا الى مكان التدنیس ، وسألها :

- خیرینی باى العطور تتعطرین ؟ عطر رائع الشذى .

ثم ادتهش داشا رخص كل هذه الجسارة المعلن عنها بضوضاء . حقا لقد كانت تتناثر على الجدران عيون ، وانوف وايد ، وشخص مستهجنه ، وناطحات سحب متهاوية ، وباختصار ، كل ما يؤلف اجزاء صورة فاسيلى فاليت الذى كان واقفا هناك صامتًا ، وعلى خديه رسم خطان منكسران . وكان المضيفون والضيوف - ومن بينهم الشعراء الشبان الذين كانوا يحضرون عشاءات الفلأء في منزل سموكوفنيكوف بمجموعهم تقريبًا - يجلسون على الواح غير مسحوة وموضوعة على كتل خشبية (هبة من تليغين) ، وكانوا يقرأون الشعر باصوات مبالغ في وقاحتها عن سيارات تدب على قبو السماء ، وعن «بضعة على العصاب بالزهري السمارى» ، وعن فكین فتيین كسر بهما الشاعر قباب الكنانس ، كما يكسر الجوز ، وعن جندب غير مفهوم ابدأ لاس معطفا غالبًا يقفز من النافذة الى الرصيف وهو ممسك بمنظار مكبر ودليل سياحة . الا ان كل هذه البشائع بدت لداشا شوهاء . ولم يعجبها بصدق الا تليغين . تقدم منها اثناء الحديث ، وسألها بابتسامة حيية عما اذا كانت تريد شايًا وشطائر .

- الشای والسجق عندنا اعتياديان ، يعنى جيدان .

كان وجهه ملوحًا ، حليقًا ، عليه مسحة من السذاجة ، اما عيناه الزرقاوان الطيبتان فيبدو انهما ذكيتان وقاسيتان عند الضرورة .

وفكرت داشا بانها ستسره اذا قبلت بعرضه ، فنهضت ، ودخلت غرفة الطعام ، حيث رأت مائدة عليها صحن الشطائر ، وسماور مبعوج . اسرع تليغين فى جمع الصحن المستعملة ، ووضعها على الارض في احد اركان الغرفة ، والتفت باحثا بعينيه عن خرقة ، ومسح المائدة بمنديله ، وصب لداشا قديم شاي ، وانتقى لها «الذ» شطيرة . وقد قام بكل ذلك على مهل بيديه الكبيرتين القويتين ، وتكلم ، وكانما يجهد نفسه بشكل خاص لتكون داشا مرتاحة وسط هذه القفارة :

- شيرونا البيتية فوضى لا نظام لها . هذا صحيح ، ولكن الشاي والشطائر من الدرجة الفاخرة ، مشتتة من مخزن يلسييف الشهير . وكانت هناك حلويات الا انها التهمت ، ولكن ... - وهنا اطبق شفتيه ، ونظر الى داشا ، ولاح في عينيه الزرقاوين خوف ، ثم تصميم ، وقال - هلا سمحت لى ؟ - واخرج من جيب صدره ملبستين ملفوفتين بورقتيهما .

وفكرت داشا مع نفسها «مع مثل هذا الرجل لا يتردى الانسان» ، ولكي تسره ايضا قالت :

- هذا النوع الذى افضله من الملبس .

ثم جلس تليغين مقابل داشا بانحراف ، واخذ يحقن في علبة الخردل بانتيه . ونضح العرق على جبينه العريض الكبير من التورت . اخرج منديله بجزر ، ومسح جبينه .

وافترت شفتا داشا عن ابتسامه لا ارادية : ذلك لان هذا الرجل الكبير الجميل كان على درجة من انعدام الثقة بالنفس تجعله يود ان يتوارى وراء علبة الخردل تلك . وتخيلت داشا ان امه المعوزة النظيفة الملابس تعيش في مدينة ارزاهاس ، كما بدا لها ، وتكتب له من هناك رسائل حادة حول «عادته المستأصلية في تسليم نقوده لمختلف المحققين» ، وتعظه بان «احترام الناس ، يا ابني العزيز ، لا يمكن ان نكسبه الا بالتواضع والمثابرة» . وهو ، على ما يبدو ، يتأفف من هذه

الرسائل ، مدركا كم هو بعيد عن الكمال . واستشعرت داشا رقة تجاه هذا الرجل . سألته :

— اين تشتغل ؟

رفع تليغين عينيه في الحال ، وراى ابتسامتها ، فابتسم هو الآخر ابتسامة عريضة .

— في مصنع البلطيق .

— وهل عملك ممتع ؟

— لا اعرف . اعتقد ان كل عمل ممتع .

— اظن ان العمال يحبونك كثيرا .

— لم افكر في ذلك قط . ولكن لا اظن انهم يحبوني . ولماذا

عليهم ان يحبوني ؟ فانا شديد معهم . رغم ان علاقتنا طيبة بالطبع ، علاقات رفاقية .

— قل لي هل اعجبك عن صدق كل ما جرى في تلك الغرفة ،

اليوم ؟

زالت غضون من على جبين ايفان ايليتش ، وانغير ضاحكا بصوت عال .

— صبيان . اشقياء ، طاشون . فتية رافعون . انا راض

عن نزلاء شفتي ، يا داريا دميتريفنا . في بعض الاحيان تحدث . منفصت في عملنا ، واعدو الى البيت منزجا ، فاجدهم هنا قد

ابتكروا هراء من هراءاتهم . . . وفي اليوم التالي حين اتذكر ما حصل اضحك وابتهج .

قالت داشا بلهجة حازمة :

— اما انا فلا تعجبني هذه التنديسات ايدا . انها سفاهة محض .

نظر في عينيه بدهشة . فاكدت قولها : «لا تعجبني ايدا» .

قال ايفان ايليتش مفكرا :

— انا المذنب في ذلك بالطبع . فانا الذى شجعتهم عليه .

حقا ، ان تمدني ضيوفا ، وتقضى النساء كله في قول سفاسيف امر . . . من المؤلم جدا ان كل هذا لم يعجبك على هذا النحو .

حدقت داشا في وجهه مبتسمة ، واحست بانها تستطيع ان

تقول ما تشاء لهذا الرجل الغرب عليها تقريبا .

— اتصور ، يا ايفان ايليتش . انك لا بد ان تهوى شيئا مختلفا تماما . يبدو لي انك رجل طيب ، احسن بكثير من تصورك

انت لنفسك ، حقا ، حقا .

وركزت داشا كوعها على المائدة ، ووسدت خنكها على كفها ،

ومست شفتيها بخصرها . كانت عينها تبتسمان ، الا انها ، بدتا له مخيفتين ، جميلتين الى حد مذهل ، عينين رماديتين واسعتين

باردتين قليلا . ولذهو له الشديد لوى ملعقة شاي ثم عدلها .

ولحسن حظه دخلت الغرفة يلزافيتا كييفنا ، كانت تلقى على

كتفيها شالا تركيا ، وقد ضفرت شعرها فوق اذنيها بصفيرتين كقرني الخروف . مدت لداشا يدا طويلة مقدمة نفسها باسم

«راستورغويفا» وجلست وقالت :

— تحدث جيروف عنك كثيرا جدا . واليوم درست وجهك .

وراي انك قد شعرت بالسأم ، وهذا شيء جيد .

اسرع ايفان ايليتش يسالها :

— يا ليزا ، اتريدين شيئا ياردا ؟

— لا ، يا تليغين . انت تعرف اني لا اشرب الشاي ايدا . . .

اذن قد تسائلين نفسك ، بالطبع ، اى مخلوق غريب هذا الذى يتحدث معك ؟ انا لا احد . شخص حقير . انا فاسدة وبليدة .

كان ايفان ايليتش واقفا عند المائدة ، فاشاح بوجهه يالسا .

وغضت داشا من بصرها . فامعنت يلزافيتا كييفنا فيها النظر مبتسمة .

— انت انيقة ، مرفهة وبارعة الجمال . لا تنكري ، فانت

تعرفين ذلك بنفسك . انت موضع حب عشرات الرجال ، بالطبع . ومن المؤلم ان كل هذا سينتهى بغاية من البساطة . سيأتى الذكر ،

فتلدين له اولادا ، ثم تموتين . فما اضجر ذلك !

ارتعشت شفتا داشا تكدرا . واجابت :

— انا لا اريد ان اكون خارجة عن المالوف . ولا ادري لماذا

يقفلك مستقبل الى هذا الحد .

ابتسمت يلزافيتا كييفنا بمرح اشد ، وبقيت عينها حزنتين ودبعتين .

— لقد حذرتك باننى حقيرة كانسنان ، ومقرزة كامرأة .

والذين يتحملونني قليلون جدا ، وعن شفقة فقط كما يفعل تليغين مثلا . فتمتم تليغين دون أن يرفق رأسه :

- اى هراء هذا الذى تتحدثين به ، يا ليزا .

- انا لا اطالب بشئ ، يا تليغين ، فهدي من روعك . -
والتفتت ابنى داشا مرة اخرى :- هل عانيت عاصفة ذات مرة ؟ اما انا فقد عانيت واحدة . كان هناك رجل ، وكنت احببه ، وكان يكرهنى بالطبع . وكنت آنذاك اعيش على البحر الاسود . وثار عاصفة . وقلت لذلك الرجل : «لنخرج الى البحر ...» فخرج معى موجدة وحقا . وحملنا الى عرض البحر ... ما اروعها من تسلية . . . وخلصت عنى ثوبى ، وقلت له . . .

قال تليغين مفضنا شفتيه وانفه :

- اسمعى ، يا ليزا . انت تكذبين . لم يحدث ذلك . انا اعرف .

عندئذ نظرت يلزافيتا كيفنا اليه بابتسامة مبهمة ، واخذت تضحك فجأة . وضعت كوعها على المائدة ، واخفت وجهها بينهما ، وضحكت ، واهتزت كتفها المملتان . نهضت داشا ، وقالت لتليغين انها تريد ان تذهب الى البيت ، وتصرف دون ان تودع احدا ، اذا امكن ذلك .

وقدم ايفان ايليتش لداشا معطفها بعذر شديد ، وكان المعطف جزء من كيانها ايضا . ونزل الى الاسفل على السلم المظلم ، مشعلا طوال الوقت اعواد النقاب ، متكررا من حلقة الظلام وهبوب الريح ، وزلق الارض ، واوصل داشا الى ركن الشارع ، واجلسها عربة لزاجة . كان الحوذى عجوزا ، والثلج يعمر حصانه . ظل ايفان ايليتش وقتنا طويلا واقفا على البرد حاسر الرأس ، وبلا معطف ، ينظر الى الزلاقة الواطئة وهي تتلاشى وتذوب في الضباب الاصفر ، ومعها يتلاشى ويذوب شبح الفتاة الجالسة فيها . وبعد ذلك عاد الى البيت متمهلا ، ودخل غرفة الطعام . فرأى يلزافيتا كيفنا في جلستها تلك ، ووجهها بين يديها . حك تليغين ذقنه ، وقال عابس الاساور :

- ليزا .

عندئذ رفعت ليزا رأسها بسرعة شديدة .

- ليزا ، لآى سبب ، وارجو المعذرة ، تخوضين دائما في حديث يجعل الجميع في حرج وخجل ؟

قالت يلزافيتا كيفنا بصوت خافت وهى لا تفتأ تحدد فيه بعينها الحزبتين ، الضميرتى النظر ، اللتين تبدوان مرسومتين على صفحة وجهها :

- احببت . رآيت ذلك من الوهلة الاولى . اوه ، يا للضجر .

قال تليغين وقد سعد الدم الى وجهه :

- هذا غير صحيح البتة . غير صحيح .

- اذن ، فانا متأسفة .

ونهضت بتكاسل ، وخرجت ، ساحبة وراءها على الارض شالها التركي المغبر .

سار ايفان ايليتش بعض الوقت مغمورا في افكاره ، شرب شايا باردا ، ثم رفع المقعد الذى جلس عليه داريا دميترييفنا ، وحمله الى غرفته . وهناك تروى ، ووضعوه في احد الاركان ، واحتوى كل انفه براحته ، وقال ، وكانما قد صعق صعقة هائلة :

- هراء . . . سخافة !

كان هذا اللقاء بالنسبة لداشا مجرد لقاء من لقاءات عديدة . التقت برجل طيب ، وانتهى الامر . كانت داشا في سن لا يرى فيها المرء ولا يسمع بشكل جيد : فان سمعه موقر بضحيج الدم في عروقه ، وعيناه في كل مكان - وحتى في وجه انسان امامه - لا تزيان الا صورته هو ، وكانها انعكاسه في مرآة . والقبح وحده في مثل هذه السن يثير الغيالى ، اما جمال الناس ، ومناظر الطبيعة الخلابة ، وجمال الفن المتواضع فان كل ذلك يعتبر حاشية الحياة اليومية لملكة في التاسعة عشرة من العمر .

ولم يكن الامر كذلك مع ايفان ايليتش . والآن ، وقد انقضى اكثر من اسبوع على زيارة داشا ، فقد اخذ يتعجب من ان تظهر في شقتهم هذه الفتاة ذات البشرة الوردية الرقيقة ، والثوب الاسود من الجوخ ، والشعر الاشقر الشاحب المرتفع فوق رأسها ، والقم الطفولى المتكبر ، وتظهر دون ان تلحظ (حتى انه لم يسلم عليها راسا) تظهر ببساطة (فقد دخلت ، وجلست ، وضعت على ركبتيها موقفة الفراء التى تدق بها يديها) . ولم يكن مفهوما كيف واقفه

العزيمة ليتحدث معها ببساطة عن السجق المشتري من مخازن يلبسييف .

والمليستان الدافئتان اللتان أخرجهما من جيبه ، وعرض عليهما ان تأكلهما ؟ قيا له من نحس !

كان إيفان ايليتش خلال حياته (تخطى التاسعة والعشرين قبل حين) قد احب ست مرات : عندما كان تلميذ في المدرسة الثانوية في قازان احب فتاة ناضجة ، هي ماروسيا خفويفا ، ابنة طبيب بيطري ، كانت تجوب الشوارع الرئيسية في الساعة الرابعة ، ولزمن طويل ، دون فائدة ، وهي في معطف واحد لا يتغير مصنوع من قماش البلبش ، الا ان ماروسيا خفويفا لم تكن في وضع يقبل التمازح ، فبذته ، وانصرف هو عنها ، دون مرحلة انتقالية ، الى آدا تيليه الفنانة المتجولة التي انتزعت دهشة اهل المدينة بظهورها في جمع الاوبريتات ، من كل العصور ، على قدر الامكان بثوب سباحة ، وهو امر ابرزته ادارة المسرح في اعلاناتها : «آدا تيليه الحائزة على الميدالية الذهبية لجمال ساقها» .

وتجرا إيفان ايليتش حتى على ان ينفذ الى بيت الفنانة ، ويحمل اليها باقة من الزهور ، المقطوعة من حديقة البلدية . الا ان آدا تيليه اعطت هذه الزهور لتشمها كلبتها الصغيرة الغريبة الشعر ، وقالت لافان ايليتش ان معدتها قد مرضت تماما من الطعام المحلى ، وطلبت اليه ان يهرع الى الصيدلية . وبهذا انتهى الامر .

وبعد ذلك ، حين صار طالبا في بطرسبورغ مال الى طالبة الطب فيلبوشيفيتش ، بل وكانت له مواعيد معها في مسرح التشریح ، الا ان ذلك بعد ذاته لم يأت بنتيجة مرجوة ، وغادرت فيلبوشيفيتش لتعمل في مستشفى احد الاقضية .

وذات مرة اغرمت به فتاة تدعى زينوتشكا تعمل في مخزن كبير للقبعات ، غراما شديدا اسلمها الى الياس . واستجاب إيفان ايليتش لكل ما رغبت فيه ، لارتبائه ورقة قلبه . الا انه تنفس الصعداء حين رحلت الفتاة الى موسكو مع الفرع الذي تعمل فيه من الشركة ، فقد مضى معها شعور كان يراوده دائما بان ثمة واجبات لم يقم بها .

ويرجع تاريخ آخر عاطفة حب مست قلبه الى حزيران قبل

عامين . فقد كانت هناك فتاة نجيحة شاحبة تظهر كل يوم قبيل الغروب في النافذة المقابلة لنافذته المطلة على الفناء وتفتح النافذة ، وتتنظف بالفراشة ، ويحرص شديد ، ثوبها البني الذي لا يتغير ، ثم ترتديه ، وتخرج لتجلس قليلا في المنتزه .

وفي المنتزه ، في اوائل الخسق ، تحدث معها إيفان ايليتش ، ومنذ ذلك الحين اخذا يتنزهان سويا كل مساء ، ويبديان اعجابهما بلحظات الغروب في بطرسبورغ ، ويتجادبان اطراف الحديث .

كانت هذه الفتاة ، واسمها اوليا كوماروفا ، تعمل في مكتب كاتب عدل ، وكانت وحيدة دائمة المرض والسعال . وقد تحدانا عن هذا السعال ، والمرض ، وعن الوحشة التي تهبط على صدر الانسان الوحيد عند المساء ، وعن صاحبة لها تسمى كيرا ، احبت رجلا طيبا ، ورحلت معه الى القرم . وكانت احاديثها كنيهة . وكانت اوليا كوماروفا بانسة من امرها حتى انها لم تجل ان تبوح لافان ايليتش بانكارها المكونة وهي متوقعة احيانا ان يقع في غرامها فتاة ، ويتزوجها ويأخذها الى القرم .

وكان إيفان ايليتش يسبق عليها كثيرا ، ويكن لها الاحترام ، الا انه لم يقدر ان يعيها ، ولو انه بعد احاديثها احيانا كان يفكر وهو مستلق على الاريدة في الظلمة بأنه انسان اتاني ، سيي ، وبلا قلب .

وفي الخريف اصيبت اوليا كوماروفا بنزلة صدرية ووقعت طريحة الفراش . وقد اخذها الى المستشفى ، ومن هناك الى المقبرة . وقبيل موتها قالت له : «هل ستتزوجني اذا شفيت ؟» فاجابها إيفان ايليتش : «كلمة شرف ، سأزوجك» .

ولم يكن شعوره نحو داشا يشبه مشاعر السابفة . لقد قالت له يلزاقيتا كيينفا «احببت» . ولكن الانسان يمكن ان يحب من يفترض ان يناله ، وليس من الممكن ان يحب تمثالا او غيمة . وقد شعر نحو داشا بعاطفة فريدة ، جديدة عليه ، ومشوية بالعموض ، لان الاسباب الداعية لها قليلة - بضع دقائق من الحديث ، ومقعد في ركن من الغرفة .

كما ان هذه العاطفة لم تكن على قدر كبير من العدة ، الا ان إيفان ايليتش صار الآن يحس في نفسه بالرغبة في ان يكون

فريدا ، ويبدأ بالاهتمام بنفسه كثيرا . وكان غالبا ما يقول لنفسه :
«قريبا سايبلغ الثلاثين ، وانا ما ازال اعيش لنفسى وبلا
غاية . خواد رهيب . اثنائية ولا مبالاة ازاء الناس . يجب ان
اتماسك قبل فوات الاوان» .

في اواخر اذار ، وفي يوم من ايام بواكير الربيع ، الطالعة
بغثة على المدينة البيضاء من الثلج ، المتدثرة طلبا للدفء ،
حين تلمع قطرات الجمد منذ الصباح وتقطر من الافارين السطوح
ويشرشر الماء في انابيب تصريف المياه من اعالي بنايات ، ويطلق
في البراميل الخضراء الموضوعة تحتها ، ويهش الثلج في الطرقات ،
ويتصاعد البخار من الاسفلت ، وتجب بقع منه ، ويجس المسره
بنقل المعطف الشتائي على كتفيه ، وبين الحين والآخر تقع العين
على رجل ذي لحية مدبية يسير بدون معطف ، واذا بالناس كلهم
ينظرون اليه ويتسمون ، وحين يرفع المرء راسه يرى السماء لا يسير
لها عمق ، زرقاء كأنها غسلت بالماء ، في يوم كهذا اليوم ، وفي الساعة
الثالثة والنصف بعد الظهر خرج ايفان ايليتش من الدائرة الهندسية في
جادة نيفسكى ، وفك معطفه ذا الحاشية الفرائية ، وقصص عينيه
اثناء الشمس .

«الحياة رائحة على اية حال» .

وفي تلك اللحظة وقع بصره على داشا . كانت تسير على حافة
الرصيف وثيدة الخطى ، ترتدى معطفا ربيعا ازرق ، وبقعة زرقاء
شدت عليها زهورا اصطناعية بيضاء . وكانت تزوج طردا بيدها
اليسرى فكانت الزهور على قبعتها تتمايل . وكان التأمل والحزن
يطغخان من محياها . ومن ورانها كانت الشمس الهائلة الشعثاء
النور ، المتوهجة بوهج ربيعي في السماء الزرقاء النائية تنعكس على
برك الماء ، وخطوط الترام ، والزجاج ، وظهور السابلية ، وتحت
اقدامهم ، وعلى محاور عجلات العربات .

بدا وكان داشا قد خرجت من هذه الزرقة والنور ، وترات
لحظة ، لتختفي بعدها في جمهور الناس . نظر ايفان ايليتش طويلا
في تلك الناحية . وسمع قلبه يدق في صدره ببطء . كان الهواء
كثيفا ، لاذعا ، يدير الرأس .

سار ايفان ايليتش ببطء الى الناصية ، ووضع يديه وراء

ظهره ، ووقف طويلا امام اسطوانة الاعلانات . وقرا : «مغامرات
جاك الجديدة الطريفة ، منتزح الاحشاء» ، وفكر بأنه لا
يقوم شيئا ، وبأنه سعيد سعادة لم يذقها في حياته كلها .

ولما ابتعد عن اسطوانة الاعلانات رأى داشا ثانية . عادت
على هيئتها تلك : الزهور البيضاء على قبعتها ، والطردي بيدها ،
وقدمها تسيران على حافة الرصيف . تقدم منها ، وخلع قبعته .
- داريا دميترييفنا ، ما اروع هذا اليوم ...

جفلت داشا قليلا . ثم رفعت اليه عينين باردتين قليلا لمعت
فيهما من جراء النور نقاط خضر . وابتمست برقة ، ومدت له يدها
المقفرزة في قفاز ابيض من جلد الجدى ، وصافحته بقوة ومودة :

- لطيف ان التقى بك . بسل وفكرت اليوم فيك ...
صدقني ، لقد فكرت ، - وهزت راسها ، واهتزت الزهور البيضاء على
قبعتها .

- كانت لدى مهمة في جادة نيفسكى ، وانا الآن حر طوال
اليوم ، يا داريا دميترييفنا . ما اروع الطقس اليوم ... - وغضن
شفتيه محاولا بكل طاقته الا تنفرجا عن ابتسامة .

سالت داشا :

- يا ايفان ايليتش هل تستطيع ان توصلني الى البيت ؟
وانعطفا في شارع جانبي ، وسارا الآن في الظل .

- ايفان ايليتش ، هل سيبدو لك غريبا لو اسالك عن
شيء ؟ لا ، بالطبع ، انا استطيع ان اتحدث معك . شرط ان تجيبني
راسا . اجبني دون تردد ، وعلى الفور . اجبني في اللحظة التي
اسالك فيها .

ولاح الهم على وجهها ، وقطبت حاجبيها . وقالت ، وهي تشق
الهواء بذراعها :

- من قبل كنت اتصور ان هناك لصوصا ، وكذابين
وقتلة ... وهم موجودون في مكان ما ، مثل الثعابين ، والعاكبات ،
والفئران . ولكن البشر ، كل البشر - وقد تكون لهم مواطن ضعف ،
ونزوات ، الا انهم جميعا طيبون ، واضحون ... انظر الى تلك الفتاة
القادمة . انها كما تراها وباطنا . وكان العالم كله يبدو لي وكأنه
ملون بالوان فاتنة . هل انت تفهمنى ؟

- ذلك شيء رائع ، يا داريا دميترييفنا . . .

- والآن ، مع السلامة ، وشكرا لك ، يا ايفان ايليتش .
انت لطيف وطيب جدا . انا لم اشعر باى ترويح ، ولكننى شاكرا
لك جزيل الشكر ، على اية حال . لقد فهمتني ، اليس كذلك ؟ تلك
هى امور الدنيا . يجب ان اصبح راشدة ، ولا مفر من ذلك . زرنا
في وقت فراغك ، ارجوك .
وابتسمت ، وهزت يده ، ودخلت البيت ، وغيبها الظلام .

٦

فتحت داشا باب غرفتها ، ووقفت مذهولة . فقد شمت في
الغرفة رائحة زهور رطبة ، وفي اللحظة التالية وقعت عينها على
سلة زهور عالية المقبض ، مزينة بشريط ازرق ، موضوعة على
منضدة الزينة الصغيرة . ركضت نحوها ، وغمرت وجهها فيها .
انها زهور بنفسج مسحوقه مبللة .

وانفعلت داشا . كانت منذ الصباح تريد شيئا لا تعرف ما
هو بالضبط ، اما الآن فقد ادركت انها كانت تريد زهر البنفسج .
ولكن مَنْ ارسل هذه الزهور ؟ وَمَنْ فكر فيها هذا اليوم باهتمام
شديد حتى حزر ما كانت هى نفسها لا تعرف ما هو ؟ الا ان
الشريط وحده لم يعجبها ، فقد كان في غير محله . وفكرت داشا ،
وهى تفكره :

«فتاة لا بأس بها ، ولو كانت متفعله . ستسير في طريقها
الخاص ، مهما اقترفت من ذنوب ، ايها الأثمون . ربما تظنون انها
تشمخ بانفها اكثر من اللازم ؟ ولكن هناك اناسا سوف يفهمون
اللائف الشامخ ، بل ويقدرونه .»

وتبين ان ورقة سميكة قد حشرت في الشريط كتب عليها :
«احبى الحب» . وفي الوجه الاخر من الورقة : «تربية زهور في
نيس» . اذن ، فقد كتب شخص في محل بيع الزهور هذه جملة
«احبى الحب» . وخرجت داشا الى الدهليز وسلة الزهور في يديها ،
واعتقت :

- يا مغولى ، من جلب لى هذه الزهور ؟

- على مهلك . اما الآن فكأنتى اغوص في هذه الصورة ،
الى الظلام واحتباس الهواء . . . انا اعرف ، قد يكون الانسان
جذابا ، بل لطيفا ، حلوا حلوة يمكن ان تتلمسها ، ولكنه في
نفس الوقت يذبذب ذنوبا ظيغية . وانا لا اقصد انه يسرق الفطائر
من الدولاب ، بل ياتم اثما حقيقيا : يكذب ، - واشاحت داشا
برجھها ، وارتعش حنكها - ان هذا الرجل فاسق بامراة
متزوجة . وانا اريد ان اسالك : هل يجوز هذا يا ايفان
ايليتش ؟

- لا ، لا يجوز .

- ولماذا لا يجوز ؟

- لا استطيع ان اقول ذلك الآن ، ولكننى اشعر بأنه لا
يجوز .

- وهل تظن اننى لا اشعر بذلك ؟ منذ الساعة الثانية وانا
اهيم حزينة . الجوا اليوم صاف منعش ، بينما انا اتصور ان في
هذه البيوت ، وراء الستائر ، يختفى اناس سود القلوب . وعلى
انا ان اعيش معهم . هل تفهم ؟

اجاب بسرعة :

- لا ، لا افهم .

- كلا ، على ان اعيش معهم . آه ، ما اعظم الحزن في قلبى .
اذن فانا مجرد فتاة صغيرة . وهذه المدينة لم تشيد للفتيات
الصغيرات ، بل للكبار .

وتوقفت داشا عند مدخل البيت ، وراحت تدفع على
الاسفلت ، براس حذاءها العالى ، جيئة وذهويا ، علبة سيكارة
فارغة رسمت عليها سيدة باللون الاخضر تفتت الدخان من فيها .
واحسن ايفان ايليتش ، وهو ينظر الى راس حذاءها الصقيل ، وكان
داشا تذوب ، وتلاشى كالصباغ . وكان يود لو يبقيا معه ، ولكن
باى قوة ؟ وكان يعرف ان هناك مثل هذه القوة ، ويشعر انها
تصمر قلبه ، وتأخذ بخناقه . ولكن كل شعوره بالنسبة لداشا
مجرد ظل على حائط ، لانه هو نفسه ليس الا «ايفان ايليتش الطيب
واللطيف» .

نظرت «المغولى العظمى» الى سلة الزهور ، وتنهدت بصدق .
فان هذه الاشياء لم تكن تعنيها على الاطلاق .

- جلبها صبي من محل الزهور ليكاترينا دميتريفنا . ولكن
السيدة امرتني ان احملها لك .

- ألم يقل ممن ؟

- لم يقل سوى : سلميتها الى السيدة .

عادت داشا الى غرفتها ، ووقفت عند النافذة . كان الغروب
يلوح من خلال زجاج النافذة ، غمر السماء من اليسار ، من وراء
العائط الأجرى للبيت المجاور ، ثم اخضوضر ، ونحل . وظهرت
نجمة في ذلك الخلاء الأخضر ، وتواضعت ، ولمعت وكانها قد غسلت
لثوها . وفي الاسفل ، وفي الشارع الضيق ، الذي اخذ الضباب يملاء
ارجاءه ، انيرت المصابيح الكهربائية مرة واحدة على امتداده كله ،
الا انها لم تكن ساطعة النور بعد ، ولا متألقة . وزعقت سيارة في
مكان قريب ، ورات داشا انها كانت تسيير عبر الشارع مختفية في
ظلمة المساء .

تلبد الظلام في الغرفة تماما ، وفاحت زهور البنفسج رائحة
ناعمة . لقد ارسلها ذلك الرجل الذي ائمت كاتيا معه . كان ذلك
واضحا . وقتت داشا تفكر بانها كذباية وقعت في شيء مثل نسيج
المتكبوت ، وقيق ، ومغو . ان هذا «الشيء» كان في رائحة الزهور
الرطبية ، وفي الكلمتين المصطنعتين ، المثيرتين : «احبى الحب» ،
وفي السحر الربيعي لهذا المساء .

وفجأة خفق قلبها خفقانا سريعا قويا . وشعرت داشا وكان
اصابعها تمس شيئا محرما ، سريسا ، لاذع الحلاوة وتراه ،
وتسمعه . وتحسه . واذا بها تطلق العنان لعواطفها ، وكانها قد
صممت على ذلك بكل كيانها . وكان من المستحيل ان تفهم كيف
وجدت نفسها في تلك اللحظة في الجانب الآخر . ذابت الصرامة ،
ذلك الجدار الجليدى ، وتحولت الى ضباب ، مثل ذلك الضباب في
نهاية الشارع ، حيث انطلقت السيارة بلا صوت حاملة سيدتين في
قبعتين بيضاوين .

لم تشعر الا يخفقان قلبها ، وبدوار خفيف في رأسها ، بينما

رنت في جسمها كله موسيقى تلقائية مثل موجة برودة بهيجة :
«انا احيا ، احب . البهجة ، الحياة ، كل الدنيا لي ، لي ، لي !»

فتحت داشا عينيها ، وقالت بصوت مسموم :

- اسمعى ، يا عزيزتى . انت ما تزالين في نقاب عذرتك ،

وخلقتك وعق لا يحتمل ...

ومشت الى ركن الغرفة البعيد ، وجلست في مقعد وثير
كبير ، وراحت تسترجع كل ما حدث في الاسبوعين ، وهي تفص
الورقة عن قطعة شوكلاته بتان ويطء .

لم يتغير شيء في البيت . بل واصبحت كاتيا تعامل نيقولاى
ايفانوفيتش بزميد من الرقة . وكان مرح الاعطاف ، وبنوى بناء
بيت ريفي في فنلنديه . وكانت داشا وحدها تعانى صامتا هذه
«العالمية» لانسائين اصبيا بالعمى . لم تجر ان تفتح اختها في
الحديث . واختها التي كانت دائما شديدة الالتفات الى تقلب امرجة
داشا ، لم تطفن لها مرة الى شيء . اوصت يكاترينا دميتريفنا
على بدلتين لها ولاختها بمناسبة عيد الفصح ، فكانت تقضى ساعات
عند محل الخياطة وصناعة القبعات ، وتشتترك في اسواق البر
والاحسان ، وتنظم برجاه من نيقولاى ايفانوفيتش ، امسية ادبية
لغرض سرى ، هو جمع المال لمنفعة لجنة الجناح اليسارى للحزب
الاشتراكى الديموقراطى - او من يسمون بالبلاشفة - وتجمع
الضيوف في ايام الخميس فضلا عن ايام الثلاثاء ، وباختصار لم
تكن لديها دقيقة فراغ واحدة .

وخطبت داشا نفسها : «وانت قد جينت في هذا الوقت ، ولم
تستقرى على شيء ، ورحت تفكرين في اشياء انت فيها كالنعجة ، لم
تفهميها ولن تفهميها حتى تحترق جناحيك» ، وضحكت داشا
بخفت . ومن تلك الحيرة المظلمة التي كانت تتساقط فيها كرات
الجليد الصغيرة ، والتي لم يكن من الممكن ان يرجى منها خير ،
نهضت صورة بيسونوف اللاذعة العائقة ، كما كان يحدث كثيرا في
هذه الايام . اباحت هى نفسها ، فاستولى هو على افكارها . وهذات
داشا ، وتكتكت الساعة في الغرفة المظلمة .

ثم صفقت باب في مكان بعيد في البيت ، وسمعت داشا صوت

اختها وهي تسأل :

- هل عادت منذ وقت طويل ؟

نهضت داشا من المقعد ، وخرجت الى الدهليز . واذا بيكاترينا دميترييفنا تقول في الحال :

- لماذا انت محيرة ؟

كان نيقولاى ايفانوفيتش يخلع معطفه السميك وهو يروى ملحمة لاذعة من مَلح عاشق المسرح . نظرت داشا نظرة كره الى شفثيه الكبيرتين الرخوتين ، وتبعت كاتيا الى مخدعها . وجلست هناك الى منضدة الزينة الانيقة الرقيقة كاي شيء في هذه الحجرة ، وراحت تسمع كلام اختها الطويل عن المعارف الذين التقت بهم اثناء النزهة .

وكانت بيكاترينا دميترييفنا اثناء الحديث ترتب الاشياء في دولابها ذى المرأة ، الحافل بالقفازات ، وقطع الدنتلا ، والبراقع ، والاحذية الحريرية - مجموعة كبيرة من الاشياء التافهة العابضة بالعطور التي تستخدمها : « يظهر ان كرينسكى خسر القضية مرة اخرى ، وهو الآن بلا نقود . التقيت بزوجته . انها تتشكى ، وتقول الحياة اضحت صعبة . وفي بيت تيميريازيف حصة . وشمينبرغ عاد الى امراته الهستيرية مرة اخرى ، بل ويقال انها اطلقت النار على نفسها في شقة . هذا هو الربيع ! وما اجمال الطقس اليوم ! جميع الناس يتجولون في الشوارع كالمسكارى . عندي خبر آخر . التقيت باكوندين ، وهو يؤكد بان الثورة ستندلع عندنا في القريب العاجل . الهيجان في المصانع ، والقرى ، وفي كل مكان . ليتها تقع في اقرب وقت . فرح نيقولاى ايفانوفيتش فرحا شديدا حتى انه اخذنى الى مطعم «بيفاتو» ، فشرينا هناك زجاجة شمبانيا ، نخب الثورة المقبلة ، هكذا ، راسا .

كانت داشا تستمع الى اختها صامتة ، وهي ترفس وتنزل غطاءات القوارير البلورية . ثم قالت فجأة :

- كاتيا لا حاجة لاحد بي كما انا خلقت .

فالتفتت بيكاترينا دميترييفنا وجوبها الحريري في يدها ، وتفرست في اختها . فتابعت هذه قولها :

- والشئ المهم اننى انا ايضا ، لست بحاجة لنفسى وانا

على طبيعتى هذه . انا كمتن قرر ان يعيش على الجزر النى ، واعتبر نفسه ارفع بكثير من الآخرين .

قالت بيكاترينا دميترييفنا :

- انا لا افهمك .

نظرت داشا الى ظهرها ، وتنهت .

- جميع الناس ، حسب راىي ، سينون . وانا ادينهم . بعضهم حقى ، وبعضهم مقرفون ، والبعض الآخر قذرون . وانا وحدى الفاضلة . انا هنا غريبة ، وذلك يرهقنى كثيرا . انا ادينك انت ايضا ، يا كاتيا .

فسالته بيكاترينا دميترييفنا بهدوء ، دون ان تلتفت اليها :

- لاي شيء ؟

- ارجو ان تفهمينى . انا اسير شامخة الانف ، وهذا كل ما لدى . ان ذلك حماقة صرف ، وقد ضجرت من غربتى بين الناس . وباختصار ، انا معجبة كثيرا برجل ما .

كانت داشا تتحدث بذلك متنكسة الراس ، فقد دست اصبعها في فم قارورة بلورية ، ولم تستطع ان تخرجها منه .

- حمدا لله ، يا فتاتي ، على انك معجبة برجل . ستكونين سعيدة ، فان لم يسعدك الله فمن يسعد ؟

وارسلت بيكاترينا دميترييفنا تنهيدة خفيفة .

- ولكن ذلك ليس بهذه البساطة . اظن اننى لا احبه .

- اذا كان يعجبك فسوف تحبينه .

- تلك هى المسألة . انه لا يعجبنى .

عند ذاك سدت بيكاترينا دميترييفنا باب الدولاب ، وتوقفت عند داشا .

- قبل لحظة قلت انك معجبة ... يا للغرابة ...

- ارجوك ، يا كاتيا ، الا تشرعى في لومى . انت تذكركين الانجليزى الذى كان في سيسترورسك . لقد اعجبت به ، بل احببته . ولكننى كنت آنذاك على طبيعتى . حققت ، وتوارىست ، وبكيت في الليالى . اما هذا الرجل : .. انا لا اعرف هل هو الذى ... نعم ،

هو ، هو ... هز سكينه نفسى ... وانا الآن فتاة اخرى كلية ،

كاننى شممت مبخرة ... لو دخل الى غرفتى الآن لاستطاع ان يفعل كل ما شاء دون اى اعتراض من جانبي ...

- ما هذا الذى تقوليته ، يا داشا ؟

وجلست يكاترينا دميترييفنا على مقعد الى جانب اختها ، وجذبتها نحوها ، وامسكت يدها العارة ، وقبيلت باطن كفها ، الا ان داشا تحررت من طوقها ببطء ، وزفرت ، واستندت راسها على يدها ، وحدقت طولىلا فى النافذة ، المصطبغة بالزرقة ، والى النجوم .

- داشا ، ما اسمها ؟

- الكسى الكسيفيتش بيسونوف

عندئذ انتقلت كاتيا الى مقعد مجاور ، ووضعت يدها على حنجرتها ، وجيدت فى جلستها . لم تر داشا وجهها ، فقد كان كله فى الظل ، ولكنها شعرت بانها فاهت لها بشئ مريع .

«هذا افضل» فكرت داشا مع نفسها ، وهى تستدير بجسمها .
واشعرت بعد هذه الجملة بخفة وخواء .

- قولى لى ارجوك ، لماذا يستطيع الآخرون كل شئ ، وانا لا استطيع ؟ منذ عامين وانا اسمع عن الف اغراء واغراء وطوال حياتي لم اذق طعم القبل الا مرة واحدة ، قبلنى فيها تلميذ فى المدرسة الثانوية فى حلبة الترحلق .

وتنهدت بقوة ، وصممت . وكانت يكاترينا دميترييفنا فى تلك اللحظة تجلس منحنية الظهر ، ويدها على ركبتيها . قالت :

- بيسونوف شخص سييء جدا . انه قطع ، يا داشا . هل تسمعيننى ؟

- نعم .

- انه سيحطمك كليا .

- وما العمل الآن ؟

- انا لا اريد ذلك . دعى الاخريات ... لا انت ، لا انت ،

يا عزيزتى .

قالت داشا :

- يقولون ان الغراب الصغير سييء لانه اسود جسدا وروحا .

قولى لى : بم بيسونوف سييء ؟

- لا استطيع ان اقول ... لا اعرف ... ولكن الرجفة تسرى فى جسدى ، حين افكر فيه .

- ولكنك ، انت ايضا كنت معجبة به بعض الشئ ؟

- ابدا ... انا اكرهه ! .. فليحفظك الله منه .

- اذن ساقع فى شركه لا محالة . ساقع فى حياله .

- ما هذا الحديث ؟ .. لقد جننا ، كلثانا .

الا ان داشا راق لها هذا الحديث بالذات ، وكانها كانت تسير على لوحة ضيقة على اطراف اصابعها . التذت بانفعال اختها . ولم تفكر فى بيسونوف تقريبا ، الا انها تعمدت اظهار عواطفها نحوه ، ووصفت لقاءاتهما ، ووجهه . وضخمت كل ذلك ، وبدا وكأنها تقضى الليالى بطولها مؤرقة تفكر فيه ، وهى الآن مستعدة للارتقاء فى احضانها . واخيرا بدا الامر مضحكا لها نفسها ، وودت ان تمسك كاتيا من كتفها ، وتقبلها قبلا كثيرة قائلة لها : «اذا كانت ثمة حقاء ، فهى انت ، يا كاتيا» . الا ان يكاترينا دميترييفنا انزلت فجأة من المقعد الى البساط ، وطوقت داشا ، ووضعت وجهها على ركبتيها ، وصرخت بصوت مفرع ، وجسمها كله يرتعش :

- اعذرينى ، اعذرينى ... داشا اعذرينى !

وهلعت داشا . انحنى نحو اختها ، ومن الفزع والشفقة اخذت تبكي هى ايضا مبهمة بالبكاء ، وراحت تتسائل : عم تتحدث ، وعلى اى شئ اعذرنا ؟ الا ان يكاترينا دميترييفنا كزت على اسنانها ، واكتفت بملاحظة اختها ، وتقبيل يديها .

اثناء الغداء نقلت نيقولاى ايفانوفيتش بصره من واحدة الى اخرى ، وقال :

- طيب . وانا ايضا الا يجوز ان اعرف سبب تلك الدموع ؟

ردت داشا فى الحال :

- سبب الدموع هو مزاجى المتعكر . فاطمن ، ارجوك ، فانا اعرف بنفسى ، دون معونتك ، اننى لا اساوى خنصر زوجتك .

وجاء ضيوف فى وقت احتساء القهوة ، بعد الغداء . فقرر نيقولاى ايفانوفيتش ان من الضروري الذهاب الى احد المطاعم بسبب حالة العائلة النفسية . واخذ كوليشتييك يتلفن الى الكراج ،

وطلبوا من كاتيا وداشا الذهاب لتتھيا للخروج . وجاء تشريفا ، ولما عرف انھم ينون الذهاب الى مطعم اعترأه غضب مفاجئ .

- من المتضرر في نهاية الأمر بنتيجة المناامسات التي لا تنتھي ؟ الادب الروسى ، بالطبع . . .
الا انھم اخذوه هو ايضا في السيارة مع الآخرين .

كان مطعم «بلميرا الشمالية» مخصصا بالناس وصاحبيا . وكانت قاعته الهائلة في الطابق الارضى مترعة بالضوء الساطع المشع من الثريات البلورية . وكانت المرايا - الجدران تضاعف بانكاسمتھا الثريات ، ودخان السيكائر ، المتصاعد من الأسفل ، والموائد المصفوفة بعضها قرب بعض ، والرجال في بذلات الفراخ ، واكتاف النساء العارية ، والباروكات الملونة على رؤوسھن - خضراء ، وليلقية ، وشاببة ، والزركشة الناصعة البياض على قبعاتھن ، والاحجار الكريمة ، المتلألئة على نحورھن واذانھن ، بلايا برتقالى ، واژرق ، وياقوتى ، والنل والمارقطين في الظلام ، وشخصا مهزولا رافعا ذراعيه ، وعصاه السحرية تشق الهواء امام ستارة المخمل القرمزى ، والتماع ادوات الموسيقى النحاسية ، كل ذلك قد ضاعفته المرايا اضعافا مضاعفة ، حتى بدا وكان البشرية كلها ، والعالم اجمع يجلس في منظورات لا نهاية .

كانت داشا تراقب الموائد وهى تمتص الشمبانيا من خلال قصبة . ها هو رجل حليق ميودر الخدين يجلس امام جردل شمبانيا متلج ، وقشور سراطین البحر . عيناه نصف مغمضتين ، وفمه مزموم بازديراء . والظاهر انه في جلسته هذه يفكر بان الكهريساء ستنتطفئ آخر المطاف ، ويموت جميع الناس ، ولا يستحق ان يفرح الانسان بشئ .

وها هى الستارة قد اهتزت ، وانفجرت الى الجانبين . وقفز الى المسرح يابانى صغير ذو غضون مقرغزة ، ولاحث في الهواء حوله كرات زاهية الالوان ، وضخون ، ومشاعل . وفكرت داشا مع نفسه : «لماذا قالت كاتيا : اعذرنى ، اعذرنى ؟» وفجأة شعرت وكان راسها يضغط ، وقلبيها يتوقف عن الخفقان . «معلق ؟» غير انها هزت راسها طاردة الافكار ، وتنهتت بعمق ، واجبرت نفسها على الا تفكر بهذه «المعلقة» . ونظرت الى اختها .

كانت يكاترينا دميترييفنا تجلس في الطرف الآخر من المائدة ، متعبة ، حزينة ، جميلة الى درجة جعلت عيني داشا تبتلعان بالدموع . رفعت اصبعها الى شفتيها ، ونفخت فيها خلسة . وكانت هذه اشارة متفق عليها . وقد رأتھا كاتيا وفهمتھا ، فابتسمت ببطء ابتسامة عذبة .

وحوالى الساعة الثانية بدا الجدول حول المكان الذى سيذهبون اليه . طلبت يكاترينا دميترييفنا ان تستأذن بالعودة الى البيت . وقال نيقولاى ايفانوفيتش انه يلتزم بقرار الجميع . وقرر «الجميع» الاستمرار في السهرة .

وعندئذ وقع بصر داشا على بيسونوف من خلال جمع الناس المتضائل . كان يجلس الى مائدة وقد وضع كوعه عليها في بقعة بعيدة ، وهو يصغى باهتمام الى اكوندين الذى كان يحدثه عن شئ ما بجدة ، مخططا بظفره على غطاء المائدة ، وفي فمه سيكاره نصف مضغوطة . وكان بيسونوف ينظر الى ذلك الظفر المتحرك . كان وجهه شاحبا بادى الاستعراق . وبد لداشا انها سمعت من خلال الصنخ : «نهاية ، نهاية لكل شئ» . ولكن نادلا تتريا عظيم البطن حجبهما كليهما عن بصرھا في اللحظة التالية . نهضت كاتيا ونيقولاى ايفانوفيتش ، وناديا على داشا ، والغضول والانفعال ما برحسا يعذبانھا .

خرجوا الى الشارع فاذا بالفرس يباغتهم برائحة منعشة حلوة . كانت النجوم تتلألأ في السماء السوداء الليلية . وسمعت داشا من ورائھا شخصا يقول بضحكة مقتضية : «ياھا من ليلة فاخرة على نحو شيطانى !» وتقدمت السيارة من الرصيف ، وطلع من وراءه ، من غمامة البنزين المحروق رجل رث الثياب ، واختطف طاقيته ، وبحركة راقصة فتح باب السيارة امام داشا . ألقت داشا نظرة عليه ، وهى تدخل ، فرأته رجلا نحيفا ، وجهه غير حليق ، وفمه معوج ، وجسمه كله يرتعش ، وكوعاه مضمغوطان على جيبيھ .

- تھانى على الامسية السعيدة في معبد الترف وملسذات الحواس !

مفت الرجل بصوت اجش وبعيوية ، ولتلف بحذق قطعة نقود

صغيرة القيت له ، وادى التحية بطاقيته الممزقة . وشعرت داشا
وكان عينيه السوداوين الغاضبتين تخدشانهما بنظراتهما .

وصلوا الى البيت في ساعة متأخرة . استلقت داشا في السرير
على ظهرها ، ولكنها لم تنم ، بل هومت ما بين اليقظة والنوم ، وكان
جسمها كله قد تخدر تخدرا شديدا .

وفجأة ازاحت الدثار عن صدرها بآنة ، وقعدت ، وفتحت
عينيهما . كانت الشمس تسطع عن النافذة على ارض الغرفة ... «يا
الهي اى رعب كان منذ لحظة ؟!» وكادت تبكي من شدة الفزع ،
ولكن حين استجمعت شتات نفسها كانت قد نسيت كل شيء . ولم
يبق الا ألم في القلب من حلم رهيب كرهه .

خرجت داشا ، بعد الفطور ، الى الدراسة ، وسجلت اسمها
لتقدم امتحانا ، واشترت بعض الكتب ، وانعمرت في حياة عملية
صارمة حقا حتى وقت الغداء . ولكنها في المساء اضطرت مرة اخرى
ان تلبس جوربا حريريا (في الصباح كانت قد قررت ان تلبس
جوارب قطنية فقط) ، وتبدو رديها وكثفيمها ، وتعيد تصفيف
شعرها . «جميل لو استطيع ان ارتب عقدة من الشعر في قفاى ذلك
لان الجميع يصيحون : اعلم تصفيف شعر عصرية ، وكيف عملها
والشعر يتهافت تلقائيا» . وباختصار عذاب في عذاب . والتقطت
عينها بقعة من اثر الشمبانيا في مقدمة ثوبها الحريري الازرق
الجديد .

وفجأة شعرت بأسف شديد على هذا الثوب ، بل وعلى حياتها
الضائعة ، حتى انها جلست وفي يدها تنورتها التالفة ، وراحت
تنتحب . مد نيقولاي ايفانوفيتش راسه من الباب ، غير انه رأى
داشا في قميصها الداخلى تجلس باكية ، فاستدعى زوجته . جاءت
كاتيا راكضة ، واختلطت الثوب وقالت «لا تفزعى ، ستزول اللطخة في
الحال» . ونادت المغوى العظيم ، فجات هذه بينزين وماء ساخن .
ونظف الثوب ، وارادتته داشا . وزعق نيقولاي ايفانوفيتش
من الرواق غاضبا : «انه العرض الاول ، ولا يجوز التأخر» . ولكنهم
ناخروا عن بداية المسرحية ، بالطبع .

جلست داشا في المقصورة الى جانب يكاترينا دميترييفنا .
فشاهدت على المسرح رجلا ضخما ذا لحية مستعارة ، وعينين

متسعيتين على نحو غير طبيعي يقف تحت شجرة مسطحة يقول لفتاة
في رداء وردى زاه :

«احبك ، احبك» وامسك الرجل يدها . ورغم ان المسرحية لم
تكن شجيرة ، الا ان داشا كانت تغالبها العبوة طوال العرض ، مشفقة
على الفتاة ذات الرداء الوردى الزاهى ، وكان يؤلمها ان سير
المسرحية لا يجرى هذا المجرى . فقد اتضح من سياقاتها ان الفتاة
قد تحبه ولا تحبه . كانت تجابه عناقه بضحكة حورية الماء ، وتهرب
الى وغد كان ينظرونه الابيض يلوح في آخر المسرح . امسك الرجل
براسه ، وقال انه سيحرق مخلوطة ما ، عمل العمر كله ، وينتهى
الفصل الاول من المسرحية .

جاء معارف الى المقصورة ، وبدا حديث مألوف ، سريع ،
ومنتشط .

وصف شينبرغ المسرحية بأنها مشوقة . وشينبرغ رجل ضليل
الجسم اصلع الجمجمة ، ذو وجه حليق متغضن يبدو وكأنه يوشك
طوال الوقت ان ينط من ياقته المنمشاة .

— مشكلة الجنس مرة اخرى ، ولكنها مطروحة بحددة .
والبشرية يجب ان تتخلص من هذه المسألة اللعينة في نهاية الامر .
فرد عليه بوروف ، المحقق في القضايا الهامة جدا ، وهو
رجل ضخم جهم ، ليبرالى النزعة ، هربت زوجته في عيد الميلاد مع
صاحب اسطبل لخيول السباق :

— ذلك يتوقف على الاشخاص . فالمسألة بالنسبة لى
محلولة . المرأة تكذب بجوهر وجودها ذاته ، والرجل يكذب بمعونة
الفن . المسألة الجنسية حقارة محض ، والفن هو احد انواع الجُرم
الجنائى .

فهقه نيقولاي ايفانوفيتش ، وهو ينظر الى زوجته . فتابع
بوروف حديثه بكآبة :

— حين يعين الوقت يصنع الطائر بيضة ويؤدي الذكر بذيل
زاه . وهذا كذب ، لان ذيله الطبيعي رمادى وليس زاهيا . وعلى
الشجرة تتفتح زهرة ، وهذا كذب ايضا ، خداع ، والحقيقة هناك ،
في الجذور الشوهاء تحت الارض . والانسان اكثر المخلوقات كذبا .
فالزهور لا تنمو عليه ، وليس له ذيل يؤدي به ، فيضطر الى ان

يستخدم لسانه : ما يسمى بالحب كذب مضاعف ومقرف ، وكذلك كل ما لف حوله . انها اشياء محاطة بالغموض فقط للفتيات في سن غضة - ورمق داشا يظرف عينه - وفي زماننا المتقل بالحماقة ينشغل الجديون من الناس بهذه السخافة . اجل ، ان الدولة الروسية تعانى من فساد المعدة .

وانكب على علية الحلويات بتطبيقية مرضية ، وحشر بأصبعه فيها ، ولم يقع اختياره على قطعة ، ورفع الى عينيه منظارا بحريا كان متعلقا بسير من رقبته .

وتحول الحديث الى الركود في السياسة والرجعية . وقص كوليتشيك بهمس منفعل آخر فضيحة في البلاط .

فقال شينبرغ بسرعة :

- فطاعة ، فطاعة .

ولطم نيقولاى ايفانوفيتش ركبته ، وقال :

- نحن بحاجة الى ثورة ، ايها السادة ، الى ثورة فورا . وإلا فسنختنق كليا . وعندى معلومات - وخفض هنا صوته - في المصانع اضطراب شديد .

طارت اصابع شينبرغ العشر كلها في الهواء من شدة الانفعال .

- ولكن متى ، متى ؟ من المستحيل ان ينتظر الانسان الى ما لا نهاية .

فقال نيقولاى ايفانوفيتش بمرح :

- سنرى حتما ، يعقوب الكسندروفيتش ، وسنعهدهد لك وزارة العدل يا صاحب المعالي .

سئمت داشا من الاستماع الى هذه القضايا ، والشواتر ، والمناصب الوزارية . وضعت كرعا على مغل المقصورة ، وطوقت باليد الأخرى خصر كاتيا ، وحدقت في قاعة المسرح ، هازة رأسها لمعارفها بابتسامة بين العين والآخر . كانت داشا تعرف وترى انها واختها موضع اعجاب الناس ، فكانت تلك النظرات المندمسة بين جمع الناس - نظرات الرجال الرقيقة ، ونظرات النساء الحاقنة - وتنف العبارات ، والابتسامات تخلف في نفسها ما يخلفه هواء الربيع من احساس بالسكر . وزايلها مزاجها الباكى . ودغدغت خصلة من شعر كاتيا خدها قرب اذنها .

همست داشا :

- كاتيا ، انا احبك .

- وانا ايضا .

- هل انت مسرورة لاننى اعيش معك ؟

- جدا .

وفكرت داشا بشئ آخر لطيف تقوله لكاتيا . وفجأة وقع بصرها على تليغين في الأسفل . كان واقفا يرتدى ستره سوداء ، ويحمل في يديه قبعته ، وبرنامج العفلة ، وكان منذ وقت طويل يختلس النظر الى مقصورة آل سموكونفنيكوف ، دون ان يرفع رأسه مخافة ان يلاحظ . وكان وجهه الملوح القوي يبرز واضعا بين الوجوه الأخرى اما لشدة بياضها ، او هولها . وكان شعره أكثر شقرة مما كانت تصوره . فقد كان بلون الشوفان .

التقت عيناه بعيني داشا فانحنى تحية لها في الحال ، ثم استندار ، الا ان قبعته سقطت منه . ولما انحنى ليرفعها ، اصطدم بسيدة بدنية جالسة في مقعد وثير ، فاخذ يعتذر ، وصعد الدم الى وجهه ، وتراجع وداس على قدم محرر المجلة الجمالية «جوتسة الموزيات» . قالت داشا لاختها :

- هذا هو تليغين .

- اراه ، انه لطيف جدا .

- من لطفه وددت لو اقبله . ليتك تعرفين اى ذكاء له ، يا كاتيا .

- داشا ، هذا ...

- ماذا ؟

الا ان اختها صمتت . وفهمت داشا فصمتت ايضا . وعاد قلبها الى انقباضه ، وسرى الاضطراب داخل قوتعتها . سرحت هنيهة ، وبعد ان نظرت من جديد الى تلك الاعماق ، رأت الظلام والرهبة هناك .

وحين انطفأت الانوار ، وانفجرت الستارة على الجانبين ، تنهدت داشا ، وكسرت كسرة من شوكلاته ، ووضعتها في فمها ، واخذت تصغى بانثباه .

مازال الرجل ذو النحية المستعارة يهدد بحرق المخطوطة ،

والفتاة تسخر منه ، وهي جالسة الى البيانو . وكان واضحا ان من الضروري ان تتزوج هذه الفتاة باقصى سرعة ممكنة ، لكي لا يجرجر الحبل خلال ثلاثة فصول .

رفعت داشا عينيهما الى سقف القاعة ، فرات عليه صورة امرأة حسناء نصف عارية تطير بين السحب ، وعلى ثغرها ابتسامة صافية . وقالت لنفسها : « يا آلهي ، ما اشبهها بي ! » وفي الحال رأت نفسها بعين اخرى : مخلوقة في مقصورة تاكل الشوكولاته ، وتكذب ، وتتورط ، وتنتظر ذلك الشيء غير المألوف يحدث من تلقاء نفسه ، ولكن لا شيء يحدث « ولا حياة لا حتى اذهب اليه ، واسمع صوته ، واحس بكل كيانه . اما سائر الاشياء فكذب . المهم ان يكون المرء نزيها » .

ومنذ ذلك المساء كفت داشا عن التردد . لقد عرفت الآن انها لا بد ذاهبة الى بيسونوف ، وخشيت تلك الساعة . عزمتم مرة ان تسافر الى ابنيها في سامارا . الا ان فكرت بان الالف والخمسمائة كيلومتر ، لا تحميها من الغواية ، فهزت يدها ، وكأنها تقول وليكن ما يكون .

ونحقت انوثتها العذراء الناضجة بالعافية ، ولكن ما كان في وسعها ان تفعل شيئا ازاء «الشخص الثاني» في داخلها اذا كان العالم كله يعينه عليها . واخيرا كان مهينا على نحو لا يطاق ، ان تعذب وتفكر طويلا جدا بيسونوف هذا ، الذي لا يريد حتى ان يعرفها ، ويعيش خالي اليال مستمتعا بحياتها في مكان قرب جادة كامينواستروفسكي ، وينظم الاعمار عن فنانة ترددي تنوروت مدتلة . بينما هي ، داشا ، قد امتلأت به الى آخر قطرة ، وذابت فيه .

واخذت داشا ، الآن ، تعتمد تصنيف شعرها مبسطا ، وتلفه كالعقدة على عليائها ، وتلبس ثوبا قديما - مدرسيا - جلبته من سامارا ، وتستظهر القانون الروماني حزينة جهما ، ولا تغسج الى الضيوف ، وتمتنع عن التسليات . ولكن التمسك بالنزاهة لم يكن بالأمر الهين كما تبين . فقد جنبت داشا في الواقع . في مساء منعش البرودة في بداية نيسان ، سارت داشا من الجزر الى البيت ماشية ، وكان الغروب قد خفت ، وشعنت السماء

الليلقية الضاربة الى الخضرة ، بنور فسفوري ، دون ان تلقى ظللا .

في البيت قالت داشا انها ذاهبة للدراسة ، وفي الحقيقة انها ركبت الترام الى جسر يلاغين ، وقضت المساء كله تجوب الممرات الجرداء الاشجار ، وتعبير القناطر ، وتنتظر في الماء ، وفي الاغصان اليلقية المسطحة في وهج الغروب البرتقالي ، والى وجوه المارة ، والى اضواء العربات ، وراء جذوع الاشجار المطعبلية . وكان فكرها خاليا ، وخطواتها متندة .

كانت السكنينة ترين على نفسها ، وهواء البحر الربيعي العالج قليلا يتغلغل في كل كيائها . تعبت قدمها ، ولكنها لم ترد ان تعود الى البيت . كانت العربات تنطلق عدوا في جادة كامينواستروفسكي ، وتقرق السيارات موقعا ، ويمتشي المتنزهون جماعات متبادلين النكات والضحكات . وانعطفت داشا في شارع جانبي .

كان الشارع هادئا تماما وخاليا . وكانت السماء فوق سنقوف البيوت خضراء . وكانت الموسيقى تتسرب من خلال الستائر المسدلة في كل بيت . في هذا البيت يتعلم احد عزف سوناتة ، ومن ذلك تأتي موسيقى فالس مألوفة اليفة ، ومن تلك النافذة للعملية المصطبغة بجمرة الغروب الكامدة يصدر كمان .

وشعرت داشا ، وقد افعمت الاصوات قلبها ، بان كيائها كله يترنم ايضا ، ويحا وكان جسدها قد امسى خفيفا تقيا . استدارت في منعطف ، وقرأت رقم دار على الحائط ، وتبسمت . وتقدمت من بابها الامامي الذي دقت عليه تحت راس اسد برونزي بطاقة زيارة كتب عليها « ا . بيسونوف » . وقرعت الجرس بقوة .

V

كان الحاجب في مطعم «فينا» يساعد بيسونوف على خلح معطفه ، فقال له بلهجة ذات معنى :
- يا الكسي الكسيفيتش ، ان شخصا ينتظرك .

- من ؟

- انسى .

- من هي ؟

- لا نعرفها .

سار بيسونوف الى الركن القصى من قاعة المطعم ، وهو ينظر فوق الرؤوس بعينين فارغتين . احنى لسكوتكين رئيس التمدل سمبليه الجانبيتين الشيباوين على كتفى بيسونوف ، وقال ان طبق اليوم الممتاز هو من لحم الضأن . فقال له بيسونوف :

- لا اريد ان اكل . قدم لى نبيذى الابيض المفضل .

وجلس يادى الوقار ، مرفوع الصدر ، واضعا يديه على الخوان . فى هذه الساعة ، وفى هذا المكان كانت تتناهى فى العادة حالة متكررة من الالهام الكئيب . كانت جميع انطباعات اليوم تندمج فى شكل منسق مدرك ، وفى داخله ، فى الأعماق المتأججة بعزف الكمانات الرومانسية ، وروائح العطور النسائية ، واحتباس الهواء فى قاعة المطعم المكتظبة بالناس كان يظهر ظل لهذا الشكل الآتى من الخارج ، وهذا الظل هو الالهام . وكان يشعر بانه يتوصل الى المعنى الخفى للاشياء والكلمات بحاسة تلمس داخلية عمياء .

رفع بيسونوف قذح النبيذ ورشف منه دون ان يباعد بين اسنانه . كان قلبه يخفق ببطء . وكان يخامر شعور بالراحة لا يوصف متغلفلا فى كامل كيانه المتشبع باصوات الموسيقى والناس .

وعلى مائدة مقابلة قرب المرأة كان يعشى سابوجكوف ، وانتوشكا ارنولدوف ، ويلزافيتا كييفنا . وكانت هذه قد ارسلت الى بيسونوف بالأمس رسالة طويلة ، وحددت له موعدا للقاء هنا ، وهى الآن جالسة محمرة متفعله . كانت ترتدى ثوبا من قماش مخطط بالاسود والاصفر ، وتضع فى شعرها عقدة بهذا اللون . وحين دخل بيسونوف احست بضيق فى نفسها .

- كونى على حذر ، انه هجر الفنائة ، وهو الآن من غير امرأة ، وخطر ، كالنمر ، - همس لها ارنولدوف كاشفا راسا عن اسنانه الذهبية والمسوسة .

وضحكت يلزافيتا كييفنا ، واهتزت عقدتها المخططة ، وسارت بين الموائيد الى بيسونوف ، تحت نظرات الناس وتكثيراتهم .

اوضحت حياة يلزافيتا كييفا فى المدة الاخيرة مضجرة للغاية ، كانت الايام تتابع دون ما عمل تتغير به ، ودون امسل فى حال افضل . وبكلمة واحدة سام محض . وكان واضحا ان تليفين ينفر منها . كان يعاملها بلطف ، ولكنه كان يتجنب ان يتحدث اليها او يلتقى بها على افراد . بينما كان هو يشعر بانها بحاجة اليه بالذات . فكانت ، اذا تردد صوته فى الرواق ، تحدى فى الباب تحديقة نافذة . وكان يسير فى العمر على اطراف اصابعه دائما . بينما كانت هى تنتظر ، واجمة القلب ، والباب يتراى ذاتيا امام بصرها ، الا انه كان يمر بها ، شأنه كل مرة ، دون ان يتوقف ليترك الباب على الاقل ويطلب عود تقاب .

قبل بضعة ايام اشترت احد كتب بيسونوف ، مناكدة جيروف الذى كان يعيب كل شىء فى هذه الدنيا بعذر قط ، قطعت اوراق الكتاب بمكواة الشعر وقراته عدة مرات متتابة ، ودلقت عليه القهوة ، وجعدته وهى تقرأ فى السرير ، واخيرا اعلنت ، عند الغداء انه عبقرى ... انفلع نزلء شققة تليفين . ووصف سابوجكوف بيسونوف بانه دملة فى جسم البرجوازية المتفسخ . وتضخ عرق على جبين جيروف . وكسر الرسام قاليبت صحننا . وبقي تليفين وحده غير مبد اهتماما . وعند ذلك حدث فى نفسها ما يسمى «بالحظة استفزاز النفس» . فراحت تقهقه ، وذهبت الى غرفتها ، وهناك كتبت الى بيسونوف رسالة متحمسة سخيفة ، تطلب فيها ان تلتقى به ، وعادت الى غرفة الطعام ، والقت الرسالة على المائدة ، صامتة . قرا النزلاء الرسالة بصوت عال ، وتناقشوا طويلا . وقال تليفين :

- رسالة جريئة جدا .

عندئذ سلمت يلزافيتا كييفنا الرسالة الى الطباخة ، لترميها فى صندوق البريد فى الحال . وشعرت بانها تندفع فى هاوية . والآن ، وهى تتقدم من بيسونوف ، بادرته قائلة بخفة :

- كتبت لك ، فحجت . شكرا .

وجلست قبالتها في الحال ، مديرة جنبها الى المائدة ، واضعة ساقا على ساق ، مركزة كوعها على الخوان ، مستندة ذقتها على راحة يدها ، وانفثت تنظر الى بيسونوف بعينها المرسومتين على ما تبدوان . لزم بيسونوف الصمت . جلب النادل قدحا ثانيا ، وصب فيه النبذة ليلزافيتا كييفنا . قالت الفتاة :

- ستستال ، طبعاً ، لماذا اردت ان اراك .

- لا ، لن اطرح هذا السؤال . اشربى نبيذك .

- انت محق ، فليس عندي ما اقله . انت تحبها ، يا بيسونوف ، وانا لا . مجرد اثني ضجرة .

- ماذا تمارسين ؟

- لا شيء . - وضجكت ، وصعد الدم الى وجهها في الحال . -

يضجرني ان اصبح محطية . انا لا اعمل شيئا . انا في انتظار ان تصدح ابواقى ، ويندلع الهمج ... ابيدو ذلك غريباً لك ؟

- ومن انت ؟

لم تجب ، واطرقت براسها ، وازداد احمرار وجهها ، ثم همست :

- انا طيف .

ابتسم بيسونوف ابتسامة متكلفة ، وفكر مع نفسه : « بلهاء انها بلهاء » . الا ان لشعرها الذهبى مفرقا محبباً للنفس ، مفرق آنسمة ، وبدت كثفاها الممثلتان المكشوفتان بشدة نقيتين حتى ان بيسونوف ابتسم مرة اخرى اكثر طيبة ، ومص قدح النبيذ من خلال اسنانه ، وتولدت في نفسه رغبة مفاجأة في ان ينثف على هذه الفتاة الساذجة دخان خياله . فذكر لها ان ليل العقاب الرهيب في سبيله الى ان يخيم على روسيا ، وانه يتحسس ذلك ، بامارات خفية منحوسة .

- لا يد اناك قد شاعدت في المدينة اعلانا ملصقاً على الجدران يصور شيطاناً مقهقها يتدفع هابطاً سلماً هائلا على اطار سيارة ... اتفهين ما يعنى هذا ؟

نظرت يلزافيتا كييفنا الى عينيه الثلجيتين وقمه الانثوى ، وحاجبيه التحيلين الرفوعين ، والى ارتجاف اصابه الخفيف وهى تحمل القدح ، والى احتسائه النبيذ بنهم وببطء . ودار راسها

دورانا ممعنا . وعلى مسافة بعيدة بدا سابوجكوف يرسل الایمادات لها . وفجأة التفت بيسونوف ، وسال عبوساً :

- من هؤلاء الناس ؟

- انهم اصدقائى .

- لم تعجبني ايماءاتهم .

عندئذ قالت يلزافيتا كييفنا دون ترو :

- لنذهب الى مكان آخر ، الا ترغب ؟

تقرس بيسونوف فيها . كانت عينها محولتين قليلا ، وفيها يفت عن بسمة خفيفة ، وقد ظهرت حبات عرق صغيرة على صدغيتها . وفجأة احس بلهفة الى هذه الفتاة القوية والمعافة القصيرة النظر ، فامسك بيدها الكبيرة الحارة التي كانت مستقرة على المائدة ، وقال :

- اما ان تنصرفي الان ... واما ان تلزمني الصمت . تعالى -

من الضروري التصرف على هذا النحو .

اكتفت يلزافيتا كييفنا بان ارسلت زفرة قصيرة ، وغاض الدم من وجنتيها . ولم تشعر كيف نهضت ، وامسكت بيسونوف بيدها ، وسار الاثنان بين الموائد . وحين جلسا في العربة لم تستطع الريح نفسها ان تبرد جلدها الملتهب . قرقعت العربة على بلاط الشارع . استند بيسونوف على مقبض عصاه بكتلتا يديه ، ووضع حذكه عليهما ، وقال :

- عمرى خمسة وثلاثون عاما ، ولكن الحياة انتهت ولن يخدعنى الحب بعد الان . اى شيء اكاب من ان يكتشف المرء فجأة بان جواد الفارس ما هو الا حصان من خشب ؟ وما يزال الى الامام وقت طويل جدا - اجرجر نفسى في هذه الحياة كالجيشة - والتفت وانفجرت شفقتاها عن بسمة هازئة - يبدو ان على ايضا ان انتظر مثلك حتى تصدح ابواق اربعا . حسنا ، جميل لو يرتفع فجأة من هذه المقبرة صداح ابواقى ! وينتشر الهمج في ارجاء السماء ... نعم ، يبدو انك على حق ...

وصلا الى فندق خارج المدينة . قادهما النادل الناعس عبر دهليز طويل الى الغرفة الوحيدة التي بقيت شاغرة . وهى غرفة واطنة السقف اوراق جدرانها حمراء ، مشمقة ، مبقة . وكان ثمة

سرير كبير قد وضع عند الجدار تحت ظليلة حائلة اللون ، وعند
قدمي السرير مفصلة تصديرية . وكانت الحجرة تفتح برطوبة
محبوسة ، وعطن تبغ . سألت يلزافيتا كيفنا ، وهي عند الباب ،
بصوت لا يكاد يسمع :

- لماذا جئت بي الى هنا ؟

سارع بيسونوف بجيب :

- لا ، لا ، سنرتاح هنا .

خلع معطفها وقبعتها ، ووضعها على مقعد مخلوع . جلب
النادل زجاجة شمبانيا ، وتفاحات صغيرة ، وعنقود عنب معفر
بالنشارة القلبيية ، ونظر الى المغسلة ، واختفى عبوسا كما كان .
ازاحت يلزافيتا كيفنا الستارة عن النافذة ، فرات مصباحا
غازيا يضيء وسط العراء الرطب ، وصهاريج ضخمة يسوقها اناس
متكورون تحت ظليلات الخيش . ابتسمت بكأبة واقبلت على
المرآة ، واخذت تسوى شعرها بحركات جديدة غير مألوفة اليها
نفسها . وفكرت مع نفسها هادئة : «غدا حين اتوب الى رشتي ،
اجن» وعدلت العقدة المخططة . سال بيسونوف :

- اتريدن نبيذا ؟

- نعم ، اريد .

جلست على الاريقة ، واقمى هو عند قدميها على البساط ،
وقال في تأمل :

- ان لك لعينين مخيفتين : وحشيتين وبديعتين . عينتان
روسيتان . اتحبيتنى ؟

وعاودها الدهول مرة اخرى ، الا انها حدثت نفسها في اللحظة
التالية : «لا ، ذلك هو الجنون بعينه» . تناولت القدر من يديه ،
مترعا بالنبيذ ، وشربت ، وفي الحال دار راسها ببطء ، وكانها
تنهار . قالت وهي تتسمع كلماتها وكانها ليست كلماتها وكانها تتردد
من بعيد :

- انتي اخاف منك ، وساكركم لا بد لا تنظر الى هكذا ،

تخجلنى .

- انت فتاة غريبة .

- بيسونوف ، انت رجل خطير جدا . انا من عائلته على

اليذهب الدينى القديم ، وانا اؤمن بوجود الشيطان ... اوه ، يا آلهي ،
لا تحدد بي هكذا . انا اعرف ، لماذا اردتنى ... انا اخشاك .

وضحكت بصوت عال ، وارتج كل جسدها من ضحكها ،
وطرطش النبيذ من القدرح في يدها . وانزل بيسونوف وجهه على
ركبتها . وقال بصوت يانس ، وكان خلاصه كله الآن في يديها :

- احببني ... اتوسل اليك ان تحبيني ... انا مرهق ...

واحس بالرهبة ... رهبة الوحدة ... احببني ... احببني ...

وضعت يلزافيتا كيفنا يدها على راسه ، واغمضت عينها .
قال انه في كل ليلة تتملكه رهبة الموت . ويجب ان يستشعر
وجود انسان قريبا منه ، الى جانبه ، يأسو له ، ويدفؤه ، ويهب
نفسه له . ذلك عقاب ، عذابات ... «نعم ، نعم ، اعرف ...
ولكننى قد فقدت الحس بسبب البرد . وقلبي قد توقف . ادفئتنى .
انا بحاجة الى القليل . واسفقى على ، فانا اموت . لا تتركينى
وحيدا ، ابتها الفتاة الطيبة ، الطيبة ...»

صمتت يلزافيتا كيفنا رعبا واضطرابا . بينما راح
بيسونوف يقبل راحتها بقلبات تزداد طولا . وصار يقبل ساقيها
الكبيرتين القويتين . شدت الفتاة على نفسها اقوى ، وبدا وكان
قلبا قد توقف من الخجل الشديد .

وفجأة لفت نار صغيرة كل كيائها . فقد صار بيسونوف يبدو
قريبا الى النفس ، بانسا ... رفعت راسه قليلا ، وقبلت شفتيها
بقوة وبهم . وبعد ذلك وقد زابلها الخجل خلعت ثيابها بعجالة ،
واضطجعت على السرير .

وحين غفا بيسونوف ، واضعا راسه على كتفها العارية ، ظلت
تحقق طوليا بعينيها قصيرتى النظر في وجهه الشاحب المصفر الذى
انتشرت تجاعيد التعب عليه كله ، على الصدغين ، وتحت الجفنين ،
وعند الفم المطبق . وجه غريب ، ولكنه الآن حبيب الى الأبد .

كان النظر الى النائم متعبا جدا حتى ان يلزافيتا كيفنا اخذت
تبكى .

تصورت ان بيسونوف ، اذا ما استيقظ ، وراها في السرير ،
ممتلئة ، غير جميلة ، ذات عينين منتفتحتين من البكاء ، فانه
سيسعى الى التخلص منها في الحال ، ولا يمكن ان يعيها شخص

بعد الآن ، وسيتيقن الجميع من انها امرأة متحللة ، بلهاء ، رخيصة ، وانها ستتعهد ان تفعل كل ما من شأنه ان يحملهم الى التفكير بانها تحب رجلا واحدا ، بينما منحت نفسها لرجل آخر ، وهكذا ستكون حياتها دائما مملوءة بالكدر والقدارة والاهانات الموجهة . اخذت يلزافيتا كييفنا تنتحب بحذر ، وتمسح عينيها بظرف المقرش . حتى غلبها النوم ، على هذه الحال ، والدموع في عينيها .

استنشقت بيسونوف الهواء من انفسه بعمق ، واستدار الى ظهره ، وفتح عينيها . كان جسمه كله يئن تحت وطأة انقباض لا يوصف من خمار البارحة . وكان من المقرف التفكير بضرورة الشروع في يوم جديد . امعن النظر طويلا في كرة السرير المعدنية ، ثم تجرا على النظر الى يساره . كانت امرأة تنبسط الى جانبه ، على ظهرها ايضا مغطية وجهها بكوعها العارى .

«من هي ؟» وشهد ذاكرته المضطربة ، غير انه لم يتذكر شيئا . سحب علبة سنيكائره من تحت الوسادة بحذر ، واشعل سيكارة «اوه ، يا للشيطان ! نسيت ، نسيت ، فو ، فطاعة» .

قال بصوت متلطف :

- يبدو انك قد استيقظت . صباح الخير .

لزمت المرأة الصمت ، ولم ترفع كوعها . فتابع يقول :

- بالأمس كنا غربيين . ونحن اليوم مربوطان بالعرى الخفية

لهذه الليلة .

وتعيس . كان كل ذلك نوعا من الابتدال . والشئ الرئيسى

انه لا يعرف ماذا ستفعل الفتاة الآن . اتبدي ندما وتبكي ، ام

يستولى عليها فيض من مشاعر القربى ؟ مس كوعها بحذر ،

وتنحى . يبدو ان اسمها مارغريت . قال مبهوما :

- هل انت غاضبة ، يا مارغريت ؟

عندئذ جلست مستندة على الوسائد ، واخذت ترمقه بعينيها

الجاحظتين الضميرتى النظر ، وهي تمسك على صدرها قميصها

اللبي الساطق . كان جنناها منتفخين ، وفيها الممتلئ معوجا في

إبتسامة هائلة . وتذكر كل شئ واحس برقة كرة اخ . قالت :

- لست مارغريت ، بل يلزافيتا كييفنا . انا امقتك . انزل

من السرير .

انسل بيسونوف من تحت الغطاء فورا ، واخذ يرتدى ملاپسه ،

على نحو ما ، وراء سدل السرير ، قرب المغسلة العفنة ، ثم ازاح

الستارة عن النافذة ، واطفا الصباح الكهربائى . وتمتم :

- هناك لحظات لا تنسى .

طلت يلزافيتا كييفنا تتابعه بعينيها الداكنتين . وحين جلس على

الارايكة يدخن سيكارة ، قالت ببطء :

- ساذهب الى البيت ، وسامسم نفسى .

- انا لا افهم مزاجك ، يا يلزافيتا كييفنا .

- لا احتاج الى ان تفهمنى . اخرج من الغرفة ، فانا اريد ان

ارتدى ثيابى .

خرج بيسونوف الى الدهليز حيث كان يسرى تيار قوى مسن

الهواء ، وتفوح رائحة غاز الكاربون . واضطر الى الانتظار طويلا .

فجلس على افريز النافذة يدخن . ثم سار الى نهاية الدهليز ، حيث

تناهت اليه من مطبخ صغير اصوات واطقة لنادل وخادمتين يتبادلون

الحديث ، وهم يحتسون الشاى ! قال النادل :

- ملات اسماعنا يقريتك . انها ليست روسيا . انت لا

تفهمين شيئا ! تجولى ليلا في الغرف ، وستترين روسيا امامك .

الجميع اوغاد . اوغاد واوباش .

- كن ارق فى تعابيرك ، يا كوزما ايفانيتش .

- اذا كنت اعمل في هذه الغرف ثمانية عشر عاما ، فمعنى

ذلك ان لي حقا في ان اتكلم هكذا .

فقل بيسونوف عائدا ، فرأى باب غرفته مفتوحا ، والغرفة

فارغة . وكانت قبعتها ملقاة على الارض .

وفكر : «ليكن . هذا افضل» ، وتتاب ، وتمطى معدلا

عظامه .

وهكذا بدا يوم جديد . وكان يختلف عن اليوم الفائت بان

ريحا قوية منذ الصباح بددت السحب الممطرة ، وسانتها نحو

الشمال ، فتبدلت هناك كتلا بيضاء واسعة . كانت المدينة المبللة

تضرب بسيلول باكرة من نور الشمس وكانت الغيلان الهلامية الخفية

عن العين - نزلات البرد والسعال ، والعلل الخبيثة ، وعصيات السل السوداءية تتكور على نفسها ، وتشوى ، وتغيب عن الوعي ، وحتى الميكروبات شبه الغامضة للنيورستينا السوداء لذت وراء الستار ، في ظلام الغرف والاقبية الرطبة . وكانت ريح خفيفة تهب على الشوارع . وفي البيوت كانت النوافذ تنظف وتفتح . وكان البوابون في قصصهم الزرق يكسسون الارصفة . وفي جادة نيفسكي كانت فتحات الشوارع ذات الوجوه المخضرة يعرضن للسابلة باقات من زهور الثلجية المعطرة بانواع رخصنة من ماء الكولونيا . وفي المخازن كان يرفع ما هو شتوى على عجل ، وتظهر في الواجهات الاشياء الربيعية البهجة مثل الازهار الاولى .

طلعت صحف ما بعد الظهر كلها تحمل العناوين : «مرحباً بالربيع الروسى» . وكانت بعض القصائد اذواجية المعنى بشكل بالغ . وباختصار استهلت الرقابة .

وفي آخر الامر سار في شوارع المدينة المستقبلية من جماعة «المجمع المركزى» وسط صفيح الاولاد وصيحاتهم . وكانوا ثلاثة : جيروف ، والرسم فالت ، واركادى سيميسفيتوف الذى لم يكن معروفا لاحد آنذاك ، وهو شاب طويل القامة له وجه حسان .

كان هؤلاء المستقبليون يرتدون بلوزات قصيرة بلا احزمة من المخمل البرتقالى اللون المخطط بخطوط ملتوية سوداء ، وقد حمل كل واحد منهم منظارا احادى العدسة ، ورسم على خده سمكة ، وسهما ، وحرف «ر» . وفي حوالى الساعة الخامسة اعتقلهم مفتش الشرطة في منطقة ليتينايا ، وحملهم في عربة الى مركز الشرطة للتحقيق في هوياتهم .

كانت المدينة كلها قد خرجت الى الشوارع . سارت العربات الالامعة وسيول الناس في شوارع مورسكايا ، والكورنيش ، وجادة كامينواستروفسكى . وكانت كثرة كاثرة من الناس تصور ان شيئا غير اعتيادى لا بد سيحصل اليوم : اما ان يوقع على بيان في قصر الشتاء ، او يسنف مجلس الوزراء بقتيلة ، او عموما «سبيدا» في مكان ما . . .

الا ان الغسق قد غيم على المدينة ، واضيئت الانوار على طول

الشوارع والقنوت عاكسة على الماء الاسود ابرا متعرجة من الضوء ، ولاح غروب هائل ، داخن غائم ، من على جسور النيفا وراء مداخن مصانع انشاء السفن . ولم يحصل شئ . وموضت آخر لمعة على اشبيل قلعة بطرس وبولس ، وانتهى النهار .

عمل بيسونوف في هذا النهار كثيرا وبشكل طيب . انعشته الاغفاءة بعد الفطور ، فاخذ يطالع جوتيه طويلا ، وقد اثارته المطالعة واقلقته .

سار بين رفوف الكتب ، وفكر بصوت مسموع ، وجلس بين الحين والآخر الى مكتبه يسجل الكلمات والايات . جلبت مدبرة البيت العجوز التي كانت تعيش معه في شقة العزوبة ابريقا من الصينى يتساعد منه بخار قهوة الموكا .

كان بيسونوف في لحظات من التبلى . فقد كتب ان الليل يخيم على روسيا ، وتنفج ستارة الامساء ، والشعب الذى يعبد الهه يتحول بمعجزة شان القوزانى فى قصة غوغول «الانتقام الرهيب» الى متمرد على الله ، ويرتدى قناعا رهيبا . ويجرى الاعداد للاحتفال بالقداس الاسود على نطاق الشعب كله . وتنفج الهاوية . وما من خلاص .

اغض عينيه وتصور حقولا مقفرة ، وصلباناً على المدافن ، وسقوبا بددنها الريح ، وفي المدى البعيد ، وراء التلال ، هالة نيران الحرائق . امسك راسه بكلتا يديه ، وفكر بان هه الصورة بالذات يحب تلك البلاد التي عرفها عن طريق الكتب والصور فقط . تغطي جبينه بالفضول العميقة ، وامتلا قلبه برعب التنبؤ . وبعد ذلك وضع السيارة المشتعلة بين اصبعيه وكتب ورقات مخشخشة يخله الكبير .

وعند هبوط الظلام استلقى بيسونوف على الاركة دون ان يشعل الضوء ، والقلق ما يزال يستولى على كيانه ، ورأسه ملتعب ، ويده نديتان . وبهذا انتهى عمله اليومى .

انتظمت دقات قلبه شيئا فشيئا ، وصارت اكثر هدوءا . والان كان عليه ان يفكر كيف يمضى هذا المساء واللييلة . اوف . . . لا احد تلفن له ، ولا زاره . يتعين عليه ان يصارع شيطان السام وحده . ومن الطابق العلوى ، حيث كانت تعيش عائلة انجليزية ،

كان يتناهى الى سمعه عزف بيانو ، وقد بعثت هذه الموسيقى في نفسه رغائب غامضة مستحيلة .

وفجأة رن جرس الباب الغارجي في صمت البيت . وسمع بيسونوف خفق خطوات نعال مدبرة البيت على الارض . وصوتنا نسانيا معقدا :

- اود ان اراه .

ثم توقفت خطوات خفيفة دؤوب عند الباب . ايتسم بيسونوف هائلا ، ودون ان يتحرك . انفتح الباب قبل ان يطرق ، ودخلت الغرفة فتاة هيفاء نحيلة اضاءها من الخلف ضوء الدلميز ، كانت تضع على راسها قبعة كبيرة غرزت فيها زهور بيضاء نائنة .

توقفت وسط الغرفة ، وهي لا تميز شيئا من الضوء ، وحين نهض بيسونوف من الاريكة صامتا ، تراجع قليلا ، الا انها هزت راسها بعزيمة ، وقالت بنفس النبرة العالية :

- اتيت اليك في امر مهم جدا .

تقدم بيسونوف من المكتب ، واضاء المصباح . تنورت ظليلة المصباح الزرقاء بين الكتب والمخطوطات ، وملاّت الغرفة كلها بضوء خافت هادي .

- ما الذي استطيع ان افعله لك ؟

قال الكسي الكسيفيتش ذلك ، وهو يشير للقادمة الى المقعد ، وجلس هو على كرسى مكتبه بهدوء ، واضعا يديه على مرفقي الكرسى . كان وجهه شديد الشحوب ، وتحت جفنيه ازرقاق . رفع عينيه الى زائرتة على مهل ، وجفل ، وارتجفت اصابه . وقال بخافت الصوت :

- داريا دميترييفنا ، لم اعرفك في اللحظة الاولى .

جلست داشا الى المقعد بنفس الحزم الذي دخلت به ، ووضعت على ركبتيها يديها المعقّرتين بقفازين من جلد الحمل ، وقطبت حاجبها ؛

- انا سعيد في زيارتك ، يا داريا دميترييفنا . انها هدية كبيرة جدا .

قالت داشا دون ان تسمعه :

- لا تتصور ، ارجوك ، اننى من المعجبات بك . ان بعض قصائدك تعجبني ، وبعضها الآخر لا يعجبني ، انا لا افهمها ، ولا اجبها ابدا . وانا لم اجيء مطلقا لاتحدث عن الاشعار . . . بل جئت لانك قد عذبتنى .

وخضت راسها كثيرا ، فلاحظ بيسونوف ان عنقها قد احمر ، وكذلك مصعماها ما بين نهاية القفازين وكفى الثوب الاسود . لزم بيسونوف الصمت ، ولم يبد حراكا .

- وبالطبع ان ذلك الامر لا يعنك . وكم اود انا ايضا ان لا يعنينى . ولكننى اضطر الى ان اعانى ، كما ترى ، لحظات مؤلمة جدا . . .

ورفعت راسها بسرعة ، وحدقت في عينيه بعينها الصارمتين الصافيتين . فاسبل بيسونوف جفنيه ببطء .

- لقت ولجت على كالمريض . انا دائما اجد نفسى افكر فيك وذلك ، في آخر الامر ، فوق مستوى طاقتى . كان من الافضل ان اجي ، واقول لك بصراحة . واليوم قد وطدت عزمى على ذلك .

وها انا قد جئت لاعلمن لك عن حبي . . .

وارتعشت شفاتها ، واسرعت فاشاحت بوجهها ، وراحت تنظر الى الجدار ، حيث علق قناع بطرس الاول مضاء من الاسفل بجفنيه المطبقين وبابتساماة ترف على فمه المطبق ، وكان محبوبا لدى جميع الشعراء في ذلك الحين . وفي الطابق العلوى كانت عائلة الكاهن الانجليزى تغنى رابعة : «نموت» . «لا ، تطير» . «في السماء البلورية» . «في الفرح الغالد المخلد» .

وتكلمت داشا بسرعة وحرارة :

- وان اخذت تؤكّد لي بانك تحمل مشاعر ما تحوى فائنى سناغار على التو . انك لا تستطيع حتى ان تضمر لي الاحترام ، هذا شيء واضح . فان النساء لا يتصرفن تصرفى هذا . ولكننى لا اريد شيئا ، ولا اطلب شيئا . كنت اريد فقط ان اقول انسى احبك حبا مبرحا وعنيفا جدا . . . وقد هد هذا الحب كيانى . . . ولم يُبق حتى على كبريانى . . .

وقالت لنفسها : «والآن جميل لو انهض واحيي بهزة ابيسة من راسى ، واخرج» . الا انها ظلت جالسة تحدد في القناع الباسم .

وتملكها تعب طاغ يشلها حتى عن رفع يدها ، واحست في تلك اللحظة بكل جسمها ، وبوقره ودفنه . وقالت في سرها ، وكانها في حلم : «اجب ، اجب الآن» . غطى بيسونوف وجهه بكفه ، واخذ يتحدث بصوت خافت مكتوم كما يتحدثون في الكنيسة .
 - لا استطع الا ان اشكرك بكل روى على هذا الشعور .
 ان مثل هذه اللحظات ، مثل هذا الشذى الذى غمرتني به ، لا ينسى ابدا . . .

قالت داشا من خلال اسنانها :

- لا يراد منك ان تتذكرها .

صمت بيسونوف ، ونهض ، وابتعد سائدا ظهره على خزانة الكتب .

- لا يسعني الا ان انجى لك اجالا ، يا داريا دميترييفنا .
 انا لا استحق ان اصغى اليك . ولعل لم العن نفسى من قبل ،
 مثلما العننا في هذه اللحظة . لقد بددتها ، وبذرتنا ، واعتصرت
 نفسى كلها . بم ارد عليك ؟ ادعوك الى فندق خارج المدينة ؟
 ساكون نزيها معك ، يا داريا دميترييفنا . ليس لي ما احب به .
 قبل بضعة اعوام كنت واقفا من اننى ما ازال قادرا على ان انهل
 من الشيباب الابدى ، وما كنت لا تسمح لك بان تغادرينى ،
 احست داشا ، وكأنه يفرز فيها ابرا . فقد كان في كلماته
 عذاب مستطيل . . .

- الآن ابدد الشراب الغالى ليس الا . ولا يد انك تدركين
 ما يكلفنى ذلك . ان امد يدى واتناوله . . .

همست داشا على عجل :

- لا . لا .

- بلى . وانت تعرفين ذلك . ليس هنالك اهل من اثم
 التبذير . والتبديد حتمى ، وهذا ما جنت الى من اجله . من اجل
 تبديد كاس العفاف . . . وقد قدمتها لي . . .
 وقلص عينيه ببطء . نظرت داشا الى وجهه مرعوبة مكتومة
 الانفاس .

- اسمعنى لي بان اكون صريحا معك ، يا داريا دميترييفنا .
 انت شديدة الشبه باختك ، حتى من الوهلة الاولى . . .

صرخت داشا :

- ماذا ؟ ماذا قلت ؟

ووثبت من المقعد ، وتوقفت امامه . لم يدرك بيسونوف
 انفعالها ، ولم يحسن تاويله . شعر بانها فاقد صوابه لا محالة .
 استنشقت منخراه طيب عطرها ، وتلك الرائحة غير المحسوسة
 تقريبا ، والقاهرة في الوقت ذاته ، رائحة بشرة انثى تختلف من
 شخص لآخر .

- هذا جنون . . . انا اعرف . . . لا استطع صبرا . . .
 همس بذلك باحثا عن يدها . الا ان داشا انتزعت نفسها ،
 وركضت . وعند العتبة نظرت بعينين وحشيتين ، واختفت .
 وصفتت الباب الخارجى بقوة . تقدم بيسونوف من مكتبته بخطوات
 بطيئة ، ونقر باظافره على علية بلورية ، وتناول سيكارة . وبعد
 ذلك ضغط كفه على عينيه واحس بكل قوة خياله المخيفة بان
 الراهب الابيض المهيب للمعركة الحاسمة قد بعث له هذه الفتاة
 العاطفية ، الرقيقة ، المغرية ، ليجذبه ، ويحوله ، وينقذه . الا
 انه واقع في قبضة الراهب الاسود على نحو ميئوس منه ، ولا خلاص
 له الا ان . فقد كان الجشع الذى لا يشبع والندم يحرقانه ببطء
 كسهم يجرى في دمه .

٨

- اهذا انت ، يا داشا ؟ ممكن ، ادخل .

كانت يكاترينا دميترييفنا واقفة امام امرأة الصوان ، تشد
 عليها المشد . ابتسمت لداشا بسهموم ، وتابعت الدوران بجهد
 واطئة البساط بتعليها الضيقين . كانت في ملابسها الداخلية
 الرشيقية بالشرائط والمخمرات ، وذراعاها الجميلتان وكتفاها
 مبدورة ، وشعرها مصفف على شكل تاج فاخر . وعلى منضدة واطئة
 الى جانبها وضع قدرح مانحار ؛ وهنا وهناك مقصات للاظافر ومبارد ،
 واصابع احمر الشفاه وكحل الجفون ، وحقن البودرة . واليوم كان
 النساء بلا منهاج ، ويكاترينا دميترييفنا انشغلت «في تنظيف
 ريشها» كما تعود اهل البيت ان يسموا ذلك .

قال وهي تشد جوربها :

- تصوري ان المشدات ذات الصفيحة المعدنية المستقيمة يبطل استعمالها الآن . انظري الى هذا المشد الجديد من مدام ديوكليه . البطن اكثر تحررا بمقدار كبير ، بسـل وبارز بعض الشيء . اعجبك هذا ؟

اجابت داشا : «لا ، لا يعجبني» . وتوقفت عند الجوار ، ووضعت يديها وراء ظهرها . رفعت يكاترينا دميتريفينا حاجبها مندهشة .

- احقا لا يعجبك ؟ يا للأسف . ان لبسه مريح .

- ما هو المريح ، يا كاتيا ؟

- لعل المخزومات لا تعجبك ؟ يمكن استبدالها بأخرى ، عجيب ، على اية حال . لماذا لا يعجبك ؟

وادارت مرة اخرى جنبها الايمن ثم الايسر الى المرأة . قالت داشا :

- ارجوك ، اسألي غيري هل تعجبه مشداتك .

- ولكن نيقولاي ايفانوفيتش لا يفهم شيئا في هذا الأمر . لا يخص الأمر نيقولاي ايفانوفيتش ايضا .

- ما الخبر ، يا داشا ؟

بل وفرت يكاترينا دميتريفينا فاما اندهاشا . لاحظت الآن فقط ان داشا لا تكاد تتمالك نفسها ، وتتكلم من خلال اسنانها ، وعلى خديها بقع ملتهبة .

- يبدو لي ، يا كاتيا ، ان من الاخرى بك ان تكفى عن الدوران امام المرأة .

- ولكن ينبغي علي ان اكون في مظهر لائق .

- لمن ؟

- ما هذا الذي تقولينه ! . . .

- تكذبين .

وبعد ذلك لزمتم كلتا الشقيقتين الصمت وقتا طويلا . رفعت يكاترينا دميتريفينا من المقعد مبذلا من وبر الجمل له بطانة حريرية زرقاء ، وارقدته ، وربطت حزامه ببطنه . راقبت داشا حركاتها باهتمام ، ثم قالت :

- اذهبي الى نيقولاي ايفانوفيتش ، واخبريه بكل شيء في

صدق .

ظلت يكاترينا دميتريفينا واقفة تتحسس حزامها . وكان واضحا ان غصصا قد تصاعدت الى حلقومها عدة مرات ، فكانت تبلع ريقها وكانها تبتلع طعاما . وسال بغفوت :

- داشا ، هل عرفت شيئا ؟

- كنت لتوي عند بيسونوف (وهنا نظرت يكاترينا دميتريفينا بعينين غير مبصرتين ، وشحبت فجأة شحوبا مرعبا ، وهزت كتفيها) يمكنك ان تطمئني . لم يحصل معي شيء . لقد اعلن لي في اللحظة المناسبة . . .

رفعت داشا قدما ، ووضعت اخرى .

- منذ وقت طويل حدثت انك . . . معه بالذات . . . الا ان ذلك كله مرفوف جدا بحيث لا يصدق . . . لقد جنبت وكذبت . وانا لا اسطيع ان اعيش في هذه الرضاة . . . اذهبي الى زوجك ، واخبريه بكل شيء . . .

ولم تستطع داشا ان تواصل كلامها ، فقد كانت شقيقتها تقف امامها مطاطاة الرأس . وكانت داشا تنتظر كل شيء الا طاطاة الرأس المستغفرة الطائعة هذه .

سألت كاتيا :

- هل اذهب الآن اليه ؟

- نعم ، هذه اللحظة . . . يجب ان تفهمي بنفسك . . . ارسلت يكاترينا دميتريفينا تنهيدة قصيرة ، وسارت نحو الباب ، وهناك ابطأت خطاها ، وقالت :

- لا اسطيع ، يا داشا . - الا ان داشا لزمتم الصمت - حسنا ، ساخبره .

كان نيقولاي ايفانوفيتش يجلس في غرفة الاستقبال يطالع ، وهو يحك لحيته بسكين عاجي ، مقالة اكوندين المنشورة في العدد الجديد لمجلة «روسكيه زايسكي» («المذكرات الروسية» .

كانت المقالة مخصصة لذكرى وفاة باكونين . وكان نيقولاي ايفانوفيتش يستمتع بها . وحين دخلت زوجته هتف :

- كاتيوشا ، اجلسي . واسمعي ماذا يكتب . هذه هي

الفقرة . . . «ان سحر هذا الرجل (يقصد باكوفين) * لا يكمن في طراز تفكيره ولا في اخلاصه لقضيته في النهاية ، بل في الحماس الذى طبق افكاره في الحياة العملية ، والذى تشبعت به كل حركة من حركاته ، والمناقشات المساهرة مع برودون ** ، والشجاعة التى تقم بها لهيب النضال ، وحتى هذا العمل الجميل الذى صوب به ، وهو الرجل المتفوضين النصارى ، مدافع المتفوضين النصارى ، قبل ان يعرف جيذا ضد من ولاجمل اى شيء يناضلون . ان حماس باكوفين هو رمز لتلك القوة الجبارة التى تنزل بها الطبقات الجديدة الى حلبة النضال . ومهمة العصر الطالع هى تجسيد الافكار ، لا انتزاعها من تحت اكوام الحقائق الغامضة لزخم الحياة الاعمى ، ولا سحبها الى عالم مثالى ، بل عملية عكسية هى امتلاك العالم المادى بعالم الافكار . ان الواقع هو كومة من الوجود ، والافكار شرارات . وهذان العالمان المنفصلان والمتعاديان يجب ان يتحدا في لهب الانقلاب العالمى . . . » فكرى بذلك ، يا كاتيوشا . . . انه واضح كبياض على سواد : عاشت الثورة . مرحى ، يسا اكوندين ! انه الواقع الذى نعيشه ، بلا افكار كبيرة ولا عواطف كبيرة . الحكومة منساقاة بشيء واحد فقط : الخوف الجنونى على المستقبل . والمتفقون متهاكون على الطعام والشراب . ونحن نقضى اوقاتنا بالثرثرة ، ولا شيء غير الثرثرة ، يا كاتيوشا ، بينما نحن غائضون بالحاجة الى آذاننا . والشعب يتعفن حيا . وروسيا جمعاء قد تأكلها السفلس والفودكا . روسيا متهورة ، ستتحول الى ركام من نفخة واحدة . والعيش على هذا النحو غير ممكن . . . نحن نحتاج الى نوع من حرق النفس ، التطهير بالنار . . .

كان نيقولاى ايفانوفيتش يتكلم بصوت منغل رخم ، شاقا الهواء بالسكين ، وعيناه قد استدارتا . وقتت يكاترينا دميترييفنا

* باكوفين مخائيل الكسندروفيتش (١٨١٤-١٨٧٦) منظر الفوضوية وعدو لدود للماركسية . (الهترجم) .

** برودون بيير جوزيف (١٨٠٩-١٨٦٥) . اشتراكى فوضوى فرنسى من البرجوازية الصغيرة (الهترجم) .

على مقربة ممسكة بظهر مقعد . وحين فرغ من كلامه ، وعاد يشق صفحات المجلة بالسكين تقدمت منه زوجته ووضعت يدها على شعره :

- نيقولاى ، سيؤلمك كثيرا ما ساخبرك به الآن . اردت ان اخفيه ، ولكن اقتضى الامر ان اخبرك به . . . اطلق نيقولاى ايفانوفيتش راسه من يدها ، وامعن النظر فيها .

- نعم ، انا مصغ ، يا كاتيا .
- انت تذكر اننى قلت لك في ساعة غضب حين تخاصمنا ذات مرة بانك يجب الا تشق بى كثيرا . . . ولكنى عدت فنفيت ذلك .
- نعم ، اذكر .

ووضع الملحج ، واستدار في مقعده استدارة كاملة . وتقلبت عيناه ذعرا وهى تلتقيان بنظرة كاتيا البسيطة المطمئنة .

- حسنا . . . لقد كذبت عليك آنذاك . . . لم اكن مخلصه معك آنئذ . . .

غضضن وجهه بشكل يثير الرثاء ، محاولا ان يبتسم . وشعر بجفاف في حلقه . وحين لم يعد البضى فى الصمت ممكنا ، قال بصوت لارنة فيه :

- حسنا فعلت حين قلت لى . . . شكرا ، يا كاتيا . . . عندئذ امسكت يده ، مستنها بشفقتها ، وضغطتها على صدرها ، الا ان اليد انسلت منها ، ولم تعمد هى الى الاحتفاظ بها . وبعد ذلك قعدت يكاترينا دميترييفنا على البساط بهدوء ، ووضعت راسها على ذراع المقعد الجلدية وقالت :

- الا تريد ان افضى اليك باكثر من ذلك ؟
- لا ، اذهبى ، يا كاتيا .

لهضت ، وخرجت ، وعند باب غرفة الطعام اندفعت داشا اليها على غرة ، وتشبثت بها ، وعصرتها ، وهمست مقبلة شعرها ، وجيدها ، واذنيها :

- اعذرينى ، اعذرينى . . . انت رائحة ، مدهشة ! . . . سمعت كل شيء . . . اتصفحني عني ، يا كاتيا ، تعذريني ؟ كاتيا ؟

تحررت يكاترينا دميترييفنا منها بجزء ، وتقدمت من المائدة ، وعدلت ثنية كانت على المقربى ، وقالت :

- نفذت امرك ، يا داشا .
- كاتيا ، اتصفحين عنى يوما ما ؟
- كنت على حق ، يا داشا . فان ذلك افضل .
- لم اكن على حق فى شيء ! فعلت ذلك عن حقد .. عن حقد .. والآن ادرك ان ما من احد يجرو على ادانتك . لا يهم اننا جميعا نتعذب ، واننا سنتالم ، لكنك على حق ، وانا اشعر بانك على حق فى كل شيء .. اعذرينى ، يا كاتيا .

وسالت على خدى داشا دموع كبيرة كجبات الحصى . كانت تقف الى الخلف ، على بعد خطوة من شقيقتهما ، وتتكلم بصوت عال :
- اذا لم تصفحى عنى ، فاننى لا اريد ان اواصل الحياة . التفتت يكاترينا دميترييفنا اليها بسرعة .

- ماذا تريدين منى ايضا ؟ انت تريدين ان يعود الصفاء والمودة الى كل شيء .. ساقول لك اذن .. لقد كذبت وكنت لانه بذلك فقط كان من الممكن اطالة حياتى مع نيقولاى ايفانوفيتش قليلا .. اما الآن ، فقد انتهى كل شيء . هل فهمت ؟ مضى زمن طويل وانا لا احب نيقولاى ايفانوفيتش ، ولا اخلص له . وانا لا اعرف ان كان يحبنى او لا يحبنى ، ولكن لا قرابة بيننا . هل فهمت ؟ اما انت فكالشرشر تخفين راسك تحت ابطك دائما لكيلا تسرى الاشياء الفظيعة . بينما رايتنا وعرفتها ، ولكننى عشت فى هذا القدر ، لانى امرأة ضعيفة . ورايت كيف تبتلعك هذه الحياة ، انت الأخرى . وقد حاولت ان اصونك ، ومنعت بيسونوف من زيارتنا .. كان ذلك حتى قبل انه .. ولكن لا اهمية لذلك .. الآن انتهى كل شيء ..

ورفعت يكاترينا دميترييفنا راسها فجأة ، مرهفة السمع . شعرت داشا بالبرودة تسرى فى ظهرها من الذعر . فقد ظهر نيقولاى ايفانوفيتش عند الباب خارجا بجانبه وراء الستارة . كان يخفى يديه وراء ظهره .

- بيسونوف ؟
سأل ذلك هازا راسه بابتسام . ودخل غرفة الطعام .

لم تجب يكاترينا دميترييفنا . تبقع خداهما ، وبسبت عيناهما ، وانطبق فمها .

- يبدو انك تظنين ، يا كاتيا ، ان حديثنا قد انتهى . انه ظن خاطئ .

- وتابع يقول مبتسما :
- داشا ، اتركينا وحدنا ، ارجوك .
- لا ، لا اخرج .
- وبقيت داشا الى جانب اختها .
- لا ، ستخرجين ، اذا طلبت منك ذلك .
- لا ، لن اخرج .
- فى هذه الحال ، سيتعين على ان اغادر البيت . اجابت داشا ناظرة اليه نظرة ضارية :
- غادر .

احمر نيقولاى ايفانوفيتش ، ولكن فى اللحظة التالية عاد الى عينيه التعبير السابق - الجنون المرح .

- هذا افضل ، ابقى . المسألة على هذا النحو ، يا كاتيا . . . قبل برهة كنت جالسا فى المكان الذى تركتني فيه ، واذا اردت الحق ، فاننى خلال بضع دقائق عانيت ما تصعب معاناته . . . وانتهيت الى استنتاج وهو ان على ان اقتلك . . . نعم ، نعم .

حين سمعت داشا هذه الكلمات اسرعت فالتصقت بشقيقتهما مطوقة اياها بذراعيها ، بينما راحت شفتا يكاترينا دميترييفنا ترتجزان ازدرام .

- انت فى هستيريا . . . انت بحاجة الى ان تتناول قطرات الناردين ، يا نيقولاى ايفانوفيتش ، . . .

- لا ، يا كاتيا ، فى هذه المرة ليست هستيريا . . . صرخت يكاترينا دميترييفنا ودفعت داشا عنها ، واقتربت من نيقولاى ايفانوفيتش تماما صانحة :

- اذن ، افعل ما جئت من اجله . هيا ، افعل . ها انا اقول لك فى وجهك : اننا لا احبك .

تراجع خطوة ، واخرج من وراء ظهره مسدسا «نسانيا» صغيرا ، ووضع على الخوان ، ودس اطراف اصابعه في قمسه ، وضعا ، واستدار وسار نحو الباب . راقبته كاتيا بصرها ، وسمعه يقول دون ان يلتفت :

- انا متالم . . . متالم . . .

عند ذاك اندفعت نحوه ، وامسكت كتفيه ، وادارت وجهه اليها :

- انت تكذب . . . تكذب . . . وتكذب الان ايضا . . .

غير انه هن رأسه ، وخرج . جلست يكاترينا دميترييفنا عند المائدة .

- ذلك ، يا داشا ، مشهد من الفصل الثالث ، وفيه طلقه

مسدس . ساتركه .

- الله معك . . . كاتيوشا .

- اتركه ، لا اريد ان اعيش بهذا الشكل . بعد خمسة اعوام

سيدركنى الكبير ، ويفوت الاوان . لا اريد ان اعيش هكذا . . . قذارة !

وغطت وجهها بيديها ، وانزلته من بين مرفقيها المستندين

الى المائدة . جلست داشا على مقربة منها ، وقبلتها من كتفها قبلات سريعة حذرة . رفعت يكاترينا دميترييفنا رأسها :

- اتظنين اننى لا اشفق عليه ؟ انا اشفق عليه دائما .

ولكن تصورى ، اذا ذهبت اليه الان ، فسيجرى بيننا حديث طويل ، زائف كليا . . . كان شيطانا يتدخل بيننا ، ويزيف . الحديث مع

نيقولاي ايفانوفيتش مثل العزف على بيانو مختل . . . لا ، ساترك البيت . . . آه ، يا داشا ، داشا ، ليتك تعرفين اى شقاء اعانى ! . . .

ومع ذلك في آخر المساء ذهبت يكاترينا دميترييفنا الى

زوجها في مكتبه .

كان الحديث مع زوجها طويلا ، وقد تحدث كلاهما بصوت

خافت ، وبسجى ، وحاولا ان يكونا نزيهين ، ولم يرحم احدهما الآخر ، ومع ذلك فقد شعر كلاهما بانهما بهذا الحديث لم يتوصلا

الى شىء ، ولم يتفاهما على شىء ، ولم يقترب احدهما من الآخر .

وبعد ان ترك نيقولاي ايفانوفيتش وحده لبث جالسا الى مكتبه حتى الفجر متاوها . وقد عرفت كاتيا فيما بعد انه في خلال هذه

الساعات فكر واستعرض كل حياته . وكانت نتيجة هذا رسالة مطولة الى زوجته ختمها بالآتى : «اجل ، يا كاتيا ، كلنا في زقاق

خلقى مسدود . في الاعوام الخمسة الماضية لم اشعر بشعور قوى واحد ، ولم اقم بخطوة كبيرة واحدة . وحتى حبي لك وزواجنا مرا

وكانما في عجلة عاجلة . كيان تافه نصف هستبرى ، تحت فعل مخدر مستمر . وهناك مخرجان : اما قتل نفسى ، واما تمزيق هذا

الغشاء الروحى المُشْتَقَل على افكارى ، وعلى مشاعرى ، وعلى وعى . ولست انا في وضع اقوى فيه على ان افعل هذا او ذاك . . .»

وقد حدثت الكارثة العالمية بمباغتة شديدة ، وانهار العالم البيتى بسهولة يسيرة وبشكل كلى انصعقت داشا به ، ولم يخطر

ببالها ان تفكر في نفسها ، واهواؤها كفتاة بدت لها تفاهة ، شبحا رهيبا على الحائط ، كذلك الذى كانت العربية تعيقها وكاتيا به في الزمن البعيد .

كانت داشا تقترب عدة مرات في اليوم من ياب حجرة كاتيا ، وتقر عليها باصبعها تقرا خفيها فتجيبها كاتيا :

- عزيزتى داشا ، لو سمحت ان تتركينى وحدى ، ارجوك . وفي تلك الايام كان على نيقولاي ايفانوفيتش ان يتراجع في

المحكمة . فكان يخرج في الصباح الباكر ، ويتناول فطوره وغداه في المطعم ، ويعود الى البيت ليلا . وقد هزت مرافعته القضاة وقاعة

المحكمة كلها . كان يتراجع مدافعا عن زويا ايفانوفنا زوجة موظف مصلحة الضرائب لادنيكوف التى ذبحت عشيقها الطالب شليبه ابن

صاحب عقارات في بطرسبورغ ، وقد جرى الحادث ليلا في السرير في بيت في شارع غوروخوايا . بكت النساء ، وضربت المتهمة

زويا ايفانوفنا متكا المقعد برأسها ، وافرغ عنها .

احاط جمع من النساء بنيقولاي ايفانوفيتش لدى خروجه من المحكمة شاحب الوجه غائر العينين ، والقيّن الزهور عليه ، وهتفن ، وقبلن يديه . اتجه نيقولاي ايفانوفيتش من المحكمة الى البيت ،

وتحدث مع كاتيا في ارتقاء نفسى تام . وكانت يكاترينا دميترييفنا قد هيات الحقائق للسفسر ،

فمنحها مخلصا بان تسافر الى جنوب فرنسا ، واعطاها اثني عشر الف روبل لسد نفقات الرحلة . وكان هو قد قرر اثناء الحديث معها ايضا ، ان يسلم القضايا الى مساعده ، ويسافر الى القرم للاستراحة والتروى .

وفي واقع الامر لم يكن واضحا ولا محدد ما اذا كان فراقهما لفترة من الزمن ام الى الأبد ، ومن منهما يهجر الآخر ؟ فان هذين الامرين الحادين قد وجههما لغب السفر بعناية .

ونسيا داشا . وقد خطرت على بال يكاترينا دميترييفنا في اللحظة الاخيرة فقط ، وكانت قد ارتدت بدلة السفر الرمادية ، وقبعة انيقة مبرقعة ، وبدت نحيلة ، حزينة ، رقيقة . وقع بصرها على داشا وهي جالسة على صندوق في الرواق . كانت داشا تزوج سابقها ، وتاكل خبزا ومرى لانهم نسوا ان يوصوا على غداء اليوم . قالت يكاترينا دميترييفنا ، وهي تقبلها من خلال البرقع : داشا ، يا حبيبتي . ماذا سيكون الامر معك ؟ اترغبين في

السفر معي ؟

غير ان داشا قالت انها ستظل وحدها في الشقة مع «المغولى العظيم» ، وانها ستؤدى الامتحانات ، وتسافر في نهاية ايار الى ابنيها لتقضى الصيف كله هناك .

٩

بقيت داشا وحدها في البيت . الآن بدت لها الغرف الكبيرة غير مريحة ، والاشياء فيها زائدة . وحتى اللوحات التكمييبية في غرفة الجلوس فقدت يرحيل سيد البيت وسيدته قدرتها على اثاره الرعب ، وبهت رواؤها . وتدخلت الستائر بثنيات مينة . ورغم ان «المغولى العظيم» كانت تطوف الحجرات كل صباح صامتا كالشيخ ، نافضة الغبار بمنفضة من ريش الديك فقد كان يبدو وكان غبارا آخر غير منظور يغطي البيت متزايدا في كثافته .

كان من الممكن ان تقرا في غرفة شقيقتها ، وكانها في كتاب ، كل ما عاشت به يكاترينا دميترييفنا . في احد الاركان حمالة عليها مشروع لوحة - فتاة تضع اكليلها ابيض على راسها ، وعيناها مملوءتان بنصف وجهها . كانت يكاترينا دميترييفنا تشمبث بهذه

الحمالة كطريقة لتخلص نفسها باية وسيلة من الهرج المجنون حولها ، الا انها لم تصمد بالطبع . وهذه منضدة قديمة مملوءة بالاشياء غير الكاملة وقطع قماشية زاهية مبشرة على غير نظام ، وكلها غير كاملة ومهملة ، وهي محاولة اخرى للهروب . ومثل هذه الفوضى تشيع في خزائن الكتب ايضا ، والظاهر ان يدا قد بدأت في ترتيبها ثم اميلتها . وفي كل مكان كتب مرمية ، ومحشورة ، ومقطوعة نصف اوراقها . كتب عن رياضة اليوغا ، ومحاضرات مبسطة عن التصوف ، وقصائد وروايات . الا كم من المحاولات والجهود الضائعة للبدء في حياة طيبة ! وجدت داشا على منضدة الزينة مفكرة فضية الغلاف سجل فيها : «٢٤ قميصا داخليا ، ٨ حمالات صدر ، ٦ حمالات صدر مدنلة ... تذاكر لال كرينسكي الى مسرحية «العم فانيا» ...» ثم بخط كبير كخط طفل : «شراء كعكة تفاح لداشا» .

وتذكرت داشا ان كعكة التفاح هذه لم يكتب لها ان تستمري . ورتت لشقيقتها رثاء اسأل مدعوها . ان هذه الشقيقة العاطفية الطيبة الرهيبة الحس لتتحمل حياة كهذه كانت تشمبث بالاشياء والترواف ، محاولة ان تثبت ، وتقى نفسها من التشتت والتحطم ، ولكن لم يسعفها شيء ولم يساعدها احد .

استيقظت داشا في الصباح الباكر ، وجلست الى الكتب ، وادت الامتحانات ، فكانت متفوقة في كل مادة تقريبا . كانت ترسل «المغولى العظيم» لترد على التلغراف الذي كان يدق في المكتب بلا انقطاع ، فكانت هذه تجيب جوابا واحدا لا يتغير «سافر السيد والسيدة ، والآنسة لا تستطيع ان تأتي لترد» .

كانت داشا تقضى اماسي بكاملها تضرب على البيانو . ولم تثر الموسيقى مشاعرهما كما كانت تفعل من قبل ، ولم تجعلها تريد شيئا غير معد ، ولم تجهد قلبها العالم . الآن ، حين كانت تجلس وادعة رصينة امام دفتر النوتات مضادة من الجانبين بشمعتين ، كانت وكانها تظهر نفسها بالاصوات المهيبة القوية التي كانت تعلا جنبات هذا البيت الخالي حتى آخر زاوية فيه .

واحيانا كانت يظهر وسط الموسيقى اعداء صغار - الذكريات غير مدعوة . فكانت داشا ترخي يديها ، وتنعبس . وعندئذ كان

يرين على البيت سكنون مطبق حتى ليسمع هسيس الشمعة . وبعد ذلك ترسل داشا زفرة صاخبة ، ومن جديد تمس يداها المغايات الباردة بقوة ، فيطير الاعداء الصغار من الغرفة الكبيرة الى الدهليز المظلم ، وراء الدواليب والعلب الكارترونية ، مثل الغبار والاوراق اليابسة المتطايرة بالرياح . . . لقد اختفت الى الابد داشا التي دقت الجرس على باب بيسونوف ، وقالت لكاتيا المجردة من الحماية كلمات حانقة . ان تلك الفتاة الهوجاء كادت تجلسب الكوارث . يا له من امر عجيب ! وكان الحب كل شيء في هذه الدنيا ، رغم انه لم يكن هناك اى حب .

وفي حوالى الساعة الحادية عشرة كانت داشا تغلق البيانو ، وتطفئ الشمعتين ، وتاوى الى فراشها . وكان كل ذلك يجري دون تردد ، وبجدية . وخلال تلك الفترة وطدت العزم على ان تبدأ بأقصى سرعة ممكنة حياة مستقلة - ان تكسب رزقها بنفسها ، وتضم كاتيا اليها .

ما كادت داشا تفرغ من الامتحانات في اواخر ايار حتى سافرت الى ابنيها عن طريق الفولغا عبر مدينة ريبينسك . في المساء خرجت من القطار لتستقل على التو سفينة بيضاء ساطعة الاضاءة وسط الليل والماء الداكن ، وفكت امتعها في المقصورة التنظيفة ، وضفت شعرها ، وفكرت في ان الحياة المستقلة تبدأ بدياة طيبة ، وابتسمت سعادة وقد وسدت رأسها كوعها ، وغفت على مهددة السفينة الواحدة .

وايقظتها خطوات ثقيلة وركض على ظهر السفينة . كان ضوء الشمس ينسكب عبر مضلع النافذة ، ومتماوجا على خشب المغسلة الماهوفاغنى شعاعات ضعيفة . وكانت الريح التي تلاعب الستارة الحريرية تفرح بشذى زهر العسل . فتحت داشا المضلع قليلا . كانت السفينة راسية على شاطئ قفر وقفت تحت جرفه الواطئ المنهار عربات محملة بصناديق من خشب الصنوبر . وكان مهر اصهب يترد عند حافة الماء وقد افرج قوائمه النحيلة ذات الركب السمكية . وعلى الجرف صوة منار تبرز على شكل صليب احمر . ففرت داشا من السرير ، ووضعت حوض الاستحمام على الارض ، اشبعت الاسفنجة بالماء ، ثم عصرتها على نفسها ، وشعرت

بانعاش ورهبة عظيمين حتى اخذت تضغط ركبتيها على بطنها ضاحكة . ثم ارتدت جوربين ابيضين وفسطانا ابيض ، وقبعة بيضاء ، وكانت قد اعدت ذلك كله منذ المساء . وقد انسجم عليها كل شيء ، واذ شعرت داشا باستقلالها ، خرجت الى ظهر السفينة رصينة ، ولكنها طافحة بالسعادة .

كان اللآلء الخفيف لانعكاس اشعة الشمس يلعب على السفينة البيضاء كلها ، وكان النظر الى الماء يزلغلل البصر ، فقد كان النهر يتلألا ويومض . وعلى الشاطئ الآخر المرتفع يلوح برج جرس ابيض قديم مخفف الى النصف بين اشجار البتولا .

وحين غادرت السفينة الشاطئ ، استدارت نصف استدارة ، وسارت نازلة مع مجرى النهر ، وبدت الضفان وكأنها تندفعان نحوها . وكانت اسقف الاكواخ القشبية المعتمة تلوح هنا وهناك من وراء الاكمام ، وكأنها تتداعى . وكانت السحب تتراكم في السماء مزقة في اسفلها ، تلقي ظللا بيضاء في اعماق النهر الزرقاء الصفرة .

جلست داشا في مقعد من الخوص المضفور ، واضعة ساقا على ساق ، مطوقة ركبتيها ، وشعرت بان منعطفات النهر اللامعة ، والسحب وظلالها البيضاء ، والتلال باشجار البتولا ، والمروج ، وتيارات الهواء الفواحة تارة بعشب المستنقعات ، وتارة بجفاف الارض المحروثة والبرسيم العسل ، والافستنتين تنفذ خلال كيانها ، ويمتلئ قلبها بهجة هادئة .

اقترب رجل بطيء الخطى ، وتوقف عند الحاجز مدبرا له جنبه ، وراح يتطلع اليها ، كما يبدو . نسيته داشا عدة مرات ، الا انه بقى واقفا في مكانه لا يريم . عندئذ عزمت عزمًا ثابتا على الا تلتفت اليه ، الا ان ما جبلت عليه من طبع ملتهب جدا جعلها لا تتحمل هذه المعاينة بهدوء اعصاب . تورد وجهها ، والتفتت بسرعة وغيط . فاذا بها ترى تليفين يقف امامها ، ممسكا بعمود مترددا بين التقدّم والحديث وبين الاختفاء . وجدت داشا نفسها تضحك فجأة ، فقد ذكرها بشيء مرح طيب على نحو غير محدد . كما ان ايفان ايليتش (تليفين) كله العريض المتكبين ، القوي ، العجول ،

في سترته البيضاء بدا وكأنه نتيجة ضرورية لكل هذه السكينية
التهرية . مدت يدها له ، فقال تليغين :

- رايتك وانت تستقلين السفينة . في الواقع نحن سافرننا
سوية من بطرسبورغ في عربة قطار واحدة . ولكنني ترددت في
التقدم منك ، فقد كنت غارقة في افكارك كثيرا ... الا اضايك ؟
- اجلس - وقدمت منه مقعدا من الخوص المضفور قائمة :
انا مسافرة الى ابي ، وانت الى اين ؟

- انا ، اذا اردت الصراحة ، حتى الآن لا اعرف الى اين .
سأذهب في المرحلة الاولى الى اقربائي في كينيشتا .
جلس تليغين الى جوارها ، وخلع ثيابه . وانعقد حاجباه ،
وظهرت غضون على جبهته . وراح ينظر بعينين متقلصتين الى الماء
الذي كان يخرج من تحت السفينة مثل درب مقعر مزبد . كانت
طيور النورس بانحيتها العادة تطير فوقه في مؤخرة السفينة ،
وتسقط عليه ، وتقلع مرسله صيحات جشاء شاكية ، وبعد ان
تتخلف بعيدا ، تدور ، وتنخاصم على كسرة خبز طائفة .
- انه يوم جميل ، يا داريا دميترييفنا .

- انه يوم رائع ، يا ايفان ايليتش ، يوم رائع في جلستي
هذه فكرت بانني قد انتزعت نفسي من الجحيم الى الحرية ! انت
تذكر حديثنا في الشارع ؟

- انا تذكره الى آخر كلمة ، يا داريا دميترييفنا .

- بعد ذلك الحديث حصلت اشياء اعادنا الله منها ! ساعدتك
عنها ذات يوم . - وهزت رأسها مستغرقة الفكر . - كنت الانسان
الوحيد الذي لم يفقد صوابه في بطرسبورغ ، حسب ما اتصور . -
وهنا ابتسمت ، ووضعت يدها على كم سترته . رف جفنا ايفان
ايليتش رهبة ، وانطبقت شفقاته . وتابعت داشا قولها : انا شديدة
الثقة بك ، يا ايفان ايليتش . انت قوي جدا ؟ صحيح ؟
- هذا ظنك .

- وانسان موثوق .

واحست داشا بان كل افكارها طيبة واضحة اريحية ، مثلما
ان افكار ايفان ايليتش طيبة ، صادقة ، وقوية . وكان يسرها
بشكل خاص ان تقول كلامها ليعبر بالذات عن هذه الدفقات المشرفة

من المشاعر القريبة الى فؤادها ، وقالت : اتصور ، يا ايفان
ايليتش ، لو انك احببت فانك ستحب برجولة وثقة ، وانك اذا
اردت شينا ، فلن تجده عنك .

ادخل ايفان ايليتش يده في جيبه بحركة بطيئة ، دون ان
يرد عليها ، واخرج قطعة خبز ، واخذ يلقيها الى الطيور . اندفع
سرب من طيور النورس البيضاء يلتقط فتات الخبز وهو تتصايح
مستثارة . نهضت داشا وايفان ايليتش ، واتجهتا نحو حاجز
السفينة . قالت داشا :

- ارم لهذا الطائر ، فانه يبدو شديد الجوع .

ذف تليغين بقية قطعة الخبز بعيدا في الهواء . انزلق نورس
شحيم كبير الراس على جناحين مساكنتين مسطحين كسكينين ،
وانقض ، ولكنه اخفا مدفعه ، وفي الحال انطلق زهاء عشرة ممن
الطيور على قطعة الخبز الساقطة حتى سطح الماء المطرطش بزبد
داق . من اسفل السفينة . قالت داشا :

- اتعرف اية امرأة اود ان اكون ؟ سانهى الدراسة في العالم
المقبل ، يا ايفان يكسب فلوس كثيرة ، واخذ كاتيا لتعيش معي .
ستري ، يا ايفان ايليتش .

غضض تليغين وجهه حين كانت تتكلم مجاهدا لضبط نفسه ،
واخيرا فتح فمه ، عن صف قوى نظيف من الاسنان الكبيرة وضحك
ضحكا مرحا حتى تددت رموش عينيه . احمر وجه داشا ، الا ان
حنكها ارتعش ، وضحكت ، دون ارادتها ، كما ضحك تليغين ، دون
ان تدري سببا لذلك .

واخيرا قال تليغين :

- انت رائعة ، يا داريا دميترييفنا ... كنت اخاف منك
خوف الموت ... ولكنك رائعة تماما !
فقالت داشا غاضبة :

- مكذا اذن ... تعال نتناول فطورنا .

- بكل سرور .

طلب ايفان ايليتش اخراج طاولة الى سطح السفينة ، واخذ
يحك بسهموم ذقنه الحليق حلقة ممتازة ، وهو ينظر في قائمة
الطعام .

- ما رأيك ، يا داريا دميترييفنا ، في زجاجة من النبيذ الأبيض الخفيف ؟

- سأشرب قليلا بسرور .

- أبيض أم أحمر ؟

- اجابت داشا محاكية لهجته الجديدة :

- هذا أو ذاك .

- في هذه الحال لنشرب نبيذاً فواراً .

مرت السفينة بصفة تلالية فيها شرانظ خضراء لامعة مسن القمح ، وزرقاء خضراء من الجودار ، ووردية من الحنطة السوداء المزهرة . وراء منعطف النهر ، كانت الشمس تنعكس على زجاج نوافذ بيوت منخفضة ذات سقف من القش قائمة على أكوام مسن الروث فوق مرتفع صلصالي . وأبعد من ذلك لاح عدد من صلبان مقبرة القرية ، وطاحونة صغيرة كاللعبة ذات ستة أذرع مهدمة الجانب . وكان جمع من الأطفال يركض على طول الضفة المرتفعة من وراء السفينة ، قاذفاً بحجارة لم تكن تصل حتى إلى الماء . واستدارت السفينة ، وظهرت على الضفة الخالية أجمة منخفضة تحوم الغربان فوقها .

هبت نسمة دافئة تحت مفرش العائدة ، وفتان داشا . وبدا النبيذ الذهبي في القدحين الكبيرين المضلعين هبة آلهية . قالت داشا انها تغيب إيفان إيليتش لأن له عمله ، ووثوقه في الحياة ، بينما سيكون عليها ان تقضى عاما ونصف عام منكبته على الكتب ، فضلا عن تعاسة اخرى تقع من نصيبها ، وهي كونها خلقت امرأة . ضحك تليغين ، واجاب :

- ولكنني طردت من العمل في المصنع .

- احقا ؟

- طلبوا مني ان اتخلي عن العمل خلال اربع وعشرين ساعة ،

ولو لا ذلك لما كنت على هذه السفينة الآن . احقا لم تسمعني اى احدث حدثت عندنا ؟

- لا ، لا .

- لقد انفصلت ببساطة ، نعم ... - وصمت واضعا كوعيه

على الخوان . - انظري الى اى حد من الحماسة والهرجلة تجررى

الامور عندنا . شيء لا يصدقه العقل . والشيطان يعلم اى صيت سيكون لنا ، نحن الروس . شيء معيب ومغز . فكري في الامر : شعب موهوب ، وبلاد في غاية الفراء . ولكن ماذا ترى العين مقابل ذلك ؟ ترى مجموعة من الكتيبة المتعطرسين . استعضنا عن الحياة بورق وجبر . لا يمكنك ان تتصورى كم نستهلك من الورق والجبر . منذ ان بدانا هذه البروقراطية في عهد بطرس الاول ونحن لا نستطيع ان نتوقف حتى الآن . ولكن الجبر قد يكون شيئا مميئا . فتصوري ذلك .

ابعد ايفان إيليتش قدح النبيذ ، واشعل سيكارة . وكان من الواضح انه لم يكن مريحا له الاستمرار في مثل هذا الحديث . - لا داعي الى اشارة الذكرى . يجب ان نفترض بان الامور عندنا ايضا ستكون حسنة يوما ما ، ليس اسوا مما لدى الآخرين . قضت داشا وايفان إيليتش هذا النهار كله على سسطح السفينة . كان من الممكن ان يبدو حديثهما الى المستمع الغريب ضربا من الهراء ، ولكن ذلك راجع الى انهما كانا يتحدثان حديث شفرة . فقد كانت الكلمات ، واكثرها اعتيادية ، تتخذ مدلولاً مزدوجا بشكل غامض غير مفهوم ، فاذا اشارت داشا بعينها الى فتاة ممتلئة الجسم قليلا ينتفخ وراء ظهرها لغاعها الليلقي ، والى مساعد القبطان الثانى الذى كان يسير الى جانبها مركزا كل انتباهه وقالت : «انظر ، يا ايفان إيليتش يبدو ان امره ماشية» . فمن الضروري ان يفهم من ذلك : «لو حصل بيننا شيء ما ، فلن يكون بهذا الشكل» . وما كان في مقدور احد منهما ان يتذكر باخلاص ما قاله ، الا انه بدا لايفان إيليتش ان داشا اذكى منه بكثير ، وارق وادق في ملاحظتها ، بينما بدا لداشا ان ايفان إيليتش اطيب قلبا منها ، واطمئن ، واذكى بالف مرة .

جمعت داشا شجاعتها اكثر من مرة لتحديثه عن بيسونوف ، الا انها كانت تحجم عن ذلك . كانت الشمس تدفئ ركبتيها ، والتسيم يمس وجنتها ، وكتفها ، وجيدها ، مثل اصبع خنزون مدورة . وفكرت داشا مع نفسها : «لا ، سأحدثه غدا ، سيسقط مطر ، وسأحدثه» .

وفى آخر النهار عرفت داشا - وكانت تهوى مراقبة الناس ،

ولها عين مدققة مثل سائر النساء - كل شيء تقريباً عن جميع المسافرين على السفينة ، الأمر الذي بدأ إيفان إيليتش أعجوبة تقريباً .

ولسبب ما قررت داشا ان مدير جامعة بطرسبورغ - وهو رجل عيوس يضع نظارة شمسية ويرتدي لباس «الانفناسية» - غشاش كبير في الورق على ظهور السفن . ورغم ان إيفان إيليتش كان يعرف ان هذا الرجل هو عميد الجامعة بالفعل ، الا ان الشك اخذ يساوره الآن في ان يكون غشاشاً في الورق فعلاً . وبشكل عام لقد اهتمت تصور إيفان إيليتش للواقع خلال هذا اليوم . احس بما يشبه دوار الرأس ، او حلم اليقظة ، وكان عاجزاً تقريباً عن ان يتحمل من حين لآخر موجة غازمة من الحب لكل ما يرى ويسمع ، ففكر بان من الممتع حقاً لو يلقي نفسه في الماء ، مثلاً ، لينفذ تلك الفتاة المقصوفة الشعر ، لو انها سقطت من فوق الحاجز . فليتها تسقط !

وفي منتصف الليل داهم داشا تعاس مفاجئاً لذيذ ما كادت تصل معه الى مقصورتها ، وعند الباب قالت مودعة ، وهي تتناهب :

- ليلة سعيدة . عاين وراقب غشاش الورق ذلك .

اتجه إيفان إيليتش الى الدرجة الاولى من ظهر السفينة في الحال ، حيث كان عميد الجامعة المؤرق يقرأ مؤلفات ديماش الأب . نظر إيفان إيليتش اليه بعض الوقت ، وفكر مع نفسه بأنه رجل رائع ، رغم انه غشاش ، ثم عاد الى الممر الساطع الاضاء ، الذي كان يفوح بزيت المحركات ، والخشب المطلي باللاك ، وبعطس داشا ، ومر بابها على اطراف اصابعه ، ودخل مقصورته ، واستلقى في سريره على ظهره ، وانغمض عينيه ، واحس بان كيانه كله منصعق ، وبانه مغمم كلية بالاصوات والروائح ، وحرارة الشمس ، وبفرح حاد ، كالألم في القلب :

ابقظه صفيح السفينة بعد الساعة السادسة صباحاً . كانوا يقتربون من كينيشما . ارتدى إيفان إيليتش ملابسه بسرعة ، ونظر في الممشى . كانت الابواب كلها مغلقة ، والجميع ما زالوا نياماً . وداشا نائمة ايضاً . وفكر إيفان إيليتش : «يجب ان انزل هنا ، والا فسيكون سلووكي غريباً» ، وخرج الى ظهر السفينة ،

نظرا الى كينيشما هذه التي لاحت الى الانظار في وقت غير مناسب كلياً ، فابعدت على ضفة عالية شديدة الانحدار ، بسلالها الخشبية ، وبيوتها الخشبية المترامية كيفما اتفق ، واشجار اليزفون الخضراء الصفراء الساطعة في شمس الصباح في منتزه البلدية ، وبغمامة الغبار الساكنة المعلقة فوق العربات الجارية على منحدر المدينة . ظهر ملاح يحمل حقيبة تليفين ، وهو يطا بقوة ظهر السفينة بكعبه قدميه الحافيتين . قال له إيفان إيليتش بلهجة متفعلية :

- لا ، لا . غيرت فكري . ارجعها الى مكانها . قررت ان اسافر الى نيجنى . ليس لي حاجة للتزول في كينيشما . ضعها هنا ، تحت السرير . شكراً لك ، يا عزيزى .

لبث إيفان إيليتش جالساً في المقصورة زهاء ثلاث ساعات ، مفكراً بالطريقة التي سيفسر فيها لداشا تصرفه المبتذل والمتطفل ، حسب رأيه ، وبدا واضحاً ان التفسير غير ممكن : ليس يوسعه ان يلجأ الى الكذب ، او يقول الحقيقة .

وبعد الساعة العاشرة خرج الى ظهر السفينة نادماً ، كارها لنفسه مزدرياً لها ، وقد وضع يديه وراء ظهره ، وسار في مشية غائصة ، وعلا وجهه تعبير زائف ، وباختصار ، صورة للابتدال . الا ان القلق اخذ يساوره بعد ان دار دورة في السفينة ، ولم يقع بصره على داشا . لم تكن داشا موجودة في اى مكان . واحس إيفان إيليتش بعفاف في حلقة . الظاهر ان شيئاً ما قد حدث . وفجأة وقع عليها وقوعاً . كانت جالسة على الكرسي المضمفوف في المكان الذي جلست فيه امس ، بادية الحزن ساكنة . وكانت تضع على ركبتيها كتاباً وكمرى . ادارت رأسها الى إيفان إيليتش ببطء ، واتسعت عينها ، وكانها ذلك عن قزح ، وامتلأتا بهجة ، وعلا خديها تورد ، وتدرجت الكمرى من ركبتيها . قالت خافضة الصوت :

- انت هنا ؟ لم تنزل ؟
ابتلع إيفان إيليتش غصته ، وجلس الى جوارها ، وقسال بصوت لارفة فيه :

- لا اعرف كيف ستتظنن الى تصرفي ، ولكنني لم انزل في كينيشما عن عمد .

- كيف سأنظر الى تصرفك ؟ لن اقول ذلك .
وضحكت داشا ، وفجأة وضعت يدها في كفه ببساطة وحنان ، حتى ان راسه عاد يدور طوال اليوم اشد مما دار يوم امس .

١٠

وفي حقيقة الأمر حدث في المصنع الميكانيكي ما يلي : في مساء ماطر سرت في سماكه الفسفورية غيوم تسوقها الريح ، ظهر رجل غريب يرتدي ممطرا مطايطا مرفوع القلنسوة يسير بين جمع من العمال العائدين الى بيوتهم بعد العمل ، في زقاق ضيق نثن موحل بوحل الفحم والحديد الخاص الذي يكثر عادة في الشوارع المتلصقة بالمصانع الكبيرة .

سار بعض الوقت في اثر الجميع ، ثم توقف وراح يوزع المنشورات ذات اليمين وذات الشمال ، قائلا بصوت خفيض :

- من اللجنة المركزية ... ، اقراوه ، يا رفاق .
تناول العمال المنشورات اثناء سيرهم ، واخفوها في جيوبهم ، وتحت قبعاتهم .

وبين وزع الرجل ذو الممطر المطايطي جميع المنشورات تقريبا ظهر احد الحراس بالقرب منه شاقا طريقه بكتفه خلال حشد العمال بقوة ، وقال على عجل «انتظر» وامسك ممطره من الخلف . الا ان الرجل ، وهو الميلب الزلق الممسك ، خلص نفسه ، وركض . وصدرت صفارة حادة ، ردت عليها صفارة اخرى من بعيد . وسرت دمدمة خافتة بين الجمع المتضائل . الا ان المهمة قد تمت ، واختفى الرجل .

وبعد يوم او يومين من الحادث ، لم تبدأ ورشة البرادة العمل منذ الصباح ، مفاجئة بذلك ادارة المصنع الميكانيكي ، وقدمت مطالب ليست خطيرة جدا ، ولكنها حازمة .

وسرت عبارات غير محددة ، وملاحظات وكلمات غاضبية متطايرة كالشرر في مباني المصنع الطويلة المتسرب اليها ضوء ضعيف من خلال النوافذ القذرة والسقوف الزجاجية المسخمة . وراح

العمال الواقفون عند المخارط ينظرون نظرات غريبة الى رؤسائهم وهم يهرون بهم ، وينتظرون بتائر مكظوم التعليمات اللاحقة . وبينما كان الاوسطة الاقدم بالفوف ، وهو واش ، يسدور

قرب مكبس يشتغل على القوة المائية ، سقطت مصادفة سبيكة حمراء متقدة على قدمه وسحقته سحقا ، فارسل صرخات وحشية . وعندئذ شاع في المصنع ان شخصا قد قتل . وفي الساعة التاسعة اندفعت سيارة الليجوزين الهائلة العائدة لكبير المهندسين داخله فناء المصنع كالصاعقة .

وصل ايفان ايليتش تليغين في الساعة المعتادة الى ورشة الصهر ، وهي عبارة عن مبنى هائل دائري ارضها طينية ، وافرانها مبنية عند الجدران ، وقد تحطمت الزجاج في بعض نوافذها ، وتدلّت سلاسل من اذرع الرافعات . وتوقف تليغين عند الباب ، وحرك كتفيه من برودة الصباح ، وصافح الاوسطة بونكو بمرح ، وكان قد تقدم منه .

كانت ورشة الصهر قد تلقت طلبا مستعجلا لصنع قواعد متحركة للآلات ، فاخذ ايفان ايليتش يتحدث مع بونكو عن العمل القادم متشاورا معه باستغراق وبطريقة جدية حول اشياء ليست موضع شك عند اي واحد منهما . وقد ادت هذه الحيلة الصغرة الى ان يخرج بونكو مطمئنا من المحاوراة تماما ، وقد ارشى اعتزازه بنفسه لانه قد بدا العمل في ورشة الصهر منذ خمسة عشر عاما كعامل بسيط ، وهو الآن اوسطة اقدم يعتز بمعارفه وخبرته اعتزازا كبيرا جدا ، بينما كان تليغين موقنا بان بونكو اذا اطمان الى عمل فان هذا العمل سيسير سيرا سريعا وجيدا .

تجول ايفان ايليتش في ورشة الصهر متحدنا الى عمال الصهر والقولبة بلهجة رفاقية شبه مزاحة كانت تصعب اكبر الافصاح عن العلاقات المتبادلة بينه وبين كل واحد منهم . وكانه يقول له : انا وائنت تقوم بعمل واحد ، فمعنى ذلك اننا رفيقان . الا اننى مهندس ، وائنت عامل ، اذن ، فنحن في الواقع عدوان ، ولكن ما دام احدنا يحترم الآخر فلن يبقى امامنا الا ان ينكت الواحد على الآخر .

اتجهت رافعة الى احد المصاهر مخففة سلسلتها المصلصلة . واستقبلها عاملان ضليعان ضخمان هما فيليب شوبين ذو الشعر

الذى وخطه الشيب ، والنظارة المدورة ، وايغان اوريشنيكوف
القوى ذو الجسم الرياضى واللحية الجمعاء والشعر الفاتح اللون
المشودود بنطاق ، والعينين الزرقاوين . واخذ الاول يزيح بالعتلة
الغطاء الحجرى عن واجهة الفرن ، بينما شد الثانى كلابة الرافعة
الى البوتقة الطويلة المبيضة من الحرارة . فترقت السلسلة ،
وتأرجحت البوتقة ، وطافت في الهواء الى وسط الورشة موشوشة ،
متوهجة ، نائرة قشرة من الغيب .

قال اوريشنيكوف :

- قف . اخفض .

ومرة اخرى تعقمت الرافعة ، ونزلت البوتقة ، وانصب على
الارض سيل باهر اللون من البرنز ، فاذا بنجيمات خضر متفجرة ،
مضيئا ستقف الورشة المقوس بوجه برتقالى . وفاحت رائحة
النحاس الحلوة المقززة ، ورائحة احتراقه .

وفي اثناء ذلك انفتح مصراعا الباب المزدوج المؤدى الى المبنى
المجاور ، ودخل الى ورشة الصهر عامل شاب بغطى سريعة حازمة
وقد ارتسم الشحوب والغيظ على وجهه . وصاح بصوت حاد
خشن :

- اوقفوا العمل . . . اخرجوا !

وحدد تليغين بنظرة جانبية ، وقال :

- هل سمعتمونى ، ام لا ؟

اجاب اوريشنيكوف بهدوء :

- سمعنا ، سمعنا . لا تصرخ - ورفق راسه الى الرافعة ،

وقال : دميتري ، لا تم ، تحرك .

وقال العامل حاشرا يديه في جيبه :

- حسنا ، اذا سمعتمونى فافعلوا ما تروته صائبا . لن نطلب

اليكم مرة اخرى .

واستدار بحركة شديدة ، وخرج .

كان ايفان ايليتش قد جلس الى قطعة مصنوبة حديثا وراح
يكشط في عناية التراب بقطعة سلك . اما بوتكو الجالس على مقعد
عال الى منضدة عالية عند الباب فقد اخذ يحك بسرعة لحيته الشيباء
الصغيرة الشبيهة بلحية العنز . وقال مدبرا عينيه :

- اترك العمل سواء اردت ام لم ترد . ولكن هل يفكر
هؤلاء بم ستلعم الاطفال اذا طردوك من المصنع ، ام تراهم لا
يفكرون ؟

اجاب اوريشنيكوف بصوت كثيف :

- الافضل الا تمس هذه الامور ، يا فاسيلى ستيبانوفيتش .

- وكيف لا سمها ؟

- لان ذلك امر يخصنا . فانت ستلجأ الى الرؤساء وتحابيهم .

فما عليك الا ان تصمت .

سال تليغين اخيرا ، ونظر الى اوريشنيكوف :

- ما سبب الاضرار ؟ ما هى المطالب ؟

اشاح اوريشنيكوف بصره . فاجاب بوتكو :

- اضرب عمال ورشة البرادة . في الاسبوع الماضى حوّل

ستون من مخارطهم الى العمل بالقطعة على سبيل التجربة . وفي

النتيجة يظهر انهم لا يكسبون ما كانوا يكسبون من قبل ، ويتعين

عليهم ان يشتغلوا اوقانا اضافية . وها هم قد علقوا قائمة كاملة

عند الباب في المبنى السادس بمطالب مختلفة ، وليس كبيرة .

وتعسى الرشاة في الدواة غاضبا ، وشرع في تسجيل القائمة .

وضع تليغين يديه وراء ظهره ، وسار خلال الاقران ، ثم قال ،

وهو يعاين من خلال فتحة مستديرة يتراقص وراءها البرنز المذاب

متلوي كالافاعي في النار البيضاء التى لا تحتمل :

- يا اوريشنيكوف ، اطن ان هذه القطعة ظلت هناك وقتا

اطول مما يجب . اليس كذلك ؟

خلع اوريشنيكوف منزره الجلدى دون ان يجيب ، وعلقه

على مسمار ، ولبس ثبعة من جلد الخروف ، وسترة طويلة حسنة

النوع ، وقال بصوت عميق كثيف تردد في الورشة كلها :

- اوقفوا العمل ، يا رفاق . وتعالوا الى المبنى السادس ،

الى الباب الاوسط .

وسار نحو باب الخروج .لقى العمال الادوات صامتين .

بعضهم نزل من الرافعة ، والبعض الآخر طلع من حفرة في الارض ،

وسار الجميع في حشد وراء اوريشنيكوف . وفجأة حدث شيء عند

الباب . ارتفع صوت جنونى متحول الى زعيق :

- تكتب ؟ ... تكتب ، يا ابن الكلبة ؟ سجل اسمي ،
واخير الرؤساء . . .

وكان ذلك صوت عامل القولبة الكسي نوسوف يصرخ
بونكو . وكان وجهه المتعب غير المحلوق منذ فترة طويلة بعينييه
الكدرتين الغائرتين يختلج ويلتوي ، وقد انتفخ ودج في رقبته
النحيلة ، وكان ، يضرب حافة المنضدة بجمع يده الأسود صارخا :
- مصاصو دماء ! .. معذبون ! .. سنجد لكم ما يسكتكم
ايضا ! ..

عند ذلك مسك اوريشنيكوف بنوسوف من جذعه ، وأبعده
من المنضدة العالية بيسر ، وسار به الى الباب . فهذا هذا حالا ،
وفرع الورشة .

وعند الظهر كان المصنع كله مضربا . وسرت شانعات بان
ثمة قلاقل في مصنعي اوبوخوفسكي ونيفسكي للالات . وكان
العمال يقفون في باحة المصنع بجماعات كبيرة منتظرين نتيجة
مفاوضات الادارة مع لجنة الاضراب .

وكان الاجتماع معقودا في دائرة المصنع . وقد فزعت الادارة ،
وقامت بتنازلات ، ولم تبق الا عقبة واحدة ، هي مطلب العمال في
فتح الباب الموجود في السياج المصنوع من الالواح الخشبية لئلا
يضطروا الى الدوران وشق طريقهم خلال الوحل مسافة ربع فرسخ .
ولم يكن هذا الباب يهم احدا في الحقيقة ، الا ان الامر تحول الى
نوع من الاعتداد لكل من الطرفين ، واصررت الادارة فجأة على رايها ،
وبدأت نقاشات طويلة . وفي تلك الاثناء جاء في التلفون امر من
وزارة الداخلية : رفض جميع مطالب لجنة الاضراب ، والامتناع
عن اجراء اية مفاوضات معها حتى اشعار آخر .

وقد افسد هذا الامر القضية كلها افسادا كبيرا حتى ان كثير
المهندسين انطلق الى المدينة على الفور لتوضيح الامر . ودُهِيل
العمال ، وكان الشعور السائد مسالما بالاحرى . دخل بعض
المهندسين في الحشد شارحين باسطين اذرعهم . بل وصدر ضحك
في مكان ما . واخيرا طهر على مندخل الدائرة المهندس بوليين الضخم
الركن الاثني ، وصرخ بصوت تردد في الفناء كله بان المفاوضات
ارجت الى الغد .

بقي ايفان ايليتش في ورشة الصهر حتى المساء ، ولما رأى
الافران ستنطفئ على اية حال ، حك علباه ، وذهب الى بيته .
كان المستقبلون جالسين في غرفة الطعام ، وقد ابدوا جميعا اهتماما
شديدا بما يحدث في المصنع . الا ان ايفان ايليتش لم يحدثهم
بشيء ، وراح وهو مستغرق في افكاره يعض الشطائر التي قدمتها
له يلزافيتا كييفنا ، ثم انصرف الى غرفته ، واغلقها عليه بالمفتاح ،
واستلقى لينام .

لدى اقترابه من المصنع في اليوم التالي رأى وهو ما يزال
على مسافة بعيدة ، ان في الامر سورا . كانت جماعات
العمال تقف في كل الزايق تتشاور . وقد احتشد قرب بوابة
المصنع جمهور غفير يقدر بعدة مئات ، يطن طنين خلية نحل
مستثارة .

كان ايفان ايليتش يرتدي قبعة ناعمة ومطفا مدنيا ، فلم
يسترح انتباه احد . تسمح الى جماعات من المتجادلين يعرف ان
اعضاء لجنة الاضراب جميعا قد اعتقلوا ليلا ، وان الاعتقال ما يزال
جاريا بين العمال ، وان لجنة جديدة قد انتخبت ، والمطالب التي
اعلونها الآن مطالب سياسية ، وان فناء المصنع الآن مملوء
بالقوزاق ، ويقال ان امرا قد صدر بتفريق الجمهور ، الا ان القوزاق
قد رفضوا كما زعم ، واخيرا ان عمال مصنع اوبوخوفسكي ،
ومصنع نيفسكي لبناء السفن وبعض المصانع الصغيرة قد انضموا
الى الاضراب .

عزم ايفان ايليتش على ان يشق طريقه الى الدائرة ليطلع
على الاخبار ، الا انه بعد جهد جهيد لم يستطع الا ان ينفذ
حتى البوابة . وهناك كان قوزاقيان جسيما انزلت قبعتاهما
على جانب وانفجرت لعيناهما الى الجانبين يقفان الى جانب الحارس
بابكين المعروف المتعس في فروته الضخمة . وكانا ينظران بمرح
ووقاحة الى وجه العمال المؤرقة السقيمة ، وكلاهما متورد الوجنتين ،
مشبعبا غذاء ، ذا مظهر مشاكس وهازي .

فكر ايفان ايليتش «اجل ، ان هذين القوزاقيين لن يرعويا
عن شيء» وهم بالدخول الى الفناء ، الا ان اقرب القوزاقيين اليه
سد طريق الدخول عليه ، وتفرس فيه بعينين وحجتين ، وقال :

- الى اين ؟ ابتعد !

ما تبقى من التمردات . انهم ارسلوا القوزاق الينا . قسم
سجنارهم ؟ اذفهم بهذه البصلة فاقتل اثنين منهم ؟

وفي تلك الاثناء حدثت دمنمة في الجمع ثم تلاشست . وفي
السكون صدر عند البوابة صوت امر حاد :

- يا سادة ، ارجوا ان تتفرقوا الى بيوتكم . وسينظرون في
رجاوتكم . ارجوكم ان تتفرقوا بهدوء .

اضطرب الجمع ، واندفع الى الورا ثم الى ناحية . ابتعد
فريق ، وتقدم آخر . واشتد لفظ الكلام . وقال اوريشنيكوف :

- للمرة الثالثة يرجون دون تهديد .

- من يقول هذا ؟

- ضابط قوزاقي .

- يا رفاق ، يا رفاق ، لا تتفرقوا .

تردد صوت منفعل ، وقفز على كومة العائد الى الخلف من
ايفان ايليتش رجل شاحب منفعل ذو قبعة كبيرة ، ولحية سوداء

شعثاء كانت سترته الابنية مزرة تحتها بدبوس انجليزي .

وقال الرجل بصوت جهير بعد ان مد يدين ضم قبضتيها :

- يا رفاق ، لا تتفرقوا مهما كلف الامر . لقد عرفنا من
مصدر موثوق ان القوزاق وقضوا اطلاق النار علينا . والادارة تجري

مفاوضات مع لجنة الاضراب عن طريق وسيط . وفضلا عن ذلك
يتناقش عمال السكك الحديدية الآن اعلان اضراب عام . والحكومة في
ذعر .

زعق صوت جنوني :

- برفاو !

وسرى طنين في الحشد ، وغاص الخطيب فيه ، وكان
الناس يتوافدون ركضا الى الزقاق .

بحث ايفان ايليتش بصره عن اوريشنيكوف ، الا ان هذا
كان في تلك اللحظة واقفا بعيدا عنه وقرب البوابة . وترددت

كلمة «ثورة» ، «ثورة» غير مرة .

شعر ايفان ايليتش بان انفصالا بالخوف والفرح يملا كيانه
كله . ارتقى كومة العائد واجال بصره في الحشد الذي صار الآن

ضخما ، وفجأة رأى اكوندين على بعد خطوتين منه . كان يضع على

- على ان اذهب الى الدائرة . انا مهندس .

- قلت لك : ابتعد !

عندئذ ترددت اصوات من المحتشدين :

- كفره ! جلاوزه !

- لم يكفكم ما سفتكم من دعائنا !

- شياطين متخون ! محتكرو اعيان !

وفي تلك البرهة شق شاب قصير ابتر الوجه ذو انف كبير
مكعوف طريقه الى الصفوف الامامية . كان يرتدى معظا ضخما

لا يناسب حجمه ، ويضع على شعره الاجعد قبعة عالية في وضع اهرج .
وتكلم متعتما هازا ذراعه الواهنة :

- ايها الرفاق القوزاق ! السننا روسا جميعا ؟ على من
تسهبون السلاح ؟ على اخوتكم . وهل نحن اعداؤكم لتطلقوا

النار علينا ؟ ماذا نحن نريد ؟ نحن نريد السعادة للروس جميعا .
نريد ان يكون كل انسان حرا . نريد ان نقضى على التعسف . . .

زم احد القوزاقين شفتيه ، وتفحص الشاب بازدراء من راسه
حتى قدميه ، واستدار ، واخذ يخلو على طول البوابة . بينما

اجاب الثاني بصوت رسمي مهيب :

- لن نستطيع السماح باية تمردات ، لاننا اقسنا اليمين .
وعندئذ صاح الاول بالشباب الاجعد الشعر ، بعد ان فكر

بالجواب على ما يبدو :

- اخوان ، اخوان . . . شد بظلمتك ، فقد تفقده .

وضحك القوزاقيان كلاهما .

ابتعد ايفان ايليتش عند البوابة ، فان موجة الحشد كانت
تدفعه جانبا ، نحو السياج ، حيث تكومت كومة حدائد صدنة .

وبينما كان يحاول ان يصعد كومة الحدائد ، وقع بصره على
اوريشنيكوف الذي كان يضع قطعة خبز بهدوء ، وقد سرح

قبعة من قراء الخروف على مؤخرة راسه . غمز اوريشنيكوف
لتليفين بحاجبيه ، وقال بصوت عميق :

- نعم الاحوال ، يا ايفان ايليتش .

- مرحبا ، يا اوريشنيكوف . يم سينتهي كل هذا ؟

- ونحن نهتف قليلا ، ثم نخلع قبعائنا طائعين . وهذا كل

عينيه نظارة ، وعلى رأسه كيبية لها طرف كبير ، ويلبس عباءة سوداء . شق طريقه اليه رجل في قبعة مستديرة وشفاته ترتجفان . وسمع تليغين ما قال الرجل لأكوندين :

- اذهب ، يا ايفان افاكومفيتش ، انهم ينتظرونك .
رد اكوندين باقتضاب وميظ :

- لا اذهب .

- اجتمعت اللجنة كلها . وهم لا يريدون ان يتخذوا قرارا بدونك ، يا ايفان افاكومفيتش .

- انا باق على رأبي ، وهذا معروف .

- لقد فقدت صوابك . . . ها انت ترى ماذا يجري .

وانا اقول لك ان اطلاق النار سيبدأ بين لحظة وأخرى . . .
واخذت شفها الرجل ذى القبعة المستديرة ترتعشان .

قال اكوندين :

- قبل كل شيء لا ترفع صوتك . اذهب واتخذ قرارا مساويا . انا لا اشتكر في استفزاز . . .

- اللعنة ، اللعنة . جنون محض !

قال الرجل ذو القبعة المستديرة ، وشق طريقه في الحشد .

وتقدم جنباً من اكوندين العامل الذى دعا بالأمس عمال ورشة تليغين الى الاضراب ، فقال له اكوندين شيئاً . اوما له العامل برأسه ، واخفى . ثم حصل الشيء نفسه - عبارة قصيرة وهزة

راس - مع عامل آخر .
ولكن صيحات تحذيرية ترددت بين الحشد في تلك اللحظة .

وفجأة صدرت ثلاث طلقات جافة قصيرة . وخيم سكون على الفور .

وسُمع صوت مكتوم مطوَّط وكأنه عن قصد «آ-آ-آ» .

وتحرك الحشد ، وترجع عن البوابة . كان احد القوزاق يرقد في الوحل الذى عجنته اقدام ، ووجهه الى الارض ، وركبته معكوفتان

على بطنه . وفي الحال سرت صيحة في كتلة الناس كلها : «لا حاجة ، لا حاجة» . فقد فتحت البوابة . الا ان طلقة رابعة من مسدس

صدرت من جانب ، وتطارت بعض الحجارة ، فارتطمت في الحديد .
وفي تلك اللحظة رأى تليغين اورشنيكوف واقفا حاسر الرأس ،
فاغر الفم ، وحيدا امام الحشد المتراسخ في فوضى . بدا وكأنه

قد انغرس في الارض من الرعب بعذائيه الطويلين . وفي ذات الوقت رنت كضربات سوط طلقات طويلة من بندقيه - واحدة وثانية وأخرى ، واذا باوريشنيكوف يركع على ركبتيه برفق ، وينطحر على الارض .

بعد اسبوع انتهى التحقيق فيما حدث في المصنع . فكان ايفان ايليتش في قائمة الاشخاص الذين اشتبته في عطفهم على العمال . وعندما استدعى الى الدائرة تحدث مع الادارة بحدّة ، على غير توقع من الجميع ، وقدم استقالته .

١١

كان الدكتور دميتري ستيبانوفيتش بولافين والد داشا ، جالسا في غرفة الطعام قرب سماور كبير متصاعد البخار يطالع الصحيفة المحلية «نشرة سامارا» وكان كلما اشتدقت سيكارته حتى عقبها القطنى يتناول سيكاره اخرى من علبة سيكاره سميكه مملوءة ، ويشعلها من عقب السيكاره . سعل ، وصعد الدم الى وجهه ، وحك صدره المشعر تحت قميصه المفتوح . كان يطالع ويرشف الشاي الخفيف من صحن الفنجان نائرا الرمساد على الصحيفة ، والقميص ، ومفرش المائدة .

ترامى صرف سرير من وراء الباب ، ووقع اقدام ، ودخلت داشا الغرفة وقد القت رובהا على قميص النوم ، وهي ما تزال متوردة ناعسة . نظر دميتري ستيبانوفيتش الى ابنته من فوق نظارته الايقنة المصدوعة بعينين ساهرتين باردتين كميني داشا ، وقرب خده لتقبيله . قبلته داشا وجلست قبالته مقربة منها الخبز والزبدة . وقالت :

- الريح مرة اخرى .

والواقع ان ريحا قوية حارة ما تزالت تهب لليوم الثانى . كانت سحابة من الغبار الكلكسى تجثم على المدينة ، وتبرقش الشمس . وكانت سحب كثيفة واخزة تجرى دقات عبر الشوارع ، وكان السابلية القلائل يدبرون لها ظهورهم . وكان الغبار ينفذ في كل شق ، وفي اطر النوافذ ، ويستقر بطبقة رقيقة على افاريسز النوافذ ، ويهص بين الاسنان . وكانت الريح تهز زجاج الشبائيك ،

وتقعق بالسقف الحديدى . وفي الوقت ذاته كان الجو حارا وغرا ، بل وان رائحة الشارع نفذت الى الغرف .

قال دميتري ستيبانوفيتش :

- وباء من امراض العيون . شىء لطيف .

وتنهدت داشا .

قبل اسبوعين توادعت مع تليغين على سلم السفينة وقد رافقها في آخر الامر حتى سامارا ، ومنذ ذلك الحين وهى تعيش مع ابهيا بدون عمل في شقة جديدة فارغة غير مالوفة لها ، حيث كانت صناديق الكتب المغلقة تقف في الصالة ، ولم تكن الستائر قد علقت بعد ، وكان من المتعذر العثور على شىء فيها ، كما لم يكن فيها مكان يستريح المرء فيه ، ان العيش فيها يشبه العيش في حانة .

راحت داشا تقلب الشاى في القدر ، وتنظر مكتئبة الى سحائب الغبار الرمادى تطاير وراء النافذة من تحت الى فوق . كان يخيل اليها ان عامين قد انقضيا كالحلم ، وها هى قد عادت الى البيت ثانية ، ولم يبق من كل الامانى والانفعالات وضروب الناس ، من بطرسبورغ الصاخبة غير هذه السحائب من الغبار . قال دميتري ستيبانوفيتش ، وهو يقلب الصحيفة :

- قتلوا الارشيدوق .

- ايهم ؟

- كيف ايهم ؟ ارشيدوق النمسا اغتيل في ساريفو .

- هل كان شابا ؟

- لا اعرف . صبى لى قدحا آخر .

التي دميتري ستيبانوفيتش قطعة سكر صغيرة في فمه - وكان يحسى الشاى دائما خلال قطعة سكر في الفم - ونظر الى داشا نظرة هازئة . وسأل وهو يرفع صحن الفنتجان .

- خبرينى ارجوك ، هل انفصلت يكاترينا عن زوجها نهائيا .

- لقد اخبرتك ، يا بابا .

- حسنا ، حسنا . . .

وتناول الصحيفة من جديد . مشت داشا الى النافذة . يا للسم ! وتذكرت السفينة البيضاء ، والشىء الرئيسى ان الشمس

كانت تملأ الربح : السماء الزرقاء ، والنهر ، وسطح السفينة النظيف ، وكل شىء ، كل شىء مغمسور بالشمس ، والندوة ، والطاوة . عندئذ بدا ان ذلك الطريق المتلاىء ، اى النهر العريض الملتوى ببضء ، والسفينة «فيودور دوستوفسكى» وعليها داشا وتليغين ، كل ذلك ينصب ويتداخل في خضم من الضياء والبهجة ازرق بلا ساحل ويتحول الى نعيم .

آنذاك لم تتعجل داشا ، رغم انها كانت تدرنك ان تليغين كان يعاني ، ولم تكن هى تتعرض على هذه المعاناة . ولكن لم العجلة ، وكل لحظة من لحظات تلك السفرة كانت طيبة رغم ذلك ، وهما سيصلان الى السعادة على اية حال .

اصبح ايفان ايليتش لدى اقترابهما من سامارا شاحب الوجه ، وكف عن المزاح . حدثت داشا نفسها : نحن مبحران نحو السعادة ، وشعرت بنظراته اليها ، وكانها نظرة رجل قسوى مرح مرت عليه عجلة . كانت مشفقة عليه ، ولكن ماذا كان يوسعها ان تفعل ، وكيف تدعه يقترب منها ، ولو قليلا ، وقد كانت تدرنك ان ذلك لو حدث لبدأ في الحال ما كان يجب ان يحدث في آخر الرحلة . انها ، عندئذ ، لن يصلا الى السعادة ، بل ستسرق منهما بجزء من منتصف الطريق . ولهذا السبب اكتفت بان تكون حنونة معه فقط . اما هو ، فقد خيل اليه انه سيهين داشا اذا لمح ، ولو بكلمة واحدة ، الى ما كان السبب في سهاده اربع ليالى ، احس بنفسه في ذلك العالم الغريب تصف الشفاف ، حيث جميع المظاهر قد انزلت عنه مثل ظلال في ضباب ازرق ، وحيث كانت عينه داشا الرمادياتان تشعان وعيدا وقلقا ، وحيث لا واقع غير الواقع ، وضوء الشمس ، والم ف القلب لا يقتر . في سامارا استقل ايفان ايليتش سفينة اخرى ، وعاد بها . واخفى بحر داشا المتلاىء الذى كانت تبهر عليه بهدوء غامر وتشتت ، وارتفعت سحائب من الغبار وراء زجاج النافذة المرتسج . قال دميتري ستيبانوفيتش :

- سيجر النمساويون آذان الصربيين هؤلاء - ثم خلس نظارته من انفه ووضعها على الصحيفة ، واكمل : - اما انت ، فما هو رايك في المسألة السلافية ، يا قطيطة ؟

هزت داشا كتفها ، وهي واقفة عند النافذة ، وسألت مضمومة :

- هل ستأتني للغداء ؟

- لا ، على الإطلاق . عندي حالة حمى قرمزية في بيت بوستنيكوف .

تناول دميتري ستيبانوفيتش صدر قميصه الشكلى من على المنضدة بحركة بطيئة ، وارتداه ، وزر سترته من قماش الشنتونج ، وتفحص جيوبه ليظمن الى ان كل شيء في مكانه ، وشرع يمشط شعره الاشبب الأجدع على جبينه بمشط مثلوم . على كل حال ، ماذا بخصوص المسألة السلافية ؟

- أوه ، يا الهى . لا اعرف ، يا بابا . لماذا تلج على ؟

- اما انا في رأيى الشخصى ، يا داريا دميترييفنا .

كان يكره كثيرا ، كما يبدو ، ان يذهب الى بيت بوستنيكوف كما انه ، بوجه عام ، يهوى الكلام في السياسة في الصباح ، وهو وراء السماور . تابع قوله :

- المسألة السلافية - هل انت مصغية ؟ - مسمار

السياسة العالمية . وكثير من الناس يفشلون في هذه المسألة . ولهذا السبب فان البلقان موطن السلاف الاصلى انما هو الزائدة البودية لاوروبا ، ربما تريدان ان تسألينى : لماذا ؟ فاجيبك . - وهنا اخذ يطوى اصابعه السميكة : اولاً ، ان السلاف اكثر من مائتى مليون ، وهم يتوالدون كالارانب ، ثانياً انهم استطاعوا ان يخلقوا دولة عسكرية جبارة كالامبراطورية الروسية ، وثالثاً ان الجماعات السلافية الصغيرة ، رغم الاندماج ، تنظم نفسها في كيانات مستقلة ، وتطمح الى ما يسمى بالتحالف السلافى العام ، رابعاً - وهذا الأهم - ان السلاف يكونون طرازاً من «الباحث عن الله» جديداً كلياً من الناحية الخلقية ، وخطراً للغاية في بعض الوجوه على الحضارة الاوربية . ان «البحث عن الله» -

هل انت تسمعينى ، يا قطيطة ؟ هو رفض وتهديم للحضارة الحديثة كلها . وانا ابحت عن الله ، اى عن الحقيقة في نفسى انا . ولأجل ذلك يجب ان اكون حراً بشكل مطلق ، وانا اهدم الأسس الخلقية التى دُفنت تحتها ، اهدم الدولة التى تصفدنى بالاعلال .

قالت داشا جزعة :

- اذهب الى بيت بوستنيكوف ، يا بابا .

- لا ، ابحتى عن الحقيقة هناك .

وتقر بأصبعه ، وكأنه يشير الى باطن الأرض ، الا انه صمت فجأة ، واستدار نحو الباب . كان الجرس يرن في الرواق .

- داشا ، اذهبى لفتح الباب .

- لا استطع ، فانا لم ارتد ثيابى .

صاح دميتري ستيبانوفيتش :

- ماتريونا ! آه ، امرأة لعينة . - وذهب بنفسه ليفتح

الباب ، وعاد في الحال يحمل في يده رسالة . وقال :

- انشا من كاتيا . انتظرى ، ولا تلتقطيها من يدى ، ساكمل

حديثى اولاً . . . اذن ، ف «البحث عن الله» يبدأ ، قبل كل شيء ، من التهديم ، وهذه المرحلة خطيرة جداً ، ومعدية . وروسيا الآن مصابة بهذه المرحلة من العرض بالذات . . . اخرجى مساء الى الشارع الرئيسى وستسمع من الناس يزعمون : «النجدة» . فى الشارع يتسكع قطاع الطريق . انها شقاوة فاحشة وقد عجز البوليس عن السيطرة عليها . ان اولئك الفتيان الذين لا اخلاق لهم هم «باحثون عن الله» . هل فهمت ، يا قطيطة ؟ وهم اليوم يستهترون في الشارع الرئيسى ، وغدا سيبدأون بالاستهتار في ارجاء الدولة الروسية كلها . والشعب قاطبة يعانى من المرحلة الاولى من «البحث عن الله» مرحلة هدم الانس .

وتتشقق دميتري ستيبانوفيتش ، واشعل سبكاره . اختلطت داشا من اصابعه رسالة كاتيا ، وذهبت الى غرفتها . بينما مضى في اثبات شيء ما بعض الوقت ، وسار صافقاً الابواب في الشقة الواسعة نصف الفارغة المغبرة بأرضيتها المطية ، ثم ذهب الى وجهته .

كتبت كاتيا في رسالتها :

«عزيزتى داشا . انا لا اعرف حتى الآن شيئاً عنك ولا عن نيقولاى . انا الآن في باريس . والموسم هنا في ذروته . والنساء يلبسن فساتين ضيقة جداً في الاسفل . والشيفون فى الموضة . باريس جميلة جداً . ليتك ترين ذلك : وكل الناس فى

باريس بلا استثناء يرقصون التانغو . وفي الافطار في الفترة بين تقديم صحن وصحن ينهض الناس ، ويرقصون ، وفي الساعة الخامسة ايضا ، واثنا الغداء وهكذا دواليك حتى الصباح . ولا مكان لي اتحاشى فيه الموسيقى . وفيها شيء من الحزن والغداً والحلاوة . ويخيل اليّ دائماً انني اشيع شبابي ، وشيئاً لا يمكن ان يرد حين انظر الى تلك النسوة بفساتينهن ذات الفتحاح الواطئة ، وعيونهن المؤطرة بالازرق ، والى فرسانهن . وبشكـل عام انا احس بضجر . والتصـور دائماً ان شخصـما ما لا بد ان يموت . وانا اخاف على ابي كثيراً . فقد تخطى سن الشباب منذ زمان . الروس هنا يملأون كل مكان ، وجميعهم من معارفنا . وفي كل يوم نجتمع في مكان ما ، وكانما لم تغادر بطرسبورغ . وبالمناسبة حدثوني هنا عن نيقولاى ، وزعموا انه كان في علاقة قريبة جداً من امرأة هسى ارملة ولها ولدان وثالث طفل صغير . هل تفهمين ؟ وقد تألمت كثيراً جداً في بادي الامر . وفيما بعد شعرت ، لسبب ما ، بالشفقة على ذلك الطفل الصغير . . . آه يا عزيزتى داشا ، اود احيانا لو يكون لي طفل . ولكن ذلك ممكن فقط اذا كان من رجل احبه . اذا تزوجت انتجبي طفلاً . ليكن ذلك في بالك» .

اعادت داشا قراءة الرسالة عدة مرات ، ودمعت عيناه لا سيما على ذلك الطفل البريء من كل ذنب ، وجلست تكتب جواباً ، وفرغت منه قبل الغداء ، وتقدت وحدها - لم تمس من الطعام الا قليلاً - ثم ذهبت الى غرفة المكتـب واخذت تنبش في المجلات القديمة ، ووجدت رواية طويلة جداً ، واستلقت على الأريكة وسط الكتب المبعثرة ، وطالعت حتى المساء . وجاء والدها اخيراً مغفراً تعباً ، وجلس الاثنان للعشاء ، وكان الوالد يردد على جميع اسئلتها «اعلى» . الا ان داشا استغلصت منه ان الطفل في ربيع الثالث ، والصاب بالحمى القرمزية قد مات . وتنشقت ديمتري ستيبانوفيتش ، بعد ان نطق بهذا النبأ ، ووضع نظارته الانفية في محفظتها ، وذهب لينام . استلقت داشا في السرير ، وتغطت بالفرش حتى راسها . وافرغت ما في صدرها باكية على مختلف الانبياء الحزينه .

انقضى يومان . وانتهت زوبعة الغبار يرعود ومطر مدار

ظل يقرع السقف طوال الليل ، وطلع صباح الأحد هادئاً رطباً مغسولاً .

ما كادت داشا تنهض في الصباح حتى جاء لزيارتها صاحب للعائلة قديم هو سيمين سيمينوفيتش غفيادين موظف الاحصاء في البلدة ، وهو رجل نحيل معدودب ، بادي الشحوب دائماً ذو لحية شقراء ، وشعر مصفوف وراء اذنيه . وكانت تفوح منه رائحة تشمده . ولم يكن يعاقر الخمرة ، ولا يدخن ، ولا ياكل اللحم ، وكان تحت رقابة البوليس . سلمت على داشا ، وقال دون اية مناسبة بصوت هازي : - لقد جئت اليك لنذهب الى الفولغا ، يا امرأة .

قالت داشا لنفسها : «وهكذا انتهى كل شيء بموظف الاحصاء غفيادين» . وتناولت مظلة بيضاء ، وسارت وراء سيمين سيمينوفيتش هبوطاً الى الفولغا ، الى الرصيف الذى كانت الزوارق تقف عنده .

كان الجمالون والعतालون ، وهم رجال وشبان عراض المتناكب واسمو الصدور حفاة حاسرو الرؤوس ، عراة الرقاب ، يطوفون بين عنابر الحبوب الخشبية الطويلة ، واكوام الاخشاب وبالات الصوف والقطن . كان بعضهم يلعب لعبة قذف النقود ، والبعض الآخر ينام على الاكياس والالواح . وعلى مسافة بعيدة كان زهاء ثلاثين رجلاً يركضون على مسلم المركب المهترزة حاملين الصناديق على اكتافهم . وكان ثمة رجل سكران يقف بين العربات وقد كساه الوحل والغبار ، وتضرجت وجنته بالدم وكان يشتتم بتكاسل وفحش رافعا بظلوله بكتلتا يديه .

قال سيمين سيمينوفيتش بلهجة تهذيبيية : - ان هذا الصنف من الناس لا يعرف اعياداً ولا استراحة ، اما انا وانست فذاهيان الى الاستمتاع بالطبيعة في وقت الفراغ كانسانين ذكيين مثقفين .

وظفر رجلين حافيتين ضخمتين تعودان للشباب واسمع الصدر ضخم الشفتين كان مبطوحاً على الأرض ، بينما جلس شخص آخر على جذع ، وراح يعضخ خبزاً . وسمعت داشا قسول الشاب المبطوح في اثرها :

- فيليب ليت لنا مثلها .

فاجاب الآخر من قم ممثلي :

- مفرطة النظافة . تتطلب متاعب كثيرة .

كانت اشباح القوارب الصغيرة تتحرك في النهر المصفر العريض على انعكاسات الشمس الرجراجة متجهة الى الشاطئ الرملى البعيد . وقد استاجر غنيادين واحدا من مثل هذه القوارب ، وطلب الى داشا ان تهتم بتدوير الدفة ، بينما جلس هو الى المجذافين ، واخذ يجذف بعكس التيار . وسرعان ما تقصد العرق على وجهه الشاحب .

- الرياضة شيء عظيم .

قال سيمين سيمينوفيتش ذلك ، واخذ يخلع عنه سترته ، وحلّ حالة البنطلون بشيء من الحياء ، وحشرها بعيدا مقدمة القارب . كانت له ذراعان نحيلتان ضعيفتان عليهما شعر طويل ، وكان طرفا رديه مصنوعين من السيلوليويد . فتحت داشا مظلتها ، وحدقت في الماء مقلصة عينيهما .

- اعذرني على سؤال غير متواضع ، ياداريا دميترييفنا . يقال في المدينة انك موشكة على الزواج ، اهذا صحيح ؟

- لا ، غير صحيح .

عندئذ رسم تكشيرة عريضة كانت غير ملائمة لاساريسر وجهه المفكرة الساهمة ، وحاول بصوت ضعيف ان يفتي «آه ، نحن منحدرون مع الفولغا الام» الا ان العجل ركب ، وراح يجذف بكل قوته .

قابلهما من الاتجاه الآخر قارب مملوء بالناس . كانت ثلاث نساء من طبقة متوسطة في فساتين خضراء وقرمزية من الكشمير يقضمن حب عباد الشمس ، ويلفظن القشور في احضانهن . وقد جلس قبالتهم رجل له وجه سفاح ، في غاية السكر ، اجعد الشعر ، اسود الشاربين ، يقلب عينيه ، وكانه يحتضر ، ويعزف «البولكا» على الاكورديون . وكان شخص آخر يجذف بجنون ، مرتحا القارب ، بينما لوح ثالث بمجداف احتياطى ، وصاح على سيمين سيمينوفيتش :

- تنح عن الطريق ، يا رمة .

ومروا على قرب شديد صانحين لاعنين .

واخيرا انزلق القارب على القاع الرملى قرب شاطئ . قفزت داشا الى الشاطئ . اعاد سيمين سيمينوفيتش ارتداء حمالة البنطلون والسترة . وقال مقلصا عينيه :

- رغم اني من سكان المدن ، الا اننى اعشق الطبيعة دائما ، لاسيما اذا انضاف اليها قوام فتاة ، وفي ذلك اجد شيئا من تورغنغيف . لنذهب الى الغابة .

وسارا على الرمل الحار ، غائصين فيه حتى الكاحل . وكان غنياديين يتوقف بين لحظة واخرى ويمسح وجهه بمنديله ، ويقول :

- انظري ، اية بقعة فاتنة .

واخيرا انتهى الرمل ، وكان يجب ارتقاء عدوة قليلة الارتفاع تبدأ بعدها مروج قطع العشب في بعض الامكانها ، وتفسى الذبول صفوفه . كانت زهور العسل تعبق برائحة حارة هناك ، وكانت شجيرة جوز كثيفة الاوراق تنحو فوق الماء على شفا خندق ضيق . وكان جدول ماء يترقق في منخفض ريان العشب ليصب في بركة اخرى مستديرة . وقد نمت على ضفتيها اشجار زيزفون معمرة ، وشجرة صنوبر وعرة انبسط فرعها الوحيد كاليد . وعلى مسافة ابعد نما حرش من الزهور البرية البيضاء على تلعة ضيقة من الارض . كان هذا المكان بقعة مفضلة لطيور الشنقشب اثناء هجراتها . جلست داشا وسيمين سيمينوفيتش على العشب . كان الماء في وهاد ملتوية صغيرة ، تحت اقدامهما ، يعكس زرقة السماء ، وخضرة الشجر . وكان طائران زمادبان صغيران يقفزان في اجمة غير بعيد عن داشا ، ويسقسقان سقسقة رتيبة . وكان حمام برى يهدل في شجرة بوخشة هديل من فارقه اليقته . جلست داشا مادة ساقيةها ، ملقبة يديها على ركبتيها تصغي الى الحمام العاشق المهجور يئانغياها من الاغصان بصوت رقيق :

«داريا دميترييفنا ، آه ما الذى دهاك - لم انت حزينة هذا العز ، تردين ان تبكي ؟ لم يحصل شيء بعد ، بينما انت كئيبة ، وكان الحياة قد انتهت انقضت وتوارت . مجرد انك متفمرة بطبعك» .

قال غفيادين :

- اريد ان اكون صريحا معك ، يا داريا دميترييفنا ، فهل تسمحين لي ان القى جانبيا بما يسمى بالمتعارف عليه ؟

- تكلم ، فسيان عندي .

اجابت داشا ، وقد استلقت على ظهرها مودسة رأسها على يديها لتنظر الى السماء ، لا الى عيني محدثها الصغيرتين الزائفتي النظر . وكان سيمين سيمينوفيتش يختلس النظر الى جوريبيا الابيضين .

- انت فتاة ابية جريئة . وانت شابة جميلة تفور الحياة في اعماق نفسك . . .

قالت داشا : ولنفرض ذلك .

- امعقول انك لم ترغبي مرة في تحطيم هذه الاخلاق الموروثة من تربيتك ومحيطك ؟ امن المعقول انك باسم هذه الاخلاق المرفوضة من جميع ذوى المكانة مضطرة الى كبت غرائزك الجميلة ؟

- ولنفرض انني لا اريد ان اكبت غرائزي الجميلة ، فماذا يكون ؟

سالت داشا ، وانتظرت جوابه بفضول كسول . كانت الشمس تدفؤها ، وتجد تمتع في النظر الى السماء ، والى الغبار المشمس ، الذي كان يملا كل تلك الزرقة المترامية الاطراف ، حتى انها لم تجد رغبة في التفكير او في الحركة .

صمت سيمين سيمينوفيتش حافرا الارض باصبعه . كانت داشا تعرف انه متزوج من المولدة ماريا دافيدوفنا . وكانت زوجته تاخذ اطفالها الثلاثة اكثر من مرة في كل عام ، وتهجره الى امها التي كانت تعيش في بيت مقابل داره . وكان سيمين سيمينوفيتش يعزى في البلدة هذه الهجرات الى طبع زوجته الحساس والمضطرب . بينما عزتها هي في مستشفى المدينة الى استعداد زوجها في كل دقيقة الى ان يخونها مع كل امرأة ، وهو لا يفكر بغير ذلك . الا انه لا يخونها بسبب جنه وخوره ، وذلك شيء مخجل تماما . وهي لم تعد تحتمل رؤية وجهه الطويل ، الشبيه بوجوه النباتين . وكان سيمين سيمينوفيتش خلال هذه الخصامات

يعبر الشارع عدة مرات في اليوم حاسر الرأس ، ثم يتصافى الزوجان ، وتنتقل الزوجة الى بيته مع الاولاد والوسائد .

- اذا اختلت امرأة ورجل فان رغبة طبيعية تتولد لدى المرأة في ان تكون له ، ولدى الرجل في ان يملك جسدها - وسعمل سيمين سيمينوفيتش ، ثم اردف قائلا - وانا ادعوك لان تكوني صادقة وصريحة . انظري في اعماق نفسك فستجدين الرغبة الطبيعية لاحساس سليم تضطرم فيها وسط الاهواء والاكاذيب . - لا تضطرم اية رغبة في نفسي الآن ، فما يعنى ذلك ؟

سالت داشا ، وكانت تحس بتسلية وارتهاء . رات نخلة تطوف فوق رأسها ، في الاصفرار الشاحب لزهرة برية ، في الغبار الاصفر . بينما مضى الحمام العاشق المهجور يهدل في شجيرة العنبر : «داريا دميترييفنا ، داريا دميترييفنا ، العلك عاشقة ؟ عاشقة ، عاشقة ، كلمة شرف . ولذلك انت حزينة» . وشرعت داشا تضحك لدى سماعها ذلك .

- يبدو ان الرمل تسرب الى حذائك . اسمحي لي بنفضه . قال سيمين سيمينوفيتش بصوت خافت غريب ، وسحبها من كعب حذائها . عندئذ جلست داشا بسرعة ، وانتزعت منه الغذاء ، وضرته به على خده . وقالت :

- يا سفيه . لم تصور قط انك رجل بهذه الوضاعة . لبيست حذاءها ، ونهضت ، والتقت المظلة ، وسارت نحو النهر ، دون ان تنظر الى غفيادين .

وكرت داشا وهي تهيب من العدة : «حمقاء ، حمقاء . لم تساليه حتى عن عنوانه لتكتبي له . اما هو في كينيشما واما في نيجنى . والآن ، اجلسي مع غفيادين . آه يا ربي» . التفتت ، ولمحت غفيادين يسير على المنحدر المعشوشب ، واقفا رجليه كاللقلق ، مديرا بصره الى ناحية . «ساكتب لكاتيا : «تصوري : يبدو انني مفرمة ، هذا ما يبدو لي» . ورددت داشا بصوت خافت ، مستمعة الى صوتها : «عزيزي ، عزيزي ، عزيزي ايفان ايليتش» .

وفي تلك اللحظة سمعت على مقربة منها صوتا يقول «لا ادخل ، لا ادخل ، اتركني ، ستمزق الثنورة» . ورات رجلا مسنا عاريا

يخوض في الماء الى ركبتيه . له لحية قصيرة ، واضلاع مصفرة ، وقد تدل شريط الصليب الاسود على صدره الغائر . كان مظهره وتما وكان يسحب نحو الماء امرأة كئيبة حانقا صامتا . وكانت المرأة تردد : « اتركنى ، ستمزق التنورة » .

عندئذ ركضت داشا بكل قواها بحداء الشاطئ نحو القارب ، وقد شعرت بتقلص في حنجرتها من التفزز والعار . وبينما كانت تدفع القارب الى الماء جاء غفيادين راكضا متقطع الانفاس . ودون ان ترد عليه ، وتتنظر اليه جلست على مقدمة القارب ، وتطلعت بالمظلة ، ولزمت الصمت طوال طريق العودة .

بعد هذه النزهة اخذت داشا بطريقة غريبة غير مفهومة حتى لنفسها تشعر باستياء من تليفين ، وكانما هو المولود على كسل هذا الضيق من هذه البلدة الكئيبة العبيرة المتوجهة بالشمس بأسبيجتها المنتنة ، وبواباتها النارية وبيوتها الصغيرة الاجرية الشبيهة بالعلب ، وباعمة للتلفونات وللترام بدلا من الاشجار ، والقيظ الثقيل عند الظهيرة ، حين تتجول في الشوارع الرمادية الابيض الغالي من الظل امرأة كادت تصاب بدوار الشمس ، تعلق حزم السمك المجفف على كتفيها ، وتصرخ ناظرة في الشبايك المتربة «سمك مجفف ، سمك» ، الا ان كلبا مصابا بدوار الشمس مثلها ، نصف معنوه يتوقف بالقرب منها ، ويتشمم السمك ، بينما يترامى من فناء بعيد صوت ارغن الشوارع يعزف لحن الفالس القديم المشحون بالسام .

كان تليفين ملوما على ان داشا تتلقى الان بحساسية شديدة كل ما يحيط بها من هذا الركود الباطني لحياة البرجوازية الصغيرة ، والذي لا ينوى ، كما يبدو ، ان يتزحزح من مكانه ابدا ، وحتى ولو خرجت الى الشوارع وصرخت بصوت وحشى : اريد ان اعيش ، ان اعيش !» .

وكان تليفين ملوما على انه كان مبالغا في تواضعه واستحيائه . فليس هي ، اي داشا ، من كان عليه ان يقول «اعلم اننى احبك» . وكان ملوما على انه لم يترك خبرا عنه ، وكانما غاص تحت الارض ، بل ولعله نسى التفكير فيها .

وبالاضافة الى كل هذا السام ، رات داشا في احد الليالي الحالكة اللاهية كالفرن الحلم الذى راتنه في بطرسبورغ ، حين هبت من نومها والدموع في مآقيها ، وقد غاب عن ذاكرتها ايضا مثلما غاب آنذاك كيخار تصاعد من زجاج رطب . الا انه تصورت ان هذا الحلم المعذب الرهيب ينذر بصيصية . فصح دميتري ستيبانوفيتش ابنته بان تحقق بالزرنينج . وفيما بعد جاءت رسالة ثانية من كاتيا . كتبت :

«عزيزتى داشا ! بى حنين شديد اليك ، والى اصحابى ، والى روسيا . وانا اشعر اكثر فاكثر بان الذنب يقع علىّ في الانفصال عن نيقولاى ايضا . استيقظ ، واقضى اليوم كله يلازمى هذا الشعور بالذنب ، ونوع من التعفن الروحى . ثم - ولا ادري هل كتبت لك عن ذلك - ان شخصا يلاحقنى منذ بعض الوقت . اخرج من البيت فراه قادما من الجهة المقابلة . اصعد فى المصعد الى مخزن عام ، فراه يقفز اليه اثناء صعوده . بالامس كنت فى اللوقس . وقد تعبت فى المتحف ، وجلست على مصطبة ، وفجأة احس وكان بدا تمر على ظهري . التفت فاجده يجلس غير بعيد عنى . انه رجل نحيل ، نفشى الشيب فى شعره الاسود ، ولحيته تبدو وكأنها مصمغة على خديه . كان يضع يديه على راس عشاء ، وينظر نظرة كالحة ، وعيناه غائرتان . وهو لا يتكلم ، ولا يضايقنى الا اننى اخاف منه . واشعر بانه يحوم حولى . . .» .

اطلعت داشا اباهما على الرسالة . وفى الصباح التالى قال دميتري ستيبانوفيتش عرضا ، وهو يطالع صحيفته :

- سافرى الى القمر ، يا قطيطة .

- لماذا ؟

- ابحنى عن نيقولاى ايفانوفيتش هذا ، وقولى له : انه مغفل . دعيه يسافر الى زوجته فى باريس . وعلى العموم . . . حسب ما يريد . . . تلك قضيتهما الشخصية . . .

وظهر الغضب والانفعال على دميتري ستيبانوفيتش رغم انه كان يكره اظهار مشاعره . وفجأة احست داشا بالفرح . فقد كانت تتمثل القمر رحابا زرقاء ساحرة تزخر بالامواج . وتصورت

الجسم الممدد على الرمل ، والاذرع المبسوطة ، والاجفان المسبلة
بخفة وحرارة ولذة . ان كل الاشياء على الاطلاق ، حتى اخطرها
سهلة ولذيذة .

في هذا الصيف تخطى نزق المصطافين وتحللهم جميع الابعاد ،
وكان كلنا جبارا انفصل عن الشمس المتوقفة في صباح من صباحات
حزيران قد اصاب ذاكرة وتعقل سكان المدن هؤلاء . يمشا الوهم .
لم يكن في طول هذا الساحل بيت واحد بخير . تقطعت الروابط
الوثيقة فجأة . وبدا وكان الهواء نفسه موقر بهمس الغرام والضحك
الناعم ، والهذر الذي لا يوصف ، والمقول على هذه الارض العارة
المبثوثة فيها اطلال المدن القديمة ، وعظام الشعوب المندثرة .
وكان يبدو وكان يوما لتصفية الحساب وللدموع المرة سيأتي مع
امطار الخريف .

وصلت داشا الى يقاتوريا بعد الظهر . وبمشا كانت تقترب
من البلدة على الطريق المترب الذي كان يمتد كشرط ابيض في
سهب مستو مرورا بالبطنح الملحية ، واكداس القش لمحت
سفينة خشبية كبيرة ازاء الشمس كانت تسير ببطء على بعد نصف
ميل ، فتلوح وكأنها تسير في السهب ، وسط الافستنين ، واشرعتها
السوداء منحرفة وممتدة من فوق السفينة حتى اسفلها . كان منظرا
مذهلا انتزع منها آه تعجب . قال الازمئي الذي كان
جالسا الى جوارها في السيارة ، وهو يضحك : «سترين
البحر الآن» .

استدارت السيارة مارة بملاحات مربعة الشكل ، وارتقت
مرتقا رمليا ، انفتح البحر من عليه . وبدا وكأنه اكثر ارتفاعا من
الارض وكان ذا لون ازرق داكن ومفروشا بجداول طويلة بيضاء
من الزيد . اصفرت ربح مرحة في الاذان . ضغطت داشا
على الحقيبة الجلدية على ركبتيها ، وفكرت مع نفسها : «هذا هو
بيدا» .

في هذا الوقت كان نيقولاى ايفانوفيتش سموكوفنيكوف
جالسا في سرادق اقيم على اعمدة عند البحر ، يحس القهوة مع
الفنان العاشق . كان المصطافون يأتون الى هنا بعد ان استراحوا
من الغداء ، ويجلسون الى موائد صغيرة ، ويتنادون ويتحدثون عن
قائدة العلاج باليود ، وعن السباحة في البحر وعن النساء . وكان

الظل الطويل لشجرة حور هرمية ، ومسطبة حجرية ، ولعاقا يرف
على رأسها ، وعينين قلقتين تنظران اليها .
جمعت اتمعنتها بسرعة ، وسافرت الى يقاتوريا ، حيث كان
نيقولاى ايفانوفيتش يستحم في البحر .

١٢

في ذلك الصيف كان سيل غير اعتيادي من المصطافين قد
جاء الى القرم من الشمال . كان الساحل بأسره بغض بالمتزهين
المسلوخى الانوف من اهالى بطرسبورغ اللاذعين الجالين معهم
نزلاتهم الصدرية والتهاب التنصبات ، ومن الموسكوفيين الضاجين
المهمل الهنمام بكلامهم المتراخي الناعم ، ومن اهالى كييف ذوى
العيون السود غير عارفين الفرق بين الواو اللينة والواو المضخمة ،
ومن اغنياء سيبيريا المزددين لهذه الضوضاء الروسية . وكان
الجميع يشمون ويلوحون جلودهم في الشمس حتى الاسوداد :
نساء شابات ، قتيان طويلو السيقان ، ورحبان ، وموظفون ،
واناس ميجلون ، وازواج مع زوجاتهم يعيشون كلهم برخاوة ،
كما كان الجميع يعيشون في روسيا انذاك ، وكان اسفل عمودهم
الفقرى قد انقصم .

وفي منتصف الصيف ، وبسبب الماء العالح ، والجر وتلويح
الشمس فقد هؤلاء الناس الشعور بالحياء ، وبدأت ملابس على طراز ما
يلبسه اهل المدن تبدو ابتذالا زائدا عن الحاجة ، وظهرت على
الساحل نساء لا تستترن غير المناشف الترتية ، ورجال يشبهون
الصور الرسومة على المزهربات الاترورية .

وترنخت اسس العائلة في هذا الجو غير الاعتيادي من الامواج
الزرقاء والرمل الحار ، والاجساد العارية المبثوثة في كل مكان .
وبدا كل شى هنا سهلا وممكنا . ولا حاجة الى التفكير في تصفية
الحساب ، فيما بعد ، في الشقة الكئيبية في الشمال ، حيث المطر
يسح وواء النافذة ، والتلفون يدق في الرواق ، ولكل فرد التزاماته . ماء
البحر يتزلق على الساحل بقرقرة ناعمة ، ويمس الاقدام ، فيستشعر

الجو داخل السرادق طربا ، وكانت الريح تحرك حوائى المفارش البيضاء . ولفاحات النساء . مر بخت بشرع واحد وتناهت مسن عليه اصوات مرحة . وجاء الموسكوفيون فى جمع ، واحتلوا مائدة كبيرة ، وجميعهم من ذوى الصيت العالمى . تجهم الفنان العاشق لدى رؤيته لهم ، وتابع حكاية محتوى مسرحية فكر فى كتابتها .
- موضوع المسرحية كله مدروس بعمق ، ولكننى لم اكتب غير الفصل الاول - قال ونظر فى وجه نيقولاى ايفانوفيتش متأملا مهيبا - ان لك راسا رائقا ، وانت تفهم فكرتى يا نيقولاى . امرأة شابة جميلة ولكنها ضجرة تنهافت خمولا ، ومحاولة بالثفاعة . ان هؤلاء اناس طبيون ، ولكن الحياة قد امتصتهم امتصاصا ، مشاعر متعفنة ، وسكر . وباختصار ، انت تفهمنى ... وفجأة تقول هذه المرأة : «يجب ان ارحل ، اتخلص من هذه الحياة ، ارحل الى النور ... بينما لها زوج وصديق ... وكلاهما يعانى ... افهمنى يا نيقولاى ... ان الحياة قد امتصت ... وهى ترحل ولا اشير الى من ... لا عشيق لها ، مجرد مزاج ... ثم ترى الرجلين جالسين فى حانسة يحتسيان الخمر صامتين ... يتبلعان الدموع مع الكونياك . والريح تصفر فى مدخنة الموقد ، تنعيمها ... جو حزين ... خاو ... مظلم ...»

سأل نيقولاى ايفانوفيتش :

- هل تريد ان تعرف رايي ؟

- نعم ، قل لى فقط : «ميشا ، اترك الكتابة» وساتركها .
- مسرحيتك رائحة . انها الحياة بعينها - قال نيقولاى ايفانوفيتش ، وقد اغمض عينيه ، وراح يهز راسه - اجل ، يا ميشا ، اننا لم نعرف كيف نقدر سعادتنا ، وقد رحلت عنا . وما نحن بلا امل ، ولا عزيمة جالسون نشرب . والريح تعول فوق مقبرتنا ... ان مسرحيتك تؤثر فى للغاية ...

ارتعش الانتفاخان تحت عيني الفنان العاشق ، رفع جسمه ، وقبل نيقولاى ايفانوفيتش بقوة ، ثم ملا قديهما . قرع الصديقان القديح ، ووضعا كوعيهما على المائدة ، ومضيا فى حديثهما الحميم . قال الفنان العاشق ملقيا الى محدته نظرة ثقيلة :
- نيقولاى ، اعرف اننى احببت زوجتك ، كالأه .

- نعم ، هذا ما بدا لى .

- لقد تعذبت ، نيقولاى ولكن كنت صديقى ... وكم من مرة هربت مسن بيتك ، مقسما على الا اتخطى عتبة دارك مسرة اخرى ... ولكن كنت اعاود الزياره ، وامثل دور المهرج ... ولكن اياك ، يا نيقولاى ، ان تلومها .
ومع شفتيه بضراوة .

- انها تصرفت معى تصرفا فظا ، يا ميشا .

- ربما ... ولكننا جميعا مذنبون ازاءها . آه ، يا نيقولاى ، شئ واحد لا استطيع ان افهمه فيك . كيف وانت تعيش مع مثل هذه المرأة - وارجو العذرة - كنت على علاقة قريبة فى الوقت ذاته مع تلك الازملة صوفيا ايفانوفنا ؟ لماذا ؟

- تلك مسألة معقدة .

- تكذب . لقد رأيتها . انها امرأة بسيطة .

- اسمع ، يا ميشا . الآن صار الأمر فى حكم الماضى ، بالطبع . لقد كانت صوفيا ايفانوفنا مجرد انسان طيب . وقد وهبتنى لحظات من الفرح ، ولم تطلب منى شيئا قط . بينما كان كل شئ فى البيت معقدا للغاية ، عسيرا ، معقدا ... ولم تكن لى القوة الروحية الكافية لأؤثر بها على يكاترينا ديمترييفنا ...

- غير معقول ، يا نيقولاى . ها نحن سنعود الى بطرسبورغ وتقام امسية الثلاثاء ، وازورككم بعد العرض ... واجسد البيت فارغا ... كيف اتحمل ذلك ؟ . اسمع ... اين زوجتك الآن ؟

- فى باريس .

- وهل تراسل ؟

- لا .

- سافر الى باريس . لنسافر سويا .

- بلا فائدة ...

- نيقولاى ، لنشرب نخب صحتنا .

- لنشرب .

ظهرت الممثلة تشارودينيغا فى السرادق ، بين الموائد . كانت ترتدى ثوبا اخضر شفافا ، وقبعة كبيرة . كانت نحيلة كالانفسى يرتضى ظل ازرق تحت عينيها . وربما كان عمودها الفقرى معطوبا ،

فقد كانت تتأود وتنحنى . نهض للقائها محرر المجلة الجمالية «جوقة الموزيات» ، وامسك يدها ، ولثم ببطء ثنية المرفق .

قال نيقولاى ايفانوفيتش من خلال أسنانه :
- امرأة مدهشة .

- لا ، يا نيقولاى ، لا ، ان تشارودوييفا فطيسة لا غير . هل تريد ان تعرف سببا ؟ . مجرد انها عاشت مع بيسونوف ثلاثة اشهر ، وتقرأ الاشعار المنحلة في الحفلات بصوت كالمهوء . . . انظر ، انظر . ان فيها يصل الى اذنيها ، والعروق بارزة في رقبته . انها ليست امرأة ، بل ضبع .

ومع ذلك فحين اقتربت تشارودوييفا من المائدة ، هزاة قبعتها شمالا ويمينا ، مبتسمة من فم كبير وشفتين ورديتين نهض الفنان العاشق ببطء ، وكأنه قد صعق وحرك يديه مدهوشا ووضعها تحت حنكته .

- نينا . . . عزيزتى . . . يا للزينة ! . . لا اتحمل ، لا اتحمل . . . نصحونى بالهدوء التام ، يا حبيبتى . . .
ربتت تشارودوييفا على خده بيدها العظمية ، وغضنت انفها .
- وماذا هذرت عنى يوم امس في المطعم ؟
- هل اغلظت القول عليك ، يوم امس ، في المطعم ؟ اوه يا نينا .

- نعم ، ويشدة .

- كلمة شرف ، انا المفترى عليه .

وضعت تشارودوييفا خنصرها على شفثيه ضاحكة : «انت تعرف اننى لا استطيع ان اغضب عليك طويلا» . ثم التفتت الى نيقولاى ايفانوفيتش وقالت بصوت مختلف تماما ، كأنها تمثل تمثيلية دراجة .

- لقد مررت من نوى بعرفتك . يبدو ان احدى قريباتك قد وصلت . فتاة ساحرة .

الذى نيقولاى ايفانوفيتش نظرة سريعة على صديقه ، ثم تناول من صحن الفئجان السيفار ، واخذ يمتص الدخان منه مصات قوية ، حتى انتشر الدخان على لحيته كلها . قال :

- هذه مفاجأة . ماذا يمكن ان يعنى ذلك ؟ . . انا ذاهب .

والذى السيفار في البحر ، واخذ يهبط السلم الى الساحل ، مديرا عصاه الفضية الرأس . وقد دفع قبعته الى مؤخر راسه ، وعندما وصل الى الفندق كان لاهت الانفاس . . .

- داشا ، لماذا جئت ؟ ما الذى حصل ؟

سأل ، وهو يعلق الباب وراءه . كانت داشا جالسة الى الارض قرب حقيبة مفتوحة ، تخطب جوربا . عندما دخل زوج اختها نهضت متناقلة ، وعرضت له خدها ليقبلها ، وقالت مشتمة الفكر :

- يسعدنى جدا ان اراك . قررنا ، ابنى وانا ، ان تسافر الى باريس . جلبت معى رسالتين من كاتيا . خذهما واقراهما ارجوك .

اختطف نيقولاى ايفانوفيتش الرسالتين من داشا ، وجلس عند النافذة . ذهبت داشا ، الى غرفة المغسلة ، واخذت تغير ملابسها ، وكانت تسمع زوج اختها يتصفح ورق الرسالتين ، ويذفر . ثم سكن . تصمتت داشا حتى سمعته يسأل فجأة :

- هل تناولت فطورك ؟ اذا كنت جائعة فلنذهب الى السراىق .

عندئذ فكرت مع نفسها : «لم يعد يعيها تماما» . سوت قبعته على راسها بكلتا يديها ، وعزمت على ان ترجى الحديث عن باريس الى الغد .

في الطريق الى السراىق لسزم نيقولاى ايفانوفيتش الصمت ونكس بصره الى الارض ، ولكن حين سألته داشا «هل انت تسبح؟» رفع بصره بآدى العرج ، وقال انهم الفوا هنا «جمعية مناهضة ثياب السباحة» التى ترمي بالدرجة الاولى الى اغراض صحية .

- تصورى ان الجسم يتلقى من اليود خلال شهر من السباحة على هذا البلاج اكثر مما يمكن ان يتناوله باطنيا بطريقة اصطناعية خلال هذه المدة نفسها . وفضلا عن ذلك فانك تمتصين اشعة شمسية ودفا من الرمل المحمى . ونحن الرجال يمكن ان نحتمل ، فنحن لا نغطى الا ما تحت الخصر . اما النساء فيغطين ثلثي الجسم تقريبا . وقد اخذنا ناهض ذلك بحزم . . . يوم الاحد سألنى محاضرة في هذا الموضوع .

سارا بمعادة الماء على الرمل الاصفر الناعم كالمخمل والمكون من الاصداغ الصغيرة المسطحة التى صقلتها امواج المد والجزر .

وهناك ، غير بعيد عنهما ، حيث كانت الامواج الصغيرة تجسرى وتنحسر عن الجرف مزبدة ، كانت فتاتان في طاقتي سباحة حمراوين تمايلان كالطوافتين .

قال نيقولاى ايفانوفيتش بلهجة جادة :
- من اتبعنا .

كان يتمو في نفس داشا احساس يزداد قوة بين الاشارة والقلق . وقد ابدا حين رأت السفينة ذات الاشرعة السوداء في السهب .

توقفت داشا لتتظنر الى الماء يسمح على الرمل كالعشاء الرقيق ، ثم يعود فيتراجع ، تاركا مسارب صغيرة ، وكان في تماس الماء بالارض هذا شيء بهيج اذنى ، حتى ان داشا قرفضت ، ومدت يدها اليه . رات سرطانا صغيرا مسطحا يعدو جنبها ، مخلقا غشمية من الرمل ، واختفى في الاعماق . وجاءت موجة وبلبلت ذراعى داشا الى المرفقين .

قال نيقولاى ايفانوفيتش مقلصا عينيه :

- ارى فيك تغيرا . اما انك قد ازددت حسنا ، او نحفت قليلا ، او ان اوان زواجك قد حان .

التفتت داشا ، ونظرت اليه بغرابة ، ونهضت ، وسارت نحو السرادق دون ان تسمح يديها ، ومن هناك كان الفنان العاشق يلوح بقبعته القشبية .

اكلت داشا فطائر اللحم واللبن الغائر ، وشربت الشمبانيا ، وانشغل الفنان العاشق محتفيا بها ، وبين الحين والآخر كان يركس في حالة جمود ، هامسا وكأنما لنفسه : « يا آلهى ، ما الطفها ! » ثم جاء ببعض الشيبان ليتعرفوا عليها ، وهم طلاب في الاستوديو المسرحى تحدثوا باصوات مكتومة ، وكانهم في اعتراف امام كاهن . وكان نيقولاى ايفانوفيتش معتبطا بهذا النجاح لقريبته داشا . احتستت داشا التنبيد ، وضحكت ، وكانت تمد يدها لهذا او ذاك ليقبلها ، ولم تصرف بصرها عن البحر المائج المتألق بزرقته . كانت تقول لنفسها : « انها لسعادة » .

بعد الاستحمام والنزهة ذهبوا لتناول عشاءهم في الفندق ، حيث كان الصخب والوضاعة والاناقة . تحدث الفنان العاشق عن

الحب طويلا وبحرارة . وسكر نيقولاى ايفانوفيتش قليلا ، وهو يتفردس في داشا ، وغرق في حزن . بينما كانت داشا تراقب طوال الوقت ومن خلال فتحة في ستارة النافذة ومضات ضعيفة تظهر وتختفى غير بعيد عنها ، وتختفى ، وتعود ثانية . واخيرا نهضت ، وخرجت الى الساحل . كان البدر المستدير الصافي ، القريب تماما كما في حكايات شهرزاد يطل على درب حرسفى متلاى عبر البحر كله . شبكت داشا اصابع يديها ، وقرقتها .

تناهى اليها صوت نيقولاى ايفانوفيتش فاسرعت مبتعدة بمحاذاة الماء الذى كان يلحق الساحل وسنان . رات داشا شبح امرأة جالسة على الرمل ، ويقربها شبحا آخر لرجل يوسد رأسه ركبتيها . وكان رأس انسان يعوم سابجا بين الومضات الرجراجة في الماء الليلقى الداكن . نظرت الى داشا عيناان انعكس فيهما نور القمر ، وظلتا تراقبانها طويلا . ثم ابصرت داشا شخصين متلاصقين ، وبعد ان مرت بهما سمعت تنهيدة وقبلية .

«داشا ، داشا !» - سمعت هذا النداء من بعيد . فجلست على الرمل ، وركزت كوعيا على ركبتيها ، واسندت عنكها على يديها . لو جاء تليفين الآن وجلس الى جانبها ، وطوق بذراعه ظهرها ، وسالها بصوت صارم وخافت «هل انت لى» فستجيبه «لك» .

تحرك شبح رمادى كان راقدا وراء تلة رمل ، وقعد متدلى الرأس ، ونظف طويلا الى الدرب المتلاى الذى رسمه القمر على الماء ، وكانما لتسلية الاطفال ، ونهض ، ومر بادشا متهافتا كالنبت . وعرفت داشا بقلب واجف هالغ انه بيسونوف . وهكذا بدأت بالنسبة لداشا هذه الايام الاخيرة للعالم القديم . ولم تكن كثيرة وهى مشبعة بيقظ صيف آخذ بالهمود ، بهيجية وسعيدة . ولكن الذين تعودوا على ان يفكروا بان يوم الغد واضح كعالم الجبال البعيدة المزوقة ، وحتى الاذكيا منهم وذوو البصائر لم يستطيعوا ان يسروا ، ولا ان يعرفوا ما وراء اللحظة التى يعيشونها . ولقد كان وراء هذه اللحظة الملونة ، المضمخنة بالرائح ، والمفعمة بدفق نسع الحياة بكل الوانه يرقد ظلام دامس ... ما من نظرة ، ولا شعور ، ولا فكر نفذ قيد شعرة الى

الا ان كل شيء قد استيقظ فيها بقوة جديدة من نظـرة واحدة ، من تلك اللحظة التي مر فيها شبحا اسود ازاء ضوء القمر ، ولم يكن ذلك على شكل مشاعر مضطربة مبهمه ، بل هو الآن رغبة اكيدة حارة حرارة الظهيرة . انها متعطشة لتحس هذا الرجل . لا ان تحب ، ولا ان تتعذب ، ولا ان تتردد ، بل ان تحسه فقط . كرتت بصوت واهن وهى جالسة في فراش ابيض في غرفة بيضاء مغمورة بضوء قهري :

- آه ، يا آلهي ، آه ، يا آلهي ، اى شيء هذا ؟

وفي الساعة السادسة صباحا خرجت داشا الى ساحل البحر ، وخلعت ملابسها ، ودخلت في الماء الى ركبتيها ، وارسلت بصرها . كان البحر شاحب الزرقة ، ناعل اللون ، وهناك في البعيد في بعض الامكنة فقط كان يغطى سطحه تومج خفيف كامد . كان الماء يتماوج متماهلا فيرتفع الى ما فوق الركبة تارة ، ويهبط الى اسفلها تارة اخرى . مدت داشا ذراعيهما ، وارتمت على هذه الطرارة السماوية ، واخذت تسبح . ثم لفت جسمها في رويها اليوبير ، وقد انتعشت وكسا ملح البحر جسدها ، واستلقت على الرمل وقد سرى دفء فيه .

وفكرت مع نفسها . وقد استندت خدها على مرقعها الفواح بالطرارة : « لا احب غير ايفان ايليتش . احبه ، احبه . وانا معه اشعر بالنقاء والفضارة والفرح . حمدا لله اننى احب ايفان ايليتش . وساتزوجه » .

واعضت عينيها ، وغفت ، شاعرة بالماء يخفق بالقرب منها ، وكأنه يتنفس منتظما مع انفاسها .

وكانت الغفوة هذه لذيدة . وقد لازمها الاحساس بجسمها دافئا خفيفا في رقدته على الرمل ، واغرمت بنفسها في نومها .

في الغروب حين كانت الشمس تنزل مثل قرص مسطح في الراج البرتقالي الخالى من كل غيمة ، التقت داشا ببيسونوف جالسا على صخرة عند درب يتعرج عبر حقل مسطح من الافستنتين . وكانت داشا قد وصلت الى هناك اثناء نزهتها وتوقفت في الحال لى رؤيتها لبيسونوف ، وارادت ان تستدير وتركض الا ان الخفة السابقة قد زابتها مرة اخرى ، وثقلت رجلاها ، وكانها

هناك ، لم يكن هناك غير نفر تحسس ما هو قادم ، ربما بشعور مبهم فقط كشموع الحيوان عند دنو العاصفة . وكان هذا الشعور شبيها بقلق غير معروف الهوية . بينما كانت تنزل على الارض في ذلك الوقت سحابة غير مرئية ، تدور دورانا مجنونا ، لها خطوط منتصرة ضاربة هابطة ولم يكن الرمز الوحيد الى ذلك الا شريطا من ظل الشمس ممتدا من الجنوب الشرقى الى الشمال الغربى ماسعا كل الحياة القديمة المرحلة الغالطة على الارض .

١٣

كان ببسونوف يقضى اياما بكاملها منطرحا عند البحر . وكان وهو يتطلع الى الوجه : النسائية الضاحكة الملوحة قليلا بالشمس والرجالية النحاسية الحمراء المنفصلة ، يحس في جزع بان قلبه ليس الا قطعة من الثلج ترقد في صدره . وكان يفكر ، وهو ينظر الى البحر ، بانها باقى كما هو منذ آلاف السنين يضرب الساحل يماواجه . وكان الساحل ، آنذاك ، مقفرا ، بينما هو اليوم ماهرل بالناس ، وسيموت الناس ، ويقفر الساحل ثانية ، ويظل البحر يترامى على الرمل كديدنه . وكان ببسونوف ، وهو يفكر ، يقطب ويجمع باصابعه الاصداف في كومة ، ويحشى فيها عقب سيكارته المنطفئة . ثم يذهب للسباحة . وبعد ذلك يتناول غذاءه بتوان ، ثم يذهب لينام .

يوم امس جلست فتاة على الرمل عجي ، غير بعيد عنه وراحت تحسد طويلا في ضوء القمر ، وكانت تفوح منها رائحة خفيفة لعطر البنفسج . فرقت ذكري في ذهنه الراكد . وتلملم ببسونوف ، وقال لنفسه « لا ، لا تلتق بشخصك عليها . . . الى الشيطان . . . انا ذاهب لانا » ، ونهض وذهب الى الفندق .

وتهيبت داشا بعد هذا اللقاء . خيل اليها ان حياة بطرسبورغ - كل تلك الليالي المضطربة - قد انتقضت الى الابد وببسونوف الذى فتنها ذات مرة بشيء غير مفهوم قد صار في طي النسيان .

غاصتا في الارض ، فراحت تنتظر اليه من تحت حاجبيها وهو يتقدم نحوهما لا تكاد تظهر عليه الدهشة من اللقاء ، ويخلع قبعة القش ، وينحنى لها بخشوع انحناءة راعب .

- لم تخطئي عيناى بالامس ، يا داريا دميترييفنا ، انت التي كنت على ساحل البحر ؟
- نعم ، انا . . .

وصمت متكسا بصره ، ثم نظر الى قلب السهيب ساحبا بصره على داشا .

- في هذا العقل يحس المرء عند الغروب وكأنه في صحراء ، نادرا ما يتجول الناس هنا . فليس حولك غير الافستنتين والصخور وفي الغسق يخيل اليك ان الارض اقرت من كل انسان .

وضحك بيسونوف كاشفا ببطء عن اسنانه بيض ، نظرت داشا اليه نظرة طائر برى . ثم سارت الى جانبه على الدرب . كانت اجامات عالية من الافستنتين قد نمت على الجانبين وفي جنبات الحقل كله فواحة برائحة مرة ، وكان القمر يلقي على الارض الجافة عند كل اجمة منها ظلا سواحبا لهما يزل . وكان خفاشان يطيران فوق راسيهما معلقين هابطين في خط غير مستقيـم ومصطفين باجنحتيهما ظاهرين بوضوح في شريط الغروب .

قال بيسونوف :

- اغرامات ، اغرامات لا متجى لك منها . تغرى وتغرى واذا بك مرة اخرى واقعة في وهم . انظري باى دهاء قد نظم كسل ذلك - واشارنا بعضاه الى قرص البدر المتدلى على انغفاض - طوال الليل سيحرك الشباك ، وسيدعى الدرب بانه جدول ، وستبدو كل اجمة مأمولة ، وحتى الجفة ستبدو جميلة ، والوجه النسائي غامضا . ولكن قد يكون هذا ما يجب ان يكون حقا : كل الحكمة في هذا الوهم . . . ما اسعدك ، يا داريا دميترييفنا ، ما اسعدك حذك . . .

قالت داشا باصرار :

- ولم تحسبه وهما ؟ اظن ان ذلك ليس بوهم اطلاقا . مجرد انه بدر ينير .

- بالطبع ، يا داريا دميترييفنا ، بالطبع . . . «كونى كالاطفال» . ان الوهم في اننى لا اصدق باى شيء من هذا . ولكن

«كونى ايضا كالافاعي» . ولكن كيف التوفيق بين الاثنين ؟ ماذا يحتاج ذلك ؟ . . . يقولون ان الحب هو الموفق ؟ وانت ماذا تظنين ؟ - لا اعرف ، لا اظن شيئا .

- من اى اصقاع ياتى الحب ؟ وكيف اغواؤه ؟ باية كلمة يسحر ؟ ان يستلقى المرء في التراب ويناديه : اوه يا الهى ، يسر لي حبا . . .

وضحك ضحكة غير عالية مبديا اسنانه .

قالت داشا :

- لا اسير ابعد من ذلك . اريد ان اذهب الى البحر . واستدارا ، وراحا يسيران على الافستنتين نحو مرتفع رملي .

وقبالة قال بيسونوف بصوت ناعم حذر :

- اذكر الى آخر كلمة كل ما قلته عندما كنت في بيتي في پترسبورغ ، لقد افرعتك (سارت) بسرعة بشديدة نظرة امامها) . آتئذ كان يهزنى شعور واحد . . . ليس جمالك الفريد ، لا . . . بل الذى اذهلنى ونفذ الى اعماق نفسى موسيقى صوتك التى لا توصف . عندئذ نظرت اليك وفكرت مع نفسى : ذلك هو خلاصى كله - ان اهيك قلبى ، واصير شحاذا خنوعا ، اذوب في ضيائك . . . لربما اكسب قلبك ؟ ان اصير غنيا غنى لا حد له ؟ فكرى يا داريا دميترييفنا ، ما قد جئت ، وعلى ان افك اللغز .

سبقتة داشا . وطلعت على كتيب رمل . كان الدرب العريض الذى يليه البدر متلالا كالحرشف على صدر الماء الثقيل يمتد حتى نهاية البحر مقطوعا بشريط وضاء طويل ، وهناك ، فوق هذا الضوء ينهض التى داكن . وكان قلب داشا يخفق بشدة ، حتى انها اغمضت عينيها ، وفكرت في سرها «يا الهى ، انقذنى منه» . غرز بيسونوف عصاه في الرمل عدة مرات .

- لقد حان الوقت لان تتخذى قرارك ، يا داريا دميترييفنا . يجب ان يحترق احدنا في هذه النار ، اما انت واما انا . . . فكرى ، اجيبى . . .

قالت داشا بحدة واقتضاب :

- انا لا افهم .
- عندما تصيرين مسؤولة فارغة النفس محروقة عندئذ فقط

تبدأ لك حياة حقيقية ، يا داريا ديميريفنا . . . بدون نور القمر هذا وهو اغراء رخيص . وستكون لك حكمة . وهذا لا يحتاج الا ان تخلعي عنك طوق العذرة .

تناول بيسونوف يد داشا بيده المتثلجة ، وحدث في عينها . فلم تستطع داشا الا ان تقلص عينيها ببطء . وبعد بضع لحظات طويلة من الصمت قال :

- على كل ، من الافضل ان ناوى الى بيوتنا لننام . تحدثنا ، وناقشنا المسألة من جميع الجوانب ، ثم ان الوقت متأخر ايضا . . .

صحب داشا الى الفندق ، وودعها باحترام ، ودفع قبعتها الى مؤخر رأسه ، وسار بمحاذاة الماء ، ناظرا الى اشباح المعتززين المغشمة . ثم توقف فجأة واستدار ، وتقدم من امرأة فارسية كانت واقفة بلا حراك ، وقد لفت جسمها بشمال ابيض . التي بيسونوف عصاه عبر كتفه ، وامسك طرفيها ، وقال :

- نينا ، مرحبا .
- مرحبا .
- ماذا تفعلين وحدك على الساحل ؟
- اقف .
- لماذا وحدك ؟
- وحدى ، لانى وحدى . - اجابت تشاروديفنا بغفوت وغضب .

- اما زلت غاضبة ؟
- لا ، يا عزيزى ، هدات منذ زمان .
- نينا ، تعالى الى .
- القت رأسها الى الخلف . وصمتت طويلا ، ثم اجابت بصوت متهدج غير واضح :

- هل جننت ؟
- وانت ، الم تعرفي هذا ؟
- امسك يدها ، الا انها سحبتها بعدة ، وسارت ببطء الى جانبه ، على طول انعكاسات ضوء القمر المنزلة على الماء الاسود الزيتي اللون ، مع خطواتهما .

في صباح اليوم التالى ايقظ نيقولاى ايفانوفيتش داشا بطرق حذر على بابها :

- عزيزتى داشا ، استيقظي . لنذهب لشرب القهوة . انزلت داشا ساقها من السرير ، ونظرت الى جوربها وحذاءها . كان جميعها مغلف بطبقة من الغبار الرمادى . ان شينا ما قد حصل . ام لعلها حملت مرة اخرى بذلك العلم المرعب ؟ لا لم يكن حلما بل شينا اسوأ منه بكثير . لبست داشا ثيابها على نحو ما ، واسرعت لتستحم في البحر .

الا ان الماء قد اتعبها ، والشمس ارضتها . فكرت وهى جالسة وروبها المورب على كتفيها ، حاضنة وركبتيها العاريتين ، ان ما من شىء طيب يمكن ان يحصل هنا .

«لست ذكية بل جبانة وعاطلة . وخيالى مبالغ . وانا لا اعرف ماذا اريد . في الصباح اريد شينا ، وفي المساء شينا آخر . وهذا هو بالذات الانسان الذى امقته» .

احتضت داشا رأسها ، وحدثت في البحر . ان غموضا وحزنا شديدان اسالا الدموع من عينها .

«يا لهذا الكنز العظيم الذى احرز عليه . ومنّ له حاجة به ؟ لا احد في هذه الدنيا . انا لا احب احدا حبا حقيقيا . يعنى انه على حق . من الافضل حرق كل شىء ، واحرق نفسى فيه لاكون شخصا في صحر من امهر . دعانى اليه ، ويحب ان اذهب اليه اليوم ، في المساء . . . آوه ، لا!»

انزلت داشا وجهها الى ركبتيها ، وهى تحس بحر شديد . وكان واضحا ان من المستحيل الاستمرار اطول في العيش هذه الحياة المرذوجة . لا بد ان ياتى اخيرا الغلاص من العنزة التى لا تطاق . ولتكن مصيبة .

وهكذا راحت تتأمل وهى في جزع من امرها :

«لنفرض اننى سافرت من هنا ، الى ابي . الى الغبار والالام . وابقى هناك حتى يمضى الخريف . وتبدأ الدراسة . واصير اشتغل اثنتى عشرة ساعة في اليوم . وتجد نضارتي ، واصبح هولة . واحفظ القانون الدولى عن ظهر قلب . واصير ارتدى التنورات من

الفانيلية : المحامية المحترمة العانس بولافينا . انه لمخرج محترم جدا بالطبع .

نفضت داشا الرمل الذي علق في جلدتها ، وذهبت الى الفندق . كان نيقولاى ايفانوفيتش مستلقيا في الشرفة في بيجامة حريرية يطالع رواية ممنوعة لاناطول فرانس . جلست داشا على ذراع المقعد الهزاز الذي كان يستلقى فيه ، وقالت في استغراق وهي تهز ثعلها في قدمها .

- اردنا ان نتكلم حول كاتيا .

- نعم ، نعم .

- ترى ، يا نيقولاى ، ان حياة المرأة صعبة بشكل عام . حتى في سن التاسعة عشرة لا اعرف ماذا افعل بنفسى .

- في سنك ، يا عزيزتى داشا ، يجب ان يحيا الانسان حياته بكل ما فيه من طاقة ، ودون ان يتردد في شيء . التفكير الطويل لا يوصلك الى شيء . افكر مع نفسى وانا ناظر اليك ، انك فائقة الجمال .

- هذا ما عرفته ! لا فائدة من الحديث معك يا نيقولاى . انت دائما غير لبق ولا تقول الشيء الذي يجب ان يقال ، ولهذا السبب تركتك كاتيا .

ضحك نيقولاى ايفانوفيتش ، ووضع رواية اناطول فرانس على بطنه ، والقى يديه الممتلئتين وراء راسه .

- ستبتدا الامطار ، ويعود الطائر بنفسه الى البيت . هل تذكرين كيف كانت تنظف ريشها ؟ . . ومع ذلك احب فانا كاتيا كثيرا . فقد صفنى كل واحد منا ديونه للآخر .

- اها ، اذن فانت تتحدث بهذا الشكل الان ! ولكن لو كنت في مكان كاتيا لسلكت نفس السلوك معك . . . وسارت الى سياج الشرفة غاضبة .

- ستكبرين اكثر وستترين ان اخذ امور العيش بجديفة مفرطة حماقة ومجلبة للاذى . تلك هي خاصية افراد آل بولافين ، تعقدون كل شيء . . . يجب ان يكون الانسان ايسط ، واقرب الى الطبيعة . . .

وتنهت ، وصمت نظرا في اطرافه . من بالشرفة طالب عرق يركب دراجة . وقد جلب البريد من البلدة .

قالت داشا باكتئاب :

- ساذهب للاشتغال معلمة ريفية .

فاستفهمها نيقولاى ايفانوفيتش في الحال :

- الى اين ؟

غير انها لم تجب ، وذهبت الى غرفتها . حمل البريد رسالتين الى داشا ، احدها من كاتيا ، والثانية من دميتري ستينيانوفيتش . وقد كتب الاخير في رسالته :

«ابعت اليك رسالة من كاتيا . وقد قرأتها ، ولم تعجبني . ولكن افعلوا ما يحلو لكم . . كل شيء عندنا كما هو من قبيل . الحر شديد . وبالإضافة الى ذلك يوم امس اعتدى احد المشقة على سيمين سيمينوفيتش غفيادين بالضرب المبرح في منتزه المدينة ، ولكنه يخفى الامر . تلك هي كل اخبارنا . ثم وصلتك بطاقة بريدية من شخص يدعى تليفين ، ولكننى اضعتها . يبدو لي انه في القرم ايضا ، او في مكان آخر» .

اعادت داشا قراءة السطرين الاخيرين بامعان ، وبدأ قلبها يخفق فجأة خفقا شديدا . بل وضربت الارض بقدمها بعد ذلك في حسرة . يا للفحرة «بيدو لي انه في القرم او في مكان آخر» . ان اباه رجل مزعج حقا ، غير مهال ، وانانى . دعكت رسالته في يدها ، وجلست طويلا الى مضضدة الكتابة مستندة حنكها على راحة يدها . وبعد ذلك اخذت تقرا رسالة كاتيا .

«انت تذكركين ، يا عزيزتى داشا اننى كتبت لك عن الرجل الذى يتعقبى . يوم امس مساء جلس الى جانبى في حديقة لوكسمبورج . تهيبت في بادى الامر ، ولكننى بقيت جالسة . عندئذ قال لى : «كنت اتعقبك ، وقد عرفت اسمك ، ومن انت . ولكن فيما بعد حلت بى محنة كبيرة : لقد وقعت في غرامك» . نظرت اليه . انه يجلس بعظمة ، ووجهه صارم ، داكئ وشاحب . «لا داعى الى ان تخافى منى . فانا رجل عجوز ، وحيد ، ومصناب بالذبة الصمدرية ، وقد اموت في اية لحظة . وفجأة تحدث هذه المحنة» . وسالت الدموع على خده . ثم قال وهو يهز راسه :

«آوه ، ما احلى وجهك ، ما احلاه» . قلت : «كف عن ملاحظتي» .
واردت ان انصرف ، الا انتى احسست بالشفقة عليه ، وبقيت اتحدث
معه ... اصغى هو هازا راسه مغمضا بعينه . تصورى ، يسا
عزيزتى داشا ، اليوم تلقيت رسالة من امراة ، يبدو انها بوابة
البيت الذى كان يعيش فيه ... انها تبيلغنى «بناء على طلبه» بانه
قد توفى ليلا ... ما اربعب ذلك ... والان ايضا . اتقدم ممن

النافذة ، وارى فى الشارع آلاف والآف الانوار والعربات تعدو ،
والناس يسبرون بين الاشجار . وبعد المطر يخيم الضباب . ويبدو
لى كل ذلك يعود الى الماضى ، وان كل شىء قد مات ، وان هؤلاء
الناس اموات ، واننى ارى ما فات واتقضى ، وان ما يحدث الآن ،
وانا واقفة انظر اليه لا اراه ولكننى اعرف ان كل شىء قد انتهى .
ربما انا متوعدة المزاج تماما . احيانا استلقى وانخرط بالبكاء
متأسفة على ان الحياة قد ولت . لقد كانت هناك سعادة ، مهما كانت
لونها واناس احبهم ولم يبق لذللك اى اثر ... جف قلبى فى
صدوى ، وذبل . وانا اعرف ان المستقبل يضمحة محنة كبيرة اخرى ،
وكل ذلك جزء على الحياة السيئة التى عشناها» .

اطلعت داشا نيقولاى ايفانوفيتش على هذه الرسالة .
اخذ يقرأها متنهدا ، ثم قال انه كان دائما يشعر بذنبه نحو
كاتيا .
- كنت اعرف ان حياتنا سيئة ، وان تلك الملهذات
المستمرة ستنتهى يوما ما بانفجار اليأس . ولكن ما كان فى وسعى
ان اعمل اذا كانت التسلية هى كل الشغل الشاغل لحياتى وحياة
كاتيا وكل الذين كانوا يحيطون بنا . احيانا اتطلع الى البحر هنا
واقول لنفسى ان هناك روسيا تحترق الارض وترعى العاشية
وتستخرج الفحم ، وتنسج ، وتطرق المعادن ، وتبنى ، وان هناك
اناسا يحملونها على ان تفعل كل ذلك . اما نحن ارستقراطية
البلاد الفكرية ، المثقفين ، جماعة ما نالفة ، ... فلا نتم بصلة
لاى من طرفى روسيا هذه . انها تعيلنا . ونحن فراشات . انها
لمأساة . لو حاولت مثلا ان ازرع خضروات او اقوم بشىء آخر نافع
لما اجدت فتىلا . لقد كتب لى حتى آخر ايام ان ارف كالفراشة .
بالطبع نحن نكتب كتبنا ، ونلقى خطبا ، ونصنع السياسة ، ولكن

كل ذلك لا يخرج عن نطاق تزجية الوقت ، حتى حين نحس بوخز
الضمير . ان تلك الملهذات المستمرة انتهت عند كاتيا بخرب
روحى ، وما كان من الممكن ان يحدث غير ذلك ... آه ، لو كنت
تعرفين اية امراة فائنة رقيقة حنون كانت كاتيا ! وانا الذى افسدها ،
حطمتها ... نعم انت على حق ، يجب ان اسافر اليها ...

واستقر رأبهما على ان يسافرا الى باريس فور حصولهما على
جوازى السفر . وبعد الغداء نزل نيقولاى ايفانوفيتش الى البلدة ،
بينما شرعت داشا فى تحويل قبعتها القشبية لتكون صالحة للسفر ،
الا انها اتلفتها فقط واهدتها الى مرتبة الغرفة . ثم كتبت رسالة
الى ابيها ، وعند حلول الظلام استلبت فى الفراش ، بعد ان شعرت
باغيا مفاجىء . ووسدت خدما راحة يدها ، واصغت الى هدير
البحر يبدو ابعد فابعد . واحلى فاحلى .

ثم خيل اليها ان شخصا يتحنى عليها ، ويزيح خصلة شعر
من على وجهها ، ويقبلها فى عينها ، ووجنتيها ، وطرفى شفيتها ،
يلدنها لثما خفيفا كالنفس . وسرت حلوة هذا اللثم فى كيانها
كله . راحت داشا تستيقظ ببطء . رأت فى النافذة المفتوحة
نجوما قليلة ، وقد اطار التنسيم اوراق الرسالة ، وراح يخفق
فيها . ثم ظهر من وراء الجدار شبح انسان . وركز كوعيه على
افرىز النافذة الخارجى وصار يحدق فى داشا ..

عندئذ استيقظت داشا تماما ، وجلست ، وضمت يديها الى
صدرها ، فى الوضع الذى كان فستانها فيه غير مزرر .
وسالت فى صوت لا يكاد يسمع :

- ماذا تريد ؟
فقال الرجل عند النافذة بصوت بيسونوف :
- كنت انتظرك على الساحل . فلماذا لم تاتى ؟ اتخافين ؟
تريش داشا قليلا ثم قالت :

- نعم .
عندئذ تسلق الرجل فوق افرىز النافذة ، وازاح المنضدة ،
وسار نحو السرير .
- قضيت ليلة فظيعة . اردت ان اشنق نفسى . اليست فيك
ولو ذوة من الشعور نحوى ؟

هزت داشا رأسها ، ولم تحرك شففتها .

- اسمعى ، يا داريا دميتريفتنا ، ان هذا يجب ان يحدث ، ان لم يكن اليوم ، فقدا ، او بعد عام . لن استطيع ان اعيش بدونك . لا تجعلينى افقد صورتى الانسانية . - وكان يتحدث بخفوت وبحة ، ودنا من داشا تماما . فندت منها فجأة زفرة عميقة مقتضبة ، وواصلت تحديقها في وجهه . - كل ما قلته البارحة كذب ... انا في عذاب مبرح ... وليست لى القوة على محسو ذكراك ... كونى زوجتى .

وانحنى على داشا مستنشقا عبيرها ، واطعنا يده وراء رقبته ، وضغط شففتي على شففتها . صدمت داشا صدره بيديها . الا ان يديها انطوتا ، عندئذ مرت فكرة هادئة في وعيها المشدوه : «هذا ما كنت اخافه واشتبهيه ، ولكن ذلك صنو القتل ...» واشاحت وجهها ، وسمعت بيسونوف يتهمش شيئا في اذنها مع انفاس الخمرة . وفكرت داشا مع نفسها ! «هذا ما حصل له تماما مع كاتيا» . وعندئذ انكمش جسمها كله من برودة صافية مقيقة ، وصارت رائحة الخمرة اكثر حدة ، والتمتمة اشد قرفا .

- اتركنى .

همست بذلك ، وازاحت بيسونوف بالقوة وهرعت الى الباب ، وزررت اخيرا فتحة فستانها .

عندئذ استولت على بيسونوف نوبة من الجنون . امسك داشا من يدها ، وضغطها على جسمه ، وصار يقبلها في عنقها . صارحته صامتة مطبقة شففتها . وحين استطاع ان يرفعها ، ويحملها قالت بهمس سريع :

- لن يكون ذلك ، ولو تومت ...

ودفعته بقوة ، وحررت نفسها ، ووقفت عند الحائط . انهد بيسونوف على مقعد ، وهو ما يزال يتنفس بصعوبة ، وجلس دون حراك . مسدت داشا يديها في المواضع التى انطبقت فيها آثار الاصابع .

قال بيسونوف :

- لم تكن هناك حاجة للتسرع .

اجابت :

- انت تشعرنى بالعشيان .

عندئذ القى رأسه جنبا على متكا المقعد . قالت داشا :

- انت مجنون ... اخرج حالا ...

وكررت ذلك عدة مرات . ففهم اخيرا ، ونهض ، وتسلسق

خارج النافذة ثقيلًا اهرج الحركة . مسدت داشا صفاقة النافذة ،

وراحت تذرغ الغرفة المظلمة . لقد كانت تلك ليلة مؤرقة .

قرب الصباح تقدم نيقولاى ايفانوفيتش من بابها خافقسا

بقدميه الحافيتين ، وسال بصوت ناعس :

- هل توجعك اسنانك ، يا داشا ؟

- لا .

- ولكن ما سبب تلك الحركة في الليل ؟

- لا اعرف .

تمتم «امر غريب» وانصرف . لم تستطع داشا ان تجلس ،

ولا ان تستلقى ، بل قضت الليلة تذرغ الغرفة من النافذة الى

الباب جينة وذهويا لتخفق من نفسها ذلك القرف الحاد كوجع

الاسنان . لو ان بيسونوف اخذها اخذا لكان ذلك افضل ، على ما

يبدا . وتذكرت بالأم مضى السفينة البيضاء الغارقة بنسور

الشمس ، وذلك العمام العاشق المهجور في حرش الحور يهدل

هديله الطويل يثاغها ليزعم لها كذبا انها عاشقة . نظرت داشا

الى الفراش الذى ابيض في الغيش ، والذى كان مكانا رهيبا تحول

فيه وجه انسان قبل حين الى بوز شيطان ، واحسنت ان من المستحيل

عليها ان تعيش وهذا الاحساس يلازمها . انها مستعدة لتحمل اى

عذاب ما عدا الاحساس بهذا القرف . كان رأسها يلتهب ، وكانت

تود لو ترفع عن وجهها ورقبته وجسمها كله شيئا كانت تحسه

كنسج العنكبوت .

واخيرا لاح الضوء المتسرب من خلال صفاقة النافذة ساطعا .

وبدأت الابواب تصفق في الدار ، ونادى صوت رنان «ماتريوشا ،

اجلبى ماء ...» استيقظ نيقولاى ايفانوفيتش ، وسمعته وهو

ينظف اسنانه خلف الجدار . بللت داشا وجهها بالماء ، وانزلت

قبعتها على حاجبيها ، وخرجت الى الساحل . كان البحر ساخنسا

كالحليب الطازج ، والرمل رطبا . وفي الجو رائحة نباتات بحرية .

كان اجتماع استثنائي لهيئة التحرير يعقد في مكتب رئيس تحرير الصحيفة الليبرالية الكبيرة «كلمة الشعب». ولما كانت المشروبات الكحولية قد تمتعت يوم امس بموجب قانون ، فقد قدم الكونيك والروم مع شاي هيئة التحرير على خلاف العادة .

كان الليبراليون المحنكون الملتعون يجلسون في مقاعد عميقة وثيرة ، ويدخنون التبغ ، ويشعرون بأنهم في حيص بيص . وكان المحررون الثمانيان يجلسون على ارازين النوافذ ، وعلى اريكة جلدية شهيرة ، هي قلعة المعارضة ، وصفها احد الكتاب المشهورين وصفا غير حذر ، فقال انها مباءة للبق .

كان رئيس التحرير ، وهو رجل اشيب مورد الوجدتين ، انجليزي المنحى يقول بصوت متشدق - كلمة بكلمة - احدى خطبه الشهيرة التي كان عليها ان ترسم - ورسمت بالفعل - خط سلوك الصحافة الليبرالية كلها .

- «... التعقيد في مهمتنا يرجع الى اننا يجب ونحن امام الخطر الذي يهدد سلامة الدولة الروسية ، ان نمد يدنا الى السلطة القيصرية ، دون ان نتراجع عن معارضتها خطوة واحدة . ويجب ان يكون عملنا نزيها وصریحا . ان مسألة لوم الحكومة القيصرية على جبر روسيا للحرب ، هي في اللحظة الراهنة مسألة ثانوية . يجب ان نتنصر اولاً ، ومن بعد نحاكم المذنبين . ايها السادة ، بينما نتحدث هنا ، تجري معركة دموية قرب كراسنوستاف وقد ارسل حرسنا لسد الجبهة المصدوعة . ومصير هذه المعركة غير معروف الآن ، ولكن يجب الا يغيب عن الاذهان ان كيف مهددة . وليس من شك في ان الحرب لا يمكن ان تستمر اكثر من ثلاثة او اربعة اشهر ، ومهما تكن نتيجتها فاننا سنقول للحكومة القيصرية مرفوعي الرؤوس : اننا كنا معكم في الساعة الحرجة ، ونحن الآن نطالبكم كشفاً بالحساب ...

لم يتمالك نفسه احد قدامى المحررين ، واسمعه بيلوسفيتوف ، وكان يكتب في شؤون الادارة الذاتية فصاح محتدا :

انعطفت داشا الى الحقل ، وسارت في الطريق . كانت عربة مسن الاغصان المصفورة يجرها حصان واحد قادمة للقائهما من الجانب الاخر من الطريق تثير عجلاتها سحابة صغيرة من الغبار ، وقد جلس تترى في مقعد السائق ، وخلفه رجل عريض الكتفين في ثياب بيض . نظرت داشا اليه ، وقالت لنفسها كالتالمة (انطبقت عينها من الشمس ، ومن التعب) «هذا رجل لطيف سعييد آخر ، وليكن كذلك ، لطيفاً سعييداً» وانحرفت عن الطريق . وفجأة صدر من العربة صوت مرهوب :

- داريا دميترييفنا !

وقفز شخص الى الارض ، وركض نحوها وجمد قلب داشا ، وارثخت رجليها من ذلك الصوت . التفتت . فرأت تليغين يجري نحوها ملوح الوجه ، منفعل الاسارير ازرق العينين محبباً الى القلب على نحر مفاجئ حتى ان داشا وضعت يديها على صدره بسرعة ، وضغطت وجهها عليه ، واجهشت تبكي بكاء طفولياً عالياً .

امسك تليغين كتفها بقوة . وحين حاولت داشا ان تقسم ببعض التوضيح بصوت متقطع قال :

- ارجوك ، يا داريا دميترييفنا ، ارجوك ، فيما بعد . هذا غير مهم ...

تبذل صدر سنتره الكتانية بدموع داشا . وخفت الدموع عنها . سألت :

- هل انت قادم الينا ؟

- نعم جئت لاودك ، يا داريا دميترييفنا . بالامس فقط عرفت انك هنا ، فاردت ان اودعك .

- تودعني ؟

- استدعوني للخدمة ، ولا مفر من ذلك .

- استدعوك للخدمة ؟

- ألم تسمعي حقا ؟

- لا .

- انها الحرب .

نظرت داشا اليه ، ورمشت ، ولم تكن فاهمة شيئاً في تلك اللحظة .

- الحكومة القيصرية هي التي تحارب ، فلماذا نمد يدنا لها ؟
انا لا افهم ، ولو حطمت راسي . المنطق البسيط يحتم علينا ان
نبعد انفسنا عن هذه المغامرة . ومن ورائنا جميع المثقفين . دعوا
القيصرية يضرب احدهم عنق الآخر ، فان ذلك لن يكون الا لفائدتنا .
- نعم ، ان مد اليد الى نيقولاى الثانى شيء مقرف ، مهما
قلتم فيه يا سادة - تمتم بذلك «الفا» احد كتاب المقالات
الاقتتاحية ، واختار لنفسه قطعة عككة من الصحن - ان ذلك يجعل
المراء يتصبب عرقا باردا في نومه ...
وفي الحال تحدثت عدة اصوات :

- لا توجد ، ولا يمكن ان توجد ظروف تجبرنا على
الاتفاق ...

- ما هذا ؟ استسلام ؟ اريد ان اسأل .
- اهذه نهاية مخزية للحركة التقدمية كلها ؟
- اما انا ايها السادة ، فاريد على كل حال ان يشرح احد لى
الغرض من هذه الحرب .
- ستعرف حين يقطع الالمان الرقاب .
- انت ، يا اخ ، تبدو قوميا متعصبا !
- مجرد اننى لا اريد ان اضرب .
- ولكنهم لا يضربونك ، بل يضربون نيقولاى الثانى .
- المعذرة ... وبولونيا ؟ وفولينا ؟ وكيف ؟
- كلما ضربونا اكثر دنت الثورة اكثر .
- اما انا فلا اربغ في ان اتخلى عن كيف في سبيل ايسة
ثورة .

- اجعل ، يا بيتر بيتروفيتش ، اجعل يا اخ ...
شرح رئيس التحرير بعد ان اعاد النظام بصعوبة ، ان
الرقابة العسكرية ستخلق الجريدة ، وفق احكام قانون الطوارئ ،
على اقل مجموع على الحكومة ، وستسحق براغم حرية الكلمة التي
بذلت جهود كبيرة في النضال في سبيلها .
- ... ولهذا اقترح على الاجتماع الموقر التوصل الى وجهة
نظر مقبولة . ومن جهتي فانا اجرو على ان اعلن رايًا قد يكون
غريبا ، وهو اننا يجب ان نقبل هذه الحرب بكليتها ، وبكسل

عواقبها . ولا تنسوا ان هذه الحرب تحظى بشعبية بالغة بين
المجتمع . وقد اعتبرت في موسكو الحرب الوطنية الثانية . - وهنا
ابتسم ابتسامة خفيفة ، وغض بصره - وقد استقبل القيصر في
موسكو مستقبلا حارا تقريبا . والتعبئة بين السكان البسطاء تجرى
بطريقة لم يتوقعوها ، ولم يجراوا على ذلك ...

فهفت بيلوسفيتوف بصوت انقلب حزينا متشكيا :
- هل انت تمزح ، يا فاسيلي فاسيليفيتش ام كيف ؟ ذلك
لانك تهدم فلسفة بكاملها ... نذهب لمساعدة الحكومة ؟ وماذا
عن عشرة آلاف روسى من افضل ابنا روسيا ، اولئك الذين يذوون
في سيبيريا منذ زمان ؟ .. والعمال الذين قتلوا رميا بالرصاص ؟ ..
والدم بعد لم يجف .

كل هذه الاحاديث كانت بالغة الروعة والتبل ، الا انه صار
واضحا لكل انسان ان لا مفر من الاتفاق مع الحكومة ، ولهذا فحين
جلبت من المطبعة مسودة تصحيح المقال الاقتتاحى الذى كان يبدأ
بهذه الكلمات : «يجب ان نرص صفوفنا في جبهة موحدة امام الرخف
الالمانى» نظر المجتمعون الى مسودة التصحيح صامتين ، وارسل
احدهم زفرة كظيمة ، بينما قال آخر بكثير من الدلالة «عشمننا
وشفتنا» . وزرر بيلوسفيتوف بعصبية جميع ازرار سترته السوداء
المزرورة برماد التبغ ، الا انه لم يخرج ، وجلس في المقعد ثانية ،
وصدر العدد التالى بالعنوان التالى «الوطن في خطر ، الى السلاح !» .
ومع ذلك فقد كان قلب كل واحد منهم مفعما بالاضطراب
والهلع . فكيف تطاير السلم الاوربى الوطيد هباء في الهواء خلال
اربع وعشرين ساعة ، وكيف انقلبت الحضارة الاوربية الانسانية
التي كانت «كلمة الشعب» تعبر الحكومة بها كل يوم ، وتدعو عامة
الشعب اليها ، كيف انقلبت الى بيت من ورق (لقد اخترعت طباعة
الكتب والكهرباء ، وحتى الراديو ، واذا بين عشية وضحاها يظهر
من تحت القميص المنشى ذلك المخلوق البدائى المشعر الشبيه
بالحيوان وفي يده هراوة) لا ، ان هذا يصعب على هيئة التحرير
هضمه والاعتراف به ، فان مرارة لا تطاق .

وانتهى الاجتماع بصمت وكابة . ذهب الكتاب الاجلاء لتناول
القطور في مطعم كوبا ، واجتمع الشبان في مكتب رئيس قسم

الاخبار . وتقرر القيام بتحقيق مفصل عن امرجة اكثر الاوساط
والفئات تنوعا وعهد الى انتوشكا ارنولدوف قسم الرقابة العسكرية .
وخلال الهرج والمرج حصل على سلفة ، وانطلق ، لا يلى على
شيء ، على عربة سريعة الخيول الى مقر هيئة الاركان في جادة
نيفسكى .

استقبل سولنتسيف رئيس قسم الصحافة وعقيد هيئة الاركان
ارنولدوف في مكتبه ، واستمع اليه بادب ، محدقا في عينيه بعينين
صافيتين مرتحتين جاحظتين . وكان ارنولدوف قد اعد نفسه ليلتقي
بأحد العمالقة - بجنرال مورد الوجه اسدي - التقاطيع - سوط
الصحافة الحرة ، ولكنه وجد امامه رجلا انيقا مهذبا لم يبع صوته ،
ولم يجار عليه ، ولم يبد ميلا الى تعنت او ضغط او معارضة شيء
ما . وكل ذلك لم يكن يلائم الصورة المألوفة عن الماجوريسن
للقصر .

- آمل ، يا حضرة العقيد ، الا ترفض ان تثير الاسئلة التي
سأطرحها بزيك الموثوق .

قال ارنولدوف ، ورمق بطرف عينه صورة نيقولاى الاول
الداكنة التي تمثله واقفا بطول قامته ينظر بعين بلا رحمة وشفقة
الى ممثل الصحافة ، وكأنه يريد ان يقول له : «السترة قصيرة ،
والعذاء اصفر ، والانف عرق . انه لمنظر مشين . انت خائف يسا
ابن الكلبة» . وتابع ارنولدوف قوله :

- انا لا اشك ، يا حضرة العقيد ، في ان القوات الروسية
ستكون في العام القادم في برلين ، الا ان هيئة التحرير مهتمة بشكل
خاص ببعض التفاصيل ...
قاطعه العقيد سولنتسيف بأدب :

- يبدو لي ان الراى العام الروسى لا يتصور بالقدر الكافى
نطاق الحرب الحالية . وانا ، بالطبع ، لا يسعنى الا ان احيى
امنيك الجميلة في ان يصل جيشنا الى برلين ، ولكننى اخشى ان
يكون ذلك اصعب مما تتصور . وانا من ناحيتى ارى ان المهمة
الاساسية للصحافة في اللحظة الراهنة اعداد الراى العام الى فكرة
وجود خطر جدى جدا محدد بدولتنا ، والتضحيات البالغة التي يجب
ان نتحملها جميعا .

انزل ارنولدوف دفتر ملاحظاته ، ونظر الى العقيد بحيرة .
تابع سولنتسيف كلامه :

- نحن لم نبث عن هذه الحرب ، ونحن في اللحظة الراهنة
ندافع عن وطننا فقط ، والاسان يتفوقون علينا في عدد المدافع ،
وكثافة شبكات الخطوط الحديدية في منطقة الحدود . ومع ذلك
فنحن نفعل كل ما في وسعنا لمنع العدو من تخطى حدودنا . والقوات
الروسية تنفذ الواجب الملقى على عاتقها . ولكن من المستحسن
كلنا ان يتشرب المجتمع ، من جانبه ايضا ، بشعور الواجب تجاه
الوطن . - وهنا رفع سولنتسيف حاجبيه . - انا ادرك ان شعور
الوطنية بين بعض الفئات يشوبه بعض التعقيد . الا ان الخطر على
درجة من الجدية تتيج - وانا واثق من ذلك - تأجيل جميع المجادلات
والمحاسبات الى وقت افضل . ان الامبراطورية الروسية لم تسر
بمثل هذه اللحظة العرجة حتى في عام ١٨١٢ * . ذلك
كل ما اود ان تاخذه بعين الاعتبار . ثم يجب ان يسذاع بين
الناس ان المستشفيات العسكرية التي تملكها الحكومة لا تستطيع
ان تستوعب كل الجرحى . لهذا ومن هذه الناحية ايضا ، يجب ان
يكون المجتمع مستعدا لتقديم مساعدة كبيرة . . .

- اعذرني ، يا حضرة العقيد ، انا لا افهم اى عدد من الجرحى
يمكن ان يكون ؟

ومرة اخرى رفع سولنتسيف حاجبيه عاليا .
- يبدو لي ان من المحتمل توقع ما بين مائتين وخمسين

وثلاثمائة الف جريح في الاسابيع القليلة .
بلغ انتوشكا ارنولدوف ريقه ، وسجل الرقم ، وسأل بمزيد

من الاحترام :

- وفي هذه الحال بكم تقدر عدد القتلى ؟
- في العادة تقدر ما بين خمسة الى عشرة بالمائة من عدد
الجرحى .

* المقصود هنا الحرب الوطنية التي خاضتها شعوب روسيا ضد
الغزاة الفرنسيين تحت قيادة نابليون الأول ، وانتهت بانتصار روسيا .
(المترجم) .

- اها ، شكرا لك .

ونفض سولنتسيف . فصافحه ارنولدوف بسرعة ، وحين فتح الباب البيلوطي اصطدم باتلانت الذي كان داخلا . انه صفحي مسلول اشعت الشعر كان يرتدى سترة مدعوكه ، ولم يبق طعم الفودكا منذ يوم امس .

قال هذا ، وهو يحاول ان يغطي صدر قميصه القذر بكفه :

- يا حضرة العقيد ، جئت اليك بخصوص الحرب . ما رايك ،

هل سنستولى على برلين قريبا ؟

خرج ارنولدوف من مقر هيئة الاركان الى ساحة القصر ، ولبس قبعته ، ووقف برهة مقلصا عينيه .

وتتمن من خلال اسنان مضسومة :

- الحرب حتى النصر . حذار ايها الهرمون سننصفى حسابنا

معكم على روحم الانهزامية .

كانت اوهاط من الفلاحين الملتحين الهنوج تملأ بالحركة

ارجاء الساحة الهائلثة المكنوسة جيدا ، وعمود الكسنتر

الغرانيثي الثقيل . وكانت تسمع صيحات واهر قوية . كان الفلاحون

يصطفون ويركضون من مكان الى آخر ويستلقون على الارض . وفي

احد الاماكن صاح زهاء خمسين رجلا بصوت متنافر ، وهم يصعدون

على الرصيف «هورا» وانطلقوا في عدو متعثر . . . وصاح بهم صوت

اجش غطى على صيحاتهم : «قف ، استعداديسا اوغساد يا اولاد

الكلاب . . .» وكان يتناهى من مكان آخر : «الحق به ، واطعنه

بالحرية في جسمه ، فاذا انكسرت الحرية فاضرب بالعقب» .

ان هؤلاء هم نفس الفلاحين المشخوشين ذوى القمصان

العرضة والاحذية الليفية وذوى اللحي المستديرة وآثار العرق

الجاف الظاهر على ذفاتهم ، اولئك الذين جاؤوا قبل مائتى عام الى

هذه الشطنان المستتغية ليشيدوا المدينة . والآن قد دعوا مرة

اخرى ليسندوا باكتافهم عمود الامبراطورية المترعزع .

انعطف ارنولدوف الى جادة نيفسكى ، وهو لا يكف عن التفكير

في المقال الذى سيكتبه . كانت سريتان في كامل عدة المسيرة ،

بالعقاب الظهريّة والقضعات والارفاش تسيران في وسط الشارع

على انغام العزائمير مثل عواء ربح الخريف . كان التعب والغبار

يبديان على هؤلاء الجنود العراض الوجنات . وكان ضابطهم الصغير

ذو القميص الاخضر والاحزمة الجديدة المتصالبة على صدره يرفع

جسمه على اطراف اصبعه بين لحظة واخرى . وابتلغت جاحظ

العينين ويصيح : «يعين ! يعين !» . ويسمع المرء وكأنه يعلم بضجيج

جادة نيفسكى ويراها جميلة متألقة بالعربات والزجاج . «يعين !

يعين ! يعين !» . وسار الفلاحون المنقادون الفقال الارجل وراء

الضابط الصغير في ترنح رتيب . لحق بهم حسان عداء اسود فاحم

يتطاير الزيد منه . وقد كبهه سائق عريض العجز ليوقف العربة

التي يجرها . ونهضت في العربة سيده حسناء ونظرت الى الجنود

المارين . ويدها المقفزة بقفاز ابيض رسمت لهم علامة الصليب ،

مرّ الجنود ، وحجبه سبل العربات . وكانت الارصفة حارة

ومنذمة ، وكان الجميع وكانهم ينتظرون شيئا . كان المارة

يتوقفون ، ويصفون الى احاديث هنا وصيحات هناك ، ويشقون

طريقهم وسط الزحام ويلقون اسئلة ، ثم ينصرفون منفعلين الى

تجمعات اخرى .

وبالتدرج تحددت وجهة حركة السير الفالته ، وتحولت الجموع

من جادة نيفسكى الى شارع مورسكايا . وهناك راحت تسير وسط

الشارع مباشرة . وتراكم شبان قصار صامتين مهمومين . وعند

مفتق الشارع قذف بعض الناس قبعاتهم في الهواء ، ولوح آخرون

بالمظلات . وطلت في ارجاء الشارع «هورا ! هورا !» . وفسر

الاولاد الصغار صفيرا حادا . وايضا وجهت بصرك رايت عربات

غير متحركة وقفت فيها نساء زاهيات الثياب . وتدقت الجماهير

الغفيرة نحو ساحة كاتدرائية اسحاق ، وانتشرت فيها ، وتسلسل

الناس من خلال قضبان الحديدية . وكانت جميع التوافذ والسطوح

ودرجات الكاتدرائية الغرائبية غاصة بالناس . وكان كل هؤلاء

الناس ، بعشرات اولوفهم ، ينظرون الى اعمدة الدخان تتصاعد من

التوافذ العليا لمبنى السفارة الالمانية الثقيل الداكن الحمر . وكان

بعض الناس يتراكضون وراء الزجاج المهشم ، ويلقون على الجموع

حزما من الورق ، فتنطير ، وتسقط ببطء . مع كل عمود دخان ،

وكل شئ جديد يقذف من التوافذ كانت موجة من الهدير تسرى في

الشمعد . وما هم هؤلاء الشبان المهمومون يظهرون على واجهة

المبنى حيث يقف على الجانبين عملاقان من البرنز يسكان بمقودي
 حصانين برونزينيين . وهذا الحشد ، وارتفعت ضربات مطارق على
 معدن . وترنح احد العملاقين ، وانهد على الرصيف . وهدر الحشد
 واندفع نحوه ، وبدأ الازدحام ، وتراكم الناس من كل ناحية .
 «الى نهر مويكا ، خذوها الى مويكا .. الملاعين !» وسقط التمثال
 الثاني . امسكت بكتف انتوشكا ارنولدوف سيدة مبتلثة تضع على
 انفها نظارة انفية ، وهتفت به : «سنغرقها جميعا ، ايها الشاب» .

وتحرك الحشد الى مويكا . وسمعت ابواق المطافئ ، ومن بعيد
 لمعت خوذ نحاسية . وظهرت الشرطة الخيالة من وراء المنعطفات .
 وفجأة رأى ارنولدوف ، وسط المتراخضين والمتصايحين ، شخصا
 شديد الامتقاع حاسر الراس له عينان جامدتان زجاجيتان متسعتان .
 وعرف انه بيسونوف ، ف تقدم منه . قال بيسونوف :

- هل كنت هناك ؟ سمعتمهم يقتلون .

- احقا كان هناك قتل ؟ ومن قتلوا ؟

- لا اعرف .

واستدار بيسونوف ، وسار في الساحة في مشية متخلخلة
 كمشية الاعمى . والآن كانت قلوب الحشد تراكض جماعات نحو
 جادة نيفسكي ، حيث بدأ تحطيم مقهى «ريتر» .

في ذلك المساء وقف انتوشكا ارنولدوف الى منضدة عالية ،
 في احدى حجرات التحرير الغاصة بدخان التبغ ، وراح يكتب بسرعة
 وعلى قطع ورق ضيق :

«... اليوم شهدنا الغضب الشعبي بكل نفاذه وجماله .

وتجدر الاشارة الى ان ما من زجاجة نبيذ من تلك التي كانت في
 اقبية السفارة الالمانية قد شربت ، بل كسرس كل شيء ، وصب في
 نهر مويكا . ان المساومة مستحيلة . وسنحارب حتى النصر ، مهما
 سنقدم من تضحيات . لقد ظن الالمان انهم سيجدون روسيا تغط
 في النوم ، ولكن الشعب هب على الكلمات الراعدة «الوطن في خطر»
 هبة رجل واحد . وسيكون غضبه رهيبا . ان الوطن كلمة جبارة
 ولكننا نسيناها . ومع الطلقة الاولى من مدفع الالمان عادت الى
 الحياة بكل جمالها الطاهر ، وشرعت تتالق بحروف من نار في قلب
 كل فرد منا ..»

وقلص انتوشكا عينيها ، واحس بقشعريرة خفيفة تسرى في
 ظهره . يا لهذه الكلمات التي وجد نفسه منساقا لكتابتها ! ولكنها
 ليست كذلك التي كتبها قبل اسبوعين ، حين عهد اليه ان يكتب
 استعراضا للتسلييات الصيفية . وتذكر ذلك الرجل الذي خرج الى
 خشبة المسرح الهزلي ، على هيئة خنزير وغنى «انا خنزير صغير ،
 ولا اخجل . انا خنزير صغير واغفر . امي كانت خنزيرة ، وانسا
 اشبهها جدا ...»

وكتب انتوشكا والحبر يتناثر من ريشته :

«... نحن ندخل في عهد بطولي . قد تعفنا طويلا ونحن

احياء . والحرب تطهر لنا» .

وطبعت مقالة ارنولدوف رغم معارضة الانهزاميين بزعامة
 بيلوسيفيتوف . ولكنها قد نشرت في الصفحة الثالثة ، وتحت عنوان
 غير مثير هو «في ايام الحرب» ، وذلك هو التنازل الوحيد عن عادة
 الصحيفة . واخذت ترد على هيئة التحرير رسائل من القراء فريق
 يعبر عن الارتياح الحار بالمقالة ، وفريق يعرب عن السخرية
 المرة . الا ان رسائل الفريق الاول كانت اكثر بكثير . وزيادت
 اجرة انتوشكا على السطر ، وبعد اسبوع استدعاه فاسيلي
 فاسيليفيتش رئيس التحرير الى مكتبه ، حيث استقبله الرئيس
 الاشيب مورد الوجلتين معطرا بماء كولونيا انجليزي ، ودعاه ليجلس
 في مقعد ، وقال مهموما :

- عليك ان تسافر الى الريف .

- سمعا .

- ينبغي علينا ان نعرف ماذا يفكر الفلاحون وعم يتحدثون -
 وضرب حزمة كبيرة من الرسائل باطن كفه وقال - ظهر بين المثقفين
 اهتمام هائل في الريف . ويجب ان تقدم فكرة حية مباشرة عن ابي
 الهول هذا .

- تدل نتائج التعبئة على نهوض وطني هائل ، يا فاسيلي
 فاسيليفيتش .

- اعرف ، ولكن يا للغرابة ! من اين جاءهم ذلك ؟ سافر
 الى حيث تريد ، وتسمع ، واسأل . وحتى يوم السبت انتظر
 منك خمسمائة سطر عن انطباعاتك حول الريف .

وخرج انتوشكا من عينة التحرير الى جادة نيفسكى ، حيث اشترى بدلة سفر عسكرية الفضال وطماقين اصفرين ، وقبعة سداية ، وارتنى كل ذلك ، وذهب ليتناول فطوره في مطعم دونون ، حيث احتسى لوحده زجاجة شمبانيا فرنسية . وانتهى الى قرار هو ان يسافر الى قرية خليبي ، حيث كانت يلزافيتنا كييفينا تنزل عند اخيها كي كييفيتش . وفي المساء شغل مقعدا في مقصورة في عربة قطار دولية واشعل سيجارا ، ونظر الى طماقيه الاصفرين الصارفين بشجاعة وقال لنفسه : « يا لها من حياة رائعة ! » كانت قرية خليبي تقع في منخفض بين مستنقع والنهر سفينوخا ، وهي تتألف من اكثر من ستين بيتا محاطة بحدائق ينمو فيها عنب التعلب بكثرة ، وشارعها تتوسطه اشجار زيزفون معمرة ، ومبنى مدرستها الكبير على رابية هو بيت سابق لاهند اصحاب الاطيان . كانت القرية الزراعية صغيرة وفقيرة ، فكان جميع الفلاحين تقريبا يسافرون الى موسكو للبحث عن عمل .

دخل انتوشكا القرية عند المساء على عربة فاذهله سكوت فيها لم يعكره الا قاعة دجاجة حقا ، خربت من تحت اظلاف فرس ، ونباح كلب عجوز تحت شونة ، وصوت مغباط يضرب على غسيل يغسل في النهر . وكان هناك كبشان يتناطحان وسط الشارع متشابكين بقرونها .

اعطى انتوشكا الاجرة للعجوز الاصم الذى جلبه من المحطة ، وسار في درب الى مكان لاحظ فيه واجهة المدرسة القديمة المصنوعة من جذوع الشجر من خلال خضرة اشجار البتولا . وعلى درجات المدخل نصف المتآكلة كان يجلس كي كييفيتش المعلم ويلزافيتنا كييفينا يتبادلان الحديث ببطء . وفي الاسفل كانت اشجار الصفصاف الضخمة تلقي ظللا طويلسة على المرج . وكانت الزرايزر تطير كسحابة داكنة متألثة . ومن بعيد ترائى صوت زمارة ليجمع القطيع . وخرجت بعض الابقار الحمراء من دغل للقصب ، وخارت واحدة منها بعد ان رفعت رأسها . كان كي كييفيتش الذى كان شديد الشبه باخته وذا عينين تبدوان مرسومتين مثل عينيهما يقول وهو يقضم قشة :

- فضلا عن ذلك ، فانت يا ليزا ، غير منظمة مطلقا في الحياة الجنسية . واشخاص من مثلك هم في الحقيقة فضلات كريمة للحضارة البرجوازية .

كانت يلزافيتنا كييفينا تنظر في ابتسامة متراخية الى بقعة في العرج كانت الاصرشاب والظلال فيها تكتسى صفرة دافئة في ضوء الشمس الغاربة .

- حديثك مضجر للغاية ، يا كي ، انك قد استظهرت كل شيء ، وكل شيء عندك واضح وكأنه مكتوب في كتاب .

- ان كل شخص ، يا ليزا ، ملزم بالاهتمام في ترتيب افكاره كلها في نظام منسق ، لا في كون هذا الحديث او ذاك مضجرا او غير مضجر .

- اهتم انت ، كما يحلو لك .

كان المساء هادئا . كانت الاغصان الشفافة لاشجار البتولا المتهدلة ساكنة بلا حراك امام مدخل المدرسة . وكان طائر صيغرد يصرعد عند اسفل التل . نظرت يلزافيتنا كييفينا حالمة الى الاشجار الذائبة في التسق الأزرق . وظهر بين الاشجار رجل صغير خفيف الحركة يحمل حقيبة . هتف انتوشكا :

- هذه هي ليزا ، مرحبا ، يا ست الحسن . . .

بشت يلزافيتنا كييفينا به بشاشة هائلة ، فنهضت بحماس ، وعانقته .

سلم كي كييفيتش بجفاف ، ومضى يقضم القشة . استلقى انتوشكا على الدرجات ، واشعل سيجارا .

- جنت اليك طلبا للمعلومات ، يا كي كييفيتش ، حدثني بالتفصيل ماذا يفكر الناس في قريتك مع الحرب وماذا يقولون . . .

ابتسم كي كييفيتش ابتسامة هازئة .

- الشيطان يعرف ماذا يفكرون . . . هم يصمتون . . .

الذئاب ايضا تصمت حين تجتمع في قطع .

- يعنى لم تكن هناك مقاومة للتعنبة ؟

- لا ، لم تكن هناك مقاومة .

- وهل يعرفون ان العدو المان ؟

- لا ، لا مسألة المان هنا .

- فما هي المسألة إذن ؟

إبتسم كي كيبفيتش مرة أخرى ابتسامة هائلة .

- ليست المسألة مسألة الأمان ، بل بندقية . . . الحصول على بندقية في أيديهم . . . الإنسان ومعه بندقية تغيير نفسيته . سنغيش ، ونرى الى أي اتجاه ينوون تصويب بنادقهم . . . هذا هو الأمر . . .

- وهم ، على أية حال ، يتحدثون عن الحرب .

- اذهب الى القرية ، واستمع . . .

عند حلول الظلام ذهب أنتوشكا ويلزافيتا كييفنا الى القرية . كانت نجوم آب تتناثر في أرجاء السماء الأخذة بالسرود . وفي منخفض القرية كان الجو ميالا الى الرطوبة عابقا برائحة بقية الغبار التي تتطاير من اقدام القطيع ورائحة حليب طازج . والى جانب البوابات وقفت عربتان بلا خيول . وتحت اشجار الزيزفون التي احلوك فيها الظلام صرف دولاب ينر ، وزفر حصان ، وكان يترامى الى الاذن صوت نخيره ، وهو يعب الماء . وفي مكان مكشوف عند شونة خشبية لها سقف من القش جلست ثلاث فتيات على جذوع يغنين بصوت خفيض . تقدمت يلزافيتا كييفنا وانتوشكا وجلسا ايضا في ناحية . كانت الفتيات يغنين :

خلى القرية

جميلة في كل شيء

بمقاعدنا وازاهرها

وفتياتها الجميلات . . .

التفتت احداهن الى القادمين ، وقالت بخفوت :

- ما رأيكما ، يا صاحبتين ، ألم يحن وقت النوم ؟

ولكنهن يقين على جلستهن ولم يتحركن . كان شخص ينشغل في الشونة ، ثم صرّ باب ، وخرج فلاح اصلع في ستره من فراء الخروف غير مزررة ، وصلصل طويلا ليغلق القفل ، ثم اقبل على الفتيات واضعا يديه على اسفل ظهره وابرز لعينه العتزية .

- ماضيات في غنائكن ، يا شحوروات ؟

- نغني ، لكننا لا نغني عنك ، يا عم فيودور .

- ساطردكن من هنا بالمقرعة . . . انها عادة سيئة ان

تغنين في الليل .

- وانت تغار ؟

بينما قالت الاخرى متتهدة :

- لم يبق لنا الا ان نغني عن قريتنا ، يا عم فيودور .

- نعم ، احوالكن سيئة . يتموكن .

قرص العم فيودور قرب الفتيات . قالت اقربهن اليه :

- سمعنا نساء قرية كوزمودميا نسكويه يقطن ان رجالا كثيرين

اخذوهم للحرب ، نصف العالم تقريبا .

- قريبا سيصلون اليكن ايضا ، يا فتيات .

- سيأخذوننا الى الحرب ؟

وتضاحكن ، وسالت الاخرى ايضا :

- مع من يتحارب قيصرنا ، يا عم فيودور ؟

- مع قيصر آخر .

وتبادلت الفتيات النظرات . تهتدت واحدة ، وعدلت

الاخرى المنديل على رأسها ، بينما قالت الاخرى :

- وهذا ما قائله نساء قرية كوزمودميا نسكويه لنا . مع قيصر

آخر .

في تلك اللحظة برز رأس اجد من وراء الجذوع وقال

صاحبه بصوت مبجوح ، وهو يلبس فروته :

- كفالك كذبا ، يا هذا . ليس مع قيصر آخر ، بل

الحرب مع الالمان .

اجاب فيودور :

- كل شيء جائز .

واختفى الرأس ثانية . اخرج أنتوشكا ارنولدوف علبه

السيكائر ، وقدم لفيودور سيكارة ، وسأل بحذر :

- ما رأيك ، هل خرج الرجال من قريتكم الى الحرب

راضين ؟

- كثيرون خرجوا راضين ، يا سيد .

- إذن ، كان هناك نهوض ؟

- نعم ، نهضوا ، ولماذا لا ينهضون ؟ على الاقل ليروا كيف تسير الامور هناك . اما اذا قتلوا ، فالامر سيئان ، لانهم يموتون هنا ايضا . ان الارض في قريتنا شحيحة . ونحن لا نجد ما نأكله غير الخبز وماء الخبز . بينما هناك يأكلون اللحم مرتين في اليوم ، حسب الاقوال ، كما يوجد سكر وشاي وتبغ ، فخذن حسب ما تريد .

- ولكن اليس القتال مخيفا ؟

- وكيف لا ؟ مخيف بالطبع .

١٥

في الطريق الواسعة المغطاة بوحل سائل كانت تتحرك عربات مكسوة بالمشعاع ، وجلات تحمل القش والتبن ، وعربات اسعاف ، واحواض طوافات ضخمة مترنحة صارفة . وكان المطر ينهمر بلا انقطاع ، دقيقا مائلا . وكانت الاخاديد المحروثة والسواقي على جانبي الطريق مملوءة بالماء . وكانت الاشجار والادغال تلوح من بعيد مغبشة المعالم .

كانت قوافل الجيش الروسي المهاجم تتحرك كالسيل العرم في الوحل والمطر وتحت الصيحات والشتائم ، وجلجلة السياط واصطدام محور بأخر . وعلى جانبي الطريق تناثرت خيول فاطسة ومحتضرة ، وعربات مقلوبة وعجلات هارئة الى الاعلى . وبين العين والآخر كانت سيارة عسكرية تشق طريقها في هذا السيل ، فبيدا تصاعد الضياع والتأوهات ، وتقف الخيول على قوائمها الخلفية ، وتسقط عربة محملة على المنحدر ، وفي اثرها سواقيها .

وحين كان ينقطع سبيل العربات كان الجنود يأتون بعده سائرين على الاقدام في خط طويل منزلقين في الوحل ، حاملين على ظهورهم الاكياس والمشعاع . وكانت تشق حشدهم غير النظامي عربات الامتعة وعربات اخرى محملة بالبنادق تظهر بارزة من كل الجهات ، وقد جلس فوقها الجنود المرافقون للضباط . وبين العين والآخر كان يخرج رجل من الطريق راكضا في الحقل ، ويضع بندقيته على العشب ، ويجلس القرفصاء .

ثم كان يتبع ذلك مزيد من العربات والطوافات ، والعجلات ، وعربات مدنية يجلس فيها اناس مبللون بمعاطف مطر للضباط . وكان هذا السيل الهادر تارة يسقط في منخفض ، ويتزاحم ، ويزعج ويتعارك رجاله على الاماكن ، وتارة يمتد صاعدا مرتفعا ببطء ، ويختفي وراء القمة . وكانت تصب فيه مسن الجانبين صفوف جديدة من العربات تحمل القمح والعلف والقذائف . وكانت وحدات صغيرة من الخيالة تأتي متسابقة في الحقل .

واحيانا كانت تدخل المدافع في صفوف العربات مقعقة تقعقة حديدية . وكانت خيول ضخمة عريضة الصدور يمتطيها تتريون ذوو وجوه ملتحيحة ضاربة التقاطيع يسوطون الخيول والناس لتشتق هذه الخيول الطريق كالمحراث ساجبة وراها مدافع فطساء متقافزة . وكان هناك اناس يتراخضون من كل الجهات ، وآخرون واقفون على العربات يلوحون بايديهم . ومرة اخرى كان السيل يتصل ، وينصب في غابة فواحة برائحة قوية للقطر والاوراق المتفسخة يسرى ضجيج المطر في ارجائها .

ثم تبرز امام البصر مداخن مواقد مسن بين اكوام القاذورات والاشخاب المحروقة على جانبي الطريق ، ويتأرجح فانوس مهشم ، وتخفق في الريح ورقة اعلان سينمائي الصقت على جدار أجرى لبيت هدمته القنابل . وهنا ايضا كان يردد في عربة بلا جيلتين اماميتين تمساوي جريح بمعطفه الازرق ووجهه ممتقع ، وعيناه كدرتان حزينتان . وعلى بعد حوالي خمسة وعشرين فرساجا من هذه الاماكن كان دوى المدافع يتراعى خافتا في الافق الداخن . لقد كانت هذه القوات وطوابير العربات تنصب الى تلك المنطقة ليل نهار ، كما تتجه اليها القطارات من جميع انحاء روسيا محملة بالقمح والناس والقنابل . كانت البلاد كلها تهتز على دوى المدافع . لقد انفجر اخيرا كل ما تراكم فيها تحت الكبت والقمع من شر جشع لا يشبع .

وبدا وكان سكان المدن المتخمين بحياة شائنة فاسدة قد استيقظوا من حلم خائق . لقد كان في دوى المدافع صوت العاصفة العالمية المثير . وبدت الحياة السابقة غير محتملة بعد هذا . فعين السكان الحرب بحماس مشؤوم .

في الريف لم يسأل الناس كثيرا : من نحارب ولاى شيء ؟
فان الامر سيان لديهم . لان العقد والكرامية قد غشيا العيون
منذ زمان بغشاوة دموية . ونضج وقت الاعمال الرهيبة . ترك
الفتيان والفلاحون الشبان نساءهم وفتياتهم ، وتزاحوا في عربات
البضائع خفافا متعطين ، وانطلقوا عبر المدن بصفير والغان
فاحشة . لقد انتهت الحياة القديمة ، وبدا وكان ملعقة هائلة
اخذت تقلب روسيا وتعكرها ، وسرى الدبيب والحركة في كسل
شيء ، وسكر سكرة الحرب .

كانت طوابير العربات والقوات العسكرية تتدفق وتذوب حين
تصل الى منطقة القتال التي يترامى دويها عشرات الفراسخ .
هنا كان ينتهي كل شيء حتى وانساني . كان يخصص لكل فرد
موضع في التراب ، في الخندق ، ينام فيه وياكل ، ويقصص القمل ،
ويطلق من بندقيته على شريط الضلال الماطر الى حد الذهول .
وفي الليل كان الافق كله يلمتج ببطء بنيران الحرائق
القرمزية ، وتتخطط السماء بخطوط الشرر المنبجعة من انطلاق
الصواريخ وتتناثر كالنجوم وتتلاحق القذائف بعويل مصمم ،
وتنفجر اعمدة من النار والدخان والغبار .

هنا كانت الاحشاء تتقلص من الرعب المعزز ، ويتشعر
الجلد ، وتتعكف الاصابع . وعند منتصف الليل كانت تطلق
الاشارات . فيتراكض الضباط وشفاهم ملتوية ، وينهضون
الجنود المنتهين بالنعاس والرطوبة ، شامتين متصايحين
متضاربين . وتركض مجموعات غير نظامية من الناس في العراء
متعثرين متشامتين عاوين عواء شحميا ، يستلقون تارة ، ويشبون
اخرى ، ويقذفون انفسهم في خنادق الاعداء مصعوقين مأخوذين
فاقدين الذاكرة من الرعب والغيبط .

وبعد ذلك لا يتذكر احد قتل ما حصل في تلك الخنادق ،
هناك . وكانوا يضطرون الى التلفيق حين كانوا يريدون التباهي
بمآثر بطولية من مثل كيف غرزت الحربة ، وكيف تهشم الراس
تحت ضربة من كرنافة البندقية . وكان الهجوم الليلي يخلف جثا .
وكان يحل نهار جديد ، وتاتي مطابخ الميدان ، وياكسل
الجنود المتهاكون المتجددون ويدخون . ومن بعد ذلك يبدأون

الحديث عن السناج والنساء ، ويلفقون كثيرا ايضا ويبحثون عن
القمل ، وينامون . وكانوا يقضون اياما كاملة نائمين في منطقة
الرعد والموت هذه ، العازية الملوثة بالغانط والدم .

في مثل هذا الوضع ، في الوحل والرطوبة ، عاش تليفين
ايضا غير خال ملبسه وحذاءه الطويل اسابيع متتالية . كان الفوج
الذي سجل فيه ملازما ثانيا قد خاص معارك هجومية ، وفقد اكثر
من نصف ضباطه وجنوده ، ولم يعرض عن حسانسره ، وكان
الجميع ينتظرون شيئا واحدا : ساعة تحويلهم الى المؤخرة ، وهم
اشباه الاموات من التعب ، والممزقو الثياب .

الا ان القيادة العليا كانت تسعى الى عبور جبال الكربات
قبل حلول الشتاء ومهما يكن الثمن ، والدخول الى المجر ،
وتدميرها . ولم يكونوا يجلبون في الارواح ، فقد كانت هناك
احتياطات كبيرة من النفوس البشرية . وكانوا يتصورون ان
مقاومة الجيوش النسبوية المترجعة بلا نظام ستتهار تحت الضغط
الطويل لقتال مستمر دخل شهره الثالث ، وستسقط كراكوفيا
وفيينا ، وسيتمكن الروس من الخروج من الجناح الايسر الى
المؤخرة الالمانية غير المحمية .

وتطبيقا لهذه الخطة كانت القوات الروسية تزحف نحو الغرب
بلا انقطاع آسرة عشرات الالوف من الاسرى ، واحتياطات هائلة
من المواد الغذائية والقذائف والاسلحة والملابس . في الحروب
الضاحية كان جزء فقط من مثل هذه المعانم ، ومعركة فقط
من هذه المعارك الدموية المستمرة التي كانت تسحق فيالسق
كاملة يمكن ان يقررا مصير الحملة . والان ، وحتى رغم ان
الجيوش النظامية قد تحطمت في المعارك الاولى فان حدة القتال
قد استمرت . لقد خرج الجميع الى الحرب ، من الاطفال حتى
الشيوخ - الشعب ياسره . فقد كان في هذه الحرب شيء فوق الادراك
الانساني . كان يبدو وكان العدو على وشك ان يدحر ، وقد
استنزف دمه ، وما هو الا جهد آخر ، ويهل النصر الحاسم .
ويبدأ الجهد ولكن كانت تطلع مكان جيوش العدو المتهتمة
جيوش جديدة كانت تسمي للقاء الموت في جموح قانط ، وتهلك .
لم تكن لا جحافل التتار ولا كراديس الفرس تقاتل بتلك القسوة ،

وتموت بالسهولة التي كان يموت فيها الاوربيون الضعاف الاجسام المدللون ، او الفلاحون الروس الماكرون ، الذين رأوا انهم ليسوا الا ماشية عمياء - لحوما في هذه المجزرة التي ديرها السادة .

تخندقت بقايا الفوج الذي يخدم تليغن فيه على شاطئ نهر ضيق عميق . كان الموقع سيئا ، مكشوفاً كلياً ، والخنائق غير عميقة . وكان الفوج ينتظر بين لحظة واخرى امرا بالهجوم ، ولكن الجميع الآن كانوا مسرورين في ان تسنع لهم فرصة للنوم ، وتغيير الاحذية ، وتبيل شيء من الراحة ، رغم ان ناراً حامية كانت تنطلق من الضفة الاخرى للنهر حيث كانت الوحدات النمساوية تتخندق .

وعند المساء ، حين هذا اطلاق النار حوالى ثلاث ساعات ، كما هي العادة ، ذهب ايفان ايليتش تليغن الى مقيادة الفوج ، التي كانت تحتل قلعة مهجورة على بعد زهاء فرسخين من موقع الفوج .

كان ضباب اشعث يرقد على صدر النهر المتلوى بين النباتات الكثيفة ويخيم على الاجامت عند الشاطئ . وكان الجو هادئاً رطياً فيه رائحة اوراق اشجار رطبة . وبين الحين والآخر كانت اطلاقاً وحيدة تنهد في الماء مثل كرة جوفاء .

قفز ايفان ايليتش عبر حفرة الى الطريق العامة وتوقف ، واشعل سيكارة . كانت الاشجار العالية الجرداء على جانبي الطريق تبدو في الضباب شاهقة الطول على نحو مفرع . وعلى اطرافها كان منخفض مستنقعي يبدو وكأنه مملوء بالحليب . وصفرت رصاصاً في السكون صفيراً شاكياً . زفر ايفان ايليتش زفرة عميقة ، وسار على حصى متصلل ، رافعا راسه الى اشباح الاشجار . لقد استرخى كل ما في نفسه بسبب هذا الهدوء المحيط به ، ومن كونه يسير ويفكر لوحده . لقد ابتعد ضجيج النهار الصاخب ، الا ان حزناً رقيقاً نافذا تسلل الى قلبه . فتهدت ثانية ، والقي السيكارة ، ووضع يديه وراء رقبته ، وسار على هذا الوضع ، وكأنه في عالم

عجيب لم يكن فيه غير اشباح الاشجار ، وقلبه الحى الملتهب بالحب ، وسحر داشا غير المرئى .

كانت داشا معه في ساعة الراحة والهدوء هذه ، وكان يحس بعلامتها كلما هدا زفير القذائف الحديدى ، وازين البنادق ، والصيحات ، والسباب - كل هذه الاصوات الغريبة على خليقة الله - وكلما كان من الممكن ان ينزوى في ركن من المخبأ ، وعندئذ كان السحر يحس قلبه .

وكان يبدو لياقان ايليتش انه ، لو قسم له ان يموت ، فانه سيسهر بسعادة الاتصال هذه الى آخر لحظة في حياته . ولم يكن يفكر في الموت ، ولم يباهي . لا شيء بقادر الآن على ان ينتزعه من حالة الحياة المدهشة ولو كان الموت نفسه .

في الصيف ، حين سافر الى يقاتوريا ليرى داشا لآخر مرة كما خيل له ، غمرته موجة من الحزن ، وقلقى ، وفكر في مختلف الاعتذارات . الا ان لقاءها في الطريق ، ودموع داشا المباغثة ، ورأسها الاشقر مضغوطاً على صدره ، وشعرها ، ويديها ، وكثفها الفواحة برائحة البحر ، وقمها الطفولى حين نطق ، وقد رفعت اليه وجهها بالرموش المسبلة المبللة : « ايفان ايليتش ، عزيزى ، كم انتظرتك » - كل هذه الاشياء التي لا توصف ، والتي كانها هبطت عليه من السماء ، في ذلك الطريق عند البحر قد حولت حياة ايفان ايليتش كلها في بضع دقائق . وقال وهو ينظر الى الوجه العجيب : - سأطلب اجبك ، طيلة حياتى .

وفيمما بعد بلغ به الوهم الى حد ان تصور انه لم ينطق بهذه الكلمات ، بل دارت في ذهنه فقط ، وانها قد فهمت ما في ذهنه . انزلت داشا يديها من كتفيه ، وقالت :

- عندي اشياء كثيرة يتبغى ان اخبرك بها . فلنذهب . وساروا ، وجلسا على الرمل عند الماء . ملأت داشا كفها بالحصبا الصغيرة ، واخذت تلقفها في الماء على مهل .

- المسألة هي هل ستستطيع ان تحسن معاملتى ، حين تعلم بكل شيء . رغم ان ذلك لا يهم ، عاملنى حسب ما تشاء . - وتنهدت . - عشت في غيابك حياة سيئة يا ايفان ايليتش . فاعزرنى ، اذا كان ذلك في امكانك .

وحدثه عن كل شيء بصدق وتفصيل . عن سامارا ، وعن مجيئها الى هنا ، وعن لقاءها ببيسونوف ، وعن فقدانها الرغبة في الحياة ، من شدة قرفها ، من ذلك الجو البطرسبورغى الخانق الذى تصاعد مرة اخرى ، وسمم الدم ، والهب الفضول ...

- الى متى استمخ بانفى ؟ وراودتنى الرغبة في ان اغرق نفسى في الحماة - لا باس . ولكننى جنبت في اللحظة الاخيرة ... ايفان ايليتش ، عزيزى - وبسطة ذراعها وقالت - ساعدنى ، لا اريد ، ولا استطيع ان امضى في بغض نفسى ، ولكن لم يمض كل شيء في ... انا اريد شيئا مختلفا تماما ، مختلفا كليا ...

وبعد هذا الحديث صممت داشا طويلا ، وثبت ايفان ايليتش بصره في الماء الصقيع الضارب الى الزرقة - المتلاهل بالشمس . وكانت روحه ، رغم كل شيء ، طافحة بالسعادة .

ولم تترك داشا ان الحرب قد بدأت ، وان تليفين يجب ان يسافر في الغد للحاق بفوجها ، الا بعد فترة من الوقت ، حين تبللت قدمها بموجة اهاجتها الريح .

- ايفان ايليتش !

- نعم .

- هل ستحسن معاملتى ؟

- نعم .

- كثيرا ؟

- نعم .

عندئذ زحفت على ركبتيها على الرمل لتقرب منه اكثر ، ووضعت يدها في يده ، كما فعلت عند ذلك على سطح السفينة .

- ايفان ايليتش ، وانا ايضا ساحسن معاملتك .

وضغظت بشدة على اصابعه المرتعشة ، وسالت بعد برهة من الصمت :

- ماذا قلت لى اذ كنا في الطريق ؟ - وغضنت جبهتها - اى

حرب ؟ مع من ؟

- مع الالمان .

- واثت ؟

- ساسافر غدا .

تاوهب داشا ، وصممت مرة اخرى . ومن بعيد كان نيقولاى ايفانوفيتش يعبر على الساحل متجهتا نحوهما ، في سترته المخططة ، وكانه قد غادر سريره من توه على ما يبدو . كان يلوح بجريدة ، ويصرخ بشيء ما .

ولم يلق التفتاتا الى ايفان ايليتش . عندئذ قالت داشا : « نيقولاى ، هذا اكبر صديق لى » . - امسك نيقولاى ايفانوفيتش تليفين من سترته ، وصرخ في وجهه :

- هذا ما توصلنا اليه ، ايها الشاب ، ها ؟ ها هي حضارتك ، ها ؟ هذه قطعة اهل تفهم ؟ هذا هذيان !

وقضت داشا اشيا النهار كله قرب تليفين لا تبارحه ، وديعة مستغرقة . ولاح له هذا اليوم المملوء بنور الشمس المزعزق قليلا ، وهدير البحر واسعا لا تستوعبه الظنون . وكل دقيقة فيه تمطت حتى لكانها استحالت حياة كاملة .

تجول تليفين وداشا على الساحل ، واستلقيا على الرمل ، وجلسا في الشرفة ، وكانا في ذمول . وكان نيقولاى ايفانوفيتش يلاحقهما اينما ذهبا ، ولا ينفك عنهما ، ولا يفتأ يتحدث باحاديث مطولة عن الحرب وتسلط الالمان .

وقبيل المساء استطاعا الانفلات من نيقولاى ايفانوفيتش . فخرجا وحيدين ، وتوغلا بعيدا بمحاذاة ساحل الخليج المنحدر انحدارا خفيفا . سارا صامتين ، في خطو متساوق ، وهنا بدأ ايفان ايليتش يفكر بان الواجب يقتضيه ، على اية حال ، ان يقول شيئا ما لداشا . وبالطبع ، انها تنتظر منه بَرِّحا حارا ومعددا في الوقت ذاته . ولكن ماذا في وسعه ان يتمم ؟ وهل تستطيع الكلمات ان تفصح عما يملأ جوانحه ؟ لا ، ان ذلك غير قابل للافصاح .

وفكر مع نفسه ، وهو ينظر الى قدميه : « لا ، لا ، لو بحت لها بتلك الكلمات ، فان ذلك سيكون معيبا . انها لا يمكن ان تحبني ، ولكنها كفتاة شريفة طيبة ستقبل ، اذا طلبت يدها . ولكن هذا سيكون اكراها . فضلا عن ذلك لا يحق لى ان اقول لانسا نفترق لفترة غير محددة ، فانى ، في اغلب الاحتمالات ، لن اعود من الحرب ... »

وكانت تلك نوبة من نوبات تعذيب النفس . توقفت داشا

سقف منحوت منهار في احد الاركان من جراء قنبلة سقطت يوم امس على الجدار . كان الملازم الاول الامير بيلسكي والملازم هارتيروف جالسين على سرير قرب موقد مشتعل . سلم ايفان ايليتش ، وسأل من من المتوقع ان تصل السيارة من مقر الاركان ، وجلس على كومة من علب الخرايش غير بعيد عن الضابطين ، وقلص عينيه من الضوء .

سال مارتينوف :

- اما زال اطلاق النار مستمرا هناك ، عندكم ؟

لم يجب ايفان ايليتش ، وهنّ كفيه . ومضى الامير بيلسكي متابعا حديثه بصوت خافت :

- والامه هي هذه الرائحة النتنة . لقد كتبت لاهل ان الموت لا يخيفني . فاننا مستعد في سبيل الوطن الى التضحية بحياتي ، ولأجل هذا ، اذا اردت الدقة ، انتقلت الى المشاة ، وها انا جالس في الخنادق ، ولكن الرائحة النتنة هي التي تقتلني .

اجاب مارتينوف ، وهو يعدل احدى كتفitiesه :

- الرائحة النتنة شيء تافه ، اذا لا تعجبك فلا تسمها .

ولكن خلو المكان من النساء هو الشيء الجوهري . ان ذلك لا يؤدي الى خير . احكم بنفسك : قائد الجيش هرم ، فاقاموا لنا هنا ديرا ، لا خمرة ، ولا نساء . يمكن ان تدعو هذا اهتماما بالجيش ؟ اهذه حرب ؟

نهض مارتينوف من السرير ، واخذ يدفع برأس حذائه خشبية محترقة . وراح الامير يدخلن مستغرقا ناظرا الى النار . وقال :

- خمسة ملايين جندي يروثون . فضلا عن ذلك تتفسخ الجثث والخيول النافقة . ستظل الحرب طوال حياتي تذكرني بشيء كريه الرائحة . برررر . . .

سمع هدير محرك سيارة في الفناء . وصاح صوت منفلع عند الباب :

- يا سادة ، جاء البريد .

خرج الضابط الى مدخل القلعة . كانت شخص داكنة تتحرك عند السيارة ، وبعض الرجال يتراكون في الفناء . وكرر الصوت المبحوح : «يا سادة ، ارجو الا تتخاطفوا من الايدي» .

فجأة ، وتعلقت بكتفه ، وخلعت نعلها مرددة «يا آلهي ، يا آلهي» واخذت تفرغ الرمل من النعل ثم ارتدته ورفعت قامتها وتنهت : - ساشعر ببح شديد لك ، حين ترحل ، يا ايفان ايليتش .

ووضعت يدها على رقبته ، وتفرست في عينيه بعينيهما الصافيتين ، الرامدتين الصارمتين تقريبا ، الغاليتين من كل ظل لبسمة ، وزفرت زفرة اخرى خفيفة .

- سنكون سوية ، هناك ايضا ، ها ؟

جذبها ايفان ايليتش جذبة رقيقة ، وقبل شففتها الناعمتين المرتعشتين . فاعمضت دأشا بعينيهما . وفيما بعد حين بهرت منهما الانفاس كليهما تنحت دأشا ، وامسكت يد ايفان ايليتش ، وسار الاثنان بمحاذاة الماء الثقيل الداكن اللاعق الساحل بالسنة قرمزية عند اقدامهما .

كان ايفان ايليتش يتذكر كل ذلك في لحظات الهدوء بانفعال متجدد في كل مرة . والان ، وهو يسير في الضباب ، على الطريق العامة ، بين الاشجار ، ويده وراه رقبته عادت تتراعى له نظرة دأشا المتفرسة ، واحسن بقبلتها الطويلة .

- قف ! من القادم !

هتف صوت غليظ في الضباب .

- من جماعتكم .

اجاب ايفان ايليتش ، وانزل يديه الى جيبي معطفه العسكري . واعتطف عند اشجار بلوط نحو هيكل قلعة غير واضح المعالم ، حيث كان النور بلوح اصفر في بعض نوافذها المضاءة . وعلى المدخل ابصر شخص تليفين فرمى سيكارتته ، ووقف في هيئة استعداد . «هل جاء البريد ؟» ، «لا ، ياحضرة الضابط ، نحن في انتظاره» . دخل ايفان ايليتش الى الرواق . كانت طنفسة قديمة معلقة فوق درج بلوطي عريض في آخر الرواق تصور آدم وحواء واقفين وسط الاشجار . كانت هي تمسك في يدها تفاحة ، وهو غصنا مقطوعا عليه زهر . وكانت شمعة موضوعة في قم زجاجة في اسفل الدرج تضئ بضوئها الشاحب وجهيهما الحالدين وجسميهما المزرقين .

وفتح ايفان ايليتش بابا الى اليمين ، ودخل حجرة قارغة لها

- المقدم روزانوف . طلب ان تأتي بأسرع ما يمكن .

طوى تليغين الرسالة التي لم يتم قراءتها وحضرها وراء قميصه مع الظروف الأخرى ، وانزل قبعته على عينيه ، وخرج .

كان الضباب قد ازداد كثافة ، وحجب الأشجار ، والساائر يحس وكأنه يخوض في حليب ، ولا يتعرف على الطريق الا من صلصلة الصبيان . اعاد ايفان ايليتش مع نفسه «سيكون حبي لك صادقا ، وسيزداد قسوة» . وفجأة توقف مرهفا سمعه . لم يكن يصدر من الضباب صوت ما عدا الصوت الذي يحدثه احيانا سقوط قطرة ثقيلة من شجرة . ثم اخذ يميز ، على مسافة غير بعيدة عنه ، قرقرة وخشخشة خفيفة . وواصل سيره ، فصات القرقرة اكثر وضوحا . ارتد بقوة ، فانهبت كتلة الطين التي انخلت من تحت قدميه ساقطة في الماء بطرشة ثقيلة .

كان ذلك ، على ما يبدو ، المكان الذي كانت الطريق العامة تقطعه فوق النهر عند جسر محروق . وعلى الضفة الأخرى من النهر ، على بعد زهاء مائة خطوة كانت الخنادق المتساوية تصل الى حافة النهر . وكان ايفان ايليتش يعرف ذلك . وبالفعل اُتت رصاصة من الجانب الآخر كالسوط على طرشة الماء ، ورجع النهر صوتها ، وازت أخرى وثالثة ، ثم اعتقدت ذلك صلية طويلة ، مثل قمقمة حديد ، فردت عليها من كل جانب طلقات عجل خلق الضباب اصواتها . وتوالى الازيز والدوي والزئير على النهر كلله اقوى فاقوى ، وفي ذلك الضجيج اللعين ، لعل مدفع رشاش بعجلة ، وسمع صوت انفجار في الغابة . وجثم الضباب المعزق الهادر على الارض ساترا على هذا الامر الكريه المعتاد .

ولعدة مرات كانت إحدى الرصاصات ترتطم بشجرة قرب ايفان ايليتش محدثة صوت قضم ، ويسقط غصن . ترك الطريق العامة الى الحقل ، واتخذ طريقه تلمسا بين الاجمات . هذا التراشق بغتة ، مثلما بدأ ، ثم انتهى . خلق ايفان ايليتش قبعته ، ومسح جبينه الرطب . استدل مرة أخرى سكون اشبهه بالسكون تحت الماء ، ولم يبق الا اصوات القطرات تقطر من الاشجار . حمدا لله ، اليوم سيقرا رسائل داشا . وضحك ايفان ايليتش وقفز عبر

وجلبت ايكياس البريد والطرد الى الرواق ، واخذوا يفكونها على الدرج تحت آدم وحواء . وكانت تحتوي على بريد الشهر كله . وظهر ان تلك الايكياس الجفناصية القنرة كانت تحتوي على عالم كامل من الحب والحنين - حياة كاملة مهجورة ، رقيقة ، لا تسترد . - يا سادة ، لا تتغافلوا من الايدي - بيج النقيب بابكين ، وهو رجل ضخم احمر الوجه - الملازم الثاني تليغين ست رسائل وطرد ... الملازم الثاني نيشني رسالتان ...

- نيشني قتل ، يا سادة ...

- متى ؟

- اليوم صباحا ...

سار ايفان ايليتش الى الموقد . كانت الرسائل الست كلها من داشا . وكان العنوان على الظروف مكتوبا بخط كبير . وغمر الحنان ايفان ايليتش على تلك اليد الجببية التي خطت هذه الحروف الكبيرة . اتحنى على النار ، وفضّ الظرف الاول بحذر . فاحسنت منه ذكرى قوية جعلت ايفان ايليتش يغمض عينيه برهة . ثم قرأ :

«سافرنا - نيقولاي ايفانوفيتش وانا - الى سيمفروبول في اليوم الذي ودعناك فيه ، وفي المساء ركبنا قطار بطرسبورغ . ونحن الآن في شقتنا القديسة . نيقولاي ايفانوفيتش قلق جدا بسبب عدم ورود اي خبر من كاتيا ، ونحن لا نعرف اين هي الآن . ان ما وقع لنا ، انت وانا ، كان عظيما جدا ومفاجئا جدا حتى انني ما ازال غير متمالكة حواسي . انني احبك ، وسيكون حبي لك صادقا وسيزداد قوة . اما الآن فان بلبلة شديدة تجتاح النفس . القوات تمر في الشوارع على انغام الموسيقى فتشيع في الجو حزنا ممضا حتى لكان السعادة تضي راحلة مع الابواق ، مع هؤلاء الجنود . انا اعرف لا يجوز لي ان اكتب ذلك ، ولكن يجب ان تكون حذرا في الحرب ، على اية حال» .

- يا حضرة الضابط ، يا حضرة الضابط .

التفت تليغين بصعوبة فرأى جنديا مراسلا يقف عند الباب .

- برقية تلفونية ، يا حضرة الضابط ... يطلبونك في

الفرج .

حفرة . وفجأة سمع ، على مقربة شديدة منه ، صوت رجل يتثاب
ثم يقول :

- يا فاسيل اي نوم في مثل هذه الاحوال ؟ اي نوم ؟
ردّ صوت مهتز :

- انتظر . هناك شخص قادم .

- منّ القادم ؟

- من جماعتكم ، من جماعتكم .

اسرع تليغين يقول ، وفي الحمال راي المتراس الترابي
للخندق ، ووجهين ملتحيين يتطلعان من تحت الارض . سال :

- اية سرية هذه ؟

- الثالثة يا حضرة الضابط ، سريتك . ولماذا تسير على
الارض المكشوفة ، يا حضرة الضابط ؟ قد يصيبونك .

قفر تليغين الى الخندق ، وسار فيه الى خندق الاتصال
المؤدى الى مخبأ الضباط . كان الجنود الذين يقظهم اطلاق
الرصاص هذا يتحدثون :

- في مثل هذا الضباب من السهل جدا ان يعبر العدو النهر
في مكان ما .

- انه شيء بسيط .

- فجأة رمى ودوى كثيف . ترى ايريد ان يخيفنا ام هو
نفسه خائف ؟

- وانت ، لست خائفا ؟

- انا ، يا صاحبي ؟ انا جبان جدا .

- يا اولاد ، قطعت اصبع لغفريل .

- لو رابتومه كيف يزعم رافعا اصبعه الى فوق .

- حظوظ ! .. سيرسل الى اهله .

- ايدا ! لو كانت ذراعه كلها قد قطعت لكانت له اجازة ! اما
دون اصبع واحدة ، فسيجشروه ليتعفن في مكان قريب ثم يعودونه الى
السرية ثانية .

- متى ستنتهي هذه الحرب ؟

- اوه ، كفى .

- ستنتهي ، ولكن لن نرى نحن نهايتها .

- على الاقل لو استولينا على فينا .

- وما حاجتك اليها ؟

- لا لشيء ، ولكن احسن .

- حتى اذا لم تنته الحرب في الربيع ، فان الجميع سيهرون

على اية حال . فمن سيزرع الارض ؟ النسوان ؟ الشعب سحق
سحقا . كفى ، تشبعنا بالدم بما فيه الكفاية وزيادة ، وسنذهب
الى بيوتنا من تلقاء انفسنا .

- ولكن الجنرالات لن يكفوا عن الحرب عن قريب .

- ما هذا الكلام ؟ .. من يقول هذا ؟

- كفى نباحا ، يا عريف .. انصرف ..

- لن يكف الجنرالات عن الحرب .

- انه على حق ، يا اولاد . فهم اولا يقبضون رواتب
مضاعفة ، واوسمة ونياشين .

لقد قال لي احد الاشخاص ان الانجليز يعطون لجنرالانسا
ثمانية وثلاثين روبلا ونصف على كل مجند .

- اوه ، الاوباش ! كما يبيعون الماشية .

- لا بأس ، سنصبر ، ونرى .

عندما دخل تليغين المخبأ راي امر الكتيبة المقدم روزانوف -
وهو رجل بدين ذو نظارة ، وخصل شعر قليلة - جالسا على

اغشية خيول موضوعة في احد الاركان تحت اغصان الصنوبر ، وقد
ابتدره قائلا :

- جنت اخيرا يا صاحبي .

- ارجو العذرة ، يا فيودور كوزميتش ، فقد اضعت
طريقي . الضباب كثيف .

- المسألة ، يا صاحبي ، ان هناك عملا ينبغي انجازها في
الليل .

ووضع في فمه قطعة الغبز التي كان طيلة الوقت يمسكها
بيده الوسخة . اطبق تليغين فكيه ببطة .

- الخلاصة ، يا عزيزي ايفان ايليتش ، ان الامر قد صدر
الينا بالعبور الى الضفة الاخرى . وسيكون لطيفا لو نتج ذلك

بشء من اليسر . اجلس بجانبى . اترىد شينا من الكونياك ؟ لقد
عنت لى هذه الخطة ... اقامة جسر مقابل دغل الصمصاف الكبير
تماما ، وتعبير فصيلتين على تلك الضفة ...

١٦

- سوسوف !
- نعم ، يا حضرة الضابط .
- احفر ... على مهلك ، لا تلق التراب فى الماء . يا اولاد
تقدموا الى الامام ... زوبتسوف !
- نعم ، يا حضرة الضابط .
- انتظر ... ثبته هنا ... احفر قليلا ... خفّض ...

على مهل ...

- على مهل ، يا اولاد ، سنتعلمون كفى ... ادفع ...
- هيا ، ادفع ...
- لا تصرخ ، هدوء ، يا حيوان !
- اسند الطرف الآخر ... يا حضرة الضابط ، هل نرفع ؟
- هل ربطتم الطرفين ؟
- نعم .
- ارفع ...

وارتفع فى غيوم الضباب المشرب بضوء القمر عمودان
مرتفعان تربط بينهما عوارض ، وقد صدر صريف من ذلك . انها
جسر معلق . كانت اشباح المتطوعين تتحرك على الشاطئ وهى لا
تكاد تبين . وكان الكلام والسباب يجريان بهمس عجول .

- هل استقر ؟ ها ؟

- استقر بصورة جيدة .
- خفّض ... بحدو اكثر ...
- برقق ، برقق يا اولاد ...

بعد ان تثبت العمودان بطرفيهما فى ضفة النهر ، فى اضيق
موضع فيه ، اخذا يميلان ببطء الى الامام ، وتدليا فوق الماء فى
الضباب .

- هل سينوش الضفة الثانية ؟
- خفض على مهل .
- ثقيل جدا .
- قف ، قف ... برقق ! ..

ومع ذلك فقد انطرح الطرف الثانى من الجسر على الماء
بطرطشة عالية . اشار تليغين بذراعه قائلا :

- استلقوا !

استلقت اشباح المتطوعين على عشب الشاطئ بصوت غير
مسموع . صفّ الضباب ، الا ان الظلام صار احلك ، والهواء اثقل
عند السحر . وكان الهدوء يسود الضفة الاخرى . نادى تليغين :

- زوبتسوف !

- نعم !

- انزل الى الماء وصفّ الواحا !

نزل المتطوع فاسيلي زوبتسوف بجسمه الركين الناشر رائحة
عرق نافذة من الشاطئ الى الماء مارا بتليغين . وراى ايفان
ايليتش يده الكبيرة تمسك بالعشب مرتجفة ، وتطلقه ، وتختفى .
- عميق ، - قال زوبتسوف بهمس مرتجف صدر من مكان
فى الاسفل واستمر - ناولونى الالواح ، يا اولاد ...

- الالواح ، ناولونى الالواح !

وراحت الالواح تتناقل بين الايدي بسرعة وبلا صوت . وكان
من المستحيل تسميرها خوفا من حدوث ضجة . صفّ زوبتسوف
الصغوف الاولى ، وخرج من الماء الى الجسر ، وراح يقول بصوت
خافت ، واسنانه تصطك :

- اسرع ، ناول بسرعة ... لا تبطى ...

كان الماء القارس البرودة يرسل خريره تحت الجسر ،
والعمودان يتمايلان . وكان تليغين يمين معالم الاجمات الداكنة على
الشاطئ الآخر ، وبالرغم من انها لم تكن تختلف عن الاجمات فى
الجانب الروسى ، الا ان منظرها بدا مخيفا . عاد ايفان ايليتش الى
الشاطئ حيث كان المتطوعون مستلقين ، وهتف بحدّة :

- انهضوا !

وفي الحال نهضت في الغمام المبيض شخوص ممسوحة
المعالم كبيرة بشكل بالغ .
- واحدا بعد واحد ، اجر ! ..

استدار تليغين نحو الجسر . وفي تلك اللحظة تنورت الألواح
الصفراء ، وراس زويتسوف ذو اللحية السوداء الملقى الى الوراء
من الرعب ، وكان شعاع شمس اصطدم بغمامة الضباب فجأة .
انعرف شعاع المصباح الكاشف جانبا الى الاجمات ، وانتزع من
الظلام غصنا موعجا عليه عساليح عارية ، وعاد ثانية ليمتد على
الألواح . ركض تليغين مطبق الاسنان عبر الجسر ، وفي تلك
اللحظة بدا وكان كل ذلك السكون الاسود قد انفجر وانعكس
كالرعد في راسه . اخذت نيران البنادق والرشاشات تنهمر على
الجسر من الجانب النمساوي . قفز تليغين على الشاطئ ، وقعد على
رجليه ، واستدار . كان جندي طويل القامة لم يعرف عليه ،
يركض على الجسر حاضنا بندقيته على صدره ، ثم اقلعت من يديه ،
ورفع يديه ، وسقط الى الجانب في الماء . كان احد الرشاشات
يصب ناره على الجسر والماء والشاطئ . ركض جندي آخر هو
سوسوف ، واستلقى بالقرب من تليغين ...

- سامزق هؤلاء الأوغاد باسناني !

وركض ثان ، وثالث ، ورابع ، وترنج آخر ، وزعق متخبطا
في الماء ...

عبر الجميع الجسر راكضين ، وانظروا محومين بالارفاش
قليلا من التراب امامهم . والآن صار الرصاص يردد على نحو جنوني
فوق النهر كله . وكان من المعتاد على المرء ان يرفع راسه . فقد
ظل الرشاش يطمر بوابل رصاصه هناك حيث استلقى المتطوعون
على الارض . وفجأة ازّ شيء على ارتفاع واطى مرة ومرتين ...
وست مرات ، ودوت الى الامام ستة انفجارات خافتة . انهم الروس
يقصفون وكر الرشاشي .

قفز تليغين وفاسيلي زويتسوف امامه وركضا حوالى اربعين
خطوة ، ثم استلقيا . وعاد الرشاش الى العمل من الظلام الى
اليسار . ولكن كان واضحا ان النار من الجانب الروسي كانت اشد ،
وان النمساويين يبعدون داخل الارض . استغل المتطوعون فترات

السكون وركضوا نحو المكان ، حيث قد احدثت مدفعية الروس
ثغرة في الاسلاك الشائكة امام الخنادق النمساوية يوم امس .

وكان النمساويون قد بداوا وصلها من جديد خلال الليل ،
فتركوا جثة تتدلى عليها . قطع زويتسوف الاسلاك ، وسقطت الجثة
امام تليغين كالزكية . وثب المتطوع لابتيف الى الامام بدون سلاح
زاحفا على الاربع سابقا الاخرين ، واستلقى امام المتراس تماما ،
فصاح به زويتسوف :

- انهض ، والى قنبلة !

الا ان لابتيف صمت ولم يتحرك ، ولم يلتفت ، فلا بد ان
قلبه جمد من الرعب . اشتد اطلاق النار ، ولم يستطع المتطوعون
التحرك ، والتصقوا بالارض ، واندفوا فيها .
صاح زويتسوف :

- انهض ، والى قنبلة ، يا ابن الكلبة ! اقدفها !

ومدّ جسمه مسكاً بندقيته من كرافتها ، ووخز بحربته
معطف لابتيف الذي برز كالحديدة . ادار لابتيف وجهه الغاضب ،
وفك قنبلة يدوية من حزامه ، وقذفها فجأة ملقيا صدره على
المتراس ، وقفز الى الخندق بعد انفجارها .

صاح زويتسوف بصوت غريب عليه :

- اضرب ، اضرب !

نهض زهاء عشرة من المتطوعين ، وهرولوا ، وغيبتهم
الارض . وكان لا يسمع غير اصوات الانفجارات الحادة المتقطعة .
التحرك تليغين على المتراس جيتة وذهابا كالاغمى ولم يستطع
ان يفك قنبلة ، فقفز اخيرا الى الخندق ، وركض ضاربا الطين للزج
بكتفيه ، متعثرا ، صارخا بملء فيه ... وراى وجها ابيض كالقناع
لرجل منضغط على تجويف في جدار الخندق ، فامسك الرجل من
كتفيه ، وكان الرجل لايفتا يهدر وكأنه في النوم ...

- اسكت ، ايها الشيطان ، لن اصمك بسوء .

صرخ تليغين في الوجه الابيض كالقناع ، وهو يكاد يبكي ،
وركض ، قافزا فوق الجثث . الا ان المعركة كانت تقترب من
نهايتها . وطلع حشد من الناس الرماديين منسلين من الخنادق الى
الحقل بعد ان القوا بنادقهم ، قذفوهم بكرنافات البنادق . وكان

الرشاش ما يزال يلعلع في وكره المسقوف على بعد زهاء اربعين خطوة ، مصوباً ناره الى معبر النهر . شق ايفان ايليتش طريقه بين المتطوعين والاسرى ، وصاح :

- ماذا تنتظرون ، ماذا تنتظرون ؟ اين زوبتسوف ؟

- انا هنا ...

- ماذا تنتظر ، ايها الشيطان اللعين ؟

- وكيف استطع ان اصل اليه ؟

وركضا .

- قف ! .. هذا هو ! ..

كان ممر ضيق في الخندق يؤدي الى وكر الرشاش . ركض تليفين فيه طاوياً جذعه ، وقفز الى مخبأ كان كل شيء فيه يرتج في الظلمة من الذبذبة التي لا تطاق ، وقبض على شخص من مرفقيه ، وجره واذا بالسكون يسود . ولم يبق الا فحيح الرجل الذي جره من وراء الرشاش ، وهو يقاوم .

- الوغد ، انه يمانع ... اسمح لي .

تمتم زوبتسوف بذلك من الخلف ، واشنع ذلك في الحال بثلاث ضربات بكرنافة البندقية على جمجمة النمساوي فارتجف هذا ، وتوجع ، ثم همد ... تركه تليفين وخرج من المخبأ . صاح زوبتسوف في اثره :

- يا حضرة الضابط ، انه موقق .

وبعد قليل ازاح الظلام تماماً . وظهرت على الطين الاصفر بقع وخطوط دم ، وتناثرت جلود مسلوخة من عجل ، وعلب تنك ، ومقال ، بينهما جثث آدمية متكوراة كالزكائب . وكان المتطوعون المنهكون الخاملون ، منهم من انطرح ارضا ، ومنهم من كان يأكل من معلبات ، ومنهم من كان ينيش في الحجاب التي رماها النمساويون .

وكان الاسرى قد سبقوا منذ وقت طويل الى ما وراء النهر . وقد عبر الفوج النهر ، واحتل مواقعه ، وكانت المدفعية تصف خطوط النمساويين الثانية ، فكان هؤلاء يردون عليها بنار ضعيفة . تماقت رذاذ ، وانفثع الضباب . وضع ايفان ايليتش مرفقه على حافة الخندق ، وحلق في العقل الذي ركضوا فيه ليلاً . انه حقل

كسائر الحقول ، بني التربة ، رطب تناثرت فيه هنا وهناك قطع من الاسلاك الشائكة ، وآثار سوداء لارض محفورة ، وبعض جثث المتطوعين . والنهر قريب جدا ، ولا وجود للاشجار التي تصورها بالامس جبارة ، ولا لاجمات مخيفسة . ولكن ما اكثر الجهود التي بذلت لتقطع هذه الخطوات الثلثائة !

استمر النمساويون في تراجعهم ، واحتقمتهم الوحدات الروسية حتى الليل دون ان تنال قسما من الراحة . وأمر تليفين بان يحتل مع متطوعيه غابة صغيرة كانت تترامى مزقة على قمة تل ، وقد احتلها عند المساء بعد فترة قصيرة من التراسق بالنيران . وتخذلوا على عجل ، ونصبوا نقاط حراسة ، واقاموا اتصالا تلفونيا مع وحدتهم ، واكلوا ما كان في حقائبهم من طعام ، وغفا الكثيرون تحت الرذاذ وفي الظلام حيث تتصاعد رائحة تفسخ اوراق الاشجار في الغابة ، رغم ان الامر قد صدر لهم بالاستمرار في اطلاق النار طول الليل .

اتعد تليفين قرمة ، واتكأ على جذع شجرة ناعمة مما علق بها من طلعب . وكانت بين الحين والآخر تسقط قطرة وراء ياقته ، وكان ذلك شيئا طيبا ، لانه كان يمنعه من الغفو . وكان اللغظ الصباحي قد انقضى منذ وقت طويل ، وزال حتى ذلك الاعياء الرهيب عندما أمروا بالسير زهاء عشرة فراسخ على الجذامات المنتفخة من المطر ، وتخطى الاسيجة والسواتي ، حين صارت الاقدام المتخشبة تتخبط حيثما اتفق ، والرؤوس متورمة من الالم .

سمع شخص يسير على الارواق المتساقطة ، وصوت زوبتسوف يقول بخفوت :

- اتريد بقسماطة ؟

- شكرا .

تناول ايفان ايليتش بقسماطة منه ، واخذ بعضها . كانت حلوة فذابت في فمه . فرقص زوبتسوف على مقربة منه :

- اسمح لي بالتدخين ؟

- شرط ان تكون حذرا .

- عندي غليون .

- زوبتسوف ، ما كان لك ان تقتله ، ها ؟

فلتبحث عنه . ان من اطلق هذه الحرب ، هو الذي سيتحمل وزرها . . . وسيحاسب عن هذه الامور بشدة . . .
 زن في الغابة صوت اطلاقه حاد . وجفل تليفين وصدرت عدة اطلاقات اخرى من الجانب الآخر .
 وكان الامر يبدو اشد غرابة لان العدو لم يكن على احتكاك معهم منذ المساء . هرع تليفين الى التلفون . اخرج جندي التلفون رأسه من الحفرة .
 - الجهاز لا يعمل ، يا حضرة الضابط .

والآن راحت الطلقات تترد تترى في الغابة كلها وترطم الرصاصات في الاغصان . تراجمت النقاط الامامية واخذت ترد على النار وظهر المتطوع كليوف قرب تليفين ، وقال بصوت وحشي غريب : «انهم يطرقونا ، يا حضرة الضابط» وقبض على وجهه ، وجلس على الارض ، ثم انطرح عليها . وصرخ شخص آخر في الظلام :

- يا اخوان ، انا موت .

لمح تليفين بين جذوع الاشجار قامات المتطوعين الفارعة الساكنة . وكانوا جميعا يتجهون بابصارهم اليه وقد احس بذلك . امر بان ينسلوا كل واحد على حدة الى شمال الغابة ، الجهة التي لم تطوق بعد ، في اغلب الاحتمال . وسيمبق هو يقاوم هنا ، في الخنادق مع من يريد ان يبقى ، قدر ما تمكن المقاومة .

- المطلوب خمسة اشخاص ، فمن يرغب ؟

خرج من الاشجار زوبتسوف ، وسوسوف ، والشباب كولوف ، واتجهوا نحوه . التفت زوبتسوف وصاح :

- بقي اثنان ! ربايكين ، تعال .

- حسنا ، يمكنني . . .

- الخامس ، الخامس .

نهض من الارض جندي قصير القامة يرتدى فروة خروف وقبعة شعناء :

- ربما انا ايضا .

واستلقى الستة وبين الواحد والآخر زهاء عشرين خطوة ، وراحوا يطلقون النار . واختفت الاشباح وراء الاشجار . افرغ ايفان

- من ؟ جندي الرشاش ؟
 - نعم .
 - بالطبع .
 - اتريد ان تمام ؟
 - لا يهم . يمكن بدون ذلك .
 - هزني ، اذا غفوت .

كانت القطرات تتساقط ببطء على الاوراق المتفسخة وعلى يده ، وعلى سطح قبعته . كانت هذه القطرات بعد الضجيج والصيحات ، واللغط المقر ، بعد قتل جندي الرشاش تتساقط مثل كرات زجاجية صغيرة . تتساقط في الظلام ، في اعماق الغابة ، حيث تتصاعد رائحة الاوراق المتفسخة . وكان الحفيف يدود النوم عن عينيه المنطقتين . . . لا ، لا يجوز . . . لا يجوز . . . وفتح ايفان ايليتش بقوة عينيه المنطقتين ، ورأى خطوط الاغصان غير الواضحة ، وكانها خطوط مرسومة بغم . . . ولكن من الحق ايضا الاستمرار باطلاق النار طوال الليل . . . دعوا المتطوعين ينالون شيئا من راحة . . . ثمانية قتلى ، واحد عشر جريحا . . . طبعاً يجب ان يكون الانسان حذرا في الحرب . . . آه ، داشا ، داشا .
 والقطرات الزجاجية تستميع السكنينة في النفس ، وتواسي . . .

- ايفان ايليتش ! . . .

- نعم ، نعم ، زوبتسوف ، لست نائما . . .

- اليس من الخطا قتل الانسان ؟ . . . اغلب الظن ان له بيتا ،

وعائلة مها تكن ، بينما غرزت الحرب فيه ، وكانها اغرزها في دمية انسان وقضى الامر . عندما قضيت لأول مرة في حياتي على انسان ، لم استطع ان ادقق الطعام ، فقد شعرت بالغثيان . . . اما الان فانا اقضى على العاشر او التاسع . . . شيء رهيب ها ؟ فهل هناك شخص يتحمل الخطيئة ؟

- اية خطيئة ؟

- خطيئتي مثلا . اقول ، ان شخصا يتحمل خطيئتي - جنرالا

او شخصا آخر في بطرسبورغ يتصرف بكل هذه الامور . . .

- واية خطيئة لك ، اذا كنت تدافع عن وطنك ؟

- وليكن . . . ولكن يبدو ان هناك من يتحمل الذنب .

إيليتش يضع غلب من الخراطيش وفجأة تراهي له بوضوح بالغ كيف ان الرجال ذوى المعاطف الزرق سيقبلون في صباح الغد جثته المكشرة على ظهرها ، وبأخوذون بتفتيشه ، وتمشد يد قذرة ورا ، القمص .

وضع بندقيته ، وحفر في الارض الرطبة ، واخرج رسائل داشا ، وقبلها ، ووضعها في العفرة التي حفرها ، وطمرها ، وفرش فوقها اوراقا متفسخة . وفجأة سمع صوت سوسوف الى يساره : «اوى ، اوى ، يا اخوان !» لقد بقيت علبتان من الخراطيش .

زحف ايفان ايليتش نحو سوسوف المطرق براسه واستلقى الى جانبه ، وتناول علبتين من حقيبته . والان لم يبق احد يطلق النار غير تليفين وشخص آخر الى يمينه واخرا انتهت الخراطيش . انتظر ايفان ايليتش ، ونظر فيما حوله ، ونهض ، واخذ ينادى على اسماء المتطوعين . ولم يرد على نداؤه الا اسم واحد ، وتقدم كولوف منه معتمدا على بندقيته . سال ايفان ايليتش :

— هل عندك خراطيش ؟

— لا .

— والآخرون لا يردون ؟

— لا ، لا .

— حسنا ، لنذهب . اركض .

لقى كولوف بندقيته على ظهره ، وركض متخفيا ورا ، الاشجار . اما تليفين ، فما ان خطا عشر خطوات حتى احس بوخزة اصعب حديدية كليلية على كتفه من الخلف .

١٧

وتبين انها عتيقة بالية كل التصورات التي تصور الحرب هجرما جريئا للفرسان ومسيرات غير عادية ، وماقر بطولية للجنود والضباط .

ان الهجوم الشهير لحرس الفرسان ، حين اجتازت ثلاث سرايا

مترجلة ، حواجز الاسلاك الشائكة دون ان تطلق رصاصة واحدة ، وعلى راسها آمر الفوج الامير دولغوروكوف الذي كان يتخطى تحت نيران الرشاشات والسيغار في فمه ، ولسانه يرسل الشتائم باللغة الفرنسية كالعادة ، ان هذا الهجوم قد ادى الى ان يفقد حرس الفرسان نصف عدده ما بين قتييل وجريح ، ليستولى على مدفعين ثقيلين تبين انهما قد عطلا بسبب قدمهما ، وانهما كانا محميين برشاش واحد فقط .

وقد قال ضابط سرية قوزاقية في هذا الصدد : «لو وكل الامر الى لاستوليت على هذه النفاية بعشرة من القوزاق» .

واتضح من الشهور الاولى ان لا فائدة من شجاعة الجندي السابق ، اي الرجل البطولي الضخم ذي الشاربين الذي يجيد العدو على الفرس وقلق الهام بالسيف دون ان يهاب الرصاص . فقد صزار التكتيك وتنظيم المؤخرة بحلان الصدارة في الحرب . وطلب من الجنود ان يموتوا بصلابة وطاعة في الاماكن المحددة على الخريطة . ونشأت الحاجة الى عساكر مقتدرين على الاختفاء ، والتخندق في الارض ، والتلاشي مع لون العبار . ونسخت كليا القواعد العاطفية التي وضعها مؤتمر لاهاي حول ما يجوز وما لا يجوز في القتل . وتشتتت مع هذه الورقة الممزقة بقايا الاصول الخلقية التي لم تعد لاحد حاجة اليها .

وهكذا فان الحرب قامت ، خلال بضعة شهور ، بعمل قرن كامل . وحتى ذلك الحين كان الكثيرون ما يزالون يعتقدون بان الحياة الانسانية تحكمها قوانين الخير السامية . وان الخير منتصر على الشر في آخر المطاف لا محالة وستبلغ الانسانية الكمال . ولكن لقد كان ذلك من بقايا القرون الوسطى التي اوهنت الارادة ، واعاقت سير الحضارة . والآن ، اصبح واضحا حتى للمثاليين الراسخين في المثالية ان الخير والشر همسا مفهومان فلسفيان محض ، وان العبقرية الانسانية قد دخلت في خدمة سيد خبيث . . .

لقد كان ذلك زمنا اوجح فيه حتى للاطفال الصغار ان القتل والتدمير والقضاء على امم بكاملها هي افعال شجاعة مقدسة . وكانت الصحف بملايين النسخ تردد ذلك يوميا وتزعم به وتدعوا اليه . وكان خبراء خصوصيون يتبنون كل صباح بنتائج المعارك . وكانت

الصحف تنشر تنبؤات المثبتة الشهيرة مدام تيب . وظهر العديد من العرافات والعرافين والمنجمين والعارفين بالغيب . وتقصت البضائع ، وارتفعت الاسعار ، وتوقف تصدير الخامات من روسيا . وكانت ثلاثة موانئ في الشمال والشرق - وهي المنافذ الوحيدة الباقية لبلداد المغلقة والمنعزلة انزاعا تاما - لا تستقبل غير القذائف واسلحة الحرب . واهملت زراعة الحبوب . وشاعت الملياتر من العملة الورقية في الريف حتى صار الفلاحون يبيعون القمح بلا رغبة .

في المؤتمر السرى المنعقد في استوكهولم لاعضاء العصبة الصوفية السرية لانصار «الحكمة الانسانية» قال مؤسس هذه الجماعة ان الصراع الرهيب الذى يجرى في الاجزاء العليا قد انتقل الى الارض الآن ، وستحدث كارثة عالمية ، وستكون روسيا ضحية للتكفير عن الاوزار . وبالفعل كانت جميع الافكار العقلانية تفرق في اقيانوس من الدم يغمر خط الجبهة الهائل الممتد ثلاثة آلاف فرسخ والذي يطوق اوربا . وما من عقل كان قادرا على ان يوضح لماذا تدمر الانسانية نفسها في عناد بالحديد والديناميت والمعاجة . ان دماغى متقيحة تعود الى الزمن الغابر كانت تنفجر . كان الجميع يعانى تركة الماضى ، ولكن حتى هذا لم يكن ليوضح شيئا . وبدأت المجاعة في اقطار . وتوقفت الحياة في كل مكان . واخذت الحرب تبدو الفصل الاول فقط من تراجميدا .

وامام هذا المشهد كان الفرد الذى اعتُبر الى فترة وجيزة «عالما صغيرا» وشخصا متضخما ، كان كل فرد يتضائل ويتحول الى ذرة غبار لا حول لها . وخرجت الجماهير البدائية الى اضواء المسرح التراجييدي لتحل محلها .

وكان حظ النساء اقل حظوظ . لقد كانت كل واحدة منهن وفق ما خضت به من جمال وسحر وذكاء ، قد نسجت لنفسها شبكة عنكبوتية من خيوط دقيقة متينة بما فيه الكفاية بالنسبة للحياة الاعتيادية . وكان كل من كتب له ان يسقط فيها يطن طئينا مسلما على اية حال .

الا ان هذه الحرب قد هتكت هذه الشبكات ايضا . وكان من المستحيل حتى التفكير في نسجها من جديد في ذلك الزمن القاسى .

فلا بد من انتظار ازمان افضل . فظلت النساء ينتظرن بصبر ، وكان الزمن ينقضى ، واعوام النساء المعدودة تضى قاحلة حزينة . اصبح الأزواج والعشاق والاخوان والابناء - الذين صاروا الآن مجرد ارقام ، وحدات تجريدية محض - يرددون تحت حداث ترابية على الحقول على مشارف الغابات ، وعند الطرق . وكان من المستحيل على اية جهود ان تزيل الغضون الجديدة المتزايدة من وجوه النساء الشائخة قبل الاوان .

١٨

- قلت لأخي : انك جامد العقيدة . انا اكره الاشتراكيين الديموقراطيين ، سيتعذب الشخص في حكمكم ، اذا زل في كلامه . انت انسان نجمى . عندئذ طردني من البيت . وما انا في موسكو بلا نقود . انها لقضية مسلية جدا . ارجوك ، يا داريا دميتريفنا ان تطلبى الى نيقولاى ايفانوفيتش ان يجد لي عملا . وسيان عندي اى عمل ، وافضل كل شئ ، بالطبع ، ان يكون في قطار الاسعاف .

- حسنا ، ساقول له .
- ليس لي احد من المعارف هنا . هل تذكرين «مجمعنا المركزى ؟ يقولون ان فاسيل فينياهينوفيتش قالت قدرحل الى مكان ما ، يبدو في الصين . . . سابوجكوف في مكان ما في الجبهة ، وجيروف في القفقاس يحاضر عن المستقبلية . وانا لا اعرف اين تليغين . يبدو انك كنت من معارفه المقربين ؟

سارت يلزافينا كييفنا واداشا ببطه في شارع جانبي بين اكوام الثلج العالية . وكان الثلج يتساقط ندفا صغيرة ، ويهس تحت الاقدام . اخرج سائق زلاجة واطنة حذاءه اللبأدى المتصلب من مقعده ، ومر في عذر بطى . وقال :

- اوانس ، خذار من السحق !
في ذلك الشتاء تساقط الثلج بوفرة كبيرة . وكانت اغصان الزيزفون في ذلك الشارع تتدلى وهى مغطاة بالثلج . وكانت السماء البيضاء الثلجية بكاملها حافلة بالطيور . وكانت غرابان الكنيسة تطير فوق المدينة تابعة وباسراب متناثرة ، وتحط على الابراج والقباب ، وتعلق في العلو الزمهريرى .

توقفت داشا عند منعطف ، وعدلت لفاعها الابيض . وكان معطفها من جلد عجل البحر وموفة اليدين الفرائية قد تغطيا بالثلج . وكان وجهها قد اصابه نحول ، وعينها قد اتسعتا وازدادتا صرامة . قالت :

- ايفان ايليتش مفقود . وانا لا اعرف شيئا عنه .

ورفعت داشا عينها ، ونظرت الى الطيور . لا بد ان الغربان كانت جائعة في المدينة المسكوة بالثلج .

وقفت يلزافيتا كييفنا وعلى شفيتها الحرابين جدا ابتساماة متجمدة ، واطرقت براسها المعتمر بقبعة الازنية . وكانت ترتدى معطفا رجاليا ضيقا عليها عند التهدين ، ذا ياقة فرائية مفرطة في عرضها ، وكمين قصيرين لا يغطيان يديها المحمرتين . وكانت بعض ندف الثلج تذوب على رقبتها المصفرة قليلا .

قالت داشا :

- سناحدث هذا اليوم مع نيقولاي ايفانوفيتش .

- انا اقبل باى عمل - قالت يلزافيتا كييفنا ، ونظرت الى قدميها ، وهزت راسها - لقد احببت ايفان ايليتش حبا شديدا ، حبا شديدا جدا - وضحت ، واغرقت بالدموع عينها التصيرتا النظر - اذن ، ستاى غدا . الى اللقاء .

ودعت ، وانصرفت تخطو خطوات عراضا بعذائها اللبدي ، حاشرة يديها المتجمدتين في جيبها كما يفعل الرجال .

نظرت داشا في اثرها ، ثم قطبت حاجبيها ، واستدارت في المنعطف ، ودخلت الفيلا الذى تستخدم الآن مستشفى عسكريا للمدينة . هنا ، في غرف الفيلا العالية السقوف ، المغطاة بخشب البلوط ، الفواعة برائحة اليود كان الجرحى الحليقو الروس منظر حزين على اسرة او قاعدتين ، وقد ارتدوا ثياب المستشفى . وكان اثنان يلعبان الداما عند النافذة . وكان شخص آخر يذرع الغرفة من ركن الى ركن وهو يمس الارض بنعليه مسا رقيقا . وحين ظهرت داشا التي عليها نظرة سريعة وغضن جبينه المنخفض ، واستلقى على سريره ملقيا يديه وراء راسه .

نادى صوت واهن :

- يا ممرضة !

اقتربت داشا من شباب ضخم منتفخ ذى شفيتين سميكتين . فقال هذا متاوها بعد كل كلمة :

- اديرنى على الجنب اليسر ، بحق المسيح .

امسكته داشا ، ورفعته بكل قوتها ، وقلته كالزكية .

- حان وقت قياس حرارتى ، يا ممرضة .

نفضت داشا معرازا ، وحشرته تحت ابطه .

- انا اتقيا ، يا ممرضة . ما ان اكل كسرة خبز حتى افرغ كل

شئ . كل هذا فوق طاقتى .

غطته داشا ببطانية ، وانصرفت عنه . لاحت ابتسامات على وجوه المرضى في الاسرة المجاورة ، وقال احدهم :

- انه يتظاهر من اجلك ، والا فهو معافى كالرول .

وقال صوت آخر :

- اتركوه يضطرب فهو لا يؤذى احدا . انه شغل للممرضة

ومتعة له .

- يا ممرضة ، هذا سيمين يريد ان يسالك عن شئ ولكنه

يستحي .

تقدمت داشا من رجل كان قاعدا على سريره له عينان مرحتان مستديرتان كعيون الغربان ، وفم صغير كفم الدب . وقد مشط لحيته الضخمة المستديرة كالمروحة . رفع لحيته ، ومط شفثيه باتجاه داشا .

- انهم يضحكون ، يا ممرضة . انا مرتاح من كل شئ ، ممتن

تماما .

ابتسمت داشا . ووايل قلبها الثقل الذى كان يحتم عليه قبل حين . جلست على حافة سرير سيمين . طوت كتم الجريح ، واخذت تعانين ضمادته . فراح هذا يصف لها مواضع الالم فيه بالتفصيل .

كانت داشا قد وصلت الى موسكو في تشرين الاول ، حين دخل نيقولاي ايفانوفيتش في فرع موسكو من الاتحاد البلدى للدفاع محولا بدوافع وطنية . وقد اعطى شقته في بطرسبورغ الى انجليز من البعثة العسكرية ، وعاش مع داشا في موسكو حياة بسيطة ، فكان يرتدى سترة من السموا ، ويشتم المثقفين الناعمين ، ويعمل كالحصان ، على حد تعبيره .

وكانت داشا تدرس القانون الجزائي ، وتقوم بثؤون المنزل الصغير ، وتكتب لابسان ايليتش كل يوم . وكانت مطمئنة النفس مستورة . وبدا الماضي بعيدا وكانه يعود الى حياة شخص آخر . كانت وكأنها تعيش بنصف وجودها مفعمة بالقلق وانتظار الاخبار ، والحرص على ان تحفظ نفسها لابان ايليتش في مطهرة وصرامة .

في بداية تشرين الثاني ، وبينما كانت داشا تقلب صحيفة «الكلمة الروسية» وهي تحتسي قهوتها رأت اسم تليغين في قائمة المفقودين . كانت القائمة تشغل عمودين بنبط صغير . مرت داشا على اسماء الجرحى ، واسماء القتلى ، ورات اسم تليغين الملازم الثاني في آخر قائمة المفقودين .

وهكذا كان النيبا الذي سوّد كل حياتها لا يشغل الا سطرًا واحدًا من البنط الصغير .

وشعرت داشا بان كل هذه الحروف الصغيرة ، والسطور الجافة ، والاعمدة والعناوين تمتلئ بالدم . كانت هذه لحظة من الرعب لا توصف ، فقد تحولت صفحة الجريدة الى الشيء الذي كانت تكتب عنه ، الى كتلة شريرة دامية تفوح بالموث ، وتزار باصوات خفية . هزّت القشعريرة داشا . وحتى يأسها غرق في هذا الرعب الحيواني والغثاس . انطرح على الاربكة ، وغطت نفسها في معطفها . جاء نيقولاي ايفانوفيتش عند الغداء ، وجلس عند قدمي داشا ، ومسد عليهما صامتًا ، قائلاً :

- انتظري ، يا داشا ، المهم ان تنتظري . انه مفقود ، والظاهر انه وقع في الاسر . وانا اعرف الف حالة مشابهة .

وفي الليل رأت في حلمها رجلا في قميص جندي جالسا على سرير حديدي في حجرة فارغة ضيقة يغطي نافذتها نسيج العنكبوت والغبار . وكان وجهه الرمادي يتلوى من الالم . وكان يشد على جميعته الصلعاء بكلتا يديه ، ويقشرها وكأنها بيضة ، ويأخذ ما تحت القشرة ويأكله ، داسا اصابعه في فمه .

صرخت داشا في الليل صرخة جعلت نيقولاي ايفانوفيتش يجد نفسه عند سريره مغطى ببطانية ، وقضى وقتًا طويلا قبل ان يقنعها على ان تقول ما حصل . ثم وضع قطرات الناردين في قذح ، وقدمه لتشربها داشا ، وشرب هو ايضا .

كانت داشا ، وهي جالسة على سريرها ، تدق صدرها باصابعها المضمومة ، وتقول بخفوت ويأس :

- لا استطيع ان اعيش بعد الآن . افهمني ، يا نيقولاي ، لا استطيع ، ولا اريد .

كان من الصعب جدا ان تعيش بعد ما حدث ، ومن المستحيل ان تعيش كما كان تعيش قبل هذا .

مست الحرب داشا باصبعها الحديدية لا غير ، والآن صار كل الموت وكل الدموع من نصيبها . وحين مرّت الايام الاولى من اليأس العاد اتخذت داشا الشيء الوحيد الذي تستطيع ان تفعله : اجتازت الدورة المستعجلة للممرضات ، واشتغلت في مستشفى عسكري .

في بادئ الامر واجهت صعوبة كبيرة . فقد كان يأتي من الجبهة جرحى لم يفغروا ضماداتهم اياما عديدة ، وكانت ضمادات الشماش ترسل رائحة كريهة تبعث الدوار في الممرضات . واثناء العمليات كان على داشا ان تمسك بالارجل والايدي المسودة التي كان يتساقط من جراحها قطع متخثرة من الدم والقيح ، وعرفت كيف يكرّ الرجال الاقوياء على اسنانهم ، وترتمش اجسامهم عاجزة عن تحمل الالم .

وكانت تلك العذابات من الكثرة بحيث لم تكن تكفيها كل الرحمة الموجودة في هذه الدنيا لتشفق عليها . بدا لداشا انها قد ارتبطت الى الابد بهذه الحياة المشوهة المدعاة ، ولا حياة اخرى غيرها . كانت طلييلة الصباح الخضراء تشتمل في حجرة الخفارة الليلية ، وترتمي من وراء الجدار تمشة شخص في هذيانه . وكانت القوارير تصطك على الرف حين تمر سيارة في الشارع . ويصبح هذا الانسحاق جزءا من الحياة الحقيقية .

وكانت داشا تسترجع الماضي ، وهي جالسة الى المنضدة في حجرة الخفارة ليلا ، فيلوح لها كالحلم في وضح متزايد . لقد عاشت ، كما عاش الجميع ، مفتونة بنفسها ، متعالية . واذا بها تجد نفسها تهبط من السحب لتسقط في الدم ، في الوحل ، في هذا المستشفى العسكري ، حيث رائحة الجسد اللعليل وحيث يثن الناس في نومهم انينا ثقيلا ، ويهدرون ويشتمون . وها هو الجندي التتري يحترق ، وبعد عشر دقائق سيبتعين عليها ان تذهب الية وتحقنه بالمورفين .

أقلق داشا لقاؤها اليوم مع يلزافيتا كييفنا . كان اليوم متعبا ، فقد جلبوا من غاليسيا جرحى متخمين ، حتى اضطرروا الى قطع كف احدهم من الرسغ ويتر ذراع آخر من الكتف ، وكان اثنان منهم يهدبان هذيان الاحتضار . وقد تعبت خلال اليوم ، ومع ذلك فقد ظلت ايلزافيتا كييفنا عالقة في ذهنها بيديها المحمرتين ، ومعطفها الرجالي ، والايستامه البانسة ، والعينين الوديعتين .

جلست داشا في السماء لتستريح ، وحدقت في الظليلة الخضراء ، وفكرت في ان تكون تلك المقدرة على البكاء في منعطف الطريق ، وعلى القول لشخص غريب : «احببت ايفان ايليتش حبا شديدا ، حبا شديدا جدا ...»

قعدت داشا على مقعد كبير مائلة الى جنب تارة ، وضامة رجلها تارة اخرى ، وفتحت كتابا - هو تقرير عن «نشاط الاتحاد البلدي» خلال ثلاثة اشهر - اعمدت من الارقام والكلمات غير المفهومة كليا ، ولكنها لم تجد في الكتاب سلوى . نظرت الى الساعة وتهدت ثم مضت الى غرفة الجرحى .

كان الجرحى نائمين ، والهواء خانقا . وكان مصباح شاحب الضوء موضوع داخل طوق التريا الحديدي ، يشتعل على ارتفاع عال تحت السقف البلوطي . وكان الجندي التتري الشاب الذي يترت ذراعه يهدى مقلبا راسه الحليق على الوسادة . رفعت داشا قارورة الثلج من الارض ، ووضعتها على جبينه الملتهب ، وعدلت بطانيته . ثم طافت على الاسرة كلها وجلست على مقعد منخفض ، طاوية يديها على ركبتيها .

وقالت لنفسها «ان قلبي غير متزن . تعلم فقط ان يحب الرشيق والجميل . ولم يتعلم ان يشفق ويحب ما لا يحب» . وسمعت صوتا رقيقا يقول : اتريدين ان تنامي يا ممرضة ؟ فالتفتت . كان سيمين ذو اللحية ينظر اليها من سريره .

سألته داشا :

- لماذا غير نائم ؟

- نمت في النهار .

- هل توجعك يدك ؟

- هدأت ... يا ممرضة .

- نعم ؟

- ان وجهك يبدو صغيرا . العلك تريدين النوم ؟ اذهبي لتأخذى غفوة ! وسأراقب انا ، وادعوك اذا دعت الحاجة .

- لا ، لا اريد النوم .

- هل لديك اقارب في الجبهة ؟

- خطيبى .

- يحفظه الله .

- انه مفقود .

- آى ، آى - وهز سيمين لحيته ، وتآوه - اخى الصغير كان مفقودا ، وبعد ذلك تلقينا رسالة منه . انه اسير . وهل خطيبك رجل طيب ؟

- طيب جدا جدا .

- ربنا سمعت به . ما اسمه ؟

- ايفان ايليتش تليفين .

- سمعت . انتظري على مهلك . لقد سمعت انه وقع في الاسر . في اى فوج ؟

- فوج قازانسكى .

- انه بالذات اسير ، وحى يرزق . انه انسان طيب ! لا باس ، يا ممرضة ، ما عليك الا ان تنتظري . ستنتهى الحرب مع اقتراب الربيع . ستصالح . ستلدين له ابناء . تقى بى .

استمعت داشا اليه ، والدموع في حلقومها . وكانت تعرف ان سيمين يلقى كل شىء ، وهو لا يعرف ايفان ايليتش . ومع ذلك كانت مهتمة له . قال سيمين بصوت خفيض .

- آه ، يا مسكينتى ...

ولما عادت الى حجرة الخفازة ، وجلست على المقعد واضيعة وجهها على ظهره . احست وكانهم قد قبلوها معهم في ود ، وهى الغربية ، قائلين لها : ابقى معنا . وبدا لها انها الآن تشمل بحنانها كل الجرحى والنائمين . ومع حنانها وتصوراتها تغلغت فجأة وبوضوح شديد ان ايفان ايليتش هو ايضا ينام ويتنفس مثل هؤلاء على سرير ضيق في مكان ما ...

اخذت داشا تروح وتجيء في الحجرة . وفجأة رن التليفون وبعت

في جسمها رعدة قوية . فقد كان رنينه حادا جدا وغليظا في السكون الغافي . لا يدا انهم جليبا جرحى آخرين في القطار الليلي .
- نعم .

ردت داشا ، فسمعت في السماعرة صوتنا نسائيا رقيقا متفعلا :
- اريد ان اكلم داريا دميترييفنا بولافينا .

- هذه انا -ردت داشا ، وخفق قلبها خفقانا شديدا - من انت ؟ كاتيا ؟ كاتيوشا ؟ اهذه انت ؟ ... عزيزتي ! .

١٩

- ها نحن سويرة من جديد ، يا قتيات - قال نيقولاى ايفانوفيتش ، ساحبا سترته السماوا على بطنه وامسك حنك يكاترينا دميترييفنا ، وقبلها من خدها قبلة رنانة قائلا : - صباح الخير ، يا حلوة ، كيف نمت ؟

ومر بداشا جالسة على مقعدها ، وقبلها من شعرها .
- انا وهى الآن على اسم وفاق ، يا كاتيوشا . انها فتاة رائعة ، محبة للعمل .

وجلس الى المائدة المغطاة بمفرش ناصع البياض ، وقرب منه كأس البيضة الصينية التى وضعت فيها بيضة ، واخذ يكسر رأسها .

- تصورى ، يا كاتيوشا ، اننى احببت البيض على الطريقة الانجليزية مع الخردل والزبدة ، فانه لذيذ جدا . انصحك بان تجربيه . اما فى المانيا فيعطون لكل فرد بيضة واحدة مرتين فى الشهر ، فما رأيك فى ذلك ؟

وفتح فمه الواسع ، وضحك .
- ان هذه البيضة ذاتها ستسبب الخراب لالمانيا . يقولون ان الاطفال اخذوا يلدون عندهم بلا جلود . كان بسمارك يقول لهؤلاء الحمقى يجب ان يعيشوا مع روسيا فى سلام . ولم يصفوا ،

واجتقرونا . والآن تفضلوا ، بيضتان فى الشهر .
لشاه تفتا

قالت يكاترينا دميترييفنا ، وهى تخفض رأسها :

- انه لشيء مريع ان يولد الاطفال بلا جلود ، مريع اينما ولد هؤلاء الاطفال ، سواء عندنا او عند الالمان .

- اعذرني ، يا كاتيوشا ، انت تتكلمين سخافة .
- انا اعرف فقط ان من الفظاعة ان يقتل الناس كل يوم ، فظاعة مريعة تسلبك الرغبة فى ان تستمر فى العيش .

- وما العمل ، ياعزيزتي ؟ ان المرء يضطر الى ان يفهم من معاناته الخاصة ما هى الدولة . كنا نقرا فقط عند ايلوفايسكى واضرابه من المؤرخين كيف قاتل الفلاحون دفاعا عن اراضيهن فى معارك كوليكوفو * وبورودينو * . وكنا ننظر الى الغارطة ،

ونقول لانفسنا : «آه ، ما اكبر روسيا !» . والآن علينا ان نقدم نسبة معينة من الحيات للحفاظ على سلامة تلك التى تلون فى

الغرائط باللون الاخضر ، وتمتد عبر اوريا كلها وآسيا . انه لشيء مقبض . ساتفق معك اذا قلت ان جهاز الدولة عندنا سيئ . والآن ، حين اخرج لاموت فى سبيل الدولة فانا قبل كل شيء اسأل اولئك الذين يرسلوننى الى الموت : هل انتم ذوو القوة القاهرة لحكمة الدولة .

وهل استطيع ان اريق دمي بارتياح فى سبيل الوطن ؟ نعم ، ياكاتيوشا ، ما تزال الحكومة على عاداتها القديمة فى النظر شزرا الى المنظمات الاجتماعية . ولكن اضحي واضحا انها لا تستطيع الآن

الاستغناء عنا ايدا . نحن نتدخل شيئا فشيئا فى شؤون الدولة . انا متفائل جدا .
ونفض نيقولاى ايفانوفيتش ، وتناول علبة كبريت من رف

* معركة كوليكوفو (عام ١٢٨٠) معركة تاريخية انتصرت فيها القوات الروسية بقيادة الامير دميتري دونسكوى على جحافل التتار تحت قيادة خان ماماي انتصارا عظيما (التهتمج) .

** معركة بورودينو (عام ١٨١٢) من اعظم معارك الحرب الوطنية الروسية بين القوات الروسية تحت قيادة ميخائيل كوتوزوف والقسوات الفرنسية بقيادة نابوليون الاول . وقد وقعت فى ضواحي موسكو واصبحت

انعطافا فى سير الحرب لصالح القوات الروسية وحددت حتمية هزيمة جيش نابوليون . (التهتمج) .

قشرة البيضه . وتابع كلامه قائلا : لن يذهب الدم المراق جزافا .
الموقد ، واشعل سيكارته واقفا ، والتي عود الثقب المنطقي في
وستنتهي الحرب بان يقف وراء دفة الدولة اخونا ، رجل المجتمع ،
ستفعل الحرب ما اخفقت عن فعله جماعته « الارض والارادة » ،
والثوريون والماركسيون . مع السلامة ، يا فتيات .

وعدّل سترته ، وخرج ، وبدا من ظهره مثل امرأة بدينه
متنكرة بلباس رجالي .

تهنأت يكاترينا دميتريفنا ، وجلست عند النافذة مع
حياتها . وجلست داشا الى جانبها على ذراع المقعد ، وطوقت كفتي
اختها . كانت كلتاهما في ثوب اسود عالي الرقبة ، انهما الآن في
جلستهما الصامتة الهادئة هذه متشابهتان جدا . كانت ندف الثلج
الصغيرة تتساقط ببطء وراء النافذة ، وكان الضوء الثلجي الضافي
ينعكس على جدران الغرفة . ضغطت داشا ببغدها على شعر كاتيا
المعطر قليلا بعطر غير مألوف لها .

— كاتيوشا ، كيف قضيت تلك المدة ؟ انك لا تحدثيني
بشيء .

— وعم احذتك ، يا قبطية ؟ لقد كتبت لك .

— ومع ذلك ، فاننا لا افهم . انك ، يا كاتيوشا ، جميلة
ساحرة ، طيبة . انا لا اعرف امرأة اخرى على غرارك . ولكن لماذا
لا تبدين سعيدة ؟ وعينك دائما حزينتان ؟

— اظن ان قلبي تعيس ؟

— لا ، انا اسألك جادة .

— انا نفسي دائمة التفكير في ذلك ، يا اختي . من المرجح
ان الانسان حين يمتلك كل شيء يشعر بتعاسة حقيقية . ان لي زوجا
طييبا ، واختا محبوبة ، وحرية . . . بينما اعيش وكأنني في سراب ،
واسير كالشبح . . . اتذكر انني قلت لنفسي في باريس : ليتني
اعيش في بلدة صغيرة نائية ، واربي الدواجن ، وازرع الحديقة
بالخضروات ، وفي المساء التقى بصديقي العزيز وراء النهر . . . لا ،
يا داشا ، ان حياتي قد انتهت .

— لا تتفوهي حماقة ، يا كاتيوشا .

نظرت كاتيا الى اختها بعينين فارغتين شابتها دكنة :

— اتعرفين اني اتحسس ذلك اليوم نفسه . واحيانا يتراى لي
بوضوح تلك الفرشة المخططة ، والمفرش المنزلق ، والحوض
المملوء بالصفراء التي تقيتها . . . وانا ارقد ميتة ، صفراء ،
شائخة . . .

وانزلت يكاترينا دميتريفنا طرة الحياكة الصوفية ، وحدقت
في ندف الثلج المتساقطة في السكون الراكد . وفي البعيد ، من
تحت برج الكرملين المستدق ، من تحت النسر الذهبي المقوس
الساقين كانت الغريبان تحوم مثل سحابة من الاوراق السوداء .

— اتذكر ، يا داشا ، انني استيقظت مرة في ساعة مبكرة
جدا من الصباح . وكانت باريس تبدو من الشرفة ملغعة كلها
بدخان مزرق ، ومن كل مكان فيها كانت تتصاعد ادخنة بيضاء
ورمادية وزرقاء . وكان المطر قد هطل اثناء الليل ، وفي الجوارحة
طراوة وغضرة وفانيليا . وفي الشارع سار اطفال يعملون كتب
ونساء مع سلاهن ، وقد فتحت حوانيت الاطعمة ابوابها . وبدا ذلك
ثابتا وسرمديا . وارودتني الرغبة في ان انزل الى الاسفل ، واختلط
بالجمع ، والتقى برجل ذي عيين ودودتين ، واضع يدي على صدره .
ولكن عندما نزلت الى الشوارع العريضة ، كان الجنون قد شمل
المدينة كلها . كان باعثة الصحف يركضون ، وجماعير الناس
المضطربة في كل مكان . والصحف كلها تتشبع برعب وموت
وكراهية . لقد بدأت الحرب . ومنذ ذلك اليوم لم اسمع غير
كلمة .. الموت ، الموت . . . فعلام التعويل بعد كل هذا ؟ . . .

صمتت داشا قليلا ، ونادت :

— كاتيوشا . . .

— ماذا ، يا حبيبتني ؟

— كيف انت مع نيقولاى اينفونوتيتش ؟

— لا اعرف . يبدو ان احدنا صفع للآخر . انظري لقد مرت
ثلاثة ايام ، وهو رقيق جدا معي . لا مكان للحسابات السنائية .
ومن يهتم بالمرأة حتى اذا فقدت عقلها مما تعاني من عذاب ؟ صوتي
كلتين بعوضة ولا اكاد اسمعه . انا احسد العجائز ، فهن يأخذن
كل شيء ببساطة : الموت قريب منهن ، لهذا فهن يتهيان للقائه .
غيرت داشا جلستها على ذراع المقعد ، وزفرت زفرات

عميقة ، وانزلت ذراعها عن كفتي كاتيا ، قالت يكاترينا دميتريفنا بركة :

- عزيزتي داشسا ، لقد اخبرنسى نيقولاى ايفانوفيتش بانك مخطوبة . صحيح ؟ يا عزيزتى المسكينة ! وتناولت يد داشسا ، وقبلتها ، ووضعتها على صدرها ، واخذت تمسدها قائلة : انسا اعتقد بان ايفان ايليتش حى . اذا كنت تحبينه جدا ، فانت فى غير حاجة الى شىء آخر فى الدنيا .

صمتت الشقيقتان مرة اخرى محدثتين فى الثلج المتساقط وراء النافذة . مرت فى الشارع فصيلة من طلاب المدارس العسكرية تتزلق احذيتهم بين اكوام الثلج ، وكان كل واحد منهم يتباطئ ليفة من اغصان البتولا وتبديلة ثياب داخلية . كانوا ذاهبين الى الحمام وكانوا يشهدون نشيدا بمنجرة فقط يتخلله الصفير :

حلقى ، يا سقور ، كالنور

كفانا الحزن والكمد ...

بعد غياب عدة ايام عادت داشسا مرة اخرى الى العمل فى المستشفى العسكرى . وبقيت يكاترينسا دميتريفنا وحدها فى الشقة التى كان كل شىء فيها غريبا عليها : متظران طبيعيان مملان معلقان على الحائط يصوران كومة دريس ، وماء متخلف من ثلج ذائب يتجمع بين اشجار البتولا الجرداء . وفوق الارىكة فى غرفة الطعام صور فوتوغرافية لاناس لا تعرفهم ، وفى الزاوية حزمة من عشب السهب المغرب .

حاولت يكاترينا دميتريفنا ان تذهب الى المسرح ، حيث كان الممثلون القدامى يمثلون مسرحيات لاوستروفسكى ، والى معارض الصور والمتاحف ، الا ان كل ذلك بدا لها شاحبا ناصل الالوان ، نصف ميت ، وبدت هى لعينيهما شحبا يطوف فى عالم هجره جميع الاحياء منذ زمان .

كانت يكاترينا دميتريفنا تقضى ساعات بكاملها جالسة عند النافذة بالقرب من انايبب التدفئة المشعة دفئا ، تنظر الى موسكو الثلجية الهادئة ، حيث كان زنين اجارس الكنائس الحزين يتردد فى الهواء الرقيق ، ومن خلال الثلج المتساقط يلعبن عن صلاة

تذكارية ، او عن جناز لقتيل جلب من الجبهة . كان الكتاب يسقط من يديها . فعمم تقرأ الآن ؟ وبم تحلم ؟ وكم تبدو نافية الآن جميع الاحلام والافكار السالفة !

وكان الوقت يضى ما بين جريدة الصباح وجريدة المساء . وكانت يكاترينا دميتريفنا ترى جميع المحيطين بها يعيشون بالمستقبل وحده ، بايام تخيلية من النصر والسلام . وكان كل ما يعزز هذه التوقعات يستقبل بفرح غامر ، بينما كانت الاخفاقات تسلم الناس الى الكآبة وتنكيس الرؤوس . وكان الناس كالمجانين فى تسقطهم للاشاعات ، ونقف العبارات ، والابناء غير المحتملة ، وفى التهايم بما تنشره الصحف .

واخيرا قررت يكاترينا دميتريفنا ان تتحدث مع زوجها طالبة اليه ان يجد لها عملا . وفى بداية آذار بدأت العمل فى نفس المستشفى الذى كانت داشسا تعمل فيه .

وفى الايام الاولى شعرت بما شعرت به داشسا من نفور من القذارة والغداب . الا انها تغلبت على نفسها ، واستانست بالعمل تدريجيا . وقد بث هذا التغلب على نفسها الفرح فى اعطافها . ولاول مرة احسبت بدنوها من الحياة المحيطة بها . واهبت العمل القذر المتعب ، واشفقت على الذين تعمل لهم . وذات مرة قالت لداشا :

- لماذا قالوا بوجود ان تعيش حياة مصفأة غير اعتيادية ؟ نحن من حيث الجوهر ، امراتان كبقية النساء . وبعاجة الى زوجين اكثر بساطة ، واطفال اكثر ، وعيشة اقرب الى الطبيعة .

فى اسبوع الالام زارت الشقيقتان كنيسة نيقولا بقرب محطة رجيفسكى . واخذت يكاترينا دميتريفنا معها طعام عيد الفصح المعد للمستشفى لتباركه فى الكنيسة ، وفطرت مع داشسا فى المستشفى . وكان على نيقولاى ايفانوفيتش ان يحضر اجتماعا استثنائيا فى تلك الليلة فجاء فى سيارة بعد الساعة الثانية ليلا ليأخذ الشقيقتين من المستشفى . قالت يكاترينا دميتريفنا انها وداشا لا تشعران بنعاس ، وطلبت ان ياخذهما فى جولة فى السيارة . وكان ذلك غير معقول ، الا انهنم قدوما للسانق قذح كورتياك ، وذهبرا الى منطقة خودينسكويه بوليه ، فى اطراف موسكو .

- تلك هي اوضاعنا ، بالغة السوء .
- كفاك بحلقة في النار ، اذهب لتنام .
- تلك هي الاوضاع ... آه ، يا اخواني ، ان روسيا تضعح !

كان ثلاثة من الجنود يجلسون قرب نار أخذة بالهود عند حائط طينى لزريبة مغطاة بسقف من القش مرتفع مثل كديسة تبن . كان احدهم يجفف لفاقة ساقيه على اوتاد قرب النار ، ويراقبها لنلا تحترق . وكان الثانى يخيظ رقعة على بنطاله ، ويسحب الخيظ بخنر . اما الثالث ، وهو مجدر الوجه ، ذو انف كبير ولحية سوداء مزيلة الشعر ، فكان يحدق في النار بعينين غائرتين مأخوذتين ، وقد طوى ساقيه وحشر يديه عميقا في جيبي بنطاله . وقال بصوت خفيض :

- الخيانة في كل مكان ، تلك هي المسألة . ما ان تبدأ قواتنا بالتفوق حتى تؤمر بالانسحاب . نحن لا نعرف الا ان نعلق اليهود على الاشجار ، بينما الخيانة تمشش في القبة .

قال الجندى الذى كان يجفف لفاقة الساقين :

- قرفت من هذه الحرب تماما ، ولكن لا توجد جريدة واحدة تكتب عن ذلك - ووضع عسلوجا على الجمر بخنر وتابع قوله : نزلنا نهاجم ، ثم انسحبنا ، وبعد ذلك عدنا الى الهجوم ، اوه ، اللعنة عليهم جميعا . وما نحن نعود الى موقعنا السابق بنفس الوضع ، بلا نفع ولا جدوى !

وبصق في النار . وقال الجندى مرعق البنتال بضحكة هازئة دون ان يرفع راسه من عمله :

- قبل حين جاء اللازم الاول جادوف الى . لا بأس . ربما من الضجر ضايقتة الشياطين . فاخذ بدوره يضايقتى . ماسبب الثقب في بنطالك ؟ ولماذا تنق بهذا الشكل ؟ فاعتصمت بالصمت . وانتهى حديثنا بطريقة بسيطة جدا ، بلطمة على اسناني .

رد الجندى الذى كان يجفف لفاقة الساقين :

كانت في الجر لذعة من القرس بردت الوجنات . والسماء خالية من الغيوم ، فيها القليل من النجوم المتلألئة . وكان الجليد يتكسر تحت عجلات السيارة . وكانت كاتيا وداشا تضغط احدهما على الاخرى في مقعد السيارة العميق ، كانت كلتاهما في مندبل ابيض ، ومعطف فراثى رمادى . التفت نيقولاى ايفانوفيتش اليهما من مقعد الى جانب السائق - كانت كلتاهما سوداء الحاجبين واسعة العينين . فقال بصوت خفيض :

- اوه ، ياربى ، لا اعرف ايكما زوجتى .

اجابت واحدة منهما :

- لن تحزر .

وضحكت كلتاهما .

بدأت حوائق السماء تخسوضر قليلا فوق الحقل الهائل المغبض ، وفي البعيد لاح معالم سوداء للغاية «سيربيريانى يور» . قالت داشا خافتة الصوت :

- كاتيوشا ، كم اود ان اعشق !

فضغطت يكاترينا دميتريفنا على يدها ضغطة خفيفة . لمعت نجمة كبيرة فوق الغاية ، في رطوبة الفجر الخضراء ، وتماوج لمعائها ، وكانها تنففس .

- نسيت ان اقول لك ، يا كاتيوشا - قال نيقولاى ايفانوفيتش ، واستدار على المقعد بكل جسمه . - قبل حين وصل مندوبنا المفوض تشوماكوف ، وهو يقول ان الوضع في غالييسيا خرج جدا . الالمان يقذفوننا بنار صاعقة ، حتى انهم يسحقون افواجا كاملة في ضربة واحدة . ونحن نعاني نقصا في القذائف ... اللعنة ! ..

لم تجب كاتيا ، بل رفعت بصرها الى النجوم . وضغطت داشا خدها على كتفها بينما اطلق نيقولاى ايفانوفيتش لعنات اخرى ، وامر السائق بالعودة الى البيت .

في اليوم الثالث من عيد الفصح شعرت يكاترينا دميتريفنا بتوعك ، ولم تخرج للخفارة ، ولزمت الفراش . وتبين انها مصابة بالتهاب الرئتين ، فلا بد ان بردا قد نفذ عميقا في اوصالها .

- لا بنادق ، ولا عتاد . وفي بطاريتنا لا توجد غير سبع قذائف لكل مدفع . فلا يبقى لهم الا الضرب على الاسنان .

نظر مرقع البنطال اليه منهشما ، وهز رأسه بتأييد . وقال الجندي ذو الشعر الاسود والعينين المخيفتين :

- استعدوا جميع الرجال ، وهم الآن يجندون الى سن الثالثة والاربعين . وبمشل هذه القوة يمكن اجتياح العالم كله . وهل نحن نرفض ان نقاتل ؟ شرط ان تؤدى واجبك ، مثلما تؤدى واجبتنا .

هز مرقع البنطال رأسه :

- تماما ...

فقال اسود الشعر :

- لقد رايت حقا قرب فارسوفيا كان يرقد على ارضه ما بين خمسة الآف الى ستة الآف مقاتل سيبيري . وجميعهم قتلى ، مرتين مثل احزمة من القش . فلماذا ؟ وما السبب ؟ ساقول لكم السبب . . . حين اخذ المجلس العسكري يقرر هذا وذاك من الامور ، خرج احد الجنرالات من هناك في الحال وبعث برقية سرية الى برلين . فهمت ؟ وخرج الفيلقان السيبيريان من محطة القطار واتجها قداما الى ذلك الحقل ، فاذا بهما يقعان تحت نيران الرشاشات المباشرة . وانت تحدثني عن لطمة اصابك اسنانك . عندما كنت لا اركب النير على الحصان بشكل جيد ، كان ابي ياتي ويصفعني على وجهي ، لكي يجعلني اتعلم العمل احسن واشعر بالخوف . ولكن لاي شيء جندلوا المقاتلين السيبيريين كالخراف ؟ لقد قلت لكم ، يا اصحابي ، ان روسيا قد ضاعت . ونحن قد غدر بنا جميعا . غدر بنا فلاح هو من ابناء قريتي بوكورفسكويه ، صعلوك متشرد . ولا اريد ان اذكر اسمه . . . انه جاهل ، مشاكس يتصنع اللطافة ، ترك العمل ، واخذ يسرق الخيول ، ويتردد على الاديرة ، وتعلق بالنساء وشرب الخمور . . . وهو الآن في بطرسبورغ يعيش كالقيصر يرقص حوله الرزراء والجنرالات ، نحن نقتل هنا بالآلاف ، ونرقد على الارض الرطبة ، بينما هم يسبحون في الكهرايب في بطرسبورغ ، ويشربون ، وياكلون ، وينفخون سمنا .

وسكت فجأة . كان الصمت والرطوبة يلغان الجو . ثم ترامي من الزريبة صوت خيول تقضم باسنانها ، وارتطم احداهما في الجدار

ارتطاما خافتا . هبط طائر ليل من وراء السقف نحو النار ، واخفتى زاعقا زعيقا شاكيا . وفي تلك اللحظة صدر في السماء البعيدة ، زئير هادر مقترب ، وكان وحشا كان ينطلق بسرعة لا تصدق ، شاقا الظلام ببوزه ، وارتطم في مكان ما ، وفي البعيد ، وراء الزريبة ، اندلع انفجار هز الارض هزا . ضربت الخيول الارض بحوافرها ، ورنّت لجاماتها . قال الجندي مرقع البنطال مرتاعا :

- هذه هي الضربة !

- يا له من مدفع !

- انتظر !

رفع الثلاثة رؤوسهم . وصدر في السماء الخالية من النجوم صوت ثان استمر حوالي دقيقتين ، ووقع الانفجار الثاني في بقعة قريبة جدا وراء الزريبة ، وبرزت اشباح اشجار الشوح المخروطية ، واهتزت الارض مرة اخرى . وفي الحال سمعوا مسار القنبلة الثالثة . وكان صوتها متقطعا ثقيلًا على السمع يجلب الانتباه ويجعل القلوب تتجمد في الصدور . نهض الجندي ذو الشعر الاسود من الارض ، واخذ يتراجع . وانقض شيء من الاعلى وانزلق كالبرق الاسود ، واندفع الى الاعلى عمود نارى اسود بفرقة مدوية .

وحين سقط العمود لم تبق الا حفرة عميقة في المكان الذي كان فيه الجنود والنار . وكان السقف القش يحترق مرسلا الدخان الاصفر فوق جدار الزريبة المنهار . اندفع حصان طويل العرف من اللهب شاخرا ، منطلقا نحو اشجار صنوبر كانت بارزة من الظلام .

وهناك ، وراء حوائق السهل المسننة اخذت تيرق حالة النيران ، والمدافع تهدير ، وترتفع الصواريخ مثل ديدان طويلة ، فتضئ نيرانها ، وهي تتساقط ، الارض الرطبة الداكنة . كانت القذائف تنقب السماء صافرة ، هادرة .

٢١

في ذلك المساء ، وفي ملجأ للضباط يقع غير بعيد عن الزريبة ، كان ضباط احدى سرايا فوج اوسولسكي يقيمون حفلة بمناسبة تلقي النقيب تيتكين خبرا عن مولد طفل له . كان قبسو

الملجأ الواطئ منفرزا عميقا في الارض يحيمه سقف ذو طبقات ثلاث ،
وتضيؤه شموع مغرورة بزجاجات ، وقد جلس الى المائدة فيه ثمانية
ضباط ، وطبيب ، وثلاث مرضعات من مستشفى الميدان .
شربوا كثيرا . وكان الاب السعيد ، النقيب تيتكين نائسا ،

وقدلقى رأسه في صحن وضعت فيه فضلات الطعام وتدلّت كفه
الفترة على رأسه الاصلع . وكانت المرضعات يبديون ملاحظات جدا
بسبب انجاس الهواء ، والخمرة ، وضوء الشموع الناعم ، وكن
يرتدين اثوابا رمادية ومناديل رمادية . كانت لاحداهن وتدعى
موشكا ، عقتتان سوداوان من الشعر عند صدغيها ، وكانت تضحك
دون كلل كاشفة عن حنجرة بيضاء . كان جارها واثنان آخران
يجلسان قبالتها يحقدون فيها بنظرات ثقيلة . وكانت الثانية ،
ماريا ايفانوفنا ، بديئة تصل حمرة خديها الى حاجبيها ، تجيد اداء
الاغاني العجربة العاطفية بشكل مدهش . فكان المستمعون يخرجون
عن اطوارهم ، ويضربون على المائدة ، مرددين : «آه ، اللعنة ،
ما كان ابدعها من حياة !» اما الثالثة الجالسات الى المائدة فهي
يلزافيتا كيبفنا . كانت اضواء الشموع تنفتت في عينيها الى ذرات
نارية صغيرة ، وتشمع فيهما فترى الوجوه بيضاء من خلال الدخان ،
ووجه جارها الملازم الاول جادوف وحده كان يبدو مخيفا وجميلا .
كان رجلا واسع المنكبين ضخما ، حليقا وذا عينيّن شفافتين . وكان
يجلس مستقيم الجذع ، ملفوفا بحزامه لفا قويا ، وقد افرد في
الشراب ، ولم يسكر بل امتنع لونه فقط . وحين كانت موشكا
السوداء الشعر تنهافت من الضحك ، وماريا ايفانوفنا تناول
القيثار ، وتمسح وجهها بمنديل مدعوك ، وتغنى بصوت عميق
حزين «ميلادى في سهوب مولداڤيا» كان جادوف يتشم بطرف فمه
ابتسامة بطيئة ، ويصّب لنفسه مزيدا من الخمرة .

كانت يلزافيتا كيبفنا تحدد عن قرب في وجهه الصافي الخالي
من كل تغضن . وكان هو يسليها بحديث لبق وغير جدى . فقد روى
لها ، مثلا ، ان نقيبها يدعى مارتينوف كان يخدم في فوجهم اشتهر
بانه كان جبريا يؤمن بالقضاء والقدر ، وبالفعل ، عندما كان يحتسى
شبيئا من الكونياك كان يخرج ليلا وراء الاسلاك الشائكة ، ويفترّب
من خنادق العدو ، ويشتم الالمان باربع لغات ، وقبل ايام دفع ثمن

غروه بان اصيب بجرح في بطنه . تنهدت يلزافيتا كيبفنا ، وقالت :
يعنى ان النقيب مارتينوف بطل . فضحك جادوف بهزه :

- اعذرني ، هناك مغرورون ، وهناك حقى ، ولكن ليس
هناك ابطال .

- ولكن اليس بطلرة ان تغروا في هجوم ؟

- اولاً ، انهم لا يخرجون في هجوم ، بل يجبرون على الخروج ،
والذين يخرجون جنباً . بالطبع ، هناك اناس يجازفون بحياتهم دون
اكرام ، ولكن هؤلاء فيهم تعطش عضوي الى القتل - وهنا نفر
جادوف الطاولة باظفاره الصلبة - هؤلاء الناس ، على الأرجح ،
يقفون على ارفع درجة من الوعى المصرى .

ورفع جسمه قليلا بخفة ، وتناول من طرف المنضدة البعيد
علبة كبيرة من حلوى الفواكه ، وقدمها الى يلزافيتا كيبفنا .

- لا ، لا اريد - قالت واحست بان قلبها يخفق بشدة
وجسمها يضعف - وانت ؟ حدثنى .

غضن جادوف جلدة جبينه ، وتغلى وجهه بغضون صغيرة
مباغثة جعلته يبدو عجوزا . وكرر بحدّة :

- وما هذا ... وانت ؟ بالامس رميت يهوديا وراء الزريبة .
اتريدن ان تعرفى ان هذا مربع ام لا ؟ اى هراء هذا !

وابتقى اسنانه الحادة على سيكارة ، واشعل عود نقاب .
كانت اصبعه المسطحة التى تمسك به قوية الا ان السيكارة لم تقع
في لهب العود على اية حال ، ولم تشتعل .

وقال ، والقى عود النقاب الذى احترق حتى اظفره :

- نعم ، انا سكران . ارجو المعتذرة . لنخرج الى الهواء الطلق .
نهضت يلزافيتا كيبفنا ، وكانها في نومها ، وسارت خلفه في
الفتحة الضيقة المؤدية الى خارج الملجأ . لاحقتها صيحات السكارى
المرحة . ضربت ماريا ايفانوفنا على القيثارة ، وغنت بصوت عميق :
«كان الليل يعبق بنشوة المذة ...»

في الخارج كان الهواء مشبعاً برائحة ربيعية قوية للاوراق
المتسرخة ، وكان الظلام والسكون يلفان كل شى . سار جادوف
على العشب الرطب بخطوات سريعة بعد ان دس يديه في جيبه ،

وسارت يلزافيتا كييفنا متأخرة عنه قليلا ، والبسمة لا تفارق
تفرها . وفجأة توقف جادوف ، وسال بنبرة حادة :

- ها ، ما رأيك ؟

كانت اذناها تلتهبان . سيطرت على انقباض في حلقومها
واجابت بصوت لا يكاد يسمع :

- لا ادري .

- لنذهب .

واوما برأسه ناحية سفوف الزريبة المسود . وبعد ان خطا
عدة خطوات توقف ثانية ، وشدّ بيده المتشعبة على ذراع يلزافيتا
كييفنا بقوة . وتحدث بحرارة مباغتة :

- لي بنية كينية الارباب . استطيع ان اشطر العملة النقدية
بيدي الى شطرين . وانفذ بصري خلال كل شخص ، وكأنه من
زجاج شفاف . . . انا اكرههم ! - وتلثم وكأنه تذكر شيئا ،
وضرب الارض بقدمه - كل هذه القهقهات والاغانى ، والاحاديث
الجبانة وضاعة . انهم جميعا مثل ديدان في روث دافئ . . .
اسحقهم . . . اسمعي . . . انا لا احبك : لا استطيع ! ولن احبك . . .
فلا تخدعي نفسك . . . ولكنني بحاجة اليك . . . انسا اكره هذا
الاحساس بالتبعية . . . يجب ان تفهمي . . . وحشر يديه تحت مرفقي
يلزافيتا كييفنا ، وجذبها بقوة ، واطبق على صدغها شفثيه الجافتين
العازتين كالجرس .

واندفعت يلزافيتا كييفنا لتجرر نفسها ، الا انه كان يعصرها
بقوة ، حتى ان عظامها قد قرقت ، فألقت رأسها الى الخلف ، وتدلّت
ثقيلة بين يديه . قال لها :

- لست مثل الاشرىات . ساعلمك . . .

وصمّت فجأة ، ورف رأسه . كان صوت حاد نافذ يتنامى في
الظلمة . قال جادوف من حنّك استنانه :

- اوه ، اللعنة !

وفي الحال دوى انفجار على مسافة بعيدة . اندفعت يلزافيتا
كييفنا مرة اخرى ، الا ان جادوف كان يعصرها بقوة اشد . قالت
باستمئانة :

- اتركني !

انفجرت قبلة ثانية . واستمر جادوف يتمتم بشئ ما ،
وفجأة تصاعده عمود نارى اسود على مقربة كلية وراء الزريبة ،
وارسل دوى الانفجار حزم القش المحترقة عاليا في الهواء .

افلئت يلزافيتا كييفنا من يدى جادوف ، وعدت نحو الملجأ .
كان الضباط يخرجون سراعا من فتحة الملجأ ، ويعدون على
الارض التي بدت سوداء مخدودة من جراء الضوء المائل ، ملقنين
نظرات الى الزريبة المحترقة وراهم . اتجه بعضهم يسارا نحو
الغابة ، حيث كانت الخنادق ، واتجه الآخرون يمينا في ممر الاتصال
المؤدى الى تحصينات الجسر . كانت البطاريات الالمانية تهدر وراء
النهر ، بعيدا خلف التلال . كان الرمي ياتي من اتجاهين : من اليسار
مصوباً نحو الجسر ، ومن اليمين مصوباً نحو العبر الذي كان يؤدى
الى مزرعة كانت قد احتلتها سرية من فوج اوسولسكى قبل فترة في
الضفة الاخرى من النهر . وكان قسم من النار موجها على البطاريات
الروسية .

رات يلزافيتا كييفنا التقيب جادوف يسير حاسر الرأس ويده
في جيبيه متجها في خط مستقيم نحو وكر الرشاش . وفجأة ظهرت
دائرة نارية سوداء شعتهاء في المكان الذي كان يقف فيه شخصه
الطويل . اغمضت يلزافيتا كييفنا عينها ، وحين نظرت ثانية رأت
جادوف يسير اكثر الى اليسار وكوعاه ما زالوا متفرجين . صاح التقيب
تيتكين غاضبا . كان واقفا قرب يلزافيتا كييفنا ومعه منظار :

- لقد قلت لهم انسا لسننا بهجاعة الى هذه المزرعة والآن ،
تفضلوا وانظروا ، قلبوا المعبر كله . آه خنازير !

ونظر في المنظار مرة اخرى - آه ، الخنازير يصوبون على
المزرعة تماما ! هلكت السرية السادسة . آه ! - واستدار وحك
علباه الجرداء بشدة ، ونادى : شلابكين !

- نعم .

اسرع في الرد عليه شخص صغير كبير الانف يرتدى قبعة
قوزاقية .

- هل اتصلتم بالمزرعة ؟

- الاتصال مقطوع .

- اخبر الكتيبة الثامنة بان ترسل تعزيزات الى المزرعة .

خط الخنادق الملتوى يرى من مخبأ الرشاش ، وكانت السرية الاولى من فوج اوسولسكى تتخندق فيها . والى اليسار من ذلك كان جدول صغير يتلوى في مجرى ينمو فيه القصب ، ليصب في النهر ، وابتعد من ذلك يساراً ، وراء الجدول كانت مباني المزرعة الثلاثة تحترق ، ووراءها كانت السرية السادسة تتخندق في خنادق تلتقى في زاوية . وعلى بعد ثلثمائة خطوة تقريباً كانت تبدأ خطوط الالمان التي كانت تتجه بعد ذلك يمينا بعيداً نحو التلال المشجرة .

كانت النهر يبدو احمر متسخاً من جراء لهب الحريقين ، وكان ماؤه يفور لكثرة ما تساقط فيه من قذائف ، ويتطاير كالنوافير ، ويتلطف بسحب بنية .

كانت المدفعية تركز اقوى نارها على المزرعة . وكانت انفجارات قذائف الشرايين لا تفتاه تتوهج فوق الابنية المحترقة ، وتتصاعد اعمدة سوداء شعثاء على جوانب خط الخنادق الملتقى في زاوية . وكانت نيران البنادق تومض من وراء النهر في القصب والعشب وميضاً صغيراً .

وكانت انفجارات القنابل الثقيلة تهز الهواء ، وقذائف الشرايين ذات الشظايا تتطاير بصوت واهن فوق النهر وفوق المروج ، وفي هذه الضفة من النهر فوق خنادق السرايا الثانية والثالثة والرابعة . وكان هزيم الرعد يتراهم من وراء التلال ، حيث كانت اثنتا عشرة مدفعية تترسل والمدفعية ترسل ومضات خاطفة . وكانت قذائف المدافع الروسية الجوابية تصفر في الهواء ، منطلقة الى ما وراء هذه التلال . وكان الضجيج يشق الاذان ، ويضغط على الصدور ويلجج العيظ في القلب .

واستمرت الحال على هذا المتوال وقتاً طويلاً . نظر جادوف في ساعته المضيئة فراها تشير الى الساعة الثانية والنصف . فالتجبر يوشك على الانبلاج ، والهجوم متوقع بين لحظة وأخرى .

وبالفعل اشتد قصف المدفعية ، وفار ماء النهر فوراً اشد ، وكان القذائف تتساقط على المعابر والتلال في هذه الضفة من النهر . وكانت الارض احياناً تهتز اهتزازاً خافتاً ، وتتناثر كتل الطين والحصى من جدران المخبأ وسقفه . الا ان مساحة المزرعة المحترقة باتت هادئة . وفجأة تطارت من البعيد عشرات الصواريخ مثل اشربة

- سمعا .

اجاب شلابكين ، وانزل يده من صدغيه بحركة قوية وابتعد خطوتين وتوقف .
ونادى التقيب ثانية بصوت وحشى :

- ملازم شلابكين .

- نعم .

- نفذ الامر .

- سمعا .

وابتعد شلابكين اكثر ، وانزل رأسه ، واخذ يحفر الارض بقصبة . فصرخ التقيب :

- يا ملازم شلابكين !

- نعم .

- اتفهم لغة الانسان ام لا ؟

- نعم ، افهم .

- انقل الامر الى السرية الثامنة . ولك ان تقول لهم باسمك الا ينفذوه . فهم ليس من البلاءة بحيث يرسلون رجالاً الى هناك . ليرسلوا زهاء خمسة عشر رجلاً الى المعبر لاطلاق النار . وابلغ الفرقة حالا بان السرية الثامنة تجتاز المعبر بضربة بارعة . اما الخسائر فيمكن ان نقتبسها من السرية السادسة . اذهب ، اما انت يا آنسة ، فاضرفى - والتفت الى يلزافيتا كييفنا - اقلعى من هنا الى الشيطان فان الرمي سيبدأ الآن .
وفي تلك اللحظة انطلقت قذيفة بازيز ، ووقعت وانفجرت في الجوار .

كان جادوف مستلقياً عند فتحة مخبأ الرشاش ، يتابع المعركة من خلال المنظار بلهفة غير صارف بصره عنها . كان المخبأ قد حفر على منحدر تل مشجر يجري تحته نهر باستدارة خفيفة ، والى اليمين كانت اعمدة الدخان تتصاعد من الجسر الذى احترق قبل حين ، ووراءه ، في الضفة الاخرى من النهر وفي مستنقع مكسو بالعشب كان

نارية ، منحرفة نحو النهر واثارت الارض كالشمس . وحين انطلقت الانوار خيم ظلام حالك لبضع دقائق . اذن ، فان الالمان نهضوا من الخنادق ، وخرجوا في هجوم .

وفي الغيبض المضبب لمح جادوف اخيرا شغوفا صغيرة متحركة بعيدا في المروج . كانت تارة تسقط ، وتارة يلاحق بعضها بعضا . ولم تجابهها نار واحدة من المزرعة .

التفت جادوف ، وصاح :

- ذخائر !

ارتج الرشايش وكانما تملكته ضراوة شيطانية ، وراح يرش الرصاص عجولا ، ويكتم الانفاس بدخان لاذع . وفي الحال عجلت الشغوص الصغيرة حركتها على المروج وسقط بعضها . الا ان الحقل كله كان مغشورا بنقط المهاجين . وكانت لثلاثهم تركض نحو الخنادق الهدملة للسرية السادسة . فنهض من هناك زهاء عشرين رجلا . وتجمع حشد من الرجال بسرعة حول ذلك المكان .

لم تكن هذه المعركة في سبيل المزرعة الا اجزاء ناقها من موقعة هائلة امتدت في جبهة طولها مئات الفراسخ ، وكبدت الطرفين مئات الالوف من النفوس .

كان الروس قد احتلوا المزرعة قبل اسبوعين ليضمثوا لانفسهم رأس جسر في حالة الهجوم عبر النهر . وقرر الالمان الاستيلاء على المزرعة لوضع نقطة مراقبة في مكان اقرب الى النهر . وكان هذا الهدف وذاك ضروريين فقط لقادتي الفرقتين - الالمانية والروسية - ومضمنين في الخطة الاستراتيجية للحملة العسكرية لكلا الطرفين ، تلك الخطة التي ترووا عميقا في كل دقائقها .

كان قائد الفرقة الروسية الجنرال دوبروف الذي كان له اسم عائلة غير روسي فابده منذ نصف عام باسمه العالي بترخيص من المراجع العليا يلعب الورق حين تلقى نيا هجوم الالمان في قطاع فوج اوسولسكى .

ترك الجنرال الورق . وانتقل مع الضباط الكبار واثنين من المرافقين الى الصاللة التي نشرت على منضدة فيها خرائط طوبوغرافية . وكانت قد وردت من الجبهة انباء عن قصف المعبر والجسر . ففهم الجنرال بان الالمان عازمون على الاستيلاء على

المزرعة ، اى بالذات على المكان الذي بنى عليه خطته الشهيرة للهجوم ، والتي وافقت عليهما قيادة الفيلق ، وقدمت الى قائد الجيش للتصديق عليها . الا ان هجوم الالمان على المزرعة افسد الخطة كلها .

كانت الاخبار التلفزيونية تؤكد هذا الخطر بين لحظة واخرى . انزل الجنرال نظارته الانفية من فوق انفه الكبير ، وقال بهدوء ولكن بحزم ، وهو يلاعبها :

- حسنا ، لن اتراجق قدما واحدة من المواقع التي احتلها . وارسل امرا تلفزيونيا على الفور لاتخاذ تدابير مناسبة للدفاع عن المزرعة . وامر فوج كوندرافسكى الاحتياطي من الدرجة الثالثة بالزحف في كتيبتين نحو المعبر لتعزيز النقيب تيتكين . وفي تلك اللحظة وصل خبر من قائد المقدمية الثقيلة عن قلة القذائف ، وتحطم احد المدافع ، وانعدام امكانية الرد على نار العدو الصاعقة ردا مناسباً .

الا ان الجنرال دوبروف ردّ على ذلك ، وقد القى نظرة صارمة على الحضور :

- حسنا ، حين تنفذ القذائف سنحارب بالسلاح الابيض . واخرج مندبلا ناصع البياض من سترته الرمادية ذات القلبة الحمراء ، ونفضه ، ومسح نظارته الانفية به ، وانحنى على خارطة .

وظهر في الباب المرافق الاصفر الكونت بوبرويسكى الضابط في بدلة من الكاكي البني الداكن متنسجة مع جسمه كالفقاز . وقال وهو يبتسم استسامة لا تكاد تلمحظ بطرف فمه الصبوي الجميل :

- يا صاحب السيادة ، يقول النقيب تيتكين ان السرية الثامنة تجتاز طريقها الى المعبر بضربة ماهرة ، رغم نار العدو المهلكة . نظر الجنرال الى الضابط من فوق نظارته الانفية ، وحرك فمه الحليق ، وقال :

- حسن جدا .

ولكن رغم الهجة المشجعة تواردت من الجبهة انباء مقلقة اكثر فاكثر . وصل فوج كوندرافسكى الى المعبر وعسكر وتخندق ، والسرية الثانية ماضية في ضرباتها الماهرة ولكنها لم تعبر النهر بعد . ارسل النقيب اسلامبيكوف قائد كتيبة الهاون برقية ذكر فيها

ان مدفعين من مدافعه قد اصيبا ، وان قذائفه قليلة . وابلغ العقيد بوروزدين آمر الكتيبة الاولى من فوج اوسولسكي ان السرايا الثانية والثالثة والرابعة تتكبد خسائر كبيرة في الرجال من جراء مواقعها المكشوفة ، ولهذا فهو يطلب اذنا اما بالهجوم ودحر العدو الواقع ، واما بالتراجع الى حافة الغابة . ولم ترد ابناء من السرية السادسة التي كانت تحتل المزرعة .

وفي الساعة الثانية والنصف من بعد منتصف الليل عقد مجلس عسكري . وقال الجنرال دوبروف انه سيتقدم بنفسه على رأس القوات الموكلة له ، ولكنه لن يتراجع فترا واحدا عن رأس الجسر المحتل . وفي انشاء ذلك وصل الخبر عن احتلال الالمان للمزرعة ، والقضاء على السرية السادسة الى آخر رجل . دعك الجنرال مندليه الكتاني بين اصابه ، وغمض عينيه . ورفع العقيد سفيتشيف رئيس الاركان كتيفه الممثلةتين وامتلا بالدم وجهه اللعيم الملتهق ، وتكلم ببحة ظاهرة :

- يا صاحب السيادة ، لقد ابلغتكم اكثر من مرة بان من المخاطرة احتلال مواقع في الضفة اليمنى . اننا سنفقد كتيبتي وحتى ثلاثا واربعاً على هذا المعبر ، وحتى لو احتلنا المزرعة مرة اخرى ، فان الاحتفاظ بها سيكلفنا غالياً .

قال الجنرال دوبروف ، وقد تقصده انه عرقاً :

- ان رأس الجسر ضروري لنا ، ويجب ان يكون لنا ، وسيبقى لنا ، والمسألة هي اننا لو فقدنا رأس الجسر فان خطي الهجومية ستنتار .

واعترض العقيد سفيتشيف وقد ازداد حمرة :

- يا صاحب السيادة ، القوات لا تقوى على عبور النهر تحت نار صاعقة اذا لم تسند بالمدفعية بالشكل المناسب ، وانت تعرف ان المدفعية ليس لها ما تسند به .

رد الجنرال على ذلك :

- حسناً ، في هذه الحال اخبر القوات بان نياشين القديس غيورغي معلقة على الاسلاك في الجانب الآخر من النهر . اننا اعرف جنودى .

وبعد هذه الكلمات التي سيحفظها التاريخ حتماً نهض

الجنرال ، واخذ يتطلع في النافذة ، وهو يدير نظارته الذهبية في اصبعه القصيرة وراه ظهره ، فرأى شجرة بتولا مبللة تنمو في المرح وملفوفة بالضباب الصباحي الازرق الرقيق ، وسرباً من العصفير يحط على اغصانها الرقيقة البانعة الغضرة ، ويغرد في عجلة وتلق ، وينطلق فجأة ، وينبب . وكانت اشعة الشمس الذهبية المتحرفة تثير المرح المضرب كله بمعالم الاشجار غير الواضحة عليها .

انتهى القتال عند مطلع الشمس . واحتل الالمان المزرعة ، والضفة اليسارية من الجدول ، ولم يبق بيد الروس من رأس الجسر غير منخفض في الضفة اليمنى من الجدول حيث كانت السرية الاولى . واستمر تراشق واهن فوق الجدول طوال النهار ، ولكنه كان واضحاً ان السرية الاولى تحت خطر التلويح ، وقد انقطع اتصالها المباشر بفضة النهر مع الروس بسبب احتراق الجسر ، وكان اعقل مخرج هو الخروج من المستنقع في الليلة ذاتها .

الا ان العقيد بوروزدين آمر الكتيبة الاولى تلقى بعد الظهر امراً بالاستعداد لغرض النهر في تلك الليلة للوصول الى المستنقع لتعزيز موقع السرية الاولى . واوزع الى النقيب تيتكين بتجميع قوى السرية الغامسة والسرية السابعة اسفل المزرعة ، والعبور على جسر قائم . واوزع الى الكتيبة الثالثة الاحتياطية من فوج اوسولسكي باتخاذ موقع هجومى ، والى فوج كوندرافسكى بعبور النهر من المغاضة عند المعبر المحروق ، والقيام بهجوم جبهوى .

كان الامر جدياً ، والترتيب واضحاً : تطويق المزرعة بحركة كماشية بواسطة الكتيبة الاولى يمينا ، والكتيبة الثانية يساراً ، على ان يجذب فوج كوندرافسكى اليه كل انتباه العدو ، وناره . وحدد منتصف الليل للبدء في الهجوم .

في الغيش ذهب جادوف للاشراف على وضع الرشاشات عند المعبر ، ونقل رشاش واحد في زورق ، في اشد ما تكون الحيلة ، الى جزيرة صغيرة لا تتجاوز مساحتها بضع عشرات من الامتار ، نمت عليها شجيرات الصفصاف . وبقي جادوف هناك .

وجهت البطاريات الروسية طوال النهار نارا ضعيفة على المزرعة ، واعمق منها على المواقع الالمانية المقتربة من النهر . وكانت تنطلق بين العين والآخر طلقات منفردة من بندقيّة صوب

النهر . وفي منتصف الليل بدأ عبور النهر في صمت من ثلاثة مواقع
أساساً . ولصرف انظار العدو بدأت وحدات فوج بيلوتسر كوفسكي
الواقعة على بعد زهاء خمسة فراسخ في اعلى النهر بمناوشات قوية .
والترزم الالمان الصمت حذرين .

راقب جادوف المعبر بعد ان ازاح اغصان الصفصاف المغطاة
بسنسج العنكبوت . كانت الى يمينه نجمة صفراء متواضعة تتدلى
على ارتفاع واطى فوق التلال المشجرة ، وتنعكس على النهر الاسود
شريطاً من الضوء الكايبى المرمعش اخذت تقطعه اشياء داكنة .
وظهرت شخوص راكضة من مكان الى آخر على الجزر الرملية
والمنبسط الرملى . وعلى مسافة غير بعيدة عن جادوف كان زهاء
عشرة اشخاص يخوضون في الماء الى صدورهم محدثين طرطشة
واطنه ، مسكبين بنادقهم وحقائب العتاد في اذرعهم المرفوعة . ان
هؤلاء كانوا من فوج كوندروفينسكى يعبرون النهر .

وفجأة نشبت نيران سريعة بعيدا في الضفة الاخرى ، وصفرت
الغذائف في طيرانها واخذت قنابل الشراينيل تتفجر عاليا فوق النهر
بقرعة معدنية . وكان كل توجه يضيء وجوها ملتجة ناهضة من
الماء . وكان المنبسط الرملى كله يقص بالرجال الراكضين .
وانطلقت نوبة جديدة من النيران ، وصدرت صيحات . وتضاعفت
صواربع وتناثرت في السماء كلها باضواء باهرة . ورعدت البطاريات
الروسية . جرف التيار عند قدمي جادوف رجالا يتخبط ويردد
بصوت مكتوم : «راسى ، اصايوا راسى !» وتشبث بالصفصاف .
ركض جادوف الى الجانب الاخر من الجزيرة . وراى ان العوامات
الممتلئة بالناس كانت تتحرك عبر النهر على مسافة بعيدة ،
والوحدات التى قد عبرت النهر كانت تجرى في الحقل . وكانت
زوية النار الصاعقة تهدر فوق النهر والمعابر والتلال كما كانت
بسالاس مضمجة مبهرة . وكان الماء الفائز يبدو مويوماً
بالديدان . فقد كان الجنود يتخبطون وينسلون ويتصايحون من
خلال اعمدة الدخان السوداء والصفراء ، وبين النوافير المائية .
والذين وصلوا الى الضفة الاخرى اخذوا بالزحف الى الشاطئ .
وكانت رشاشات جادوف تلعلع في المؤخرة ، والغذائف الروسية
تتفجر في المقدم . وكانت سريتا النقيب كلتاهما تضربان

المزرعة بنار متقاطعة . تحولت الوحدات المتقدمة من فوج
كوندروفينسكى - التى فقدت نصف رجالها اثناء العبور ، كما
تبين فيما بعد - الى هجوم بالعراب . الا انها فشلت ، واستلقت
تحت الاسلاك الشائكة . ومن وراء الجداول خرجت الكتيبة الاولى
بصفوف كثيفة من خلل القصب . وتدفق الالمان من الخنادق .

كان جادوف يستلقى عند الرشاشة متمشياً بعمدة الاطلاق
المرتبجة ارتجاجاً مجنوناً ويصب نارا مسفة على رابية معشوشبة
وراء خنادق الالمان كان يجرى عليها رجالان تارة ، وثلاثة اخرى ،
وجمع من الرجال تارة ثالثة ، وكانوا جميعا وبلا استثناء يتعثرون ،
وينكفئون ارضا على وجوههم وجنوبهم .

وعد جادوف : «ثمانية وخمسون ، ستون» . ثم نهض
شخص ضئيل الجرم ، وامسك براسه ، وسار مترنحا على الرابية .
حول جادوف سبطانة الرشاشة فوقع الشخص على ركبتيه ،
وانطرح . «واحد وستون» . وفجأة انبعت امام بصره ضوء محرق
لا يطاق . واحسى جادوف بأنه قد رفع في الهواء وبأن وجعا حاداً يشل
زراعه .

احتلت المزرعة وجميع خطوط الخنادق المجاورة لها واسر
حوالى ماتى اسير ، وفي الفجر خمست ناز المدفعية في كلا
الجانبين . وبدا جمع القتلى والجرحى ووجد رجال الاسعاف عند
تفتيش الجزر الصغيرة رشاشة مقبولة في الصفصاف المحطم ،
وبالقرب منها جنديا مدفوناً في الرمل ، وقد شُجَّ يافوخه ، وعلى
بعد عشرة امتار ، في الجانب الاخر من الجزيرة رقد جادوف ورجلاه
في الماء . انهضوه فان ، وكانت قطعة من العظم الوردى تبرز
من كفه الملتطخ بالدم .

وحين جلبوه الى مستشفى الميدان صاح الطبيب على يلزفيتا
كبيفتنا : «جاءوا بفتاك . الى طاولة العمليات راساً» . وكان جادوف
فاقد الوعي مستند الألف ، اسود الفم . وحين خلعوا قميصه ،
رات يلزفيتا كبيفتنا على صدره الابيض العريض رسماً من الوشم

لقردين متشابكين بذيليهما . كز جادوف على اسنانه اثناء العملية ، واعترت التشنجات وجهه .

وبعد ان انتهى التعذيب ، وضلم الجرح فتح عينيه ، انحن يلزفينا كييفنا عليه فقال :

- واحد وستون .

وظل جادوف يهدى حتى الصباح ، ثم غفا . طلبت يلزافينا كييفنا بان يهدوا اليها ينقله الى المستشفى العسكرى الكبير التابع الى هيئة اركان الفرقة .

٢٣

دخلت داشا الى غرفة الطعام . كان نيقولاى ايفانوفيتش ودميتري ستيبانوفيتش يجلسان صامتين . وكان الاخير قد قدم من سامارا فى اول الامس بناء على برقية مستعجلة . امسكت داشا لفاحها الابيض عند ذقتها ، ونظرت الى وجه ابنيها الاحمر والى شعره المنفوش ، كان دميتري ستيبانوفيتش يجلس وقد طوى ساقا واحدة ، ثم حولت داشا بصرها الى نيقولاى ايفانوفيتش المعوج الاسارير الملتهب العنقين وجلست الى المائدة ايضا ورات وراء النافذة هلالا نعيلا صافيا يتدلى فى الاغباش الضارب الى الزرقة .

كان دميتري ستيبانوفيتش يدخن نائرا الرماد على صدره الموير . وكان نيقولاى ايفانوفيتش يجهد ليجمع فتات الخبز فى كومة واحدة على الخوان . وساد الصمت وقتنا طويلا .

وفى آخر الامر تكلم نيقولاى ايفانوفيتش بصوت مخنوق :

- لماذا تركناها جميعا ؟ هذا لا يصح .

- اجلس وساذهب انا- ردت داشا ، ونهضت . لم تعد تشعر بالمل ولا بتعب وقالت لابيها ، وهى تلف اللفاح على فمها : بابا ، اذهب واحقنها بحقنة اخرى .

نشق دميتري ستيبانوفيتش من انفه بشدة ، والقى عقب سيكارتة النافذة عبر كتفه . كانت الارض حوله مزروعة كلها باعقاب السيكايرت .

- احقنها مرة اخرى بابي ، اتوسل اليك .

عندئذ هتف نيقولاى ايفانوفيتش متضايقا وبصوت

مصطنع :

- لا يمكن ان تعيش على الكافور وحده . انها تحضر ، ياداشا .

التفتت داشا نحوه بقوة .

- لا تتجرا على هذا الكلام ! لاتجرا . انها لن تموت .

اختلف وجه نيقولاى ايفانوفيتش الاصفر . استدار نحو النافذة ، فشاهد ايضا الهلال الرقيق النافذ فى الغواء المزرق .

قال :

- اية وحشة لو ترحل . آه ، لا اطيع .

سارت داشا فى غرفة الجلوس على اطراف اصابعها . ونظرت فى النوافذ مرة اخرى ، فاستشعرت بالبرد الزمهريرى الابدئى المتراعى وراها . انسلت الى مخدع كاتيا المضاء بمصباح ليلي اضاءة لا تكاد تغالب الظلمة .

هناك ، فى اعماق المخدع كان الوجه الصغير يرقد على الوسائد ، كما كان بلا حراك ، على السرير العريض الواطئ ، وقد دفع شعره الجاف المسود الى فوق ، والى الاسفل من الوجه كف نجيعة . ركمت داشا على ركبتيها امام السرير . كان نفس كاتيا واهنا لا يكاد يسمع . وبعد وقت طويل قالت بصوت خافت متمسك :

- كم الساعة ؟

- الثامنة ، كاتيوشا .

استنشقت كاتيا بعض الانفاس ، وسالت مرة اخرى وفى صوتها نبرة الشكوى :

- كم الساعة ؟

وطوال النهار كانت تعيد هذا السؤال . كان وجهها نصف الشفاف هادئا ، وعينها مغمضتين . . . ومنذ وقت طويل وهى تسير على البساط الناعم فى الدهليز الطويل الاصفر . كل شيء اصفر فيه : الجدران والسقف . وعاليا الى اليمن ينصب ضوء اصفر معذب من النوافذ المتربة . والى اليسار عديد من الابواب

المسطحة . ووراءها - اذا ما فتحتها - حافة الارض ، اللاترار .
وكاتيا تسيير ببطء شديد ، كما في النوم ، مارة بهذه الابواب
والنوافذ المتربة . وامامها دهليز طويل سطيفح في ضوء اصفر .
والهواء مكتوم ، وكل باب ينشر وحشة الموت . متى ستحصل
النهاية يارب ؟ لو تتوقف ، وتسمع . . . لا شيء يسمع . . .
وراء الابواب ، في العتمة يبدأ صوت بطيء خفيض يطن مثل
صوت لولب الساعة الحائطية . . . آه ، ما اشد الوحشة ! . .
ليتها تفيق . . . ليها تقول شيئا بسيطاً انسانيًا . وعندئذ
كانت كاتيا تردد بجهد ، وفي صوتها نبرة شكوى :

- كم الساعة ؟

- كاتيوشا ، عم تسألين طوال الوقت ؟

«جميل ان تكون داشا هنا . . .» وعرة اخرى كان بساط
الدهليز يمتد تحت قدميها بعثيان ناعم وينصب الضوء الغشن
المقبض من النوافذ المتربة . ويدق لولب الساعة من بعيد . . .
«ليتنى لا اسمع . . . لا ارى . . . لا احس . . . استلقى
واتدثر . . . ليت النهاية قريبة . . . ولكن داشا تضايقتي ، لا
تدعنى اغيب . . . تمسك يدي ، تقبل ، تدمدم ، وتدمدم . . .
وكان تنفس حياة ينصب منها في جسدي الفارغ الخفيف . . . ما
اضجر ذلك ! . . كيف اشرح لها ان الموت سهل ، اسهل من ان
احس بهذا النفس الحى في كياني . . . ليها تتركنى لا» .

- كاتيوشا ، انا احبك ، احبك ، هل تسمعين ؟

«لا تتركنى ، تشفق على» . . . يعنى غير ممكن . . . ستبقى
الفتاة وحدها ، تتشتم» .

- داشا !

- ماذا ؟

- لا اموت .

يبدو ان اباهما يقتررب . في الجر رائحة تبغ . ينحنى ،
يزيح البطانية ، وتغرز ابرة في الصدر بالم حاد لذيق . وتسرى
في الدم طراوة التسكين العذبة وتترنح جنران الدهليز الاصفر ،
وتنفرج ، وينشر برد منعش . وداشا تمسك النواع المنطرحة
فوق البطانية ، وتضغط شفقتها عليها ، وتبث فيها دفا . وبعد

دقيقة اخرى يذوب الجسد في ظلمة النوم الحلوة . ولكن الشرطات
الصفراء الصارمة تتطاير مجددا من الجانبين ومن وراء عينيه . . .
وتكون متباهية ، ومن تلقاء نفسها ، وتتصافى ، وتقيم دهليزا
خانقا ، معذبا .

- داشا ، داشا لا اريد ان ارحل الى هناك .

وتمسك داشا رأسها بيديها ، وتستلقى على الوسادة الى
جوارها ، وتضغط نفسها عليها وهى حية قوية ، وكانما تنبثق
منها قوة الحياة الفظة الحارة !

ولكن الدهليز استطال مرة اخرى ، وكان يجب ان
تنهض ، وتجرحر فيه قدميها ، وعلى كل قدم ثقل طن . لا يجوز
ان تظل راكدة . وداشا تحتضنها ، وتنهضها ، وتقول لها :
تعالى .

وهكذا صارت كاتيا الموت ثلاثة ايام يلياليها . وكانت تحس
في نفسها دائما برادة داشا المضطربة ولولا داشا لغارت منذ
زمان ، وارتاحت الى الابد .

في اليوم الثالث قضت داشا المساء كله والليل عند سرير
شقيقتها لا تبارحه . وكان الشقيقتين صارتا كيانا واحدا له
الم واحد ، وارادة واحدة . وقبل الصباح تصببت كاتيا اخيرا
بعرق غزير ، وانقلبت على جنبها . وكانت انفاسها لا تكاد
تسمع . ارتعبت داشا ، واستدعت اباهما . وقررا الانتظار .
وفي الساعة السابعة صباحا زفرت كاتيا ، وانقلبت على جنبها
الآخر . ومرت الازمة ، وبدأت العودة الى الحياة .

ولاول مرة خلال تلك الايام غفت داشا ايضا على المقعد الكبير
عند الفراش . وعندما علم نيقولاى ايفانوفيتش ان كاتيا قد
خلصت من الموت طسوق دميتري ستيبانوفيتش من صداره
الموثر ، واجهش باكيًا .

وبدا النهار الجديد بداية سارة ، وكان دافئا شمسًا ، وبدا
كل واحد منهم طيبًا مع الآخر . وجلبت من حانوت الزهور
شجيرة من زهور الليلق الابيض ، ووضعت في غرفة الجلوس .

واحسنت داشا بانها قد انتزعت كاتيا بيديها من الحفرة الباردة السوداء المؤدية الى الظلام الابدى . لم يكن على الارض شيء اغلى من الحياة ، وقد ادركت ذلك الآن ادراكا راسخا .

في نهاية ايار نقل نيقولاي ايفانوفيتش يكاترينا دميترييفنا الى بيت ريفى مبنى من جذوع الشجر قرب موسكو ، له شرفتان كانت احدهما تطل على حرش من اشجار البتولا ينشر ظلا اخضر متحركا دائما تسرح فيه عجول رقتشا ، وتطل الثانية على حقل منحد متموج .

وفي كل مساء كانت داشا ونيقولاي ايفانوفيتش ينزلان من قطار الضواحي الى محطة صغيرة ، ويسيران في المروج المستنقى . وكان البعوض يحوم حول راسيهما . ثم كان يتعين عليهما ان يصعدا في مرتفع . وهنا كان نيقولاي ايفانوفيتش يتوقف عادة بحجة ان يلقى نظرة على الغروب ، ويقول لاهنا :

- يارب ، ما اروع ذلك !

كانت السحاب الليلية الساكنة العقيمة ، وهي السحاب التي تكون عادة عند الغروب ، تجسم وراء السهب المظلم المزروع في بعض اجزائه بشرائط من العيوب ، وفي الاجزاء الاخرى باشجار الجزر اللغاء واياتك البتولا . وكان وهج الغروب السماوي يشع ضوءا كائبا من الفرجات الطويلة في هذه السحاب ، وقد انعكس شريط برتقالي من السماء على مسافة غير بعيدة الى الاسفل عند خور الجدول . وكانت الضفادع لا تكف عن التقيق ، واكداس الدريس وسقوف القرية تلوح داكنة في الحقل المنبسط الذي اوقدت نار في ناحية منه . وهناك ، في مكان ما وراء السدة والسياح العالي كان معسكر لص توشينكو . في غابر الازمان . ظهر قطار من

* - كان دميتري الدهى الثانى العويصة المتدخلين البولويين والفايتقان . وقد ادعى انه ابن قيصر روسيا ايفان الرابع . وقد دخل روسيا مع القوات البولوية في سنة ١٦٠٧ وعسكر في توشينو بالقرب من موسكو . في عام ١٦١٠ قتله احد اصداره . (المترجم) .

وراء الغابة يصفر صفيرا طويلا ، ناقلا الجنود الى الغرب ، في الغروب الخابى .

اتحرتب داشا ونيقولاي ايفانوفيتش من البيت الريفى آخذين طريقهما في طرف الغابة ، قريبا من خلال زجاج الشرفة المائدة معدة للعشاء ، ومصباحا على شكل كرة زجاجية مغبشة . ركضت للقائهما كلبه المنزل «شاريك» تنبح بخفاوة ، وحين وصلت اليهما مبصصة بذيلها ، ابتعدت عنهما حيطلة الى الافستنين ، وواحت تنبح في ناحية .

فقرت يكاترينا دميترييفنا باصابعها على زجاج الشرفة ، فقد كان ما يزال غير مسموح لها الطلوع الى الخارج بعد حلول الظلام . اغلق نيقولاي ايفانوفيتش باب السياج وراه ، وقال : «في رأيى انه بيت ريفى فاتن» . وجلسوا الى العشاء . روت يكاترينا دميترييفنا اخبار المنطقة : جاءت كلبه مجنونة من توشينكو ، وعضت دجاجتين من دجاجات عائلة كيشكين ؛ عائلة جيلكين انتقلت اليوم الى بيت سيموف الريفى ، واذا بسماورهم يسرق في نفس اليوم . الطباخة ماتريونا جلدت ابنها مرة اخرى .

تناولت داشا طعامها صامتة ، فقد تعبت في المدينة تعبنا شديدا . اخرج نيقولاي ايفانوفيتش من حقيبتة حزمة من الجرائد ، واخذ يطالعها ، مغللا اسنانه بعود التخليل ، وعندما كان يقع على انباء مؤسفة ، كان يحدث صريفا باسنانه الى ان تقول كاتيا له : نيقولاي ، ارجوك ، لا تصرف باسنائك . خرجت داشا الى مقدمة البيت ، وجلست ، واستندت حنكها على بدها ، وحدثت في السهل المظلم العرصع بالنيران ، والى النجوم الصيفية الصغيرة المنثورة . كانت تنبعت من الحديقة رائحة احواض زهور مروية . في الشرفة كان نيقولاي ايفانوفيتش يقول وهو يقلب جرائده .

- لا يمكن ان تستمر الحرب طويلا بعد الان لسبب واحد

هو ان دول الوفاق ونحن - الحلفاء - ندمر انفسنا .

سالت كاتيا :

- اتريد شيئا من اللبن الخائر ؟

- اذا كان باردا فقط . . . فطاعة ، فطاعة ! فقدنا
المدنيتين : لفوف وليوبلين . يا للعار ! كيف يمكن ان نقاتل اذا
كان الخونة يغرزون السكنين في ظهورنا ! مستحيل !

- نيقولاى ، لا تصرف باسنانك .
- اتركينى وشانى ! اما اذا فقدنا فرسوفيا فذلك هو العار
الاكبر ، وبعده سيتعذر العيش . حقا في بعض الاحيان يتساءل
العرب مع نفسه : اليس من الافضل عقد هدنة من نوع ما ، وتحويل
العراب نحو بطوسبورغ ؟

تناهى صغير قطار من بعيد ، وترددت قرععة عجلاته على
الجسر الملقى فوق الجداول الذى كان الغروب منعكسا عليه
قبل حين ويبدو القطار ينقل الجرحى الى موسكو . خشخش نيقولاى
ايفانوفيتش بصحفه مرة اخرى وقال :

- القطارات تنقل الجنود الى الجبهة بدون بنادق . وهم
يقعدون في خنادقهم مسلحين بالعضى . وبنديقية واحدة لكل خمسة
منهم . ويهاجمون بهذه العضى نفسها ، على امل ان ياخذوا بنديقية
الجندى المجاور حين يصرع . اوه ، اللعنة ، اللعنة ! . .

نزلت داشا من مدخل البيت ، وضعت مرفقها على باب
الحديقة . كان ضوء الشرفة يسقط على اوراق الارطقيون الالامعة
عند السياج ، وفي الطريق . مر بيتيا ، ابن ماتريونا ، منكس
الراس بائسا فاتر الهممة يثير الغبار بقدميه الحافيتين . لم يبق
امامه الا ان يعود الى المطبخ ويقوم نفسه للجلد ، ويستلقى
لينام .

خرجت داشا من باب الحديقة ، وسارت ببطء الى نهر
خيمكى .

وهناك وقفت على الجرف في الظلام وتسمعت . وترامى
اليها خربنوع لا يسمع الا في الليل . دمدمت كتلة من التربة
انخلعت من الجرف الجاف ، وتدرجت عليه ، سقطت في الماء
بطرطشة . وكانت اشباح الاشجار السوداء تنتصب على جانبيها
ساكنة . ونجاة بدأت اوراقها ترسل حفيفا ناعسا ، ثم عاد السكون .
مرة اخرى . وسألت داشا نفسها بصوت خفيض : متى ، متى ، متى !
وظلقت باصابعها .

في احد الاعياد في اوائل حزيران استيقظت داشا في ساعة
مبكرة وذهبت لتغتسل في المطبخ لئلا توقظ كاتيا . رأت على
المنضدة كومة من الخضار ، وفوقها بطاقة بريديه خضراء يبدو
ان بائع الخضار جلبها من البريد مع الجرائد . كان بيتيا ، ابن
ماتريونا ، يجلس على العتبة ناشقا ، وقد شد ساق دجاجة الى
عصا صغيرة . وكانت ماتريونا تعلق الغسيل على اقصان الاقاصيا .
صبت داشا في وعاء خزفي ماء فواحا برائحة النهر ونضت
قميصها عن كتفيها ، ونظرت مرة اخرى لتعرف ما هذه البطاقة
البريدية الغريبة . امسكت طرفها بأصبعين مبللتين ، فاذا بها
تقرأ : «عزيزتى داشا ، انا قلق لاننى لم اتلق ردا على اية
واحدة من رسائلى . امن المعقول انها فقدت ؟»

اسرعت داشا بالجلوس على المقعد ، فقد غامت الدنيا
امام عينيها ، وارتخت رجليها . . . «جرحى قد انهدم كليا وانا
الآن امسارس التمارين الرياضيسية يومينا وعلى العموم امسك زمام
نفسى بيدي . بل واتعلم الانجليزية والفرنسية . اعانقك ،
يا داشا ، اذا ما زلت تذكرينى . ايفان تليفين» .

سحبت داشا قميصها على كتفيها وقرأت الرسالة للمرة
الثانية :

«اذا ما زلت تذكرينى ! . .» وثبتت واقفة وركضت الى كاتيا في
مخدها ، وازاحت الستارة القطنية من على النافذة .

- كاتيا ، اقرئنى بصوت عال ! . .

وجلست داشا على سرير كاتيا التى بدا عليها الفزع ، ولم
تنتظر ان تقرأ اختها الرسالة ، واخذت تقرأها بنفسها ، ونهضت
مسرعة بعد هذا ، رافعة يديها :

- كاتيا ، يا كاتيا . ما اضع ذلك !

- ولكنه حى ، والحمد لله ، ياعزيزتى داشا .

- احببه ! . . يا الهى ، ماذا على ان افضل ؟ . . اجبنى
يارب ، متى تنتهى الحرب ؟

اختلفت داشا البطاقة البريدية ، وركضت الى نيقولاى
ايفانوفيتش . وبعد ان تلتها عليه طلبت منه مأخوذة ادق جواب
عن سؤالها : متى تنتهى الحرب ؟

- يا عيزتي ، لا احد الآن يعرف هذا .

- فماذا تعمل انت ، اذن ، في ذلك الاتحاد البلدي الاحمق ؟
لا شيء غير هراء يقوله الجميع من الصباح حتى المساء . ساذهب
الى قائد القوات في موسكو . . . واطلب منه . . .

- ماذا تطلبين منه ؟ آه ، يا داشا ، داشا . ينبغي ان
تتخلي بالصبر .

وظلت داشا بضعة ايام تلوب على نفسها ولا تستقر في
مكان . ثم هدأت ، وكانها انطفأت . وكانت في المساء تآوى الى
غرفتها مبكرا ، وتكتب الرسائل لياغان ايليش ، وتصنع الطرود
له وتلفها بالجفانص . وعندما كانت يكاترينا ديمترييفنا تبادلها
الحديث عن تليغين كانت داشا تضحك عادة . وتخلت داشا عن
زهرة المساء ، وظلت تقضي معظم اوقاتها جالسة مع كاتيا وهي
تخيط او تطالع . وكانت تحس ضرورة ان تخفي كل مشاعرها
في اعماق نفسها قدر الامكان ، وتغطي نفسها بجلدة عادية حصينة
من الحياة .

اما يكاترينا ديمترييفنا فرغم انها ابلت تماما خلال الصيف
الا انها انطفأت هي الاخرى مثل داشا . وكانت الشقيقتان غالبا ما
تقولان انهما ترزحان مثل كل انسان الآن ، تحت ثقل كحجر
الرحى . كانتا تجدان رهقا في الاستيقاظ . ورهقا في السير
ورهما في التفكير والالتقاء بالناس ، وتتلهفان الى الساعة التي
تأديان فيها الى الفراش مرهقتين ، فان النوم والنسيان متعة لا
تعادلها متعة . بالامس دعت عائلة جيلكين الضيوف لتذوق العريبي
التي صنعتها حديثا ، ووصلت الجريدة وهم يحتسون الشاي ،
وإذا بهم يجدون اخا جيلكين في قائمة القتلى . لقد صرع في ساحة
المجد . دخل اهل المنزل الى البيت ، ومضى الضيوف على الشرفة
في الظلام بعض الوقت ، ثم انصرفوا صامتين . وهكذا الحال في
كل مكان . كانت تكاليف العيش عالية ، والمستقبل يبدو غامضا ،
والياس يخيم على النفوس . وجرى التخلي عن فرسوفيا ، ونسفت
بريست-ليتوفسك واستسلمت . وكان الجواسيس يعتقلون في
كل مكان .

وكرر قطاع الطرق في المنخفض على نهر خيمكي . ولم يخرج

احد الى الغاية اسبوعا كاملا خوفا منهم . ثم طردهم الحراس من
المنخفض ، واعتقلوا اثنين منهم ، ونجا ثالث وانسل الى قضاء
زفينغورود كما يقول الناس لينهب الضياع .

ذات صباح وصلت عدوا عربة الى الساحة الصغيرة قرب
بيت عائلة سموكونيكوف ، وكان السائق واقفا على بسطة
العربة . وتراخضت نحوه من كل الجهات النسوة والطباخت
والصبيان . ان شيئا ما قد حدث . وخرج بعض المصطافين
مستأجري البيوت الريفية من ابواب حدائقهم . واندفعت ماتريونا
عبر الحديقة وهي تمسح يديها . كان السائق يقول احمر ملتعبا
وهو واقف على بسطة عربته :

- . . . جروه من الدائرة وهزوه وضربوه على الرصيف ،
ثم قذفوه في نهر موسكو . وكان حوالي خمسة المان مختفين في
المصنع . . . امسكوا ثلاثة ، الا ان الشرطة هربتهم ، والا لكان
لهم نفس المصير في نهر موسكو . . . وفي ساحة لوبيانسكايا
كلها يتطايير الحرس والمخمل على الدوام . والنهب يجري في
المدينة كلها . . . والناس حشود . . .

انزل سوطه بكل قوة على حصانه العدا المنحني بعض الشيء
بين عريبتى العربية المعكوفين ، حاشا اياه وساطه مرة اخرى
فانطلق الحصان بالعربة المتخلخلة وثبا في الشارع ، ناخرا مزيدا ،
وانعطف نحو الخمارة .

كانت داشا ونيقولاى ايفانوفيتش في موسكو . وكان عمود
اسود من الدخان يتصاعد من هناك واثى سدوم السماء الرمادي
المسفوق بالشمس ، وينتشر كسحابة . وكان الحريق يشاهد
جيذا من ساحة القرية حيث تجهم حشد من سواد اهل الريف .
وحين كان المصطافون مستأجرو البيوت الريفية يقتربون كانت
الاحاديث تسكت : كانت الانظار التي توجه الى السادة مشنوبة
بالسغربة او التوقع الغريب . وظهر رجل قوى البسطن وحاسر
الراس يرتدى قميصا ممزقا ، وصاح وهو يتقدم الى كنيسة صغيرة
مبنية بالآجر :

حشودا ، ويحطون بيوت الالمان والمخازن الالمانية . وقد احرقت
عسدة بيوت ونهسب مخزن الملابس الجاهزة التابع
لماندل ، وحلم مستودع بيكر للبيانوهات في شارع كوزنيسكى
موست . ورميت البيانوهات من نوافذ الطابق الثانى ، والقيت في
النار .

وتقطت ساحة لوبيا نساكيا بالادوية والزجاج المهشم . ويقال
ان حوادث قتل قد وقعت . وبعد الظهر خرجت الدوريات ، واخذت
تفرق الناس . والان هذا كل شىء .

قال نيقولاى ايفانوفيتش وهو يرمى بعينيه من الانفعال :
- هذه مجيئة ، بالطبع . ولكن تعجبني هذه الروح
الملتية ، جبروت الشعب . اذا كانوا اليوم قد نهوا المخازن
الالمانية فعدا سيقمبون والترايس . والحكومة تهاونت في
هذه الاباحة عن قصد . نعم ، اؤكد لك لتفلس عن شدة غيظ
الشعب . ولكن الشعب من خلال هذه الافعال سينطمع في تذوق
شىء اكثر جدية . . .

وفي تلك الليلة نهب قبو عائلة جيلكين ، وسرقت بياضات
عائلة سفيتشنيكوف من العلية . وظل الضوء مشتعلا في الخمارة
حتى الصباح . وبعد اسبوع صار اهل القرية ينهامسون ، وهم
ينظرون نظرات هربية الى المصطافين المتزهين .

وفي بداية آب انتقلت عائلة سموفنيكوف الى المدينة .
وعادت يكاترينا دميترييفنا الى عملها في المستشفى العسكرى .
وكانت موسكو في ذلك الغريف حافلة باللاجئين من بولنده .
وكان من المتعذر على المرء ان يشق طريقه في زحام شارع
كوزنيسكى موست ، وبتروفكا ، وتفريسكايا . وكانت المخازن
والمقاهى والمسارح غاصة بالناس ، وفي كل مكان كانت تسمع
عبارة جديدة : «معدور» .

وكان هذا اللغظ والترف والمسارح والفنادق المكتظة ،
والشوارع المزدهمة السابجة بالضوء الكهربائى معمية عن جميع
المخاطر بجدار حى يكوئه جيش مؤلف من اثنى عشر مليونا من
البشر ينزف دما .

واستمرت الاوضاع الحربية في حالة لا تبعث على الاطمئنان

- في موسكو يذبحون الالمان .
وما كاد ينتهى من صباحه حتى اخذت امرأة حبلى تنجب .
وتدافع الناس الى الكنيسة ، وركضت يكاترينا دميترييفنا ايضا
الى هناك . واضطرب الحشد ، وضح .

- محطة فرسوفيا في موسكو تحترق . احرقتها الالمان .

- ذبحوا زهاء الفى المائى .

- بل ستة آلاف . والقى الجميع في النهر .

- بداوا بالالمان ، ثم مضوا يصفون بالتتابع . يقولون
ان حوانيت شارع كوزنيسكى موست * قد نهيت الى آخرها .
- هذا ما يستحقونه . سمئوا على عرقنا ، هؤلاء الاوغاد !
- من المستحيل ان توفد الشعب .

- في منتزه بترفوسكى ، وانا لا اكدب قسما بالله ، فقد
جاءت اختى لتوها من هناك ، في هذا المنتزه ، كما يقول الناس ،
عثروا على جهاز لاسلكى في بيت ريفى ووجدوا بالقرب منه
جاسوسين متنكرين بلحيتين مستعارتين . وقد فتكوا بهما بالطبع .

- ينبغي ان تفتش جميع البيوت الريفية !

ورأى الناس فيما بعد فتيات قرويات يحملن اكياسا
فارغة وهن يركضن هابطات التل نحو السدة التى يسير عليها
طريق موسكو . اخذ الناس يصيحون عليهن . فالتفتن ،
ولوحن بالاكياس وتضاحكن . سألت يكاترينا دميترييفنا
فلاحا هربا محتشم المظهر كان واقفا بالقرب منها يحمل
عصا طويلة .

- الى اين هؤلاء الفتيات يركضن ؟

- لينهين ، ايتها السيدة الكريمة .

واخيرا وبعد الساعة الخامسة وصلت داشا ونيقولاى
ايفانوفيتش من المدينة في عربة . كان كلاهما مضطربا ، وقد
رويا ، واحدهما يقاطع الاخر ان الناس في موسكو كلها يجتمعون

* شارع في موسكو حيث كانت تقع حوانيت غالية كان اكثرها
يعدو الى الاجانب . (الهترجم) .

قط . وكان الناس في كل مكان من الجبهة والمؤخرة يتحدثون عن تصرفات راسبوتين البغيضة ، وعن الخيانة ، وعن استعالة الاستعمار في القتال اذ لم ينقذ القديس نيقولا بمعجزة . وفي خضم اليأس والفساد هذا اوقف الجنرال روزسكى هجوم الجيوش الالمانية بشكل مفاجئ في ميدان مكشوف .

٢٤

كانت الريح الشمالية الشرقية تعني اشجار الحور الجرداء على ساحل البحر في العسق الخريفي ، وتهز اطر النوافذ في البيت القديم القائم على التل بجره الخشبي ، وتدمم في السقف دمنمة تخيل اليك ان انسانا ثقيل الوزن يتخطى على السطح الحديدى ، وتصفر في المداخل ، وتحت الابواب ، وفي كل شق . ومن نوافذ البيت كان في مستطاع الناظر ان يرى الورود العارية تنحني من جهة الى اخرى انحناء شديدا على الارض البنية المحروقة ، والسحب الممزقة تعوم فوق البحر المموج الرصاصى اللون . وكان الجو باردا وموحشا .

وكان ارКАДى جادوف جالسا على اريكة بالية في الغرفة الماهولة الوحيدة في الطابق الثانى من البيت . وكان الكم الفارغ من سترته ، التي كانت انيقة يوما ما ، محشورا تحت حزامها . وكان وجهه بجفنيه المنفتحين مخلوقا حلقة جيدة وشعره مصقوفا بعناية ، وعلى وجنتيه عضلتان متحركتان .

قلص جادوف عينيه من دخان سيكاراته ، واحتسى شيئا من النبيذ الاحمر المتبقى في براميل موجودة في قبو بيت ابيه . وكانت يلزافيتا كييفنا تجلس على الطرف الثانى من الاريكة ، وتحشى النبيذ ايضا وتدخن مبتسمة ابتسامة رقيقة . وقد عودها جادوف ان تصمت اباما كاملة ، ان تصمت وتصفى ، بعد ان يحتمس زهاء ست زجاجات من نبيذ «كابيرنيه» المعتق ويبدأ بالتحدث . وقد تراكمت في نفسه افكار مزيرة كثيرة اثناء الحرب

وانشاء اقامته جالعا في «قصر كابيرنيه» نصف المهدم وسط بضعة افدنة من دوال الكروم - الثروة الوحيدة التي بقيت له بعد وفاة ابيه .

في ليلة من الليالى التعسة في المستشفى العسكرى في المؤخرة قبل ستة اشهر حين كانت ذراعه المبتورة غير الموجودة توجهه وجعا مضضا قال ليلزافيتا كييفنا بغضب وحق وتكدر : -بدلا من ان تبخلقى في بعينيك العاشقتين طوال الليل ، ولا تدعيني انام استدعى القس غدا ليسوى هذه القضية المضجرة . امتلقت يلزافيتا كييفنا ثم هزت راسها موافقة . وعقصد قرانهما في المستشفى العسكرى . وفي كانون الاول نقل جادوف الى موسكو ، حيث اجريت له عملية ثانية ، وفي بوكرى الربيع سافر مع يلزافيتا كييفنا الى انابا ، وسكنا في «قصر كابيرنيه» . ولم تكن لجادوف اية موارد للعيش ، فكانا يتصلان على ثمن خبزهما ببيع الاثاث القديم والادوات المنزلية . الا ان النبيذ الكابيرنيه كان متوفرا بكثرة والمخمر خلال سنوات الحرب .

وفي هذا البيت الغاوى نصف المهدم ذى البرج الملبوث بذرق الطيور بدأت البطالة الطويلة الميثوسسة . وقد استنفدت الاحاديث كلها منذ زمن طويل . والمستقبل لا ينطوى على شيء وكان الباب المغلق على الزوجين الى الابد .

حاولت يلزافيتا كييفنا ان تملأ بوجودها فراغ الايام الطويلة بشكل مذهب . ولكنها لم توفق كبير توفيق : فقد كانت رغبتهما في الخطوة بالاعجاب مضحكة وغير متقنة ، وبلا اقتدار . وقد عبرها جادوف على ذلك . فراحت تفكر في ياس بانها ، رغم سعة فكرها ، سريعة التأثر كامرأة . ومع ذلك فانها لن تستبدل بابة حياة اخرى هذه الحياة المعتمدة المملوءة بالاهانات ، المترعة بالسام ، والخضوع للزوج ، واللحظات النادرة من النشوة المجتونة .

وفي الآونة الاخيرة ، حين اخذ الخريف يصفر على الساحل الأجرد اصبح جادوف متوتر الاعصاب بشكل خاص : فما تكاد تبدى حركة حتى ترتفع شفته فوق اسنانه العائقة ، ويتقوه باشياء فظيعة من خلال اسنانه مقطعا الكلمات بوضوح . وكانت يلزافيتا

كيفنا فقط ترعد داخلها في بعض الاحيان ، وتسرى القشعريرة في جسدها من الهانة . ومع ذلك كانت تصغي الى هذيانه ساعات طويلة غير صارفة عينيها عن وجهه الجميل الناحل .

وكان يرسلها لتجلب النبيذ من القبو الاجررى المقوس السفف ، مسرح العناكب الكبيرة الراكضة . فكانت تفرص هناك عند برميل ، وتراقب نبيذ كابيرنيه الاحمر ينزل في الجرة الخزفية وتطلق العنان لافكارها . وتفكر بمرارة منتشبة في ان اركادى سيقلتها ذات يوم هنا ، في القبو ، ويدفنها تحت برميل . وتستمر ليالى شتائية طويلة وذات ليلة يوقد شمعة ، وينزل الى العناكب هنا . ويجلس امام البرميل ، ويراقب هذا النبيذ النازل كما تراقبه الآن ، وينادى فجأة «ليزا . . .» وما من شيء غير العناكب تركض على الجدران . فيجيش لاول مرة في حياته من الوحدة ، ومن الوحشة القاتلة . لقد كانت يلزافيتا كيفنا تعوض بمثل هذه الاحلام عن كل الاساءات ، فانها في آخر المطاف ستكون هي الراححة لا هو .

اشدت الريح ، واهتز الزجاج من عصفاتها . اعول صوت وحشى من البرج ، وسيظل يعول ، على ما يبدو ، طوال الليل ، ولم تتوقد نجمة واحدة فوق البحر .

وكانت يلزافيتا كيفنا قد نزلت ثلاث مرات الى القبو ، وملاّت الجرة . وبقي جادوف على جلسته الساكنة وعلى صمته . في هذه الليلة لا بد ان تجرى احاديث من نوع خاص .

وتكلم جادوف فجأة بصوت عال :

- اليست عندنا بطاطس ، على الاقل ؟ كان في امكانك ، على ما يبدو ، ان تلاحظي اننى لم اتناول شيئا من الاكل منذ الامس ، وذهلّت يلزافيتا كيفنا . بطاطس ، بطاطس . . . انها منذ الصباح كانت مشغولة بافكارها ، بعلاقة اركادى بها حتى ان العشاء لم يخطر على بالها . وثبت من الاريكة . فقال جادوف بصوت متثلج :

- اجلس ياقدرة . انا اعرف بدونك اننا لا نملك بطاطس . يجب ان اقول لك انك لا تجيدين شيئا في الحياة خلا التفكير في مختلف السفاسف .

- ساذهب الى جيرانا ، فقد يبادلوننا النبيذ بشيء من الغبن ومن البطاطس .

- افعل ذلك حين افرغ من العديث . اليوم حلت نهائيا مسألة اباحة الجريمة . وبهذه الكلمات لغت يلزافيتا كيفنا الفلاح عليها ، وانزوت في طرف الاريكة . ان هذه المسألة استهوتنى منذ الطفولة . والنساء اللائى التقيت بهن اعتبرنسى مجرما ، واستسلمن لي بتعطش كبير . الا اننى لم احصل فكرة الجريمة الا في الاربعة والعشرين ساعة الماضية .

ومد يده الى القدرح ، وشرب النبيذ بنهم واشعل سيكارة :

- تصورينى جالسا في الخندق على بعد ثلثمائة خطوة عن العدو . فما الذى يمنعنى من تخطي المتراس ، والذهاب الى خندق العدو ، لاقتل مَنْ ينبغي ان يقتل ، وانهب فلوسهم وبطانياتهم والقهوة والتبغ ؟ لو كنت وانقا من انهم لن يرمونى او يرمونى ولكن لا يصوبونى فاننى بالطبع لذبحت ونهيت ، ونشرت صورتنى في الصحف كبطل . ان ذلك يبدو واضحا ومنطقيًا .

والآن ، ها انا قاعد على بعد ستة فراسخ من انابا ، في قصر كابيرنيه» وليس في خندق ، فلماذا لا اذهب ليلا الى المدينة ولا اقتحم مخزن مورافيتشيك للمجوهرات ، واستولى على المجوهرات والذهب ، واذا صادقت مورافيتشيك نفسه ، فاغرز فيه سكيننا بكسل سرور ، في هذا الموضع - و اشار باصبعه الى بداية الرقبة بحزم - لماذا لا افعل ذلك حتى الآن ؟ هذه المرة ايضا بدافع الخوف فقط . والخوف من الاعتقال ، والمحكمة ، والاعدام . يبدو اننى اتحدث بمنطق . ها ؟ ان سلطة الدولة هي التي تبست في مسألة قتل ونهب العدو . اى تبست فيها وفق الاخلاق اللبسي ترسمها الحكومة ، اى مجموعة القوانين الجنائية والمدنية ، في المعنى الايجابى . ومعنى ذلك ان المسألة تنحصر في احساسى الشخصى بَمَنْ اعتبره انا عدواً .

قالت يلزافيتا كيفنا بصوت لا يكاد يسمع :

- العدو في الحالة الاولى هو عدو الدولة وفي الحالة الثانية عدوك فقط .

- تهانئ ! حديثى شيئا ما عن الاشتراكية . هراء ! الاخلاق

قائمة على حق الفرد ، لا المجموع . اعتقد بان التعبئة قد نجحت نجاحا باهرا في جميع الاقطار والحرب ماضية في سنتها الثالثة بكل ممعانها ، مهما احتج بابا روما ، فقط لاننا جميعا ، كل فرد منا ، قد تجاوزنا قنات الرضاة . اننا نزيد القتل والنهب ، واذا لا نزيد بشكل مباشر فاننا لا نعترض عليهما في شيء . والدولة تنظم القتل والنهب . والحقني والقاصرون ماضون في تسمية القتل والنهب قنات ونها . وانا منذ الآن اسميها التحقيق الكامل لحق الفرد . النمر ياخذ ما يريد . وانا ارفع من النمر . فمن يجرؤ على تحديد حقوقي ؟ مجموعة القوانين ؟ لقد اكلتها الديدان .

وضم جادوف قديمي ، ونهض بخفة ، وراح يذرع الغرفة التي كان يتسلل اليها من خلال الزجاج المعبر خط كآب مسن الغروب لا يكاد يثيرها .

— ان مليارا من الناس يجدون انفسهم الآن في حالة حرب . وخمسمائة مليون من الرجال يقاتلون في الجبهات ، وهم منظمون ومسلحون . ويمثلون في الوقت الحاضر مجموعتين متعاديتين . ولكن لا شيء يمتعهم من ان يوقفوا القتال في احد الايام ، ويتجدوا وسيحدث هذا حين سيقول رجل لهذه الخمسمائة مليون مسن الرجال : «ايها الحقني ، انكم لا تصوبون الى الهدف الصحيح» . ولا بد ان تنهي الحرب بتمرد ، بثورة ، بحريق يشمل العالم . وتتحول الحراب الى داخل البلاد . وسيكون المجموع سيد الحياة وسيجلسون على العرش فقيرا من الختالة ويقدمون له فروض الطاعة . وليكن ذلك . ان ذلك سيزيد من اطلاق يدى للتنضال . فمن ناحية يوجد قانون الجماهير ، ومن الناحية الثانية يوجد قانون الفرد . انتم الاشتراكية ونحن قانون الغاب ، نحن الفوضوية المقدسة ، المنظمة بانضباط جديدي .

كان قلب يلزافيتا كيفينا يخفق خفقانا مجنوننا . انها هذه بالذات تلك «المهاوي» التي كانت تحلم بها حين كانت في شقة تليفين . ولكنها لم تعد تلك المزحات المرحة المصاغة بالبندول الاثنى عشرة «للاستغزاز الذاتي» التي علقها نزلاء شقة تليفين على باب ليذا . . . والآن في العسق مر بالثوفاذ رجل رهيب حقا مثل حيوان الكوجر الامريكى في قفص . كان يتحدث

لمجرد انه غير طليق . وحين اصغت يلزافيتا كيفينا اليه احست وكأنها رات عدوا مجنوننا لخيول منطلقة ، وسهبا ، ووهجا . . . وترامى لها انها تسمع صيحات ، وضجيج معركة والزعيق قبل الموت وانغاني السهب .

٢٥

في اوائل الشتاء من عام ١٩١٦ ، ووسط الجزع العام والتوقعات التي لا تحل املا استولت القوات الروسية فجأة على قلعة ارضروم بالعنوة حاضرة انفاقا عميقة خلال الثلوج ، متسلقة منحدرات كساعا الحديد . وكان ذلك في وقت مئى فيه الانجليز يهزائم عسكرية في ما بين النهرين وقرب القسطنطينية ، وجرى فيه قتال عنيد في الجبهة الغربية على بيت المعداوى على نهر ايسر ، وكان الاستيلاء على بضعة امتار من الارض العروية بالعماء ربا كفيفا يعتبر نصرا كان برج ايفيل يسرع لاذاعته على جميع العالم .

وفي الجبهة النمساوية تحولت الجيوش الروسية بقيادة الجنرال بروسيلوف الى هجوم حاسم بنفس الفجأة ايضا . وحدثت بلبلة عالمية . وصدر في انجلترا كتاب عن الروح الروسية الملغزة . وبالفضل ، وخالفا للفكر المنطقي ، وبعد سنة ونصف سنة من الحرب ، والهزيمة ، وفقدان ثمانى عشرة ولاية ، وخور العزيمة العام وبعد الخراب الاقتصادي ، والانحطاط السياسي عادت روسيا مندفة الى الهجوم على طول جبهتها تمتد ثلاثة آلاف فرسخ . وارتفعت موجة معاكسة من القوة النضرة التي تبدو غير مستنفدة .

وسازت صفوف مئات الاولوف من الاسرى داخل روسيا . وتلقت النمسا ضربة مميته ونتيجة لها تهشمست بعد سنتين بسهولة وكانها وعاء من الفخار . وعرضت المانيا الصلح سرا . وارتفع سعر الروبل . وانبعث من جديد الامل بانتهاء الحرب العالمية بضربة حربية . وراجت «الروح الروسية» زواجا فانقا بين الناس . وشجنت بوخر المحيطات بالفرق الروسية . وغنسى

فلاحو اوريلو ، وتولا ، وريازان اغاني الجنود الروسية في شوارع سلايك ، ومارسيليا ، وباريس ، وشنوا هجرات جنونية بالحرايب اتقادا للحضارة الاوربية .

واستمر الهجوم طيلة الصيف واستدعى للخدمة رجال من اعمار متزايدة ممن كانوا في الاحتياط ، وانتزع الفلاحون في سن الثالثة والاربعين من العقل ، من العمل . وكان يجري تشكيل الوحدات التكميلية في جميع المدن . واقترب عدد المبعثين الى اربعة وعشرين مليوناً وخيمت على المانيا ، واوربا كلها سحابة الرعب القديم من الجحافل الآسيوية .

وخلال هذا الصيف اقتربت موسكو افتقاراً شديداً . فقد امتصت الحرب الرجال مثل مضخة ماصصة . ورحل نيقولاى ايفانوفيتش الى الجبهة في مينسك . وعاشت داشا وكاتيا في المدينة عيشة هادئة منعزلة ، وكان العمل كثيراً ، وحيانا كانت تأتي من تليفين بطاقات بريدة مقنضبة حزينة ، فقد حاول كما يظهر ، الهروب من الاسر ، الا انه قبض عليه ، ونقل الى قلعة . وفي احد الاوقات زار الشقيقتين رجل لطيف جدا هو النقيب روتشين الذى اوعد الى موسكو لتسلم النخوة . وكان نيقولاى ايفانوفيتش قد اخذه ذات مرة في سيارته من الاتحاد البلدى ليتناول طعام الغداء في البيت . ومنذ ذلك الحين اخذ روتشين يتردد على البيت .

كان جرس الباب الخارجى يرق عند حلول الظلام من كسل مساء . ففتنهد يكاترينا ديمتريفينا على الفور تنهيدة حذرة ، وتذهب الى الصوان ، وتضع مربى في سكرجة او تشرح الليمون شرائح للشاي . ولأحظت داشا ان كاتيا حين يظهر روتشين في غرفة الطعام ، بعد ان يرق الجرس ، لا تدير رأسها اليه حالا ، بل تتباطأ برهة ، ثم تطل من شفتيها ابتسامتها الرقيقة المعتادة . وكان فاديم بيتروفيتش روتشين ينحن بتحية صامتة . كان نحيلاً ذا عينين داكنتين خاليتين من البهجة ، ورأس حليق متناسق . . . وكان يجلس الى المائدة متمهلاً وشرع برواية الانباء الحربية . وكانت كاتيا تشرب الشاي ، وتتنظر في وجهه ، وكان يبدو من عينيه بحدقتها الواسعتين انها تصفى اليه باهتمام خاص . وحين

تلتقى عيناه ببعينها كان يظهر على وجهه عبوس خفيف ويصلصل مهمازة تحت المائدة . وحيانا يخيم على المائدة صمت طويل ، وفجأة تتشهد كاتيا وتحمر ، وتبسّم عن تقصير . وينهض روتشين في نحو الساعة الحادية عشرة ويقبل يد كاتيا باحترام ويد داشا بذهول وينصرف ، راجيا الا يرافق الى الرواق . وكانت خطواته القوية تسمع وقتاً طويلاً في الشارع الخالى . وكانت كاتيا تمسح الاكواب وتغلق الصوان ، دون ان تنطق كلمة واحدة ، وتاوى الى غرفتها ، وتدير المفتاح في الباب .

ذات مرة كانت داشا تجلس قرب النافذة المفتوحة عند الغروب . كانت الخطاطيف تحلق عالياً فوق الشارع . واستمعت داشا الى اصواتها الرقيقة الرنانة ، وفكرت في ان يوم غد سيكون حاراً صافياً ، ما دامت الخطاطيف تحلق عالياً . انها طيور سعيدة ما دامت لا تعرف شيئا من الحرب .

غربت الشمس ، وتلون الغبار فوق المدينة بلون ذهبى . وجلس الناس في العيش عند البوابات ومدخل البيوت . وشاعت وحشة في نفسها ، وانتظرت داشا شيئا ما وها هو اورغن الشوارع بدأ عزفه في مكان غير بعيد مضيقاً نغمة عاطفية متكررة مزمنة تعبر عن وحشة المساء . وضعت داشا مرفقها على اقرين النافذة . كان صوت نسائى عال يرتفع الى سطوح البيوت نفسها مغنياً : «تغذيت على الخبز اليابس ، وشربت الماء القارس . . .»

تقدمت كاتيا نحو مقعد داشا من الخلف ، ويبدو انها سمعت ايضاً ، فقد وقفت بلا حراك .

- انها تغنى جيداً ، يا كاتيوشا .

قالت كاتيا فجأة بصوت واطى وغريب .

- لاي شىء هذا ؟ ليم قدر لنا ؟ اى ذنب ارتكبننا ؟ عندما ينتهى هذا ساصير عجوزاً ، هل فهمت ؟ لا اصطبر اكثر من هذا ، لا استطيع . . .

ووقفت عند الحائط ، قرب الستارة شاحبة منقطة الانفاس ، وقد ظهرت غمضون عند فمها ، تنظر الى داشا بعينين جافتين داكنتين . وكررت بنغفوت وبعة صوت :

- لا استطيع اكثر ، لا استطيع . ان ذلك لن ينتهي ابدا ! . . . نموت . . . ولن تعرف الفرحة بعد الآن . . . اتسمعين حولها ؟ . . . انها تدفن احياء .

طوقت داشا اختها ، ومسدت عليها ، وارتدت تهدلتها ، الا ان كاتيا رفعت كوعها حيث ارادت ان تنحيها .

دق الجرس في الرواق . ابعدت كاتيا اختها ، ونظرت الى الباب . دخل روتشين في قميص خشن من الجوخ ، وحذاء جديد مدهون . سلم على داشا ببسمة ، ومد يده الى كاتيا ، وفجأة نظر اليها بدهشة وتجهم . انصرفت داشا الى غرفة الطعام في الحال ومن هناك ، وبينما كانت تضع عدة الشاي على المائدة سمعت كاتيا تسأل روتشين بنفس الصوت الواطئ المبحوح ، ولكن يتحفظ :
- انت مسافر ؟

سعل واجاب بجفاف :

- نعم .

- غدا ؟

- لا ، بعد ساعة وربع .

- الى اين ؟

- الى الجبهة .

وبعد برهة من الصمت ، عاد يقول :

- المسألة ، يا يكاترينا دميترييفنا ، ان هذا هو لغاؤنا الاخير ، على ما يبدو ، ولهذا قررت ان اقول . . .

اسرعت كاتيا لمقاطعته :

- لا ، لا . . . انا اعرف كل شيء . . . وانت تعرف عنى . . .

- يكاترينا دميترييفنا ، انت . . .

صاحت كاتيا بصوت جنوني :

- نعم ، انت ترى بنفسك ! . . اتوسل اليك ان تنصرف . . .

ارتج الفئجان في يدي داشا . واللذان كانا في غرفة الجلوس صمتا . واخيرا تكلمت كاتيا بصوت خافت تماما :

- اذهب ، يا فاديم بيتروفيتش . . .

- وداعا .

وزفر زفرة قصيرة . . . وصرف حذاه المدهون وانصقق الباب الخارجى . دخلت كاتيا غرفة الطعام ، وجلست الى المائدة وضغطت يديها على وجهها بكل قوة .

ومنذ ذلك الحين لم تذكر كاتيا الراحل بكلمة واحدة . تحملت الالم بشجاعة ، رغم انها كانت تستيقظ صباحا وعيناها محمرتان ، وفمها منتفخ . ارسل روتشين في طريقه بطاقة بريدية - تحية للشقيقتين ، ووضعت هذه الرسالة على طوار الموقد حيث لوئها الذباب .

كانت الشقيقتان تذهبان في كل مساء الى بولفار تيفرسكوى لكى تستمعا الى الموسيقى . وكالتا تجلسان على مسطبة ، وتنظران الى الفتيات والصبايا يتزهنن تحت الاشجار في اثواب بيضاء ووردية ، وكان فى البولفار كثرة من النساء والاطفال ، ونادرا ما يمر عسكري مرفوع الذراع في ضمادة ، او مشوه حرب على عكازة . وكان فرقة من الآلات النحاسية تعزف فالس «على تلال منشوريا» . وكان صوت الايواح حزيناً يتعالى في السماء المسائية . وكانت داشا تمسك يد كاتيا الضعيفة التحيلة ، وتقول وهى تنظر الى ضوء الغروب المتسرب من بين الاغصان :

- كاتيوشا ، كاتيوشا ، اتذكرين :

ايه يا حبي الذى لم يكتل ،

في قلبى بيرد الحنان . . .

اعتقد اننا لو نتجمل بالشجاعة ، فسنرى الوقت الذى يتاح لنا فيه ان نحب ، دون عذاب . . . لاننا نعرف الآن ان الحب اسمى شيء في الدنيا . انا اتصور احيانا ان ايفان ايليتش سيأتى من الاسر وسيكون مختلفا جدا ، جديدا كل الجدة . انا الآن احبه بينى وبين نفسى ، بالخيال . وسنلتقى وكان احدنا قد احب الآخر في حياة اخرى غير هذه الحياة .

قالت يكاترينا دميترييفنا ، وقد هالت الى كفتها :

- اما انا ، يا عزيزتى داشا ، فان قلبى قد شاح لما فيه من المرارة والعتمة . سترين انت اوقاتنا سعيدة ، اما انا فلن ارى . . . ذبلت كالزهرة العقيمة .

- من العيب ان تقولى ذلك ، يا كاتيوشا .

- لا ، يا فتاتى ، يجب ان اتحل بالشجاعة .

وذات مساء ، من تلك الامسية على المسطبة جلس عسكري على الطرف الاخر منها . وكانت الفرقة الموسيقية تعزف فالسلا قديما . وكانت اضواء المصابيح ترسل ضوء شاحبا من خلال الاشجار . وكان جارهما على المسطبة يتفرس فيها بشدة حتى ان داشا احست بتوتر في رقبته . التفتت ، وندت منها « لا ! » فجائية مذعورة خفيفة .

كان بيسونوف يجلس الى جانبها نحيفا رث المظهر في سترة عسكرية متهدلة كالكنس وقبعة عليها صليب احمر . نهض وسلم صامتا . قالت داشا «مرحبا» ، واطبقت شفيتها . دفعت يكاترينسا دميترييفنا بجسمها الى ظهر المسطبة ، محتمة بظل قبة داشا ، وانغمضت عينيهما . كان بيسونوف رماديا اللون وكانه مسربل بالغبار ، او انه لم يغتسل .

قال لداشا رافعا حاجبيه :

- رايتك في البولفار يوم امس واول امس ولكننى ترددت

في التقدم منك ... انا ذاهب لاقاتل . انهم وصلوا الى ايضا .

قالت داشا بعصبية مباغتة :

- كيف تذهب لتحارب ، وانت في الصليب الاحمر ؟

- لنفرض ان الخطر قليل نسبيا - ، بالطبع . ولكن سواء

لدى ان اقتل او اتجر ، لا ابالي تماما ... الحياة مضجرة تماما !

يا داريا دميترييفنا - ورفع راسه ، ورمق شفيتها بنظرة كابية -

مضجرة من كل هذه الجث ، ولا شيء غير الجث ...

سالت كاتيا دون ان تفتح عينيهما :

- هل انت ضجر من هذا ؟

- نعم ، ضجر جدا ، يكاترينا دميترييفنا . في الماضى كان

ثمة شيء من الامل ... ولكن ، بعد هذه الجث والجث خيم ليل

ابدى ... جث ، ودم وفوضى . هكذا ... يا داريا دميترييفنا ،

واذا اردت الحقيقة ، فقد جلست اليك راجيا تضحية نصف ساعة

من الوقت لى .

- ولاى شيء ؟ - سالت داشا ، ونظرت في وجهه الغريب

والسقيم ، وخيل اليها فجأة وبصفا ادار راسها انها ترى هذا الرجل لأول مرة .

قال بيسونوف مفضنا وجهه :

- فكرت طويلا فيما جرى في القرم واود ان اتحدث معك -

ودس يده ببطء في جيب سترته الجانبي ليخرج عبلة السيكانز -

اود ان ابعد بعض الانطباعات غير الحسنة ...

قلصت داشا عينيهما ، لم تجد اى اثر لسحر في هذا الوجه

الكريه . فقالت بتصميم :

- احسب ان ليس بيننا ما نتحدث عنه - . واشاحت عنه .

- مع السلامة ، يا الكسى الكسييفتش .

تشموه وجه بيسونوف ببسمة معوججة ، ورفع قبعته ،

وانصرف . نظرت داشا الى ظهروه الواهن ، والى بنطاله العريض

جدا وكأنه يوشك ان يسقط على حذائه الثقيل الطويل المترب .

امن المعقول ان هذا المخلوق هو بيسونوف حلم لياليتها المسهدة ؟

- كاتيوشا ، اجلسى ، وانتظرينى قليلا .

قالت بعجالة ، وركضت وراء بيسونوف الذى استدار في ممر

جانبي . لحقت به لاهثة الانفاس ، وامسكته من كفه . توقف ،

واستدار ، وانسبل جفناه على عينيه الشبيهتين بعيني طائر مريض .

- الكسى الكسييفتش ، لا تقضب منى .

- لست غاضبا ، بل انت لم ترينى ان تحدثنى معى .

- لا ، لا ، لا ... انت لم تفهمنى على الوجه الصحيح ... انا

اتدرك كثيرا ، وارجسو لك كل خير ... ولكن لا داعى لتذكر ما

فات ... لا شيء يبقى من الماضى ... انا اشعر بالذنب واحس

بالاشفاق عليك ...

هرز كتفيه ، ونظر من خلال داشا الى السابلة ببسمة ساخرة .

- اشكرك على الاشفاق .

تهمت داشا ، فلو كان بيسونوف غلاما صغيرا لاخذته الى

بيتها ، وغسلته بماء دافئ ، واطعمته حلوى . ولكن ماذا تفعل

مع هذا الرجل وهو الذى خلق له ما يؤلمه ويعذبه ويكدره .

- اكتب لى كل يوم ، اذا اردت ، يا الكسى الكسييفتش ،

وسارد عليك .

قالت له ، ونظرت في وجهه باكثر ما يمكن من الطيبة . دفع
رأسه الى الورا ، وضحك ضحكة باردة .

- شكرا ... ولكن بي نفسور من الورق والحبر ... -
وتعضن وكاننا ابتلع شيئا حامضا- اما انت قديسة ، يا داريا
دميترييفنا واما متوهة ... انت عذاب الجحيم انزل على ، وانا
حي ، هل فهمت ؟

وبجاهد ليصرف ، ولكن بدا وكأنه لا يستطيع
ان ينتزع قدميه . وقفت داشا مطرقة الرأس ، فقد كانت تحس
بالرثاء ، ولكن قلبها بارد . نظر بيسونوف الى جيدها المعنى والى
نهدها الرقيق الفتى البادي من فتحة الفستان الابيض ، وفكر بأن
هذه هي النهاية ، الموت .
- كوني رحيمة .

قال بصوت بسيط خفيض انساني . همست على الفور دون
ان ترفع رأسها : «نعم ، نعم» وسارت بين الاشجار . ولمرة
الأخيرة بحث بيسونوف بصره عن رأسها الأشقر الشعر بين حشد
الناس . لم تبد منها التفانة ، وضخ يده على شجرة ، تشبث
باصابعه بقشرتها الخضراء . فان الأرض ، ملجأه الأخير ، ماتت من
تحت قدميه .

٢٦

كان القمر يتدلى مثل كرة شاحبة فوق مستنقعات الخث
المقفرة . وكان الضباب يتلوى فوق الخنادق المهجورة . وفي كل
مكان قرم اشجار مقطوعة ، وهنا وهناك تلوح اشجار صنوبر
قصيرة وفي الجو رطوبة وسكون . وصف من عربات الاسعاف يسير
على درب ضيق مرصوف بجذوع الشجر . وخط الجبهة لا يبعد غير
ما يقرب من ثلاثة فراسخ وراء حدود الغابة المسنقة ، ولا صوت
يترامى من هناك .

في احدى هذه العربات كان بيسونوف منطرحا على القش ،
مغطى بكسوة حصان مشبعة برائحته . كانت الحمى تتنابه كل
مساء مع غروب الشمس ، وتصطك اسنانه من القشعريرة ، وكان
يبدو ان جسمه يجف وتمر في ذهنه افكار صافية خفيفة ملونة

كفوران بارد . كان ذلك احساسا بهيجا يفقدان الوزن الجسدى .
سحب الكسوة الى ذقنه ونظر الى السماء المعتمة المحومة .

هذه هي نهاية الطريق على الارض : الظلمة ، وضوء القمر ، والعربة
المتأرجحة كالمهد . وهكذا بعد الا ان تكتمل حلقة القرون تعود عجلات
السكيثيين الى الدوران والصرير . ولكن كل الاشياء لم تكن الا
احلاما : اضواء بطرسبورغ ، الابهة الحادة لمبانيها ، والموسيقى
في صالاتها الدافئة المتألقة ، وفتنة ستارة المسرحية وهي ترتفع ،
وسحر الليالي الثلجية ، واذرع النساء المطروحة على الوسائد ،
والحدقات الداكنة المجنونة ... إثارات الشهرة ... سكرة
المجد ... الضوء الهادئ في المكتب ، القلب الخافق حماسا ،
النشوة التي يبعثها خلق الكلمات ... الفتاة ذات الزهور
الاصطناعية البيضاء على قبعتها ، مندفعة من الرواق المضاء الى
غرفته المظلمة ، الى حياته ... كل ذلك مجرد احلام ... والعربة
تهتز ... والى جنبها يسير فلاح بقبعة منكسة على عينيه . الفان
من السنين وهو يسير جنب العربة ... ذلك هو امتداد الزمن
اللانهاى المكشوف في ضوء القمر الكايبى ... ومن ظلام القرون
تتحرك الظلال . ويتعالى صريف العربات ، وتشقق العالم عجلاتها
السود . وهناك ، في الضباب الشاحب مداخن مواقد ناتئة ، وادخنة
الحرائق تتعالى الى السماء ، وصرير العجلات وقعقتها . ويرتفع
الصرير والقعقة اكثر ، ويزداد اتساعا ، والسماء كلها مملوءة
بهدير صاعق يمزق النفس ...

توقفت العربة فجأة . ومن خلال الهدير الذى يملأ الليل
الشاحب تبلغ السمع اصوات السواقين المنعورة . رفع بيسونوف
جسمه قليلا . فرأى في ضوء القمر عمودا طويلا متلألئ الحواقي يعوم
على ارتفاع واطى فوق الغابة ، ويستدير ويلتمع ، ويهدر بزئير
محركات ، ويخرج من بطنه شعاع من الضوء ابيض نحيل ميل الى
الزرقة ، ويندفع فوق المستنقعات ، فوق قرم الاشجار ، فوق
الاشجار المطروحة ، فوق شجيرات السوح ، ويستقر على الطريق
العامة ، على العربات .

وترامت من خلال الطنين اصوات ضعيفة مثل ضربات سريعة
على بندول الايقاع . . . وتناثر الناس من العربات . انحرفت عربة

اسعاف ذات عجلتين نحو المستنقع ، وانقلبت . . . وفي اللحظة التالية توجهت حزمة باهرة من الضوء على الطريق على بعد مائة خطوة من بيسونوف وارتفع حصان وعربية في الهواء مثل كتلة سوداء ، وتساعد عمود هائل من الدخان وانقلب طابور العربات كله في زواعة من الهدير . عدت الخيول في المستنقع ساحورة وراهها الاجزاء الامامية من العربات ، وتراكم الناس . وانفذت العربية التي يرقد بيسونوف عليها ، وهوت ، وتدرج بيسونوف على منحدر الطريق الى الحفرة ، وانهدب كيس ثقيل على ظهره ، غمره القش .

القى المنطاد الالمانى قنبلة ثانية ، ثم اخذ دوى محركانه يعتد ، وتلاشى . عندئذ بدأ بيسونوف يزعج القش من فوّه متوجعا ، وخرج بجهد من تحت الامتعة التي وقعت عليه ، ونفض نفسه وصعد الى الطريق . فرأى بعض العربات ترقد بجانبها وقد فقدت انصافها الامامية . وكان احد الخيول يتدفق في المستنقع مع عريش عربته ، وراسه ملقى الى الورا ، يسحب رجله الخلفية آليا .

تحسس بيسونوف وجهه وراسه . مست اصابعه بقعة لزجة عند اذنه . وضع منديله على الخدوش ، وسار على الطريق نحو الغابة . كانت ساقاه ترتجفان بشدة من الخوف والسقطة ، فاضطر بعد بضع خطوات ان يجلس على كومة من الحجارة الغليظة . اراد ان يشرب جرعات من الكونياك إلا ان القارورة بقيت مع الامتعة في الحفرة . اخرج بيسونوف الغليون وعلبة الكبريت من جيبه بصعوبة ، وشرع يندخن . كان دخان التبغ مرا وكريها . ثم تذكر الحمى ، ان حالته سيئة ، ويجب ، مهما يكن من شيء ، ان يصل الى الغابة ، فقد قيل له ان البطارية تعسكر هناك . نهض بيسونوف الا ان رجليه لم تطاوعا قتل ، وكانها من خشب ، ولا تكاد تتحركان اسفل بطنه . فقدت ثانية على الارض ، واخذ يندلكنهما ويدهما ، ويقرصهما ، حتى اذا احسن بالالم يسرى فيهما فهنض وسار . كان القمر عاليا الآن والطريق يتلوى في الظلمة عيسر المستنقعات المقفرة حتى يبدو بلا نهاية . وضع بيسونوف يديه على قفوه ، وترنح رافعا ومجررا لذلك الثقلين بصعوبة ، وخاطب نفسه :

«جرجر نفسك ، جرجر حتى تسحقك العجلات . . . نظمت اشعارا ، واغويت حقاقوا ، . . . والان قذفوك . . . جرجر نفسك في اتجاه الافول حتى تنهار . . . يمكن ان تحتسج ، تفضل احتسج ، وازعق . . . حاول ، حاول ، اصرخ بافطع ما تستطيع ، اعول . . .»

والثفت بيسونوف فجأة . انزلق ظل رمادي من الطريق الى الاسفل . . . فسرت البرودة في ظهره ، ابتسم بتهمك ، ورفع صوته بعبارات متقطعة لا معنى لها ، وسار في وسط الطريق . . . ثم القى نظرة حذرة الى الخلف ورأى في الواقع ان كلبا كبير الراس طويل القوائم كان يتبعه على بعد خمسين خطوة وراه .

— الشيطان يعرف ماهذا !

غمغم بيسونوف ، واسرع في سيره ، ثم القى نظرة اخرى عبر كتفه . كان هناك خمسة كلاب تسيير خلفه في صف واحد ، منكسة الابواز ، رمادية ، مرتخية المؤشرات . قذفها بيسونوف بحجر قاتلا :

— ساضربكم . . . ابعدا عنى ، ياقدارة . . .

انحدرت الوحوش الى اسفل ، الى المستنقع صامتة . جمع بيسونوف بعض الحجارة ، واخذ يتوقف بين الحين والآخر ويقذفها . . . ثم واصل سيره ، وصغر ، وصاح «هاى ، هاى . . .» خرجت الوحوش من اسفل الطريق وسارت وراهه ثانية . بدأت شجيرات شوح صغيرة تظهر على جانبي الطريق . ثم ان بيسونوف لمح امامه ، عند المنعطف ، شبح شخص توقف متفرسا ، وبعد ذلك تراجع في ظل شجيرات الشوح .

همس بيسونوف «اللعنة !» واختفى في الظل ايضا ، ووقف طويلا محاولا السيطرة على خفقات قلبه ، توقفت الوحوش ايضا غير بعيد ، وجثم اولها واضعا بوزء على قائمته الاماميتين . ولم يتحرك الشخص الذي في الامام . رآى بيسونوف بوضوح شديد غمامة طويلة بيضاء كالنفاك تبرقع وجه القمر . ثم صدر صوت وانغرز في دماغه كالابرة ، هو صوت انسحاق عصب تحت قدم ، هي قدم ذلك الشخص بالتأكيد . طلع بيسونوف سريعا الى وسط الطريق ، وسار شادا على قبضتيه بجثون . واخيرا رآه الى

اليمين . كان جنديا مديد القامة ، محدوديا يلقي معطفه على كتفيه ، وكان وجهه بلا حاجبين ، يحاكي وجوه الموتى ، رماديا ، وفمه نصف مفتوح . صرخ بيسونوف :

- اي ، من اي فوج انت ؟

- من البطارية الثانية .

- اوصلني الى البطارية .

صمت الجندي ، ولم يبد حركة ، ونظـر الى بيسونوف نظرة كدره ، ثم اذار راسه الى اليسار :

- ما هذه ؟

اجاب بيسونوف نافذ الصبر : كلاب .

- لا ، ليست هذه كلابا .

- لنذهب ، اسرع ، اوصلني .

قال الجندي رافعا صوته :

- لا ، لا اذهب .

- اسمع ، انا مصاب بحمي ، ارجوك ، اوصلني ، وساعطيك

نقودا .

قال الجندي رافعا صوته :

- لا ، لن اذهب الى هناك . انا هارب .

- يا احمق ، انهم سيقبضون عليك ، على اية حال .

- كل شيء جائز .

التي بيسونوف نظره جانبية عبر كتفه فلم ير الوحوش فلعلها اخفت بين اشجار الشوح .

- وهل البطارية بعيدة ؟

لم يجب الجندي . استدار بيسونوف ليذهب ، الا ان الجندي قبض على مرفقه بقبضة قوية كالكماشة .

- لا ، لا ادعك تذهب الى هناك

- اترك يدي .

- لن اتركها ! - ونظر الجندي في ناحية فوق اشجار الشوح ، دون ان يترك ذراع بيسونوف - منذ يومين وانا لم

اتناول طعاما قبل حين كنت غافيا في الاخدود ، وسمعتهم قادمين قلت لنفسى انهم رجال وحدتى . وبقيت مستلقيا .

انهم كثر يسرون على الطريق على ايقاع واحد . فما هي الحكاية ؟ ونظرت من الاخدود . فاذا هم يسرون مكنتين في خط لا نهاية له . . . كالضباب . . .

صاح بيسونوف بصوت وحشى ، وهو يحاول فك ذراعه :

- ما هذا الذي تقوله لي ؟

- ما قلت الا الصدق ، فصدقني ، ايها الوغد .

انتزع بيسونوف ذراعه ، وركض وكأنه يركض على رجلين قطنيتين ، لا على رجليه الاصليتين . وتبعه الجندي يطلب بهذاهم الثقيل لامثا وامسكه من كتفه . وقع بيسونوف ، وغطى رقبته وراسه بيديه . انهد الجندي عليه آزا بانفه وانشب اصابعه القاسية في حلقومه ، وضغط . وبعد ذلك جمد وهمد .

همس الجندي من خلال اسنانه بذلك :

- اذن ، هذا انت !

عندما سرت رعشة طويلة في جسد المطروح ، استطال الجسد ، وارتخى ، وكأنما تسطح على التراب . عندئذ فك الجندي قبضته ، ونهض ، وتناول طاقيته . وسار في الطريق ، دون ان يلتفت الى ما صنعت يده . ترنح ، وهز راسه ، وجلس ممددا ساقيه على منحدر الاخدود . وقال الجندي لنفسه :

- ما العمل الآن ؟ الى اين ؟ اوه ، يا منيتي ! تعالوا ،

والتهمونى ، يا اوغاد . . .

٢٧

حاول ايفان ايليتش تليغين ان يهرب من معسكر الاعتقال ، الا انه قبض عليه ونقل الى قلعة ، وحبس حبسا انفراديا . وفي القلعة راح يخطط لهروب ثان ، وفي غضون ستة اسابيع انشغل في قطع قضبان النافذة . وفي اواسط الصيف اخليت القلعة بشكل مفاجئ ، وارسل تليغين الى مكان يسمى «الجب العفن» كنوع من العقاب الاضافى . وكانت هذه مكانا رهيبا يتكرب النفس هو عبارة

عن أربعة عنابر طويلة مطاطة بإسلاك شائكة مقامة في منخفض واسع وسط حقل للقمح النباتي . وعلى مسافة بعيدة في اسفل التلال ، حيث كانت ترتفع مداخن آجرية ، كان يبدأ خط حديدي ضيق صدى ممتدا عبر المستنقع كله ، ينتهي على مقربة من العنابر ، عند حفرة عميقة ، كانت موقعا للعمل في العام الماضي حيث هلك أكثر من خمسة آلاف جندي روسي بالتيفوس والدوسنتاريا . وفي الجانب الآخر من المنبسط البني-الاصفر كانت ترتفع جبال الكربات بسلسلتها السنننة . وإلى الشمال من العنابر ، في اعماق المستنقع كان يلوح للعين عدد كبير من الصليبان الصنوبرية . وفي الأيام الحارة كانت انفاس التبخر تتصاعد فوق المنبسط ، ويطسُن ذباب الخيل ، وتندلج الشمس حمراء مغبشة ناشرة التفسخ في هذا المكان المكرب .

كانت الاعاشة هنا صارمة ، والطعام قليلا . وكان نصف السجناء هنا مصابين بأمراض المعدة والحمى ، والتقيحات ، والطفح الجلدي . ومع ذلك فإن معنوية السجناء مرتفعة : فقد كان الجنرال بروسيلوف يتقدم بمعارك قوية ، والفرنسيون يدحرون الالمان في شمبانيا وعند فيردون ، والاتراك يخلون شبه جزيرة البلقان . وكانت نهاية الحرب تبدو الآن قريبة قريبا حقيقيا .

الا ان الصيف انقضى ، وبدأت الامطار ، والجنرال بروسيلوف لم يستول على كراكوفا ، ولا على لفوف ، وهذات المعارك الدامية في الجبهة الفرنسية واخذت دول الحلف الثلاثي ودول الوفاق تلتق جراحا . وكان واضحا ان نهاية الحرب قد تاجلت الى الخريف المقبل .

عندئذ بدأ اليباس يتدب في «الجب العفن» . وكف فيسكو بونيتكوف ، جار تليغين ، عن العلاقة والاعتسالم فجأة . وصار يقضي اياما كاملة مستلقيا على سريره غير المرتب ، لا يرد على سؤال . واحيانا كان ينهض قليلا مكشرا عن اثيابه ، ويحك جسمه بانظاره في كراهية ، كانت بعض القرع الوردية تظهر تارة على جسمه ثم تختفي . وذات ليلة ايقظ ايفان ايليتش ، وقال له بصوت كامد :

- تليغين ، هل انت متزوج ؟

- لا .

- اما انا فلي زوجة وابنة في تغير . يجب ان تزورهما !

- كفى ، نم .

- سانام نوما عميقا ، يا اخ .

وفي الصباح الباكر ، عند تعداد السجناء لم يرد فيسكو بونيتكوف على اسمه . ووجدوه في المراض مشنوقا بحزام رفيع . واضطرب العنبر كله وتزامح السجناء بالقرب من جثته المطروحة على الأرض . كان الصباح يضيء وجهه المجزع بالدم مفعم بالكراميه ، وآثار الحك على صدره تحت القمص الممزق . كان ضوء الصباح كدرا بدت فيه وجوه الاحياء المنحنية على الجنة منتفخة ، صفراء ، مشوومة . التفت احد السجناء ، وهو المقدم ميلشين ، نحو ظلام العنبر ، وقال بصوت عال :

- وهل سنظل ساكنين يارفاق ؟

وسرت دمنمة مخنوقة في الجمع ، وعلى الأسرة . انصفت الباب ، وظهر ضابط نسايو ، هو آمر المعسكر ، وانشقت الجمع يفسح له الطريق الى الجثة الهامدة ، واذا بصوات عالية ترتفع :

- لن نسكت !

- عذبا الرجل !

- هذا دايم !

- انا اتعفن حيا !

- لسنا مجرمين .

- كان يجب ان نضربكم اكثر يا اوغاد . . .

وقف الأمر على اطراف اصابعه وصرخ :

- سكوت ! كل في مكانه ! خنازير روس !

- ماذا ؟ . . . خنازير روس ؟!

- نحن خنازير روس ؟!

وفي الحال اندفع نحو الأمر رجل ركين له لحية منقوشة هو التقيب جوكوف . دفع بابهامه الى وجه الضابط النمساوي ، وصاح بصوت مختلج مشمرا اشارة فاحشة .

- يا ابن الكلبة ، هل رأيتك ؟

وهز رأسه الأشعث ، وامسك الأمر من كتفيه وهزه بضرارة ،
وطرحه ارضا ، وانطرح عليه .

وصمت الضباط الذين احاطوا بالمصارعين بدائرة متماسكة .
ولكن سرعان ما تردد صوت خطوات الجنود المتراضين على
الالواح ، وصرخ الأمر «النبذة !» عندئذ نهى تليغين رفاقه قائلا :
«لقد جن ، وسينقله !» وامسك جوكونف من كتفيه ، وابعده عن
النمساوى . وصرخ الأمر بالالمانية : «انت وغدا !» . كان جوكونف
لاهتا . قال بصوت خافت «اتركنى ، وساريه ، هذا الخنزير» .
الا ان الأمر قد نهض ، ولبس طاقيته المجددة ، والتي نظرة متفرسة
سريعة على وجه جوكونف ، وتليغين ، وميلشدين ، واثنين او
ثلاثة آخرين واقفين بالقرب منهم ، وكانوا يريد ان يحفظهم في
ذاكرته ، وسار خارجا من العنبر مصلصلا بهمازيه بقوة . وقفل
الباب في الحال ، ووضع الحراس عند المدخل .

في ذلك الصباح لم يجر تعداد ، ولم يرتفع صوت طبل ،
ولم توزع قهوة البلوط . وقبيل الظهر دخل جنود الى العنبر
ومعهم نقالة ، وحملوا جثة فيسوكوبوينيكوف . واغلق الباب مرة
اخرى . وتفرق السجناء الى الاسرة ، واضطجع الكثيرون منهم .
وران هدوء كل على العنبر ، وكان الأمر واضحا : تعذر ، ومحاولة
قتل ، ومحاكمة عسكرية .

بدأ ايفان ايليتش ذلك اليوم ، على عادته ، غير مخالف اية
قاعدة من القواعد التي وضعها لنفسه ، والذي ظل يراعيها تسام
المراعاة منذ أكثر من عام : في الساعة السادسة شخ ماء بنى اللون
في جردل ، وبلل جسده ، وذلك وقام بالعائة تمرين وتمارين من
التمارين الرياضية حارضا على ان تطلق عضلاته ، وليس ثيابه ،
وحلق وجهه ، ولأن القهوة لم توزع اليوم جلس ، على الرقيق ،
يدرس النحو الالمانى .

كانت العطالة الجسدية اصعب الاشياء في الأسر وأكثرها
تهديما . وقد ضعفت الكثيرين . كان احدهم يعيد فجأة الى بودرة
وجهه وتزيين عينيه وحاجبيه ، ويظل يتهامس اياما كاملة مع شاب
مبودر مثله ، وكان آخر يتحاشى رفاقه ، ويتهافت على السير
ساحبا بطانيته المهلهلة من رأسه ، لا يغتسل ولا يحلق ، ويأخذ

ثالث باستعمال فاحش الكلام ويزعج الجميع بحكايات غريبة ،
وينتهى اخيرا الى القيام بفعل قبيح جدا حتى ينقل الى مستشفى
المعسكر .

وكانت الصرامة هي الغلاص الوحيد من هذا كله . انقلب
تليغين خلال فترة الأسر ميالا الى الصمت ، وقد جف جسده الذى
كان مدرعا بالعضلات ، وصار خادا في حركاته ، واكتسبت عيناه
لعنا باردا عنودا ، وفي لحظة الحنق والتصميم تصيرا
مرعبتين .

اليوم كرر تليغين بعناية اشد من المعتاد الكلمات الالمانية
التي سجلها بالأمس ، وفتح كتاب شبيهاغفين المتهوى . جاء
جوكونف وقعد على حافة سريريه ، ولم يلتفت تليغين اليه ، واستمر
يقرا بصوت واطى . زفر جوكونف وقال :

- يا ايفان ايليتش ، اريد ان اقول في المحكمة اننى مجنون .
نظر تليغين اليه بسرعة . كان وجهه جوكونف العريض
الأنف ، الأجدد اللحية ، ذو الشفتين الناعمتين الدافنتين الظاهرتين
من خلال شاربيه الكئيب ، مطرقا يبدو عليه الذنب ، وكانست
رموضه الفاتحة ترمش باستمرار .

- لا اعرف ما الذى وسوس لى لأشير له اشارتى الفاحشة
تلك ، انا نفسى لا ادري الآن ماذا كنت اريد ان اثبت له . انا
ادرك ، يا ايفان ايليتش ، اننى مذنب ، بالطبع . . . اندفعت ،
وورطت رفاقتى . . . هذا ما عزمتم عليه : اقول اننى مجنون . . .
هل توافقنى ؟

اجاب ايفان ايليتش ، معلما باصبعه على المكان الذى وصل
اليه من الكتاب .

- اسمع ، يا جوكونف ، سيرمون عددا منا بالتاكيد . . .
تعرف هذا ؟

- نعم ، افهم .

- اذن ، اليس من الاحسن الا تتباله في المحكمة ؟

ما رأيك ؟ . . .

- انت على حق ، بالطبع .

- لن يلومك احد من رفاقك . . . سوى ان المتعة في ضرب يوز تمساوي غالبية الثمن جدا .

- وحالتى انا مؤلمة جدا لاننى عرضت رفاقى الى المحاكمة ! - وهز جوكوف رأسه المنقوش الشعر- ليت اولئك الاوغاد يقضون على وحدى .

وظل يتحدث على هذا المنوال وقتنا طويلا ، الا ان تليفين لم يعد يصغى اليه ، وواصل قراءته لكتاب شبيهاغين ، ثم نهض ، وتمطى ، ومترقا بعضلاته . وفى تلك اللحظة انفتح الباب الخارجى بعنف ، ودخل اربعة جنود شاكين العراب في بنادقهم ، ووقفوا على جانبي الباب ، وقمعوا بترابيس البنادق ، ودخل الرقيب الاول ، وهو رجل عبوس معصوب العين اجل بصره في العنبر ، وصرخ بصوت ضار لارثة فيه :

- التقيب جوكوف ، المقدم ميلشين ، الملازم الثانى تليفين . . .

خرج المدعورون ، وحلق الرقيب الاول في كل واحد منهم بعناية ، واحاط الجنود بهم ، اقتيدوا من العنبر عبر الفناء الى بيت خشبى صغير هو بيت الامر . وكانت تقف هناك سيارة عسكرية قد وصلت قبل حين . وازيحت الاسلاك العائقة التى تسد الطريق الى خارج المعسكر . وكان احد الحراس واقفا بلا حراك عند كئيب مخطط . وفى داخل السيارة جلس السائق ، وهو صبى ذو عينين منفوختين بعض الشئ ، مائلا على ظهر مقعده امام الدفة . لكز تليفين بكوعه ميليشين الذى كان يسير الى جانبه .

- هل تعرف سياقة سيارة ؟

- اعرف ، ولكن لماذا ؟

- اسكت .

ادخلوا الى مكتب الامر . كان ثلاثة ضباط تمساوين جدد يجلسون الى طاولة من خشب الصنوبر مغطاة بورق نشاف وردى اللون . وكان احدهم ، وهو رجل مزرق الوجه من الحلاقة ، تطلع على خديه الممتلئين بقع حمراء ، يدخن سيجارا . وقد لاحظ تليفين انه لم يرفس بصره الى الداخلين . وكانت يده مستقرتين على الطاولة واصابعه السميكة المشعرة متشابكة ،

وعينه متقلصة بسبب دخان السيفار ، وياقته تضغط على رقبته . وفكر تليفين : «ان هذا اتخذ قراره مع نفسه» .

وكان الحاكم الآخر ، الذى يراس المحكمة ، رجلا عجوزا اعجنف ذا وجه مستطيل كئيب قليل الغضون النظيفه ، له شاربان اشبيان كثان . وكان احد حاجبيه مرفوعا بنظارة من عدسة واحدة . امعن نظره في المتهمين ، وحول الى تليفين عينه الرمادية التى بدت كبيرة من وراء العدسة . كانت عينها صافية ذكية تنم عن رقة . واختلج شارباه .

فكر ايفان ايليتش مع نفسه : «في منتهى السوء» ونظر الى الحاكم الثالث الذى كان يضع امامه نظارة ذات اطار من قوقعة السلحفاة وورقة صغيرة مكتوبة بخط دقيق . كان رجلا قصيرا متملئا ، بشرته صفراء مشربة بلون رمادى ، وشعره خشن مسرح تسريحة قصيرة ، واذناه كبيرتان . وكان واضحا من كل شئ انه واحد من العسكريين الفاشلين .

حين صف المتهمون امام الطاولة لبس هذا نظارته المستديرة بحركة بطيئة . ومرر كفه الجافة على ورقة مكتوبة ، وبدا فجأة يقرأ قرار الاتهام كاشفا عن اسنان صناعية صفراء .

كان الامر المعتدى عليه يجلس الى ناحية من الطاولة عاقدا حاجبيه ، ضامًا شفثيه . ركز تليفين انتباهه ليتابع كلمات الاتهام الا ان فكره ، رغم ارادته ، كان يعمل بجدة ودأب في اتجاه آخر .

« . . . عندما ادخلت جثة المنتحر الى العنبر استغل بعض الروس هذه الحادثة لتحريض رفاقهم على العصيان المكشوف للسلطة ، واخذوا يهتفون بشتائم وتعابير فاحشة هازين قبضاتهم مهددين . وكان المقدم ميليشين ، مثلا يحنسل بيده مطوأة مفتوحة . . . »

شاهد ايفان ايليتش عبر النافذة الصبى السائق يدير اصبعه في انفه ، ثم انقلب على جنبه في مقعده ، ودفع على وجهه قبعته الضخمة ، تقدم جنديان قصيران من السيارة ، وقد القيا على كتفهما معطفين ازرقيين ، ووقفا يتطلعان . قرص احدهما ، ومس اطار العجلة باصبعه ثم استدار الاثنان - فقد دخلت عربة المطبخ الى الفناء ، والدخان يتصاعد من مدخنته بوداعة ،

واستدارت نحو العنابر ، حيث اتجه الجنديان ايضا بتكاسل . لم يرفع السائق رأسه ، ولم يلتفت ، فلعله قد غفا . عرض تليغين على شفثيه من نفاذ الصبر ، وعاد يصغى الى صوت المدعى الصارف : « . . . النقيب جوكونف المشار اليه سابقا اظهر للسيد الأمر خمس اصابع مطوية مهددا بحياته عن عمد ظاهر وسبق اصرار ، بالاضافة الى ان الابهام كان بارزا بين السبابة والوسطى ، وهى اشارة مقبولة كانت تهدف ، فى الظاهر ، الى تحفيز شرف البزة الملكية الامبراطورية . . . »

وبعد هذه الكلمات نهض الأمر ، وبدأ ، وقد تبقع وجهه بقع حمراء ، يشرح للعاكفين بالتفصيل حكاية اصابع النقيب غير المفهومة كثيرا ، بينما اصغى جوكونف نفسه ، وكان قلبه يثقل بالالمام بالالمانية ، بكل ما لديه من قدرة ، وحاول ان يدس كلمة واحدة ، والتفت الى رفاقه بابتسامة تقصير طبية ، ولم يضبط نفسه ، فتكلم بالروسية مخاطبا المدعى :

— يا حضرة العقيد ، اسمح لى بالثوبه — انا اقول له لم هذا التعامل علينا ، لم ؟ انا لا اعرف التعبير بالالمانية ، لذلك اظهرت له باصابعى .

قال ايفان ايليتش من خلال اسنانه :

— جوكونف ، اسكت .

نقر رئيس المحكمة بالقلم . تابع المدعى مطالعته .

وصف العقيد كيف وبأى موضع اسمك جوكونف بالأمر و«طرحه ارضا وضغط بابهامى يديه على قمرقه ، بغية التسبب فى موته» وانتقل الى اخرج نقطة فى الاتهام : « . . . كان الروس يتدافعهم وصباحهم يحرزون القاتل على القتل . فان احدهم ، وهو اللازم الثانى يوهان تليغين اندفع الى مكان الحادث ، حين سمع خطوات الجنود المتراكضين ، وابتعد جوكونف ولثانية واحدة فقط كانت بين الحياة والموت المحتم لحضرة الأمر» . وهنا توقف المدعى ، وابتسم راضيا عن نفسه — «ولكن فى تلك اللحظة ظهر الخرفاء من مراتب اوطلا ، فلم يستطع اللازم الثانى تليغين الا ان يصرخ بضحيته : «يا وغد» .

واعقب ذلك تحليل سيكولوجى منمق لتصرف تليغين «الذى

حاول ، كما هو معروف ، الهروب مرتين من الأسر . . . » ووجه العقيد اتهامها قاطعا لكل من تليغين وجوكونف وميلشين الذى كان يحرص على القتل ملوحا بالمطواة . ولتشديد قوة الاتهام عمد الى تبرئة ايفانوف واوبيكو «اللذين وقعا تحت تأثير حالة الهيجان» . بعد نهاية المطالعة اكد الأمر ان ذلك كله وقع طبق الصورة العروية تماما . واستجوب الجنود فذكروا ان المتهمين الثلاثة الأوائل مذنبون فعلا ، ولم يعرفوا شيئا عن المتهمين الآخرين . فرك رئيس المحكمة يديه التحيفتين ، واقترح اسقاط التهمة على ايفانوف واوبيكو بسبب عدم توفر الادلة . هن الضابط الاحمر الوجه رأسه بعد ان دخن السيفار حتى وصل الى شفثيه . ووافق المدعى ايضا بعد شئ من التردد . عندئذ تنكب اثنان من الحرس السلاح . وقال تليغين « . . . داعا يا رفاق» . نكس ايفانوف رأسه ، وصمت اوبيكو ونظر الى ايفان ايليتش بدمع .

الخروج المبّرآن ، واعطى رئيس المحكمة الكلام بمتهمين .
سأل تليغين :

— هل تعتبر نفسك مذنباً فى التحريض على التمرد ، وفى الاعتداء على حياة أمر المعسكر ؟

— لا .

— وماذا تريد ان تقول بالذات فى هذا الخصوص ؟

— الاتهام مختلج من الفه الى ياته .

وتب الأمر مسعورا طالبا الايضاح . فاقفه الرئيس باشارة .
— اليس لك ما تضيفه الى افادتك هذه ؟

— لا .

ابتعد تليغين عن الطاولة ، وثرفس فى جوكونف . فاحمر هذا ، ونخر من فمه ، واعاد فى اجابته عن الاسئلة ما صرح به تليغين كلمة كلمة . وفعل ميلشين مثله . استمع رئيس المحكمة الى الاجوبة ، واغمض عينيه بتعب . واخيرا نهض الحكام ، اختلوا فى الغرفة المجاورة ، وعند الباب بصق الضابط الاحمر الوجه ، وكان آخرهم ، عقب سيفاره المحترق حتى شفثيه ، ورفع ذراعيه ، وتمطى بتلذذ .

قال تليغين بصوت هامس :

- الرمي . وقد عرفته منذ دخولنا .

وتوجه الى الحارس قائلا :

اعطني قذح ماء .

تقدم الجندي من الطاولة بسرعة ، واخذ يصب من القارورة

ماء كدرا ، وهو ما يزال ممسكا ببنديته . همس ايفان ايليتش

في اذن ميليشين بسرعة :

- عندما يخرجوننا ، حاول ان تشغل المحرك .

- مفهوم .

بعد دقيقة ظهر الحكام ، واحتلوا اماكنهم السابقة : خلع

رئيس المحكمة نظارته الاحادية بثؤدة ، وقرب من عينيه قصاصة

ورق كانت تهتز قليلا ، وقرأ قرار الحكم القصير الذي انزل على

تليفين وجوكوف وميليشين عقوبة الاعدام رميا بالرصاص .

ورغم ان ايفان ايليتش كان متيقنا من صدور مثل هذا القرار

الا انه لدى سماعه لتلك الكلمات ، احس بان الدم يغادرن قلبه .

نكس جوكوف راسه . اما ميليشين القوي العريض المنكبين ذو الاتف

العقابى فقد لعق شفتيه بيظه .

فرك رئيس المحكمة عينيه المتعبتين . ثم غطاهما بكفه ،

وتكلم بوضوح ، ولكن بخفوت :

- يعهد الى السيد الامر بتنفيذ الحكم على الفور .

نهض الحكام ، وظل الامر وحده جالسا لبرهة من الوقت

منتصب الجذع مخضوضر الوجه . ونهض ، وعدل سترته النظيفة

واوعز للجندين الباقيين بصوت مبالغ بحدته بان يخرجوا المحكومين .

عند الباب الضيق تلكا تليفين ليتمكن ميليشين من الخروج اولاً .

امسك ميليشين بذراع الحارس كمن خارت قواه ، وتمتم بلسان

متلعثم :

- لنذهب ، لنذهب ارجوك ، مسافة قليلة . . . يطنى

يوجعني وجعا ممضا . . .

حذق الجندي فيه ذاهلا وقاوم ونظر الى الورا خائفا وهو لا

يعرف كيف يتصرف في الظرف الطارئ . الا ان ميليشين كان قد

سار به حتى مقدمة السيارة ، وقرصص ، وغضن وجهه ، وتوجع ،

قايضا باصابعه المرتتمشة على ازرار ملابسها تارة ، وعلى مقبض

السيارة اخرى . وظهر على وجه الحارس رثاء واشمئزاز . قال

غاضبا :

- اجلس ، اذا كان بطنك يوجعك . اسرع !

الا ان ميليشين ادار مفتاح التشغيل فجأة بقوة ضارية .

انحنى الجندي نحوه مذعورا ليبعده . صحا الصبي السائق ، وصاح

بشيء ما مفتاظا ، وقفز من السيارة . وكل ما حدث بعد ذلك لم

يستغرق غير بضع ثوان . راقب تليفين من تحت حاجبيه حركات

ميليشين وهو يحاول ان يقترب من الحارس الثاني قدر الامكان .

وتعالى صوت المحرك ، وخفق قلبه مع ذلك الاهتزاز العاد المذهل .

- جوكوف ، امسك البنديتية !- صاح تليفين ممسكا حرسه

من وسطه ، ورفع في الهواء وقذفه على الارض بقوة ، وبلغ

السيارة بضع قفزات حيث كان ميليشين يصارع الجندي لينتزع

البنديتية . هجم ايفان ايليتش على الجندي بضربة سددها على

رقبته بقبضته ، وقعد ، وقعد . اندفع ميليشين الى دفعة

القيادة ، وحرك المقابض وراى ايفان ايليتش بوضوح رفيقه

جوكوف ينسل الى السيارة ومعه البنديتية والصبي السائق ينسل

على طول الجدار ، ويقفز الى باب مقر الامر فجأة والوجه المستطيل

المشوه بالذعر ذا النظارة الاحادية يلوح في النافذة ، وقامة الامر

القصيرة عند مدخل البيت ، والسندس الراقص في يده . . . وطلقة ،

واخرى . . . «اخطات ، اخطات ، اخطات» .

وبدا وكان عجلات السيارة انفرست في الخث ، الا ان تروس

التشويق زعقت ، واندفعت السيارة . والقي تليفين نفسه على

المقعد الجلدي . واشتد هبوب الهواء على وجهه ، وصار الكشمك

المخطط يقترب بسرعة وكذلك الحارس المصوب ببنديته . دوت

طلقة ومرت السيارة به كالزوبعة والى الخلف تراكض الجنود في

الفناء ، وركعوا على ركايمهم . طلقة ! طلقة ! ولكن هذه الطلقات

اصبحت اصم واصم . التفت جوكوف ، وهدد بقبضته . الا ان

مربع العنابر المظلم اخذ يتضامل وينخفض شيئا فشيئا ، واختفى

المعسكر وراء المنعطف . مرتق بهم الاعمدة والاحراش ، والارقام

على الاجار خافتة متلاحقة .

التفت ميلشدين ، وقد تصاعد الدم ملونا جبينه ، وعينه
وخده وصاح على تليغين :
- الى الامام ؟
- الى الامام حتى نعبّر الجسر ، ثم يمينا في الجبال .

٢٨

جبال الكريات مقفرة موحشة في المساء الخريفى الرياحى .
واحس الهاربون بالاضطراب والقلق حين صعّدوا الى الممر عبر
الطريق المتعرج الابيض المغسول بالامطار حتى السطح الجبرى . كانت
ثلاث او اربع اشجار صنوبر تتمايل فوق الهوة . وفي الاسفل غابة
لا تكاد تبين في نقاب الضباب يترامى منها خفيف . والى الاسفل
منها في قعر الهوة كان سيل غزير يخر مندفا وقالبسا الصخور
بهدير .

ووراء جذوع الصنوبر بعيدا وراء قمم الجبال الشجرا
المنعزلة كان شريط طويل من الغروب يلعب بين الغيوم الرمادية .
وكانت الريح شديدة طليقة على هذا الارتفاع تضرب في جلد غطاء
السيارة .

جلس الهاربون صامتين . كان تليغين ينظر في خارطة ،
وميلشدين يتطلع صوب الغروب وهو يرتفق دفة القيادة . وكان
راسه مضمدا بخرقه .

سأل بصوت خفيض :

- ماذا نعمل بالسيارة ؟ وقد نفذ البنزين .

اجاب تليغين :

- لا يجوز ترك السيارة هنا ، العياد بالله .

- ليس امامنا الا ان ندفعها الى الهوة .

قال ميلشدين ، وتآوه ، وقفز الى الطريق ، وطبطن بقدميه
بقصد تمرينهما ، واخذ يمزج جوكونف من كتفه قائلا له :

- هاء ، يا تقيب ، استيقظ . وصلنا !

خرج جوكونف الى الطريق دون ان يفتح عينيه ، وتعرش ،

وقعد على صخرة . سحب ايفان ايليتش من السيارة معاطر جلدية -
وسلة طعام كانت قد اعدت لغداء الحكام في «الجب العفن» . وزعوا
الطعام على الجيوب ، ولبسوا المعاطر ، وامسكوا برفارف السيارة ،
ودفعوها الى الهوة . قال ميلشدين :

- ادبت خدمتك يا غروسة ، والآن على المعاش ! يا لله !
تدلّت العجلتان الاماميتان فوق الهوة ، وبكت السيارة
الطويلة المتربة بمقاعدھا الجلدية ، واطرها البرونزية طائعة مثل
كانن حى ، وجنحت ، ثم هوت الى الاسفل مع نثار من الحجارة
وكسر الصخر ، وتعلقت لحظة بنتوء صخرة ، وقرقت ، وانقلبت ،
ودوّت الى الاسفل في هدير متعالم من الحجارة وشظايا العديد
المتطايرة حتى استقرت في السيل . وتردد الصدى ، وترامى بعيدا
في المضائق الضبابية .

تحول الفارون الى غابة ، وساروا بمحاذاة الطريق وكانوا
يتكلمون نزرا ، وينطقون همسا . وكان الظلام قد خيم تماما ،
واشجار الصنوبر تضج فوق رؤوسهم مهيبه وكان ضجيجها يشبه
صوت مياه متساقطة على مبعده .

كان تليغين ينزل الى الطريق بين الحين والآخر ، وينظر الى
ارقام الفراسخ على الاعمدة . وقاموا بدورة كبيرة في مكان يحتمل
ان تكون نقطة عسكرية ، واجتازوا عدة منخفضات ، وتعرشوا في
الظلام بالاشجار الساقطة ، والجداول الجبلية ، وتبللوا ، وتمزقت
ثيابهم . وسروا في الليل بكاملها . وذات مرة قبيل الصباح
سمعوا صوت سيارة ، فرقدوا في حفرة ، ومرت السيارة على مقربة
منهم ، بل وسمعوا اصواتا فيها .

وفي الصباح اختاروا للاستراحة موضعا على مقربة من جدول في
وهدة شجرا نائية . واكلا ، وآتوا على نصف قارورة من
الكونياك ، ثم طلب جوكونف ان يخلقا وجهه بالموسى الصدئة التي
وجدھا في السيارة . وحين ازيلت لحيته وشاربھا فوجى رفيقاھ
بان له حنك طفلس ، وشفتين بارزتين . ضحك تليغين وميلشدين
طويلا ، مشيرين اليه باصبعيھا . وابتهج جوكونف كثيرا ، كان
يخور مثل بقرة ويمط شفثيه ، وتبين انه سكران . نثرا عليه
الاوراق ، وطلبا منه ان يتام .

بعد ذلك نشر تليغين وميلشين الخارطة على العشب ، ورسم كل منهما تخطيطا طوبوغرافيا لنفسه . وتقرر ان ينقسموا يوم غد : يذهب ميلشين وجوكوف الى رومانيا ، ويتجه تليغين الى غاليسيا . ودفوا الخارطة الكبيرة في الارض . وفرشوا الاوراق الجافة ، ودفنوا انفسهم فيها وغفروا في الحال .

في الاعلى ، عند حافة الطريق فوق الوهدة وقف رجل معتمد على بندقيته ، هو حارس الجسر . ساد الصمت حوله في الغفر الغابي تحت قدميه ، ولم يسمع غير زمزمة دجاجة الارض في طيرانها الثقيل فوق مرجة في الغابة ، صافقة بجناحيها على شجيرات الحور ، ومسقط ماء يترامى صوته من بعيد . وقف الحارس قليلا ، ثم انصرف متنكبا بندقيته .

عندما فتح ايفان ايليتش عينيه ، كان الليل مخيما . وكانت النجوم الساطعة تلمع بين اغصان الاشجار السوداء الساكنة . بدا يتذكر اليوم القاب ، الا ان الاحساس بالجهد النفسى في الحكمة ، وخلال الهروب كان موجعا جدا بحيث طرد من ذهنه تلك الافكار ، سأل ميلشين بصوت خافت :

- هل انت يقظان ، يا ايفان ايليتش ؟

- منذ زمان ، انهض واقبط جوكوف .

وبعد ساعة كان ايفان ايليتش يسير بمحاذاة الطريق الواضح ببياضه في الظلمة .

٢٩

في اليوم العاشر وصل تليغين الى خط الجبهة . وكان طوال هذه المدة يسير ليلا ، ويتخفى في الغابة عند طلوع النهار ، وحين كان يضطر الى النزول في واد ، كان يختار لميخته بقعة في منأى عن الاماكن المأهولة . وكان يقتات على الخضار النيى* الذى كان ينشله من حدائق الخضروات .

كان الليل باردا مطرا . وكان ايفان ايليتش ينسسل على الطريق العامة بين عربات الاسعاف المتجهة غربا ، والمملوءة بالجرحي وعربات اخرى محملة بالاجابات المنزلية ، وجموع النساء

والشيوخ الحاملين على اذرعهم اطفالا وصررا وادوات منزلية . وكانت القوافل المحملة بالجنود والامتعة العسكرية تاتي من الاتجاه الاخر ميممة صوب الشرق . وكان من الغريب التصديق بان عام ١٩١٤ وعام ١٩١٥ قد انتهيا وعام ١٩١٦ يدنو من نهايته ، وطواير العربات ما تزال ، كسا كانت من قبل ، تصر عجلاتها على الطرق المخربة ، واهالى القرى المحروقة يضربون في الارض في ياس خانع . لا فرق سوى ان الخيول العسكرية الضمخة لاتكاد الآن تجرجر ارجلها ، وان الجنود مزقو الملابس ضئيلو الاجسام ، ان جموع المشردين صامتون متبلدو الاحاسيس . وهناك ، في الشرق من حيث تسوق الريح اللاذعة غيوما واطمة ما زال الناس يقتل بعضهم بعضا دون ان يهلك فريق فريقه الخمص .

كانت كتلة هائلة من الناس والعربات تتحرك في الظلام على منخفض مستنقى ، وعبر جسر مقام على نهر منتفخ . وكانت العجلات تقعقع ، والسياب تنز ، والواهر تصدر باصوات صارخة ، واضواء الفوانيس الكثيرة تتحرك ، فكان ضوؤها يسقط على الماء الكدر الملتف بين دعائم الجسر .

وصل ايفان ايليتش الى الجسر منزلقا على منحدر الطريق العامة . وكانت قافلة عسكرية تمر عليه . ولا امل في العبور الى الجهة الاخرى قبل طلوع النهار .

كانت الخيول عند دخولها الجسر تركع بعرائش غرباتها وتتشبث بحوافرها في الاواح الرطبة ، ولا تكاد تجسر العربات ، وعلى الحافة وعند مدخل الجسر كان يقف رجل على فرس والريح تعصف في مشعبه ، وفي يده فانوس ، وكان يصرخ بصوت مبحوح . وقد تقدم منه عجوز ، ورفع قبعته يطلب منه شيئا ، على ما يبدو ولكن الفارس ، بدلا من ان يجيبه ، ضربه بالفانوس الحديدى على وجهه ، وسقط العجوز تحت العجلات .

كان الطرف الآخر من الجسر يغيب في الظلام ، الا ان نقاط الضوء هناك كانت توحى بوجود آلاف من النازحين . استمرت القافلة في تحركها البطى* . ووقف ايفان ايليتش ملتصقا بعربة ، كانت تجلس فيها امرأة نحيلة متدثرة في بطانية ، وشعرها متهدل

على عينيها ، وهي تحتضن قفص طيور بنزاع ، وتمسك العنان بالذراع الاخرى ، توقفت قافلة العربات فجأة والتفتت المرأة مذعورة . تنامي طنين الاصوات في الطرف الآخر من الجسر ، وتزايدت اشعة الفوانيس المتحركة . ان شينا قد حدث . صهل حصان سهيلا وحشيا ضاريا . وصرخ صوت مملوط باللغسة البولندية «انقذ نفسك» . وفي الحال مزقت الهواء طلقة بندقية . واندمعت خيول ، وقمعت عربات ، وارتفعت اصوات نسوة واطفال في زعيق وعويل .

وبعدا الى اليمين ومضت شرارات متفرقة ، وترامت اصوات طلقات جوائية . صعد ايفان ايليتش على عجلة ، وتطلع . ودق قلبه كالملطرفة . كان الرمي كما يبدو ياتي من كل مكان ، على النهر كله . نزلت المرأة مع قفصها من العربة ، وتعلقت تنورتها ، فوقعت وزعقت بصوت عميق : «اوى انقذوا!» وتدرج القفص بالطائر على منحدر الطريق .

وعادت قافلة العربات تتحرك على الجسر عدوا ، وسط الصيحات والقرقعة . وتعالق على الفور اصوات جنونية : «قف ! قف !» وشاهد ايفان ايليتش عربة كبيرة تجنح على حافة الجسر ، وتنقلب على الدرابزين ، وتسقط في النهر . عندئذ وثب من العجلة ، وقفز عبر الصر الرممية حتى بلغ قافلة العربات ، وانبطع على عربة سائرة . وفي الحال نفلت الى راسه رائحة خبز حلوة . دس يده تحت مشمع ، وقطع نهاية رغيف ، واخذ ياكلها غاصا من النهج .

وصلت قافلة العربات الى الضفة الثانية اخيرا وسط الفوضى واطلاق النار . قفز ايفان ايليتش من العربة ، وتسلسل بين عربات الناشرين الى الحقل ، وسار بمحاذاة الطريق . عرف من نطف العبارات الملتقطة من الظلام ان اطلاق النار ذاك كان على العدو ، اى على دورية روسية : ومعنى ذلك ان خط الجبهة لا يبعد عن هذه الاماكن اكثر من عشرة فراسخ .

توقف ايفان ايليتش عدة مرات ملتقلا انفاسه . كان المشى عكس الربيع والمطر صعبا ، وتمعت رجلاه عند الكرتين ، وتوهج وجهه ، والتهبت عيناها وانفتحتا . وفي آخر الامر جلس على مرتفع

الحفرة ، ووضع رأسه بين يديه . وكانت قطرات المطر الباردة تتساقط تحت رقبته ، وجسمه كله يئن متوجعا .

في تلك اللحظة بلغ اذنه صوت خافت عميق مثل انهيار ارض على مسافة بعيدة . وبعد برهة زفر الليل مثل تلك الزفرة للمرة الثانية . رفع ايفان ايليتش رأسه ، وتسمع وميز بين تينيك الزفرتين العميقتين سهمة جوفاء تخمد تارة وتنماي اخرى في ذبذبات غاضبة . لم تكن تلك الاصوات تاتي من الجهة التي كان يسير اليها ، بل من يساره ، من الجهة العاكسة تقريبا .

جلس على الجانب الآخر من الحفرة . الان صارت تثرى بوضوح مزق الغيوم الواطئة السارحة في السماء المتسخة الحديدية . كان ذلك هو الفجر . وكان ذلك هو الشرق . وكانت روسيا هناك . نهض ايفان ايليتش ، وشد حزامه ، وسار في تلك الجهة مباعدا بين ساقبيه في الوحل ، متخطيا الجذامات المبللة والاخاديد وخنادق العام الماضي نصف المتهدمة .

وحين تورت الدنيا تماما رأى تليغين ثانية في نهاية الحقل طريقا عامة غاصة بالناس والعربات . توقف ، واجال بصره . فرأى في ناحية مزارا ابيض تحت شجرة هائلة تعرت من نصف اوراقها . كان الباب مخلوعا ، والاوراق الزاوية متناثرة على سطحه المستدير ، وعلى الارض .

قرر ايفان ايليتش ان ينتظر هنا حلول الظلام . فدخل المزار ، واستلقى في الأرض الخضراء من الطحلب . كانت رائحة الاوراق الرقيقة المشوية برخاءتها تبعث الدوار في راسه . ترامت اليه من بعيد كركبة عجلات ، وضربها سياط . وكانت هذه الضوضاء تبدو لطيفة على الاذن بشكل مذهل ، ونبجاة تلاشت . وكان يحس بما يشبه الاصابع يضغط على عينيها . وشينا فشيئا ظهرت بقعة حية في النعاس الثقيل عليه كالرصاص . بدت وكأنها تحاول ان تكون حلما ، فلم تقدر . فقد كان الاعياء شديدا جعله يئن ويغرق اكثر فاكثر في النوم . ولكن البقعة كانت تقلقه . فاخذ نومه يخف ، ومن جديد اخذت تترامى الى سمعه كركبة العجلات من بعيد . وزفر ايفان ايليتش ، وقعد .

رأى من خلال الباب سحبا مسطحة سمكية ، وكانت الشمس

تجنح الى الغروب واشعثها العريضة تمتد تحت قاعدتها الرطبة الرمادية الثقيلة . وكانت بقعة خفيفة من الضوء تقسح على حائط المزار المتداعي ، وتضيئ الايقونة الخشبية الحائلة اللون من تقادم الزمن ، المائلة التي يظهر فيها وجه العذراء في حالة ذهبية ، والطفل في ثوب قطنى متهرى رائد عن ركبتيهسا ، وكانت يد العذراء المباركة مقطوعة من الايقونة .

خرج ايفان ايليتش من المزار فرأى عند عتبة امرأة شابة تجلس على الدرجة الحجرية ، وعلى ركبتيها طفل . كانت ترتدى رداء ابيض مبقعا بالوحل وتسدن خدما على يد ، وتضع اليد الاخرى على بطانية الطفل الملونة . رفعت رأسهسا ببطء وتطلعت على ايفان ايليتش بنظرة وضيفة غريبة ، ورف وجهها المخضل بالدمع ، وكانها تبتمس ، وقالت بالاوكرانية بصوت خافت :

- مات الصغفر .
وعادت تضع خدما على يدها . اتحنى تليغين نحوها ، ومسند رأسها ، فارسدت تنهيدة مندفعة . قال بركة :

- لنذهب . ساحمله عنك .
هزت المرأة رأسها :

- الى اين اذهب ؟ اذهب وحدك ، ايها السيد الطيب .
وقف ايفان ايليتش برهة اخرى ، ودفع طاقيته فوق عينيته وانصرف . في تلك اللحظة خرج رجلان من الجندومة النمساوية العسكرية يعدوان على فرسيهما من وراء المزار ، وعليهما معطفان مبللان قدران ولهما وجهان مزرقان مشهوريان . وحين من بايفان ايليتش اوقفا فرسيهما ، وصاح الذي كان في المقدمة بصوت اجش :

- تقدم !
اقترب ايفان ايليتش ، فأتحنى الفارس من على السرج وتفحصه في عناية بعينه البنيتين الملتهبتين من الريح والسهل . والتمسعت عيناه فجأة ، وهتف :

- روسى !
وامسك ايفان ايليتش من ياقته . لم يقاوم تليغين ، بل ايتسم ابتسامة هازلة مقهورة .

حسب تليغين في زريبة . وكان الليل قد هبط . وكان دوى التراشق بالمدافع يسمع بوضوح ، ويلوح من خلل الشقوق بين الاخشاب وميض احمر كامد . اكل ايفان ايليتش بقية الخبز الذي اخذه من العربة يوم امس ، وسار على طول الجدران المصنوعة من الواح الخشب عسى ان يعثر على فتحة . تعثر ببالسة من التبن المضغوط ، وتثاب ، واستلقى . الا ان النوم لم يراوده . فبعد منتصف الليل اخذت المدافع تقصف على مسافة غير بعيدة ، وكانت التوهجات المحمرة تنفذ من خلال الشقوق بين الالواح . رفع ايفان ايليتش جسمه قليلا وتسمع . تضادت الفترات بين الطلقات وصارت جدران الزريبة تهتز ، وفجأة لعلل رصاص البنادق على مسافة دانية جدا .

وكان واضحا ان المعركة تقترب . وصدرت اصوات مستثارة ، وبربر محرك سيارة . وتردد وقع اقدام كثيرة وارطم جسم ثقيل بجدار الزريبة من الخارج . وعندئذ فقط لاحظ ان الرصاص يتساقط على جدار الزريبة تساقط البنفق على جسم صلب . فتقدم على الارض في الحال .

نفذت رائحة دخان البارود حتى الى داخل الزريبة . وكان الرمي لا ينقطع ، والظاهر ان الروس كانوا يهجمون بسرعة شديدة . الا ان هذه الزوعة من الاصوات الرهيبة لم تستمر طويلا . وصدرت ضربات متفجرة ، اى ان القنابل اليدوية كانت تفرقع فرقة الجوز عندما يكسر . نهض ايفان ايليتش مسرعا من الارض وتراكم بمحاذاة الجدار . امن المعقول ان الهجوم يرد ؟ واخير صدر زئير اجش مجلجل ، وزعيق ودمدمة اقدام . وسكنت الطلقات في الحال . ولم يسمع في تلك الثانية الطويلة غير صوت ضربات في شيء لدن وصلصلة حديد . ثم ارتفعت اصوات مدفوعة صارخة : « نستسلم ، ايها الروس ! . » .

خلع ايفان ايليتش كسرة من خشب الباب ، فرأى اشخاصا يركضون ، وقد غطوا رؤوسهم بأيديهم . واندفع نحوهم فرسان يلقون ظللا هائلة ، وشقوا طريقهم في خضمهم . وراحوا يجولون . اتجه ثلاثة من المشاة نحو الزريبة ، فاندفع فارس

للحاق بهم ، وعباءته تتطاير خلف ظهره ، وفرسة الضخم يشب على رجليه الخلفيتين ثقيلنا ناخرا .

كان الفارس يلوح بسيفه كالسكران فاتحا فمه على وسعه . وحين نزل الفرس على رجليه الاماميتين انزل الفارس سيفه بقسوة فصفر في الهواء ، وانغرس حده في لوح الباب فانكسر .

صرخ تليغين بصوت جتوني ، وهو يقرع الباب :

- اطلقوني .

اوقف الفارس فرسه .

- من الهاتف ؟

- اسير . ضابط روسي .

- دقيقة .

قذف الفارس مقبض سيفه المكسور ، وانحنى ، وسحب المزلاج . وخرج ايفان ايليتش ، فاذا بالذي اطلقه ، وهو ضابط في الفرقة الوحشية ، يقول بشيء من التهكم :

- ياله من لقاء !

تطلع ايفان ايليتش اليه ، وقال :

- لا يبدو اني اعرفك .

- انا سابوجكوف سيرغي سيرغيفيتش - وانفجر بتهقئة حادة ، وقال : لم تكن تتوقعني ؟ لللعنة ، انها الحرب !

٣٠

سار القطار في الساعة الاخيرة قبل وصوله الى موسكو مارا ببيوت ريفية مهجورة صافرا صفيرا مبدودا . ودخاناه الابيض يلف مع اوراق الاشجار الخريفية ، وصفرة اشجار البتولا الشفافة ، واحراش الحور القرمزية الفواحة برائحة الفطر . وحيانا كانت اغصان القيقب الحمراء العريضة تتدلى على سدة القطار تماما . وحين كانت الاحراش تشف كانت تلوح من خلالها هنا وهناك الكرات الزجاجية على احواض الزهور ، والصفافات المسمرة في البيوت الريفية ، والاوراق الساقطة على الممرات والدرجات .

٢٦٢

مرت محطة صغيرة كان يقف على رصيفها جنديان يضعان على ظهرهما حقبيتين ، وقد نظرا الى نوافذ القطار بلا اكثرات ، بينما كانت سيدة شابة في معطف ذي مربعات تجلس حزينة معزولة على مسطبة تخطط رسما بطرف مظلتها على الواح الرصيف المبللة .

وبعد المنعطف لاح حاجز خشبي من وراء الاشجار وقد رسمت عليه زجاجة كتب عليها : «فودكا شوستوف المطعمة بالخبيراء لا تضارح» . وانتهت الغابة وظهرت الى اليسار واليمين صفوف طويلة من الكرنب الابيض-الاخضر ، وعند تقاطع الخط الحديدى مع طريق وقفست خلف الحاجز عربة محملة بالقش ؛ وامرأة في فروة رجالية تمسك

مقود حصان نحيل عنيد . وصار من الممكن الآن ان يلمح البصر في الافق البعيد اطراف الابراج المستدقة تحت سحابة طويلة ، وقبة كنيسة «المسيح المخلص» تلمح عاليا فوق المدينة .

كان تليغين يجلس عند نافذة العربة مستنشقا هواه ايلول الكثيف ، ورائحة الاوراق والفطر المتفسخ ودخان قش يحرق في مكان ما ، ورائحة الارض التي مسها الصقيع عند الفجر .

واحس ايفان ايليتش بأنه قطع دربا من الالام امتد سنتين ، ونهايته هنا ، في ساعة الانتظار الطويلة الرائعة هذه . وقد ضمن انه سيضغط في الساعة الثانية والنصف تماما على زر الجرس في ذلك الباب الوحيد - وكان يتصوره من خشب البلوط الفاتح فوهه شباكان صغيران - الباب الذي كان سيبلغه ولو كان ميتا .

انتهت حدائق الخضار الملحقة بالبيوت ، وظهرت على جانبي الطريق بيوت الضواحي الصغيرة المبقة بالوحشيل ، وشوارع مرصوفة رصفا غير متقن تسير عليها عربات مشحونة مكركة ، واسنجة وراها حدائق نبتت فيها اشجار زيزفون معمرة تفرش اغصانها حتى منتصف الشوارع الجانبية ، ولافتات ملونة ، وسابلة

ذاهبون في شؤونهم التافهة دون ان يلتفتوا الى القطار الهادر وراكبه - ايفان ايليتش - الجالس عند نافذة احدى عرباته ، وفي الاسفل ، سار نحو داخل الشارع ترام صغير كاللعبة ، وطلعت قبة كنيسة صغيرة من وراء بيت ، ودقت العجلات على المحسولات ، واخيرا ،

اخيرا - بعد سنتين طويلتين - مر بالنوافذ رصيف محطة موسكو الخشبي . وصعد الى العربات شيبوخ نظاف لا مبالون في مآزر

٢٦٢

بيضاء . اخرج ايفان ايليتش رأسه بعيدا وراء النافذة ، وتطلع .
من الحماقة انتظار احدا ما ؛ انه لم يبلغ عن وصوله .
خرج ايفان ايليتش من المحطة الى ساحة المحطة ، ولم يضبط
نفسه فضحك : فقد كان صف طويل من العربات يقف في الساحة
على بعد زهاء خمسين خطوة . وكان السائقون يصرخون من مقاعدهم
ملاحظين بقفازاتهم :

- انا حاضر ! انا حاضر ! انا حاضر !

- تفضل ، يا حضرة السيد ، على الحصان الفاحم !

- عربتي سريعة ، وبعجلات من مطاط !

وكانت الخيول بأعنتها المتوترة تضرب الأرض بحوافرها ،
وتحمحم ، وتصلح . وكان الصباح ينتشر في الساحة كلها . وبدا
وكان العربات توشك على اجتياح المحطة .

صعد ايفان ايليتش على عربة عالية جدا ، لها مقعد ضيق .
ساله السائق الجميل المصفيق عن العنوان بتساهل لطيف ، ولكي
يبهر زيونه جلس بانحراف على مقعده ، ممسكا العنان رخوا بيده
اليسرى ، مطلقا حصانه في عدو سريع . وراحت العجلات المطاطية
المنفوخة تنط على حجارة الشارع .

- هل انت قادم من الحرب ، يا حضرة ؟

- هربت من الاسر .

- صحيح ؟ وكيف الحال عندهم ؟ يقولون ليس لهم مسا
ياكلونه . انت ، يا جدة ، احذري . معي بطبل وطني . يهرب
الكثيرون من هناك . احذري ، يا صاحبة العربية . . . آه ، المغفل ! . . .
هل تعرف ايفان تريفونيتش ؟

- من هو ؟

- انه في شارع رازغولاي ، يتاجر بالاقمشة الجوخ . . .
يوم أمس ركب في عربتي ، داعم العينين . آه ، حكاية ! . . . اترى
من الصفقات الحربية ، وهو لا يعرف كيف يتفق فلوسه لكثرتها ،
ولكن زوجته هزيت مع بولونى قبل يومين . واصحابنا السواقون
نشرروا الحادث في طول موسكو وعرضها . وايفان تريفونيتش الآن
لا يجرؤ على الخروج الى الشارع . . . ذلك جزء نهب الناس . . .
- ارجوك ان تسرع ، يا صاحبي .

حده ايفان ايليتش رغم ان حصانه السريع العالى كان منطلقا
في شارع جانبي كالريخ ، ملقيا رأسه الغاضب الى الورا على عادته
القفحة .

- وصلنا ، يا حضرة السيد ، المدخل الثاني . قف ، يا
فاسيا ! . .

التي ايفان ايليتش نظرة سريعة منفعة على النوافذ الست
من بيت ابيض ، حيث تدلت ستائر من الدنتلا وادعة نقيه ، وقفز
عند المدخل . كان الباب قديما منقوشا محلي برأس اسد ، وجرسه
غير كهربائي ، من النوع القديم . توقف ايفان ايليتش يضع ثوان ،
غير قادر على ان يرفع يده الى الجرس ، وقلبه متباطيء الخفقان
موجع . «في واقع الامر اننى لا اعرف شيئا الآن . فقد يكون البيت
خاليا من الناس ، وربما لا يستقبلونى» . فكر بذلك مع نفسه .
وضغط المقبض النحاسى وسمع الجرس يدق في اعماق البيت .
«بالطبع لا يوجد احد في البيت» . ولكنه سرعان ما سمع وقع
خطوات امرأة سريعة . فتلفت مشمت اللب . فرأى وجه السائق
المرح يغمز له . ثم صلصلت سلسلة ، وانفتح الباب ، واطل وجه
وصيفة عليه آثار جدري قليلة . سعلت تليغين وسألتها :

- هل تسكن داريا دميترييفنا هنا ؟

ردت الفتاة المجدورة برقة وعذوبة صوت :

- انها في البيت ، في البيت ، تفضل . السييدة والآنسة
موجودتان في البيت .

سار ايفان ايليتش كالعالم في رواق ضيق تنتشر فيه رائحة
فراء ، له جدار زجاجي ، وفيه سلال . فتحت الوصيفة الى اليمين
بابا ثانيا مبظنا بمشحم اسود ، فوجد ايفان ايليتش نفسه في مصر
صغير علققت فيه معاطف نسائية ، وامام المرأة قفازات ، ومنديل
عليه صليب احمر ، ولفاح ازغب . وكانت كل هذه الاشياء البرينة
تعبق برائحة خفيفة مالوفة لعطور نسائية مذهلة .

ذهبت الوصيفة لتبلغ عن وصول ضيف دون ان تسأل عن
اسمه . مس ايفان ايليتش باصابعه اللفاح الازغب ، وخامسره
شعور مفاجئ بان لا صلة بين هذه الحياة النقية الفاتنة وبينه ،
وهو الخارج من الحماة الدامية . سمع صوت الوصيفة آتيا من

اعماق البيت : « يا آتسة ، جاء من يسأل عنك » . أغمض إيفان إيليتش عينيه ، وكان صاعقة ستنتفض عليه من السماء بعد لحظة ، وسمع صوتا عجولا صافيا بث الرفة من رأسه حتى قمعيه :

- هل يسأل احد عنى ؟ من ؟

ترددت خطوات في الحجرات ، جاءت مندفعة من هابوية السننتين من الانتظار . وظهرت داشا عند باب الممر ، وقد سقط عليها ضوء من النوافذ ، وسرت شقرة في شعرها الناعم . وبدت اعلى قاما ، واكثر نحافة ، وهى في بلوزة محاكة ، وتنورة زرقاء .

- هل سألت عنى ؟

وتلجلجت ، وارتعش وجهها ، وارتفع حاجباه ، وانفجر فمها ، الا ان ظل الفزع زايل وجهها في اللحظة التالية ، وتالتت عيناها بالدهشة والفرح .

- اهذانت ؟

قالتها بصوت لا يكاد يسمع ، وبسطة ذراعيها وطوقت رقبة إيفان إيليتش بانفعال ، وقبلته بشفتين رقيقتين مرتعشتين . ثم ابتعدت عنه :

- إيفان إيليتش ، تعال الى هنا .

وركضت الى غرفة الجلوس وجلست على مقعد ، وطوت جذعها نحو ركبتيها ، وغطت وجهها بيديها .

- بالطبع ، هذا من الحماقة . . .

همست بذلك ، وهى تسمح عينها بكل جهدها . ووقف إيفان إيليتش امامها . وفجأة أمسكت داشا بذراعى المقعد ، ورفعت رأسها :

- إيفان إيليتش ، هل هربت ؟

- هربت .

- يا ربى وماذا ؟

- وراسا الى هنا .

وجلس في مقعد قبالتها ، وهو يضم طاقيته بكل قوته .

سألت داشا متلحمة :

- كيف حدث . . . ذلك ؟

- بشكل اعتيادى ، عموما .

- وهل تعرضت للخاطر ؟

- نعم . . . أقصد ليس بذلك الخاطر .

وتبادلا كلمات اخرى لبرهة اخرى . وبالتدريج اخذ الحياء يستولى عليها . غضت داشا بصرها ، وسألت :

- منذ زمان وأنت في موسكو ؟

- جئت من محطة القطار راسا .

- سأطلب قهوة الآن . . .

- لا ، لا داعى للكلفة . . . سأذهب الآن الى الفندق .

عندئذ سألت داشا بصوت لا يكاد يسمع :

- هل ستأتى في المساء ؟

هن إيفان إيليتش رأسه بعد ان اطبق شفثيه . وكان يحس بعسر في تنفسه .

نهض .

- اذن ، انا ذاهب : وسأتى في المساء .

مدت داشا يدها له ، فتناولها ناعمة قوية ، ومن هذه الملامسة شعر بتوهج ، وتساعد الدم الى وجهه . ضغط على اصابعها ، وسار الى الرواق ، الا انه التفت عند بابه . كانت داشا تقف وظهرها الى النور ، ترمقه من تحت حاجبيها .

- هل من الممكن ان اجيء في نحو الساعة السابعة ، يا داريا دميترييفنا ؟

هزت رأسها بالايجاب . خرج إيفان إيليتش مسرعا من مدخل البيت ، وقال للسانق :

- الى الفندق ، الى فندق جيد ، بل واحسن فندق !

جلس في العربة متكئا على ظهر مقعدها ، حاشرا يديه في جيبي معطفه ، وابتسم ابتسامة عريضة . مرت به سريعا ظلال مزقة - ظلال الناس والاشجار والعربات . وبردت وجهه نسمة قارسة فواحة بنكهة مدينة روسية . رفع إيفان إيليتش الى انفه كفه التى ما تزال ملتبسة من ملامسة داشا ، وضحك قائلا بينه وبين نفسه :

« سحر ! »

في تلك اللحظة كانت داشا تقف عند نافذة في غرفة الجلوس بعد ان ودعت إيفان إيليتش . كان رأسها يطن ، وكانت ، مهما

بذلت من جهد ، لا تستطيع ان تتغلب على الرهبة والانفعال وتفكر
بما حدث . طبقت عينيها بشدة ، واهتت فجأة ، وركضت الى
مخدع اختها .

كانت يكاترينا دميترييفنا تجلس عند النافذة تخيط شينسا
وتفكر . وعندما سمعت خطوات داشا سالتها دون ان ترفع راسها
اليها :

— من كان عندك ، يا داشا ؟

ونظرت كاتيا ، وسرت رعشة في وجهها .

— هو . . . الا تفهمين ؟ هو . . . ايفان ايليتش .
انزلت كاتيا خياطتها ، وبسطة ذراعها ببطة . وقالت داشا
بصوت خافت :

— افهميني ، يا كاتيا . انا لست فرحة . بل ويشملكني
الخوف .

٣١

ما ان هبط الظلام حتى اخذت داشا تجفل عند كل نائمة ،
وتركض الى غرفة الجلوس ، وتسمع . . . فتحت عدة مرات كتابا
على صفحة لا تتغير «حيث ماروسيا الشوكالاته التي اشترها لها
زوجها من مخزن كرافت . . .» وفي الغسق البارد ااضيت نافذتان
في بيت الممثلة تشارودوييفا المقابل لبيتهم ، واخذت خادمة على
راسها طاقية تسمى 'المائدة' ، ثم ظهرت تشارودوييفا بحيلة كالهيكل
العظمى وقد القت على كتفيها معطفا مخمليا . وجلست الى المائدة ،
وتشابهت ، ربما نامت على الاربيكة ، صبت لتفاسحساء ، وغرقت
فجأة في تفكير ، وثبتت عينيها الجامدتين في مزرهية فيها وردة
ذابلة . كررت داشا من خلال استناتها : «احبت ماروسيسيا
الشوكالاته» . ودق الجرس فجأة . وغاض الدم من قلب داشا .
ولكن الطارق لم يكن الا موزع الصحيفة المسائية . وقالت داشا
لنفسها : «لا يأتي» وذهبت الى غرفة الطعام ، حيث كان مصباح
واحد يضيء فوق المفروش الابيض ، وحيث الساعة تتكلك ، وكانت

تشير الى الساعة الا خمس دقائق . جلست داشا الى المائدة ،
«وعلى هذا النحو تضي الحياة ثانية بعد ثانية . . .»

ودق الباب الخارجى مرة اخرى . تقطعت انفاس داشا ،
وهبت واقفة ، وركضت الى الرواق . . . كان القادم حارسا من
المستشفى العسكري جلب رزمة من الورق . وايفان ايليتش لن
يأتي بالطبع ، وهو على حق . فقد انتظرته سنتين ، وعند اللقاء
لم تجد كلمات مناسبة تقولها له .

اخرجت داشا مندبليها ، واخذت تعض طرفه . لقد كانت
تتوجس وتعرف ان ذلك سيحدث بالصورة التي حدث بها بالضبط .
عامين احبت صورة رجلها الخيالي ، ولما جاءها حيا . . . ذهلت
عن امرها .

وقالت داشا لنفسها : «فطاعة ، فطاعة» . ولم تلاحظ الباب
يفتح قليلا ، وتظهر ليزا المجدورة .

— يا آنسة ، جاءوا لزيارتك .

زفرت داشا زفرة عميقة ، ومشت الى غرفة الطعام بخفة ،
وكانما لا تمس الارض . كانت كاتيا اول من رأت داشا ، فابتسمت
لها . نهض ايفان ايليتش ، ورمس وانتصب واقفا .

كان يلبس قميصا جديدا من الجوخ ، وحزام عتاد جديدا
القاء على كتف واحدة . وكان حليق الوجه باقتان ، قد حلق شعر
راسه لتوه . والان كان واضحا بشكل خاص ارتفاع قامته ،
وامتساقه وسعة كتفيه . وبالطبع ، كان هذا رجلا جديدا اطلاقا .
نظرة عينيها الرضائتين قوية ، وعلى طرفي فمه المستقيم الدقيق
غضنان ، خطان صغيران . . . وجب قلب داشا ، فقد فهمت انهما
من اثر الموت والفزع والغدا . كانت يده قوية باردة .

اخذت داشا مقعدا ، وجلست الى جانب تليفين . فوضع هو
يديه على الخوان ، وقبضهما ، واخذ يتحدث عن الأسر والهروب من
الأسر ، وهو ينظر اليها نظرات سريعة خاطفة . وكانت هي في
جلستها الشديدة القرب منه تتطلع الى وجهه فافرة الفم .

واحس ايفان ايليتش وهو يروي وكان صوته يرن من مسافة
بعيدة ، وليس بصوته ، وان كيانه كله يهتز منفلا . والى جانبه
تجلس مخلوقة تعجز الكلمات عن وصفها ماسة بثوبها ركبته - فتاة

غير مفهومة مطلقا ، يذوع منها شذى دافئ يدير
الراس .

ظل إيفان ايليتش يتحدث طوال المساء . وكانت داشا
تستفهمه وتقاطعه ، وتبسط يديها ، وتلتفت الى اختها :

- كاتيوشا ، هل فهمت ؟ حكموا عليهم بالاعدام رميا
بالرصاصة !

وحين وصف تلغيفين الصراع من اجل السيارة ، والثانية
الفاصلة عن الموت ، وانطلاق السيارة ، والريح الهابطة على الوجه -
الحرية والحياة ! - لاح شحوب كثير على وجه داشا ، وامسكت يده
وقالت :

- لن ندعك تذهب الى اى مكان بعد الآن !

ضحك تلغيفين :

- سيستدعوننى ثانية ، ولا مفر من ذلك . وكل ما آمله ان
يرسلونى الى مصنع حربي .

وضغط على يدها بحدق .. اخذت داشا تحديق في عينيه ،
وتعمن النظر فيها ، ولونت خديها حمرة خفيفة . فكت يدها ،
وقالت :

- لماذا لا تدخن ؟ ساجلب لك علبة ثقاب .

وخرجت بسرعة ، وعادت في الحال ومعها علبة ثقاب ، وتوقفت
امام إيفان ايليتش ، واخذت تقدم اعراد الثقاب ممسكة اياها من راسها
تماما فتنكسر في يدها . تلك هى اعراد الثقاب التى تشتريها صاحبتنا
ليزا ! واخيرا اشتعل عود ثقاب . رفعته بحدق الى سيكارة إيفان
ايليتش فانار ضوءه حنكها . امتص تلغيفين انفاسا من سيكارتته
مقلصا عينيه . ولم يدر بخلده ان من الممكن ان يحس بمثل هذه
السعادة من اشتعال سيكارة له .

كانت كاتيا طول هذا الوقت تراقب داشا وتلغيفين صامتة .
وكانت سعيدة كل السعادة لداشا ، ومع ذلك فقد كانت تحس
بحزن شديد . ذلك لان فاديم يتروفيشش روتشين لن يغيب عن
ذاكرتها ابداعرغم انها كانت تأمل ان تنساه . وقد كان يجلس معها على
المائدة ايضا ، وقد جلبت له ايضا علبة ثقاب ذات مرة ، واشعلت
له سيكارتته ، دون ان تكسر عود ثقاب واحد .

انصرف تلغيفين عند منتصف الليل . طوقت داشا اختها ،
وقبلتها بقوة ، واغلقت باب غرفتها . اضطجعت على السرير الوقت
يديها وراء راسها ، وفكرت بانها قد طلعت اخيرا من الركود
الكنيب ، ورغم ان كل شئ حولها ما يزال وحشيا فارغا ومرعبا ،
الا ان كل هذا زرقة امل ، نفحة من السعادة .

٢٢٢

تلقى إيفان ايليتش في اليوم الخامس من وصوله رسالة
رسمية من بطرسبورغ تبلغه بال حضور فوراً الى مصنع البلطيق .
وقد تعاقب كالحلم الفرح بهذه الرسالة ، وبقية النهار التى
قضاها مع داشا بهموهما في المدينة ، والوداع السريع في محطة
نيكولاييفسكي ، ثم مقصورة الدرجة الثانية بدفنها الجاف ، وطققة
جهاز التدفئة والظرف الذى عثر عليه في جيبه فجأة مربوطا بشرط ،
وفيه فتاحتان وشوكالاته وكمكيات . فك إيفان ايليتش زر ياقعة
قميصه الجوخ ، ومد رجليه ، ودون ان يستطيع ان يتخلى عن
ايتسامته الحقاء نظر الى الجار الجالس قبالة ، وهو عجوز لا يعرفه
ضئيل الجسم صارم الهيئة في نظارة .

سال العجوز :

- هل انت خارج من موسكو ؟

- نعم ، من موسكو - ثم تابع مع نفسه :

- يا للرب ، اية كلمة لطيفة عجيبة هى «موسكو» هذه ! ..

شوارع صغيرة مغمورة بشمس الخريف ، واوراق جافة تحست
الاتدام ، وداشا الخفيفة الهيفاء تسير على هذه الاوراق ، وصوتها
الصافى النكى - وهو لم يفهم اية كلمة منها - والشذى الدائسى
لزهور دافئة يشمه حين كان يخفى نحوها او يقبل يدها .

قال العجوز :

- هرج ومرج وضوضاء في هذه المدينة . امضيت ثلاثة ايام في
موسكو ... ورايت ما فيه الكفاية - وباعد بين سائيه بخذائيهما
الطويلين والكوشيين عاليين ، وبصق واكمل : وفي الشوارع تجد
اناسا يتراكمسون هنا وهناك ... وفي الليل اضواء وضخ ،

ولافتات ، وكل شيء يدور . . . وزحام الناس . . . جنون !!!
نعم ، هذه هي موسكو . . . بداية الارض . . . بينما لا اجد غير
طراد جهنمي مخبول . واننت ، ايها الشاب ، لقد
خضت معارك . فهل جرحت ؟ لقد ادركت ذلك من الوهلة الاولى . . .
قل لي ، انا العجوز ، امن المعقول ان دمانا تسفك هناك في سبيل
هذه الضوضاء العينة ؟ اين الوطن ؟ اين الدين ؟ اين القيصر ؟
دلتني . انا مسافر الى پترسبورغ لاجلب خيوطا . . . ليا خذها
الشيطان ! تفو ! . . . باى شيء ساعدت الى تيومن ؟ بخيوط ؟ . . . لا
لا اعود بخيوط بل اعود واقول : يا ناس ، نحن هالكون جميعا .
هذا ما ساعدت به . . . تذكر قولي ، ايها الشاب . انا سندفدع
التمن ، سندفدع تمن كل شيء . . . سيكون علينا ان نحاسب على
هذا الجنون .

واسند العجوز يديه على ركبتيه ، ونهض ، وانزل الستارة
الصغيرة على النافذة التي كانت تتطاير وراها في الظلام شرارات
القطار مثل خطوط ضوئية . وتابع العجوز حديثه :

- نسينا الرب فنسانا . . . هذا ما اقله ، آوه ، سندفدع
التمن غآليا جدا . . .

فسال ايفان ايليتش :

- هل تظن ان الالمان سيغلبوننا ؟

- ومن يعرف ؟ من سيرسله الرب لعقابنا فسنتحمل العذاب
منه . . . لنفرض ان الخدم في حانوتي يداوا يتوحدون . سأتحمل
بعض الوقت ، ثم اوجه لأحدهم ضربة على قفاه ، والآخر لطمة على
رقبته ، والثالث اطرده شر طردة . . . ولكن روسيا ليست حانوتي ،
بل هي استمارة شاسعة . ان الرب رحيم بالعباد ، ولكن اذا
لوث الناس الطريق اليه يجب تنظيف الطريق ، ام لا ؟ ذلك ما
ارمى اليه . . . الرب انصرف عن العالم . . . ولا يمكن ان يوجد
ارهب من ذلك . . .

وضع العجوز يديه على بطنه ، واغمض عينيه والتمعت نظارته
لمعانا كالعا حين يهتز في ركن رفة الرمادي . خرج ايفان
ايليتش من المقصورة ، ووقف عند نافذة في الممن ووجهه يكاد
يلامس زجاجها .

كان يتسرب من الفتحة هواء منعش حاد . ورواء النافذة كانت
الخطوط النارية تتطاير في الظلام ، وتتشابك ، وتسقط على
الارض . وبين الحين والآخر كانت تمر سحابة رمادية من الدخان .
وكانت عجلات القطار تقرع مطاوعة . وصفرت القاطرة صفيرا
مدودا ، وهي تعطف في منعطف ، واقت نار حجرة الوقود فيها
ضوءا على القمم المخروطية لاشجار الشوح ، وقد برزت هذه من
الظلمة ثم اختفت . وقرعتت محولات الخطوط . واهتزت العربة
اهتزازا خفيفا ، وومض قرص اخضر لمصباح ، ومرة اخرى مرت
خطوط نارية طويلة بالنوافذ مثل مطر ناري .

وفيما كان ايفان ايليتش يراقبها امتلا قلبه بكل ما حدث
خلال تلك الايام الخمسة غامرا ايساه بفرح مفاجئ . ولو كان في
مقدوره ان يكتم هذا الشعور لاحد من الناس لاعتبر مجنونا .
ولكن ذلك بالنسبة له ليس غريبا او بعيدا عن العقل ، ان كل شيء
فيه واضح كل الواضح .

واحس بان ملايين وملايين من الناس تعيش في ظلام الليل ،
وتتعذب ، وتموت . الا انها تعيش بالمعنى الرمزي لهذه الكلمة ،
وكل ما يحدث على الارض يحدث بهذا المعنى ، وتوهما تقريبا .
وهذا التوهم من القوة بحيث لو بذل ايفان ايليتش اي جهد لتغيير
كل شيء ، وصار مختلفا . وبين هذا التوهم يوجد صميم حي هو
ايفان ايليتش ، بقامته المنحنية الآن على النافذة . انه مخلوق
محبوب خرج من عالم الظلال ومنطلق وسط المطر الناري
فوق العالم المظلم .

واستمر هذا الشعور غير الاعتيادي لحب نفسه بضع توان ،
وعاد الى المقصورة ، وصعد الى الرف العلوي ، ونظر الى يديه
الكبيرتين ، وهو يخلع ثيابه ، وفطن لاول مرة في حياته بانهما
جميلتان . والقاهما خلف راسه ، واغمض عينيه ، وترات داشا
له في الحال . كانت تحدد في عينيه با نفعال وعشق (حدث ذلك
اليوم في غرفة الطعام . لفنت داشا بعض الكمك . دار ايفان ايليتش
حول المائدة ، وتقدم منها ، وطبع قبلة على كتفها الدافئة .
التفتت إلتفاتة سريعة ، فسألتها : «داشا ، هل تقبلين ان تكوني
زوجتي ؟» فاكتمت بان حدثت فيه .)

اما الآن ، وهو مضطجع على الرف ، يتخيل وجه داشا ، دون ان يشيعه هذا التخيل فقد احس ، ولأول مرة في حياته ايضا ، بالحبور ، وبنشوة كون داشا تجسده ، تحب الشخص ذا اليدين الكبيرتين الجميلتين .

ذهب ايفان ايليتش الى مصنع البليطقي في يوم وصوله الى بترسبورغ ، وعين في احدى الورش ضمن التوبة الليلية . وكانت تغيرات كثيرة قد حصلت في المصنع خلال ثلاث سنوات . ازداد عدد العمال ثلاث مرات . كان جزء منهم شبانا ، وجزء آخر نقل من الازوال او من المدن الغربية ، وجزء اخذ من الجيش العامل . وكان العمال يقرأون الصحف ، ويلعبون الحرب ، والقصر ، والقيصرة ، وراسبوتين ، والجنرالات ، وكانوا ساخطين ، وواقين جميعا من ان «الثورة ستندلع» بعد الحرب .

وكانوا ساخطين بشكل خاص على خلط الحنطة بالنخالة في المناجز ، واختفاء اللحم في الاسواق لعدة ايام متتالية ، واذا وجد فهو منتن ، والبطاطس اضر بها الصقمع ، والسكر قدر ، وعلاوة على ذلك فان الغلاء قد استشرى ، واصحاب الحوانيت ، وهم اغنياء حديثون ومضاربون ، قد اثاروا من الصفقات الحريسية ، كانوا يشترون علبه الحلوى بخمسين روبلا ، وزجاجة الشمبانيا بمائة روبل ، ولم يريدوا ان يسمعو ولو كلمة عن الصلح مع الالمان . اجيز ايفان ايليتش ثلاثة ايام لتدبير شؤونه الخاصة ، ففضى المدة كلها في التجارب في ارجاء المدينة بحثا عن شقة . وقد تفقد عشرات البيوت دون ان يعجبه واحد منها . ولكنه في اليوم الاخير عشر فجأة على ما لاح في خياله وهو في عربة القطار : خمس غرف صغيرة ذات نوافذ نظيفة تطل على مغرب الشمس . وكانت هسده الشقة الواقعة في نهاية جادة كامينواستروفسكي غالية بعض الشيء بالنسبة لايفان ايليتش ، ولكنه استأجرها في الحال ، وكتب يخبر داشا بذلك .

وذهب الى المصنع في الليل الرابع . كانت المصابيح مضاءة على الاعمدة العالية في الفناء المسود من قدارة الفحم ، والدخان

الخارج من المداخن ينزل سافلا نحو الارض بفعل الرطوبة والريح ، والهواء اصفر ثقيل مشبع بذرات السخام . ومن خلال النوافذ نصف الدائرية الهائلة المغبرة في مباني المصنع كان الناظر يرى دوران عدد ضخم من البكرات وسيور النقل ، وحركات اجسام المخارط الحديدية وهي تثقب ، وتخرط ، وتصلق الحديد والبرنز . وكانت الاقراص العمودية لمكابس التخريم تدور . وفي الاعلى كانت مقاصير الارتفاعات تروح وتجيء في الظلام . وكانت افران الصهر تتوهج بضوء وردي وابيض ، والمطرقة البخارية الجبارة تهز الارض بضرباتها ، واعمدة الهب تتصاعد من المداخن الواطئة في ظلام السماء الرمادية . وكانت اشباح الناس تتحرك وسط هذا الطنين وهدير الآلات . . .

دخل ايفان ايليتش الورشة حيث كان المكابس تعمل صانعة اغلفة قنابل الشرايينيل . طاف المهندس ستروكوف به في انحاء الورشة شارحا له بعض خصائص العمل الجديدة على ايفان ايليتش ، وكان هذا المهندس صاحبا قديما له . ثم دخل معه الى مكتب محجوز باللوح الخشبية في ركن من الورشة ، حيث اطلعه على الكتب والسجلات ، وسلّمه المفاتيح ، وقال له وهو يرتدى معطفه :

- نسبة التلف في الورشة هي ثلاثة وعشرون بالمائة من انتاجها العام . فعاول ان تتمسك بهذه النسبة .

وجد ايفان ايليتش في هذه الكلمات ، وفي طريقة تسليمه للورشة عدم اكرتار بالعمل . وقد غمه ذلك ، فقد عرف ستروكوف مهندسا ممتازا ورجلا متحمسا في الماضي . عندئذ سأل :

- اتحسب من غير الممكن التقليل من نسبة التلف ؟

هز ستروكوف رأسه متثابرا ، وصرح طاقيته الى اسفل شعره غير المصفوف ، وعاد الى المخارط مع ايفان ايليتش . - ابصق على ذلك ، يا صاحبي . ما الذي يهكم فيه ؟ يهكم اننا سنقتل من الالمان في الجبهة اقل بنسبة ٢٣ بالمائة ؟ وبلاضافة الى ذلك ليس في اليد حيلة ، فان الآلات قد استهلكت ، فلتذهب الى الشيطان !

وتوقف عند مكبس . وضع عامل قصير الساقين في

منز جلدی قطعة حديد محمیة الى حد الاحمرار تحست المكبس ، وهبط القالب ، ونفذ ذراع المكبس في الفولاذ الوردی وكانه نفذ في زبدة ، ويتطاير الذهب ، وارتفع القالب ، وسقط غلاف الشرايين على الارض الترابية . وفي الحال تناول العجوز قطعة جديدة . وكان عامل آخر شاب مديد القامة اسود الشاربين منشغلا عند فرن الصهر . قال ستروكوف مخاطبا العامل العجوز :

- اذن ، الاغلفة بالتلف ، يا روبليف ؟

ابتسم العجوز ، وادار لعينه الهزيلة الى جانب ، ونظر الى تليفين نظرة ماکرة بطرف عينيه الضميتين :

- صحيح بالتلف . انظر كيف يعمل ؟ - ووضع يده على عمود صغير مخضر من الزيت كان قالب المكبس ينزلق عليه . - انه يهتز . كان يجب ان يلتقي في كومة المهملات منذ زمان .

ضحك العامل الشاب الواقف عند فرن الصهر ، وهو فاسيلي بن ايفان روبليف وقال :

- هناك اشياء كثيرة يجب ان تقذف من هنا . الآلة ادركها الصدا .

قال ستروكوف بمرح :

- على مهلك ، يا فاسيلي .

- تلك هي المسألة . . .

وهز فاسيلي راسه بشعره الاجعد . وظهرت تكشيرة خبيثة واثقة على وجهه التحيل العالي الوجنتين قليلا ذی العينين الثابتين الغاضبتين والشاربين الاسودين .

قال ستروكوف لابان ايليتش بصوت خافض وهو يبتعد :

- انهما احسن العمال في الورشة . الى اللقاء . سأذهب اليوم الى «الاجراس الحمراء» . لم تذهب الى هناك ؟ كازينو ممتاز ، ويقدمون فيها النبيذ .

بدأ تليفين يهتم بروبليف الاب والابن بفضول . فقد اذهلته في الحديث الاول ذاك لغة الكلام الرمزية تقريبا ، والبسمات والنظرات التي تبادلها ستروكوف معهم ، وكان الثلاثة كانوا يختبرون

تليفين ليكتشفوا اهو من اصحابهم ام عدو لهم . وقد ادرك من البساطة الخاصة التي تحدث بها روبليف الاب والابن معه في الايام التالية انهما يعتبرانه «من اصحابهم» .

وهذا الانحياز لم يكن يتعلق ، في اغلب الظن ، بآراء تليفين السياسية التي كانت غير واضحة وغير محددة ، بل كان يتعلق ، على الاكثر ، بذلك الاحساس بالنقطة الذي كان يوحيه وجوده لكل انسان . كان لا يتحدث ولا يقوم بشئ يلفت النظر ، ولكن كان واضحا انه رجل نزيه ، رجل فاضل ، صاف الى النهاية ، انه من اصحابهم .

وفي النوبات الليلية كان ايفان ايليتش اذا دنا من الاب والابن يسمعهما يتجادلان في الغالب .

كان فاسيلي روبليف رجلا مطعلا لا يفتأ يتحدث عن الصراع الطبقي وديكتاتورية البروليتاريا ، وهو الى ذلك يتحدث بلسة الكتب وبطلاقة . وكان روبليف الاب من اتباع الكنيسة القديمة ، ماکرا وشيخا غير متدين البتة . وكان يقول :

- كل شيء مدون في كتب الاديرة عندنا في غابات بيرم : هذه الحرب نفسها ، وكيف ستجلب الخراب ، ستدمر ارضنا كلها ، وكم سيبقى من الناس ؟ سيبقى منهم القليل التزر . . . وعندئذ سيخرج من الغابات ، من احد الاديرة رجل سيحكم الارض ، يحكم بكلمة الله الربعية .

فكان فاسيلي يقول :

- التصوف .

- آه ، ايها الارعن ، الجلف ، اراك تتبجح بالالفاظ . . . تعتبر نفسك اشتراكيا ! . . . وای اشتراكى انت ! مجرد قوزاقى ريفى ! كنت مثلك ايام زمان . لا يهجم الا ان يتهاقت على الامر : فيدفع قبعته الى اذنه ، ويوسع عينيه ، ويصرخ : «انهضوا للنضال . . .» مع من ، ولاى شيء ؟ احمق !

فيقول فاسيلي مشيرا الى ابيه باهامة :

- اسمع الى العجوز كيف يتحدث . فوضوى مترممة . لا يفقه شيئا من الاشتراكية ، ولكنه لا يكف عن لومى ليعترض على فقط .

قاطعه ايفان روبليف ، وهو يخرج من قرن الصهر قطعة
جديدة متطايرة الشمرز ورسم بها نصف دائرة في الهواء ووضعها
بخفة تحت ذراع المكبس النازل :

- لا ، لا يا سادة . انتم تقرأون الكتب ، ولكنكم لا
تطالعون الكتب التي ينبغي ان تطالع . والتواضع ليس بشيعة
احد منهم ، ولا يفكرون فيه . . . ولا يفهمون ان كل انسان يجب ان
يكون فقيرا في روحه في زماننا هذا .

- راسك مشوش ، يا ابي . من الذي صاح قبل حين وجيز :
انا ثوري ؟

- نعم ، صحت . . . واذا حدث شيء فساكون اول من يمسك
بمذرة للقتال . وما الذي يجعلني اتمسك بالقبض ؟ انا فلاح .
وهل تعرف كم حرثت من الارض خلال ثلاثين عاما ؟ انا ثوري
بالطبع . وهل تحسب انني لا اهتم بخلاص روعي ؟

كان تليفين يكتب لداشا كل يوم . وكان ردها عليه اندر .
كانت رسائلها غريبة ، وكانها قد منسها صقيع ، فكان ايفان
ايليتش يحس وهو يقرأها بقشعريرة خفيفة . وكان في العادة
يجلس الى النافذة معيدا عدة مرات قراءة رسالة داشا المكتوبة
بسطور كبيرة مائلة الى الاسفل . ثم كان ينظر الى الغابة الرمادية
الليلقية على الجزر ، والى السماء الغائمة الكدرية كماء القناة ، كان
ينظر ويفكر بان هذا ما يجب ان تكون عليه رسائل داشا لا بالرقم
التي يودها لقصر رويته .

كثبت له :
«صديقي العزيز . تقول انك استأجرت شقة مؤلفة من خمس
غرف . ففكر في النفقات التي ستثقل كاهلك بها . وحتى ان لم
تعش فيها وحدك فان خمس غرف كثيرة . ثم انك ستحتاج الى
خادمتين ، وهذا في ايامنا هذه غال للغاية . حل الخريف عندنا في
موسكو ، والجو بارد . وممطر ، وما من بضيض . . . وعلينا ان
ننتظر الربيع . . .»

ومثلما ردت بنظرة على سؤاله يوم سفره : هل تقبلين ان

تكوني زوجتي ؟ لم تشر مباشرة في رسائلها قط الى القران ، ولا
الى حياتهما المقبلة معا . كان يجب انتظار الربيع .

وصار انتظار الربيع هذا ، والامل المبهم الياس في حدوث
معجزة يراود الجميع الآن . توقفت الحياة . ودخل كل الاحياء في
سبات الشتاء مثل سبات دب يعض قائمته . وكان يبدو وكأن العراء
لم تعد له القوة ليتحمل انتظار ربيع دموي آخر الا في الحلم .
ذات مرة كتبت داشا :

« . . . لم ارد ان اخبرك ولا ان اكتب لك عن وفاة بيسونوف .
ولكنني يوم امس حكوا لي تفاصيل عن مقتله المريع . قبل خروجه
الى الجبهة بوقت قصير التقيت به في بولفار تفيرسكوى . كان
بانسا جدا ، يبدو لي انني لو لم اصدده آنذاك لما لاقى حتفه . ولكنني
صددته . وما كان لي الا افعل ذلك ، وساقفل الشيء نفسه لو اعيد
الماضي» .

قضى تليفين نصف يوم في الرد على هذه الرسالة . . . «كيف
يمكن ان تفكري بانني لا اتقبل كل ما يخصك» كتب ذلك ببطء
شديد حريصا على ان تكون كل كلمة صادقة كل الصدق . «احيانا
اختبر نفسي فاتصور انك احببت رجلا آخر ، وهذا اقطع ما يمكن ان
يحدث لي ، وحتى في هذا الحال سابقبل بذلك . . . ولا يعني هذا
انني سأمضع لهذا . لا ، فان شمسي مستظلم . . . ولكن هل حبي لك
في الفرح فقط ؟ انا اعرف ذلك الاحساس الذي يراود المحب حين
يريد ان يضحي بحياته بسبب حبه القوي . . . والظاهر ان بيسونوف
احس بذلك الاحساس ، حين خرج الى الجبهة . . . وانت ، ياداشا ،
يجب ان تشعري بان لك مطلق الحرية . . . وانا لا اسالك شيئا ،
حتى الحب . . . وقد ادركت ذلك في المدة الاخيرة . . .»

بعد يومين غادر ايفان ايليتش المصنع عند الفجر عائدا الى
البيت ، ولدى وصوله اخذ حماما ، واستلقى في السرير ، ولكنه
اوقظ بعد قليل ، وسلم برقية :

«كل شيء بخير . احبك بشدة . داشاك» .

وفي يوم من ايام الاحاد جاء المهندس ستروكوف الى ايفان
ايليتش ، واخذه الى كازينو «الاجراس الحمراء» .

كان الكازينو يحتل قبوا رسمت على سقفه المقوس وعلى

جدرانه طيور مبرقشة ، واطفال ذوى وجوه صغيرة منحلة وجعدات كثيرة الدلالة . كان الكازينو صاحبها وكثير الدخان . وعلى المسرح جلس رجل ضئيل الجسم اصلع محمر الخدين يضرب على البيانو . وكان بعض الضباط يشربون «كروشون» * قويا ، ويطلقون الملاحظات بصوت عال على النساء الدخلات . وبعض المحامين المولعين بالفن يصرخون ويتجادلون . وكانت ملكة القبو ، الحسنة السوداء الشعر المنتفخة العينين تفقه بصوت عال . بينما كان انتوشكا ارنولدوف يكتب رسالة من الجبهة ، وهو يلوى خصلة شعره . وكان مؤسس المستقبلية - وهو طبيب بيطرى مشهور الوجه مسلول المظهر - يهوم متدل الرأس من السكر على منصة قرب العائط . وكان صاحب القبو - وهو ممثل سابق طويل الشعر وديع عليه خمول الادمان على الغبرة - يظهر بين العين والآخر عند باب جانبي ناظر الى الزبائن بعينين مخبولتين ويختفى . انتهى ستروكوف من «الكروشون» فقال يحدث ايفان ايليتش :

- اتدرى لماذا احب هذا الكازينو ؟ لانك لن تستطيع ان تجد مثل هذا التعفن في مكان آخر . متعة ! . انظر ، الى تلك الزاوية ، هناك تجلس امرأة نحيفة مخيفة لا تستطيع حتى ان تحرك جسمها . هستيريا في آخر مراحلها ، ولكنها تحظى بنجاح خارق . وضحك ستروكوف ، وعبء من «الكروشون» واخذ ، دون ان يسمح شفثيه الناعميتين المظلمتين بشارب تترى ، يسمى لايفان ايليتش اسماء الجلّاس مشيرا باصبعه الى وجوههم المؤزقة السقيمة الشبيهة بوجوه المجانين .

- هؤلاء آخر الموهيقان * . . . بقايا الصالونات الجمالية . باه ! عفن . باه ! وقد تقوقعوا هنا ، يتظاهرون بانهم لا توجد حرب ، وان كل شيء كما هو في الماضي .

- * مزيج لعدة انواع من النبيذ الالبيش والكوكويلاك والروم .
(الترجم) .
- ** قبيلة متفرقة من الزوج الحمير في امريكا الشمالية .
(الترجم) .

اخذ تليغين يتسمع وينظر . . . وكان كل شيء يبدو لعينيه كالحلم بسبب الحر والدخان والنبيذ ، وكان رأسه يدور . . . رأى بعض الاشخاص يلتفتون الى باب المدخل ، والطبيب البيطرى يفتح عينيه المصفرتين ، ووجه صاحب الكازينو المخببول يبرز من وراء العائط ، والمرأة شبه الميتة الجالسة الى ناحية من ايفان ايليتش ترفع جفنيه الناعسين ، وترتد الحياة الى عينها فجأة ، وتستقيم قامتها بحيوية غريبة وهى تنظر الى حيث كان الجميع ينظرون . . . وران سكون مياغت في القبو ، ورن قدح عند سقوطه . . .

كان رجل كهل متوسط الطول يقف في باب المدخل وقد دفع كتفيه الى الامام ، وحشر يديه في جيبي ردائه الجوخى ، كان وجهه الضيق بلعته السوداء المتدلّة يتشمح مرحا بغضضيه العميقين المألوفين ، وشعثت في وجهه عينان ذكيتان نفاذتان متفحصتان ملتهبتان بلون رمادى . وقد استمر ذلك دقيقة . ومن ظلام الباب اقترب منه وجه آخر - وجه مؤلف - ارتسمت عليه بسمة مقلقة ، وهمس له شيئا في اذنه ، غضّ الرجل انفه الكبير كارها :

- مرة اخرى انت وسخافتك . . . آه ، كم سئمت .
والقى نظرة اخرى الى رواد القبو بمرح اشد ، وهز لحيته ، وقال بصوت عال ممدود :

- وداعا ، يا اصدقائى المرجين .
واختفى في العال ، وصفق الباب . وسرى طنين في انحاء القبو كله . غرغز ستروكوف اظافره في يد ايفان ايليتش ، وقال لاهت الانفاس :

- هل رايت ؟ رايت . . . هذا راسبوتين .

خرج ايفان ايليتش من المصنع ماشيا في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل . كانت ليلة قارسة من ليالى كانون الاول ، ولم يصادف عربة ليستأجرها ، فقد اصبح الآن من الصعب الحصول على واحدة منها في مثل هذه الساعة حتى في مركز المدينة . سار تليغين بسرعة في وسط الشارع المقفر ، متنفسا البخار في ياقته المرفوعة .

تنهض في الساعة الثانية عشرة ، وتظل تشرب الشاي حتى الليل ،
ولا اعرف كيف لا تتفجر هذه البلهاء .

- وتجمد انت ، وامرض بالسل .
- قولك صحيح تماما ، عندي سعال بالفعل .
- اما الفتاة التي اخدم عندها ، يا اعزائي ، فهي محظية .
اعد من السوق فاجد الضيوف يملؤون غرفـة الطعام في
بيتها ، وجميعهم سكارى . وفي الحال يطالبون بالبيض المقل ،
والخبز والفودكا ، وباختصار بطعام بسيط ومشروب قوى .
وارتفع صوت واتي :

- ينفقون النقود الانجليزية في شرب الخمر .
- ما هذا الذي تقول ؟
- باعوا كل شيء . صدقوني ، فانا اعرف ما اقول . انتم
تقفون هنا ، ولا تعرفون شيئا ، بينما هم باعوك جميعا ولمدة
خمسـين عاما تقديما . كما باعوا الجيش كله .

- يا إلهي !
ومرة اخرى ارتفع صوت مبهوح ينادي :
- يا حضرة الحارس ، يا حضرة الحارس !
- ماذا حصل ؟
- هل سيباع الملح اليوم ؟
- على اكثر الاحتمالات لا يباع الملح اليوم .
- آه ، الملاعين .
- منذ خمسة ايام والملح غير موجود .
- الاوغاد يمتصون دم الشعب .
قال الحارس بصوت عالي للثبـة كيفي :
- كفى كلاما ، يا نساء ، والا فان الحجـرة ستصاب بالبرد .
وخلف تليغين الطاير وراه . وهذا لغف الاصوات الغاضب ،
ومن جديد خيمت القفر والظلام الزمهريري .

وصل ايفان ايليتش الى الكورنيش ، واستدار الى الجسر ،
وحين عثت الريح باطراف معطفه تذكر ان عليه ان يبحث عن
عربة ، على اية حال ، الا انه سرعان ما نسي ذلك . كانت عيون

كان الهواء كله يبدو في ضوء المصابيح النادرة مثقبا بابر
الجمد ، وكان الثلج يخشخش تحت قدميه بصوت عال . والى الامام
لمحت عيناه ومضات ضاربة الى الحمرة تتراقص في الواجهة الصفراء
المسطحة لاحد البيوت . استدار تليغين في منعطف ، وراى لهب نار
في مجرة مشبـكة ، وشخصا مثلثـة متدثرة وسط سحب من
البخار . والى مسافة ابعد على الرصيف وقف زهاء مائة شخص بلا
حرك في صف واحد من النساء والشيوخ والغلمان . انه طابور
يقف قرب حانوت لبيع الاغذية . وعلى مقربة كان الحارس الليلى
يطلـب بعذائه اللبـادي ، ويضرب قفازيه احدهما بالآخر .

ساز ايفان ايليتش بمحاذاة الطاير ناظرا الى الشخصـوس
المنكشـة الملتصقة على الحائط ، الملتفة بالمناديل ، والبطانيات .
وسمع صوتا يقول :

- يوم امس حملوا ثلاثة حوانيت في منطقة فيبورغسكيا .
- هذا ما يقى .
- يوم امس حملوا ثلاثة حوانيت في منطقة فيبورغسكيا .
يكون هناك كيروسين بعد الآن . وبينما انا هناك جاءت طبـاحة آل
ديميتيف ، واخذت خمس زجاجات بسعر قاحش .

- بكم ؟
- الزجاجـة بروبليـن ونصف ، يا فتاتي .
- الكيروسين ؟
- لن يفلت صاحب الحانوت من العقاب . سننذكره اذا
دقت الساعة .

- قالت اختي في اوختا ان الناس امسكوا صاحب حانوت من
هذا الصنف ، وحشروا راسه في برميل مملوء بالماء المخلل وغرق
فيه وهو يتوسل اليهم ان ينقذوه .
- لم يعاقبه بما فيه الكفاية ، يجب ان يعذب اكثر .
- ونحن نتجمد في الطاير .
- وهو ينتفخ بالشاي .

سال صوت مبهوح :
- من الذي ينتفخ بالشاي ؟
- كلهم ينفقون بالشاي . زوجة الجنرال التي اخدم عندها

المصاييح تتواضع على الشاطئ، الآخر باهتة لا يكاد البصر يلمحها . وكانت الالتماعات الخافتة من ممر المشاة عبر النهر تنعكس خطأ مائلا على الجليد . وكان المتسع العريض المقفر المظلم لنهر النيفا نهبه لريح قارسة تحدث عويلا بالثلج ، وصغيرا شكائيا في اسلاك خطوط الترام ، وفي فتحات درابزين الجسر الحديدى .

كان ايفان ايليتش يتوقف من حين لآخر ، ويحدق في تلك القمة الموحشة ، ثم يواصل سيره ، ويفكر ، كدابه الآن في التفكير في اتجاه واحد : في داشا ، وفي نفسه ، وفي تلك اللحظة التي راودته السعادة كالنار ، وهو في عربة القطار .

كان كل شيء يكتنفه الآن مبهما مضطربا متناقضا معاديا لتلك السعادة . وكان يضطر في كل مرة ان يبذل جهدا ليقول لنفسه : انتى حى ، سعيد ، وستكون حياتى منيرة رائعة . لقد كان من السهل ان يقول هذا الكلام حين كان عند النافذة وسط شرارات القطار المنطلق ، بينما صار الآن يحتاج الى جهد هائل ليفصل نفسه عن تلك الشخص المتجمدة تقريبا في طواير الانتظار ، عن الوحشة المميته للريح العوالة في كانون الاول ، عن الشعور بالخسارة العامة ، والهلاك المعلق فوق الرؤوس .

كان ايفان ايليتش واثقا من شيء واحد : كان يجسد خيرا في اشياء جمه : في حبه لداشا وفي فتنة داشا ، وفي ذلك الاحساس السار الذي راوده وهو واقف آنذاك عند نافذة العربة وفي حب داشا له . ان معبد الحياة المريح العريق ، المكتظ ربما ، والرائع رغم ذلك ، قد اهتز ، وتصعد بضربات الحرب ، وتمايلت اعمدته ، وظهر صدع على عرض قبته ، وتساقتت الحجارة القديمة ، وهناك وسط الغبار المتطاير ، وهدير المعبد المحطم شخصان : ايفان ايليتش وداشا ، كانا وهما في حياى الحب البهيجة ، ورغم كل شيء ، يطمحان في ان يكونا سعيدين . فهل ذلك صحيح ؟

فكر ايفان ايليتش ، وهو يمد بصره في الظلمة الليلية الموحشة ، ونقاط الاضواء المتواضعة ، ويسمع الريح تصفر كتواح يمزق القلب : «لماذا اغالط نفسى ؟ ان الرغبة في السعادة اسمى الاشياء . وانا راغب فيها ، وليكن ذلك بالرغم من كل شيء .

فهل استطيع انا القضاء على الطواير امام الحوانيت ، واطلعام الجعاع ، واياف الحرب ؟ لا . ولكن اذا كنت لا استطيع فهل يتحتم على ايضا ان اتلاشى في هذا الديجور ، وارفض السعادة ؟ لا ، ليس حتما . ولكن هل استطيع ان اكون سعيدا ؟ هل ساكون سعيدا ؟»

قطع ايفان ايليتش الجسر . وسار على شارع الكورنيش دون ان يلاحظ الطريق الذى يسلكه . كانت المصاييح الكهربائية العالية المهترئة بفعل الريح ترسل ضوءا ساطعا . وكان رذاذ الثلج يتناثر على الرصيف العالى بهسوسة جافة . كانت نوافذ قصر الشتاء مظلمة خاوية . عند كشك الحراسة المغطى في الثلج الموكوم وقف حارس عملاق مرتديا فروة خروف ، ضاغطا البندقية على صدره .

كف ايفان ايليتش عن السير فجأة ، وتطلع الى النوافذ ، ثم حث خطاه مضارعا الريح في بادىء الامر ، ثم مدفوعا بها من ظهره . وبدا له انه يستطيع الآن ان يقول للجميع ، لكل الناس قاطبة ، حقيقة بسيطة واضحة ، فيصدقون بها جميعا . يستطيع ان يقول لهم : «انتم ترون ان المضى في العيش على هذه الطريقة مستحيل . الدول قائمة على البغضاء ، والحدود مخططة بالبغضاء . وكل واحد منكم كتلة من البغضاء ، قلعة مصوبة مدافعها الى كل الجهات والدنيا مكتظة ورهيبة ، والعالم كله مختنق بالكراهية والناس يفتك بعضهم بعض ، وتسيل انهار الدم . ألم يتفك هذا ؟ ألم تدركوا بعد ؟ اتريدون ان يقضى الانسان على الانسان ، هنا ايضا ، في كل بيت ؟ ثوبوا الى رشدكم ، والقوا السلاح ، وحطموا الحدود ، وافتحوا ابواب الحياة ونوافذها . . . هناك الكثير من المنحدرات للحبوب ، والكثير من المروج للماشية ، والكثير من المنحدرات للكروم . . . ويطون الارض لا تنضب ، ولكل انسان متسع من الارض . . . امن المعقول انكم لا ترون انكم ما تزالون في ظلام القرون الغابرة . . .»

لم تظهر عربة في هذه الناحية من المدينة . عبر ايفان ايليتش النيفا ثانية ، وتوغل في الشوارع الصغيرة المثلوية في منطفقة بطرسبورغسكايا . واصل طريقه وهو غارق تفكيره ومناجاة

كانت اللغة الملفوفة بحصيرة ، والتي القاها الثلاثة من القنطرة في ثغرة الجليد تحتوي على جثة راسبوتين القاتل . وقد اقتضى قتل هذا الرجل القوي الذي كان يملك حيوية لانسانية ان يسقى نبيذا مخلوطا بسيانيد البوتاسيوم ثم يطلق عليه الرصاص في صدره وظهروه وقفاه ، ثم يهشم راسه بوصلة مفصلية . ومع ذلك فحين عثر على جثته ، واخرجت من ثغرة الجليد قرر الطبيب ان راسبوتين لم يلفظ نفسه الاخيرة الا تحت الجليد .

كان هذا القتل بمثابة اباحة لكل ما كان قد بدأ بعد شهرين . وقد قال راسبوتين غير مرة ان العرش سينهار بموته ، وتسقط سلالة رومانوف الحاكمة . والظاهر ان هذا الرجل الوحشي الضارى كان يملك حاسية غامضة لتشوف المحنة ، على غرار الحاسية التي تملكها الكلاب قبيل حلول وفاة في البيت ، وقد مات ، بصعوبة شديدة ، آخر حماة العرش ، الفلاح وسارق الخيول ، والغول المتعصب .

وبوته خيم جزع مشؤوم على القصر ، بينما عمت البهجة ارجاء البلاد ، وراح الناس يهنئ بعضهم بعضا . وكتب نيقولاي ايفانوفيتش الى كاتيا من مينسك : «في ليلة وصول النبا اوصى ضباط هيئة الاركان للقائد الأعلى على ثمانى دوزينة من الشمبانيا للمائدة المشتركة . وردد الجنود في الجبهة كلها هتافا ، التهليل ..»

وبعد عدة ايام نسي الناس في روسيا مقتل راسبوتين الا ان القصر لم ينس . فقد كان اهله يؤمنون بنبوءته ، واستعدوا لمواجهة الثورة بياس منحوس . فقسمت بتروغراد سرا الى اقسام ، وطلبت الرشايات من كبير الامراء سيرغى ميخائيلوفيتش ، ولما رفض تسليمها طلبوها من ارخانغلسك ، وخزنت اربعمائة وعشرون رشاشة في عليات البيوت ومفارق الشوارع . وزيد الضغط على الصحافة ، وكانت الصحف تصدر وفيها اعمدة غير مكتوبة . وكتبت الامبراطورة الى زوجها رسائل مفعمة باليأس ساعية الى ان تثير فيه الغريزة وصلابة النفس : الا ان القيصر ظل قابعا كالمسحور في مونغيليف

نفسه بصوت مسموع ، فطاف على غير هدى في شوارع مقفرة مهلهلة الظلمة حتى خرج الى كورنيش لقناة .

«بالها من نزهة !» وتوقف ايفان ايليتش ملتقبا انفاسه ، وضحك ، ونظر في ساعته . وكانت في تمام الخامسة . خرجت من منعطف قريب سيارة كبيرة مكشوفة متلفنة المصابيح يمس الثلج تحت عجلاتها يسوقها ضابط في معطف عسكري مفتوح الازرار . كان وجه الضابط الضيق الحليق شاحبا ، وعيناه جامدتين ، مثل عيون المفترس في السنكر ، والى الخلف منه جلس ضابط آخر سرح قبعته على علبائه ، ولم يكن وجهه مرنيا لتليغين ، فقد كان يمسك بكلتا يديه لفة ملفوفة بحصيرة . وكان ثالث ركاب السيارة في ملابس مدنية يرفع ياقة معطفه ويضع على راسه قبعة عالية منس فروع عجل البحر . رفع جسمه قليلا ، وامسك بكتف السائق . توقفت السيارة غير بعيد عن القنطرة . وراى ايفان ايليتش الثلاثة يقفزون منها الى الثلج ، ويخرجون اللغة ، ويسحبونها لعدة خطوات على الثلج ثم ينفذونها بهجد ، ويوصلونها الى متصلف القنطرة ويحملونها فوق درابزين القنطرة ، ويسقطونها في الماء . عاد الضابطان الى السيارة في الحال ، بينما انحنى المدني لبعض الوقت ماذا بصره الى الاسفل ، ثم انزل ياقته ، وركض لاحقا برقيقه . وانطلقت السيارة باقصى سرعتها ، واختفت .

تمتم ايفان ايليتش في سره : «اوه ، يا للقدارة . فكان طوال هذا الوقت واقفا حابسا انفاسه . سار الى القنطرة ، ولكنه مهما امن النظر لم يلتقط بصره شيئا في الثغرة السوداء الكبيرة في الجليد تحت الجسر . لا شيء غير بقعة الماء الدافئ الممتن من انبوب تصريف المياه .

«اوه يا للقدارة» - تمتم ايفان ايليتش ثانية وتعبس ، وسار على الرصيف المحاذي للقناة . حصل اخيرا في زاوية الشمارع على زلاجة يجرها حصان غليظ الشفتين ، كان سائق الزلاجة العجوز منكمشا متخسبا من البرد . وحين صعد ايفان ايليتش الى الزلاجة وشد الدثار المتجدد وانغمض عينيه ، كان كل جسمه يتن من التعب . وفكر مع نفسه : «انا محب ، وتلك هي الحقيقة . ومهما فعلت ، واذا بدافع الحب هذا ، فهو جيد» .

وسط العشرة ملايين من المقاتلين الموالين له - وكان لا يشك في ولائهم . ولم تكن النساء المتعزبات ، واللغظ في الطواير على الطعام في بتروغراد يهجم اكثر مما كان تهجم جيوش الامبراطوريات الثلاث الضاغطة على الجبهة الروسية . وفي ذلك الوقت وخفية عن القيصر كان الجنرال الكسيف رئيس هيئة الاركان للقائد الاعلى يعد الخطة في مويغليف لاعتقال القيصر ، والقضاء على الكتلة الالمانية في البلاط .

في كانون الثاني وقع على قرار الهجوم في الجبهة الشمالية توقعاً للحملة الربيعية . وبدأت المعركة قرب ريفا في ليلة زمهريرية . وارتفعت عاصفة ثلجية مع اطلاق نيران المدفعية . وزحف الجنود في الثلج العميق وسط عويل العاصفة الثلجية ، ولهب القذائف المنفجرة بفرارة . واشتركت عشرات الطائرات في المعركة لمساندة الوحدات المهاجمة فجرفتها الرياح نحو الارض ، وفي ظلام العاصفة الثلجية راحت تصب نيران رشاشتها على القوات المعادية والقوات الروسية دون تمييز . لقد كانت روسيا تحاول للمرة الاخيرة تطعيم الطوق الحديدي المطبق عليها ، وللمرة الاخيرة كان الفلاحون الروس المرتدون البذلات المموهة البيضاء والرياح تدفعهم من ظهورهم يقاتلون في سبيل الامبراطورية التي كانت تحتل سدس العالم ، وفي سبيل الحكم المطلق الذي استطاع ذات مرة ان يبني دولة كبرى ويهدد العالم ، والذي لم يعد الآن غير اثر من آثار العاصي كان يجب ان يقبر من زمان ، وسخافة تاريخية ، ومرضا مميتاً للبلاد كلها .

واستمرت المعركة الضروس عشرة ايام ، وتناثرت آلاف الجثث تحت اكوام الثلج . واوقف الهجوم وجمد . وخدمت الجبهة في الثلوج .

٣٥

كان ايفان ايليتش قد نوى السفر الى موسكو في عيد الميلاد ، الا انه بدلا من ذلك اوقف من قبل المصنع الى السويد ، ولم يعد منها الا في شباط ؛ ولدى وصوله استطاع ان يحصل على اجازة لمدة

ثلاثة اسابيع ، وابرق لداشا بانه سيغادر في السادس والعشرين من الشهر .

وكان عليه قبل السفر ان يعمل اسبوعا كاملا في الورش . وقد دهشته التفورات التي حدثت خلال غيابها : اوضحت ادارة المصنع لجنة الجانب بادية الاهتمام على غير عاداتها ، بينما بلغ الحقن عند العمال حدا كان يخيل اليك معه ان احدهم سيقتذف مفتاح الربط على الارض في اللحظة التالية ، ويصرخ : «تركوا العمل ، واخرجوا الى الشارع .. » .

وقد اثارته في هذه الايام بشكل خاص محاضر مجلس دوما الدولة حيث كانت تجري المناقشات حول قضية الطعام . وكان واضحا جدا من تلك المحاضر ان الحكومة التي كانت تحافظ بالكاد على رباطة جاشها وكرامتها تبدل آخر قواها لتقف امام الهجوم ، وان الوزراء القيصرين لم يعودوا يتحدون كالعالمة الاسطوريين ، بل بلغة البشر ، وان اقوال الوزراء وما يقال في الدوما مناف للحقيقة ، بينما الحقيقة هي على السنة الجميع : شائعات مشؤومة غامضة عن هلاك شامل موشك الوقوع في الجبهة والمؤخرة بسبب المجاعة والغراب .

انثناء العمل الاخير لاحظ ايفان ايليتش قلقا غير اعتيادي عند العمال . فقد كانوا يتركون المخارط باستمرار ويتشاورون ، والظاهر انهم ينتظرون اخبارا معينة . وعندما سال فاسيلي روبليف قيم يتشاور العمال ، التي فاسيلي سترته المبطنه على كتفه بحق ، وخرج من الورشة ، وصفق الباب . وقال ايفان روبليف :

- صار فاسيلي سيبيء الطبع بشكل قطع . وقد حصل على مسدس من مكان ما ، وهو يحمله معه .

الا ان فاسيلي عاد بعد وقت قصير ، واحاط به العمال في اقصى الورشة وتقاطروا من جميع المخارط . واخذ فاسيلي يقرأ ورقة بيضاء بصوت عال ويتشديد على المقاطع : «بيان قائد قوات منطقة بطرسبورغ الفريق خابالوف . في الايام الاخيرة كان توزيع الطحين على المغايز ، وخبز الخبز يجريان بنفس الكمية المعتادة مسن قبل .. » .

واذا بالاصوات تتعالى :

- كذب ، كذب . انهم لا يبيعون الخبز منذ ثلاثة ايام . . .
- «ولا يمكن ان يوجد نقص في بيع الخبز . . .»
- امر وتصرف ؟
- «واذا كان هناك نقص في الخبز لدى بعض الحوانيت فان ذلك راجع الى ان الكثيرين راحوا ، تخوفوا من نقص فيهم ، يشترونه لصنع البقسماط . . .»
وزعق صوت :

- ومن يصنع البقسماط ؟ عسى ان يتخنتق به .
وصاح فاسيلي بصوت اعلی :

- استكنسوا ، يارفاق . يجب ان نخرج الى الشارع ، يارفاق . . . هناك اربعة آلاف عامل من مصنع اوبوخوفسكى يزحفون على جادة نيفسكى . . . وهناك عمال آخرون قادمون من منطقة فيبورغسكاييا . . .

- صحیح ! لبرونا الخبز !

- لن يروكم الخبز ، يارفاق . لا يوجد في المدينة من الطحين الا ما يكفي لثلاثة ايام ، وبعدها لن يكون هناك لا خبز ولا طحين . القطارات كلها متوقفة وراء الاورال . . . وهناك السايولات مملوءة بالقمح . . . وفي تشيلياينسكى كميات هائلة من اللحم تتعفن في محطة القطار . وفي سيبريا يشعمون العجلات بالزبدة . . .

وهدرت الورشة كلها ، ورفع فاسيلي ذراعه قائلا :
- ايها الرفاق ، لا احد يعطينا الخبز اذا لم نأخذه نحنن بايدينا . . . لنخرج مع عمال المصانع الاخرى الى الشارع تحت شعار : «كل السلطة للسوفييتات» . . .

فهتف العمال متراكضين في الورشة :

- اوقفوا المخارط ! . . . اتركوا العمل ! . . . اطفئوا افران الصهر ! . . .

تقدم فاسيلي روبليف من ايفان ايليتش ، وكان شارباها يرتجفان . وقال بلهجة واضحة :

- انصرف ، انصرف قبل ان تتاذى !

نام ايفان ايليتش بنية تلك الليلة نوما سينا ، واستيقظ قلعا . كان الصباح غائما وكانت قطرات الماء تتساقط على الافريز

العديد في الخارج . . . بقى ايفان ايليتش مستلقيا يستجمع افكاره . لا ، لم يزايله القلق ، والقطرات تثير اعصابه ، وكانها تسقط في داخل ذماغه . «لا حاجة الى الانتظار حتى السادس والعشرين ، بل يجب ان اسافر غدا» . فكر على هذا النحو وخلص قميصه . ومشى الى الحمام عاريا ، وفتح الدش ، ووقف تحت الرشاش اللاذع البرودة .

كان لديه الكثير من المشاغل قبل السفر . فشرب قهوته على عجل ، وخرج الى الشارع ، وقفز الى ترام غاص بالناس . وهنا ايضا احس باضطراب . كان الركاب يجلسون صامتين متجمعين على عاتقهم طوابير ارجلهم ، منتزعين اطراف ثيابهم من تحت من يشاركونهم المقاعد ، كانت ارضية الترام لزجة ، وقطرات الماء تتساقط على نوافذه ، والجرس بالقرب من سائق الترام يذق مثيرا للاعصاب . وكان يجلس قبائله موظف عسكري له وجه اصفر منتفخ قليلا ، وقد جمدت ابتسامه موعجة على فمه الحليق ، وكانت عيناه تنظران بتساؤل وبحيرة لا تميزان بهما على ما يبدو . وحين امعن ايفان ايليتش النظر لاحظ ان جميع الركاب ينظر بعضهم الى بعض بنفس النظر المتسائلة الحيرى .

توقف الترام عند زاوية جادة بولشوى . وتعملل الركاب ، واخذوا يجيلون ابصارهم ، وقفز بعضهم من الترام . نزع سائق الترام مفتاح التدوير ، ووضع في صدر معطفه الفرائى الازرق ، وفتح الباب الامامى قليلا ، وقال بانفعال غاضب :

- الترام سيوقف عند هذا الحد .

كانت عربات الترام تقف في جادة كامينوستروفسكوى ، وجادة بولشوى كلها على امتداد البصر . وكان جمهور من الناس يتحرك على الارصفة كبقع سوداء . وبين العين والاخر كانت تهبط الضفافة العديدة على نافذة احد الحوانيت معدنة دويا . وتساقط تلج رطب .

صعد على سطح احدى عربات الترام رجل ذو معطف طويل مفتوح ، وانتزع طاقيته ، وراح يصرخ بشى على ما يبدو . وتعالى بين الجمهور و-و- و- . اخذ الرجل يربط حبالا بسطح الترام ، وانتصب ثانية ، وانتزع طاقيته مرة اخرى . وتعالى مرة

اخرى في الحشد و- و- ! قفز الرجل الى الرصيف . وماج الحشد متراجعا . وعندئذ تجلت للعين جمهرة كثيفة من الناس تجر الجبل الذى ربط بعربة الترام منزلة على الثلج الاصفر القذر . وبدأت العربة تجنح الى جانب . وتراجع الناس ، وصفر الضبيان . الا ان العربة تزحنت ثم عادت الى وضعها السابق ، وارتفع صوت انطباق عجلاتها على السكة . عندئذ انضم الى الساحبين اناس تقاطروا من مختلف الجهات ، وامسكوا بالجبل باهتمام وصمت . وجنحت العربة مرة اخرى ، وانقلبت نجاة وتهشم زجاج نوافذها . تقدمت الناس نحو العربة المقلوبة ، وهم ما زالوا على صمتهم .
- واختلط العابل بالنابل !

سمع ايفان ايليتش ذلك الموقف العسكرى ذا الوجهه الاصفر المنتفخ يقول هذه الجملة من ورائه . وارتفعت في الحال عدة اصوات متناثرة مقطوعة :

سقطتم مرعى في الضال الحاسم ...

ورأى ايفان ايليتش في طريقه الى جادة نيفسكى نفس النظرات الحائرة والوجوه المضطربة . كان المستمعون المتعطشون يلتفون حول رواة الاخبار مثل دوامات صغيرة . وعند مداخل البيوت وقف يوابون ممتلئو الاجسام . واطلت خادمة بوجهها تنظر في الشارع . كان سيد ذو لحية معتنى بها يرتدى معظفا مبطنا بالفراء مفتوح الازرار ، ويحمل محفظة يسأل الكناس :

- قل لى ، يا صاحبي ، ما هذا الحشد هناك ؟ ماذا يحدث هناك ؟

- يطالبون بالخبز ، ايها السيد ، ويتمردون .

- واضح !

وعند مفترق الطريق وقفت سيدة شاحبة تحمل كلبا نحिला راعشا رجلاه الخلفيتان متدللتان مرتعشتان وكانت هذه السيدة تسأل كل من مر بها :

- ما هذا الحشد ؟ . . ماذا يريدون ؟

هتف السيد ذو المعطف المبطن بالفراء مرحا ، وهو يمر بها :

- فى الجورائحة ثورة ، ايها السيدة .

سار عامل على الرصيف وطرفا سترته من فراء الخروف يخفقان بشدة ، واختلج وجهه السقيم . التفت فجأة وصرخ بصوت متقطع باك :

- يارفاق ، هل سيظلون يشربون دنما زمنا طويلا ؟ . .

اوقف ضابط ممثلي الخدين صبوى الاسارير العربة التى كان يستقلها ، وامسك بحزام السائق . وحدق في الناس المضطربين وكأنه يحدق في كسوف الشمس .

وصاح العامل عليه وهو يمر به بصوت ناشج :

- تفرج ، تفرج !

وتعاطف حشد الناس ، وصار يشمل الشوارع كله ويهدر هديرًا متفعلًا ، وتحرك باتجاه الجسر . وارتفعت اعلام بيض في ثلاثة اماكن . وجرف هذا السيل المارة في طريقه كالقش . عبر ايفان ايليتش الجسر مع الحشد . كان بعض الخيالة يعدون على خيولهم عبر ميدان «مارسوفو بوليه» المضرب المكسو بالثلج المحفور باثنا حوافر . وحين رأوا الحشد اذاروا خيولهم ، واقتربوا منه بخطوات وثيدة . ضحك احدهم ، وهو عقيد مورد الوجنتين مشقوق اللحية ، رافعا يده بالتحية . وتعالى في الحشد غناء ثقيل جزع . وطارت غربان شعناء من الاغصان العارية الداكنة ، من ظلام الحديقة «ليتنى» ، نفس الغربان التى افزعت ذات مرة قاتلى الامبراطور بافل .

سار ايفان ايليتش في المقدمة ، وكان يحس بغصة في حنجرته . تمنحج ليزيلها ، الا ان الانفعال كان يتصاعد من اعماقه مرة بعد اخرى . بلغ حصن اينجنيرنى فاستدار شمالا ، وسار في جادة ليتيينى .

كان جمهور آخر من الناس ينصب في جادة ليتيينى قادمًا من منطقة فيبورغسكابا . وقد امتد الى مسافة طويلة في الجسر . وكانت بوابات البيوت على طول طريقه غاصة بالفضوليين والوجوه المنفعلة في جميع النوافذ .

توقف ايفان ايليتش عند بوابة احد البيوت على مقربة من موظف عجزو كانت الرعشة تسرى في وجنتيه الشبيهتين بوجنتى

كذب . وكان صف من الجنود الجامدين المتكئين على بنادقهم يسد الشارع بعيدا الى اليمين .

اقترب الحشد وتباطأ سيره . وتطايرت اصوات مذعورة متجهة الى وسطه : «قفوا ، قفوا ! . . .»

واذا بالاف من الاصوات النسائية العالية تعول مرددة : «خبز ، خبز ، خبز ! . . .»

قال الموظف : «لا يجوز السماح بهذه المشاهد» والقي نظرة صارمة على ايفان ايليتش من فوق نظارته . وفي تلك اللحظة خرج بوابان ضخمان من احدى البوابات وراحا يدفعا الفضوليين بكتفيهما . اهنرت وجنتا الموظف ، وزعقت سيدة شابة ترتدى نظارة الفية : «لا تتجاسر ، ايها الابله !» الا ان البوابة — اغلقت . واخذت مداخل البيوت والبوابات تغلق في الشارع كله .

وتعالصت اصوات مذعورة :

— لا داعي ، لا داعي !

واقترب الحشد الهادر . وطلع في مقدمته شاب ذو وجه محمر الخدين منفلعل يضع على راسه قبعة عريضة العافة . وترددت اصوات :

— الريبة في المقدمة ، الريبة في المقدمة !

وفي تلك اللحظة ظهر امام صف الجنود ضابط ضخم ضيق الخصر يرتدى قبعة قوزاقية بميلان . وضع يده على قراب المسدس عند خصره ، وصرخ بصوت كان من الممكن ان تفهم منه هذه الكلمات : «صدر امر باطلاق النار . . . لا اريد سفك الدماء . . . تفرقوا ! . . .»

فارتفعت اصوات وحشية :

— الخبز ، الخبز ، الخبز !

وزحف الحشد على الجنود . . . وبدأ الناس يهرون بايفان ايليتش والطيش في عيونهم . . .

— الخبز . . . يسقط . . . اوغاد ! . . .

وسقط احدهم . وصرخ مستطار اللب رافعا وجهه المتغضن : «اكرههم . . . اكرههم !»

وفجأة صدر في الشارع صوت مثل صوت تمزيق قماش خشن . وسكن كل شيء في الحال . وشد احد الطلاب على طاقيته

بين اصابعه ، وغاص في الحشد . . . ورفع الموظف يده المعقدة ليرسم علامة الصليب . واطلقت طلقة في الهواء ولم تتبعها طلقة

اخرى الا ان الحشد تراجع . بعضه قد تفرق ، والبعض الآخر توجه الى ساحة زنامينسكايا . وبمع الريبة . وبقيت تبعات وكالوش ملقاة

على الثلج الاصفر في الشارع . طلع ايفان ايليتش الى جادة نيفسكي فسمع نائبة هدير اصوات كثيرة . انه حشد ثالث كان قد عبس

النيفا قادما من جزيرة فاسيليفسكي . وكانت الارصفة مكتظة بالنساء الانقيات ، والعسكريين ، والطلاب ، وغرباء لهم مظهر

اجنبي . وكان ضابط انجليزي ذو وجه وردي طفلي يقف كالعمود . وكانت البائعات ذوات الشرايط السوداء في شعورهن يضغطن

وجوههن المبودرة على زجاج ابواب المخازن ، بينما سار حشد غاضب من العاملات والعمال في وسط الشارع متغلغلا في امتداده

الضبابي ، وهو يعول : «الخبز ، الخبز ، الخبز ! . . .»

كان سائق زلاجة يقف بمحاذاة الرصيف وقد مال بجنبه نحو جزئها الامامي ، واخذ يحدث بمرح راكبته السيدة ذات الوجه الاحمر المذعور .

— الى اين اذهب ؟ ها انت ترى بنفسك . ذبابة لا يمكن ان تمر من هنا .

— امض في طريقك ، ايها الاحمق ، ولا تجرؤ على التحدث معي ؟ . . .

— لا ، لست احقق منذ اليوم . . . انزلي من الزلاجة . . . تدافع المارة على الرصيف ، رفعوا رؤوسهم ، وتسمعوا ، وتساءلوا منغلغلين :

— قتلوا هالة شخص في جادة ليتينيي ؟ . . .

— كذب . . . اطلقوا النار على حبل ورجل عجوز . . .

— يارب ! وما ذنب العجوز هذا ؟

— هذه كلها اوامر بروتوبوف . وهو مجنون . . .

— اى نبا هذا ، يا سادة . . . لا يصدق ! اضراب عام . . .

— كيف ؟ والماء والكهرباء ؟

- ليت الرب يجعلها انباءً صحيحة ، آخر الأمر .
- مرحي للعمال ! . . .
- لا تفرحوا ، سيقمعونهم . . .
- حاذر ان تقعم قبيلهم ، وانت بهذه السحنة . . .

- كنت في جادة ليطيينى ، وقد اطلقوا النار هناك ، ولكن في الهواء ، على ما يبدو . . .

- وما رأيك في هذا كله ؟

- لا ادري . اعتقد ان على الحكومة الآن ان تعالج بجديّة مسألة نقل الاطعمة .

صاح ستروكوف ، وهو يضرب سطح المائدة الزجاجي :
 - فأت الوقت ! فأت ! . . . اكلنا اعمامنا بانفسنا . . . ولتنته الحرب ، فقد لاقينا ما فيه الكفاية ! . . . اتدري ماذا ينادون في المصانع ؟ ينادون بدعوة سوفيت نواب العمال . بان لا يؤمنوا بغير السوفييتات !

- صحيح ؟

- تلك هي النهاية ، يا عزيزي ! انهار الحكم المطلق . . . فافتح عينيك . ليس هذا تمردا ، بل وليس ثورة . . . انه بداية الفوضى . . . بل الفوضى العظيمة بعينها . . . - وانتفخ عرق على عرض جبين ستروكوف تحت قطرات العرق - وبعد ايام ثلاثة لن تبقى هناك دولة ، ولا جيش ، ولا حكام ، ولا رجال شرطة . . . بل مائة وثمانون مليوناً من الناس الشعث البدائين . وهل تدري من هو الانسان البدائي الاشمع ؟ النمر ووحيد القرن دميتمان للاطفال بالنسبة له . خلية في جهاز عضوي متفسخ . ذلك هو الانسان البدائي الاشمع . وذلك شيء رهيب جدا . انه بكتيريا تاكل بكتيريا اخرى في قطرة ماء .

قال تليغين :

- اوه ، ليتخطفك الشيطان ! لا شيء من هذا ، ولن يكون شيء من هذا ! انها ثورة ، وشكر للرب عليها .

- لا ، ان ما رايتّه اليوم ليس ثورة . انه تحلل المادة . وستأتي الثورة ، فيما بعد ستأتي . . . ولكننا انا واثت لن نراها .

قال ايفان ايليتش وهو ينهض :

- قد يكون ذلك . وان فاسيلي روبليف هو الثورة . اما انت ، يا ستروكوف ، فلا . انت كثير الضجيج ، وتحدثت بشكل مهيب . . .

مضى ايفان ايليتش الى العناوين التي ينشدها أسفلاً على تخصيصه الوقت الكثير ، غير انه لم يجد احداً ممن قصدهم في البيت . فعاد يتجول في جادة نيفسكى غاضبا .

كانت حركة الزلاجات قد عادت الى الشارع ، وخرج البوابون يزجون الثلج من الارصفة ، وظهر الرجل المهيب ذو المعطف الاسود على مفرق الطرق ورفع فوق الرؤوس المتحدة ، وانكسار الناس المضطربة هراوته البيضاء ، عصا النظام السحرية . ولربما فكر عابر سبيل خبيث : وهو ينظّر الى الشرطي عند اجتيازه الشارع قائلاً لنفسه : «انتظر ، يا اخي ، وسيأتي وقتك» . ولكن لم يدرك في خلد احد من الناس ان الوقت قد حان فعلاً ، وان هذا الشخص المشورب المنتصب كالعمود الحامل للهاوية لم يعد اكثر من شبح وانه سيختفي بين عشية وضحاها من مفرق الشوارع ، من الحياة العامة ، من ذاكرة الناس . . .

- تليغين ، تليغين ! قف ايها الاصم ! . . .
 وركض المهندس ستروكوف نحو ايفان ايليتش وطاقتيه منسرحاً على مؤخرة راسه ، وعيناه تلمعان بروح فياض . . .
 - الى اين ذاهب ؟ لن ندخل الى مقهى . . .

وامسك يد ايفان ايليتش وجره الى مقهى . كان دخان السيفار في المقهى يلذع العيون . وكان الناس بقبعاتهم المستديرة السوداء وبقبعات من فراء عجول البحر ، وبمعاطفهم غير المزورة يتجادلون ، ويتصايحون ، ويقفزون واقفين . شق ستروكوف طريقه نحو نافذة ، وجلس الى مائدة صغيرة قبالة ايفان ايليتش . وهتف ممسكا المائدة بكلتا يديه .

- الروبل يسقط ، والسندات المالية تذهب الى الجحيم .
 تلك هي القوة . . . خبرني ماذا شاهدت . . .

عاد إيفان إيليتش الى شقته في وقت مبكر ، وأوى الى فراشه في الحال . ولكن النوم لم يفشه الا برهة قصيرة ، تنهد بعدها ، وانقلب ثقيلًا على جنبه ، وفتح عينيه . شم رائحة جلد الحقيبة التي كانت مفتوحة على احد المقاعد . في هذه الحقيبة التي اشتراها في استوكهولم محفظة صغيرة من الجلد البديع لأدوات الزينة الضخمة ، هدية لداشا . وكان إيفان إيليتش يحس بالبرقة نحوها ، فيفك ورقها الناعم كل يوم ، ويعاينها . بل وكان يتخيل مقصورة عربية بناقذة طويلة ، كما هي في القطارات غير الروسية ، وداشا في لباس السفر تضع على ركبتيها هذه المحفظة الفواحة بالعطس والجلد رمزًا لسياحات رخيصة مدعشة .

رأى إيفان إيليتش السماء الداكنة وراء النافذة تتشبع بانعكاس ضوء المدينة الليلقي الكدر . وإدرك بصفاة شعور الكراهية العزينة الذي لا يد ان يعتمل في نفوس اولئك الذين كانوا يطالبون بالخبز اليوم ، حين ينظرون الى هذا الضوء . المدينة غير المحبوبة ، الموحشة ، الكريهة . . . دماغ البلاد وإرادتها مصابة الآن بسداه قتال . وهي في احتضار . . .

خرج إيفان إيليتش من البيت في حوالى الثانية عشرة ، فرأى الجادة العريضة الضبابية مقفرة . لاحت من وراء نافذة رطبة لحانوت بيع الزهور مزهية بلورية فيها باقة بديعة من ورود الحمراء المبللة بقطرات كبيرة من الماء . فرنا إيفان إيليتش اليها برقة من خلال الثلج المتساقط .

ظهرت من شارع جانبي دورية تتألف من خمسة قوزاقيين ، ادار آخرهم فرسه ، وعدا به نحو ثلاثة من الرجال يرتدون الكبييه كانوا يسبرون على الرصيف وهم منهمكون في حديث منغل مخفض . توقف الرجال ، وامسك احدهم ، وهو يتحدث بمرح ، شكيمة فرس القوزاقي . كانت هذه الحركة غير اعتيادية كليا جعلت قلب إيفان إيليتش يثب في صدره . ولكن القوزاقي ضحك ، ودفع رأسه الى الخلف ، ثم اطلق العنان لفرسه الغليظ الرقبة الذي كان يضرب بقوائمه ، ولحق برفاقه ، وانطلق الجميع في عدو سريع حتى غيبهم ظلام الجادة .

وحين كان يفان إيليتش يقترب من الكورنيش اخذ يلتقى

بزم من سكان المدينة في هيجان . والظاهر ان احدا لم يستطع ان يبدأ بعد حدث يوم امس : وهامم الناس يتداولون الراى ويتناقلون الشائعات والايخبار ، وكان الكثيرون منهم يسبرون نحو النيفا . وكان هناك بضعة آلاف من الفضوليين يتحركون على الثلج بمحاذاة السياج الغرائبي كجماعات سواد من النمل . وكانت زمرة من الزاعقين تصرخ عند الجسر على الجنود الذين كانوا يسدون الطريق بوقوفهم في عرض الجسر ، وعلى طولها حتى نهايته الاخرى التي لم تكذ ترى في الغيش من جراء الثلج المتساقط .

- لماذا سددمت الجسر ؟! اتركونا نمر !

- نريد ان نذهب الى وسط المدينة .

- قلة حياء . يضايقون الاهالى . . .

- الجسور اقيمت لعبور الناس ، وليس لشاكلتكم .

- هل انت روسى ام لا ؟ . دعونا نعبّر !

كان ضابط صف ضخم ذو اربعة نياشين القديس جيورجى يذرع الجسر عرضا من درابزين الى آخر مصلصلا بمهمازيه ، وحين سمع الشتمات تتعالى من الجمع اذار الى المتصاحين وجهه العابس المجرد الصفر . وقال وشارياه المفتولان بهتان :

- آه ، سادة وتتكلمون على هذا النحو . لا استطيع ان اسمح بعبور الجسر . . . سناضطر الى استخدام السلاح في حالة عدم الامتثال للامر . . .

وتصايح الزاعقون من جديد :

- لن يطلق الجنود النار علينا .

- وضعوك هناك ، وانت الكلب ، الشيطان المجرد . . . استدار ضابط الصف مرة اخرى وراح يتكلم ، ورجس ان صوته كان اجش حادا - عسكريا ، فقد انعكس في كلماته نفس الحيرة المذعورة التي كانت تعتمل في نفوس الجميع في تلك الايام . وقد احس الزاعقون بذلك ، وشتموا ، وضغطوا على الحاجز .

وفجأة تكلم رجل طويل نحيل ذو نظارة انفية مموجة ، ورقبة طويلة ملفوفة بلفاح ، وكان صوته عاليا عميقا :

- انهم يضيقون حركة المرور ، والحواجز في كل مكان ، والجسور قد طوقت ، وذلك منتهى التحقير . هل نستطيع التنقل

في المدينة بحرية ، ام اصبح حتى ذلك معتذرا ؟ ايها المواطنين
اقترح عدم الالتفات الى الجنود ، والعبور على الجليد الى الضفة
الأخرى .. .

- كلامك صحيح . على الجليد ! هورا ! .. .

وعلى الأثر ركض عدة اشخاص على الموجات الغرائبية المغنطة
بالثلج ، والمؤدية الى النهر . وسار الرجل الطويل ذو اللفصاح
المتطاير في الريح بخطوات حازمة على الجليد بمحاذاة الجسر . انحنى
الجنود على الدرابزين في الاعلى وصاحوا :

- يا هؤلاء ، ارجعوا ، والا سنطلق النار .. . ارجع ، ايها
الشیطان الطويل ! .. .

الا ان الرجل مضى في سيره دون ان يلتفت ، ومن خلفه سار
عدد متزايد من الناس في صف واحد وفي سير سريع ، وانزلقوا
واحدا بعد الآخر على منحدر السدة الى الجليد ، وتراكفت اشباحهم
السود على الثلج . صاح الجنود عليهم من فوق الجسر فرد الراكضون
عليهم بصياح مثله محيطين افرأهم بأيديهم . رفع احد الجنود
يندقيته ، الا ان جنديا آخر دفعه من ظهره فاقلع ذاك عن اطلاق
النار .

واتضح فيما بعد ان اية خطة معددة لم تكن لاحد من الذين
خرجوا الى الشوارع ، ولكن الاهالي حين شاهدوا الحواجيس على
الجسور ومفارق الطرق تملكهم جميعا الدافع الكامن في نفوسهم منذ
القدم ، ورغبوا فيما محظور الآن : عبور الجسور ، والتجمع في
حشود . وهذا الظرف وهج الخيال المريض توهجا شديدا . وشاعت
في المدينة شائعة تقول ان شخصا يقود كل هذه القلائق .

في نهاية اليوم الثاني كمنت وحدات من الفوج بافلوفسكي في
جادة نيفسكي ، واطلقت رشقات طويلة من النار على تجمعات
الفضوليين وعلى بعض المارة . واخذ الاهالي يدركون ان شيئا
شبيها بالثورة أخذ في الظهور .

ولكن احدا لم يكن يعرف بورتها ، ولا الموجه لها . كما لم
يكن يعلم بذلك قائد القوات ، ولا الشرطة ، بله' بروتوبوف

الدكتور صاحب العظوة ، وصاحب معمل اقمشة الجوخ من
سيميرسك ، ذلك الرجل الذي شج له صاحب الاطيان ناوموف
راسه في يوم ما في فندق ترويسكايا بعد ان شق به الباب ،
فسبب له ذلك الضرر في الجمجمة والدماع آلاما في الراس وانهبازا
عصبيا ، ثم تخلخل مستميتا فيما بعد ، حين عهدت اليه ادارة
الامبراطورية الروسية . كانت بؤرة الثورة في كل الانحاء ، في كل
بيت ، وفي راس كل مواطن عادي زاهر بالخيالات والسخط والتذمر .
وكانت هذه الاستحالة في تحديد بؤرة الثورة تتنذر بالشموم . فقد
كانت الشرطة تصيد الاشباح . وكان عليها في الواقع ان تعقل
مليونين واربعمائة الف ، هم مجموع سكان بتروغراد .

امضى ايفان ايليتش اليوم كله في الشوارع يخامرهم ذلك
الاحساس الغريب الذي كان يخامر كل فرد ، لا محالة ، الاحساس
بدوار دائمي . وكان يتلمس تعاطف الهيجان في المدينة الى حد
يقرب من الجنون . فقد كان جميع الناس يتحللون الى دوار جماعي
شامل ، وكان هذا المجموع في تجواله في الشوارع وهياجه يبحث
ويتوق الى امارة ، الى ومضة تعمي البصر ، وتدمج الجميع في كتلة
واحدة .

لم يهرب الرصاص في جادة نيفسكي غير قلة من الناس .
فقد انتال الناس كما تنتال الوحوش وتجمعوا حول جثتين مطروحتين
عند زاوية شارع فلاديميرسكايا احدهما لامرأة في ثنورة من القماش
الرخيص ، والثانية لعجوز في معطف من فراء الراكون .. . وحين
اشتد اطلاق النار تراكض الناس شتاتا ، ومرة اخرى تسكعوا
بمحاذاة الجدران .

هذا اطلاق النار عند هبوط الظلام . وهبت ريح قارسة ،
وتغلقت السماء ، وتوهج الغروب بكآبة في السحب التي تراكمت
وراء البحر . وطلع هلال حاد الطرفين ، وتبدل واطنا فوق المدينة
في بقعة سوداء فاحمة من السماء .

ولم تضا المصابيح في تلك الليلة . وكانت النوافذ مظلمة ،
ومداخل البيوت مسدودة . وامتدت اهرام البنادق المشبكية على
طول جادة نيفسكي الغالي المظلم . وكانت اشباح الحراس الضخمة
تترأى على مفارق الطرق . وكان ضوء القمر يلعب بين الحين والآخر

على زجاج نافذة او على شريط سكة الترام ، او على فولاذ حربة .
وخيم الهدوء والسكينة . ولكن سماعات التلغون في كل بيت كانت
تنقل كلمات جنونية عن الاحداث بصوت مذعور خافت .

وفي صباح ٢٥ شباط غصت ساحة زنامينسكايا بالوحدات
ورجال الشرطة . ووقفت امام فندق «سيفرنايا» خيالة الشرطة على
صهوات خيول صهباء متوثبة دقيقة القوائم . ورايت رجال الشرطة
المشاة بمعاطفهم السوداء حول تمثال الامبراطور الكسندر الثالث ،
وتجمعوا زمرا في الساحة . ووقف القوزاق عند محطة القطار وقد
علا المرح وجوههم الملتحية ، وقبعاتهم القوزاقية العالية المنسرحمة
الى جانب ، وبرزت حزم التبن عند سروجهم . وكانت رجال فوج
بافلوفسكي يلوحون بمعاطفهم بلونها الرمادي المتسخ باتجاه جادة
نيفسكي .

ارتقى ايفان ايليتش التتوه الحجري لمدخل محطة القطار ،
وفي يده حقيبة صغيرة ، كانت الساحة كلها ترى من هنا بوضوح
جيد .

كان نصب الامبراطور يتوسطها بفرسه المعتل صخرة من
الغرانيت حمراء بلون الدم ، وقد تدلى راسه البرونزي لتقل راكبه .
وكان الامبراطور يجلس على الصهوة ثقيل كالجاذبية الارضية ،
وقد كسا الثلج كتيفه الكنيبتين ، وطاقيته المستديرة . كسنت
حشود الناس تشق طريقها نحو قاعدة النصب في الساحة قادمة من
خمس شوارع ، رافعة اصواتها بالصياح والصغير والسباب .

ومثلما حدث بالامس على الجسر ، كان الجنود ، ولاسيما
القوزاق الذين يتقدمون على صهوات خيولهم ازواجا من الناس الذين
كانوا ينثالون من جميع الجهات ، يتبادلون معهم الشتائم ولواذع
الكلمات . وكان الصمت والبلبلة الواضحة برينان على زمر رجال
البوليس المتجهين الضخام الاجسام . وكان ايفان ايليتش يعرف
جيذا ذلك القلق الذي يسود فترات انتظار الأمر بالاشتباك في
معركة ، حين يكون العدو المهاجم قاب قوسين او ادنى ، وكسل
الدلائل تشير الى ما ينبغي القيام به ، ولكن صدور الامر يتأخر ،
وتستطيع الدقائق بشكل مؤلم . صلصل باب المحطة فجأة وانفتح ،
وطلع على السلم ضابط جندرمة شاحب الوجه برتبة عقيد يرتدى معظفا

قصيرا . انتصب بقامته ، وادار عينيه الوضئيتين في الساحة ،
ومرهما على وجه ايفان ايليتش . . . ثم هبط الدرجات بخفة بين
القوزاق المتراجعين ليفسحوا الطريق له ، واخذ يقول شيئا لضابط
قوزاقى رافعا اليه لحيته ، اصغى الضابط القوزاقى اليه مرتما على
السرج ، وعلى شفثيه ابتساماة هازنة . اشار العقيد براسه صوب
جادة ستارى نيفسكي ، وسار على الثلج عبر الساحة بمشيئة
متوثبة . ركض نحوه ضابط شرطة احكم شد حزامه على بطنه
الضخم ، واهتزت يده تحت طاقيته عندما رفعها لتحيته ، تعاطمت
صيححات الحشد المتقدم من ناحية جادة ستارى نيفسكي ، ثم اخذت
الاذن اخيرا تميز غشاء . احس ايفان ايليتش بيده تمسك كفه
بقوة ، وراى رجلا مهتاجا يرفع جسمه بالقرب منه حاسر الراس يمتد
على وجه القدر خدش احمر .

- ايها الاخوان ، القوزاق !

صاح الرجل بصوت وحشى يهز النفس كالصوت الذي يطلق
قبيل القتل وسفك الدم فيغوص منه القلب ، وتغشى غشاوة الجنون على
العيون : «قتلونى ، يا اخوان . . . تدخلوا . . . انهم يقتلون !»
استدار القوزاق على سروجهم ، ونظروا اليه صامتين . وقد
شجبت وجوههم ، واتسعت حدقات عيونهم .

وفي تلك الاثناء لاح في جادة ستارى نيفسكي رؤوس سوداء
كثيفة ، هم رؤوس عمال حاضرة كورلبيو الذين كانوا يتقدمون في
الشارع . ورفرف علم احمر مبلل في الريح . ابتعد خيالة الشرطة
عن مدخل فندق «سيفرنايا» ، وما هي الا لحظة حتى لمعت في
ايديهم سيوف عريضة مستلة . ارتفع في الحشد صياح ضار . ووقع
بصر ايفان ايليتش مرة اخرى على عقيد الجندرمة . انه يركض
ممسكا غلاف مسدسه بيد ، وعلوحا للقوزاق بالاخرى .

تظايرت من حشد عمال حاضرة كورلبيو قطع من الجليد
والحجارة ، باتجاه العقيد ، وخيالة الشرطة . تواتبت الخيول الصهباء
الدقيقة القوائم اكثر . وترددت طلقات واهنة من مسدسات ،
وارتفع دخان عند قاعدة النصب . لقد كان رجال الشرطة يطلقون
النار على عمال حاضرة كورلبيو . وفي تلك اللحظة شب في صف
القوزاق فرس اصهر افضس من افراس منطقة الدون ، على بعد عشر

خطوات من إيفان إيليتش . انحنى راكبه القوزاقى على رقبته ،
ولكزه ، وبعده وثبات وصل به الى عقيد الجندرية ، وقد استلَّ
سيفه اثناء جريه ، وضربه به ضربة قوية صافرة ، ثم عاد فرقع
فرسه على رجليه الخلفيتين . وتحرك القوزاق كتلة واحدة نحو
مكان القتل . شقت حشود الناس الحواجز وتدفقوا على الساحة . . .
سمعت طلقات صادرة من مكان ما غطتها صيحة جماعية تهتف :
«هورا . . . هورا . . .»

- ماذا تعمل هنا ، ياتليغين ؟

- اريد ان اسافر مهما يكن من شيء . ولا يهمنى اذا كان ذلك
على قطار بضائع ، او على قاطرة . . .

- اقلع عن ذلك فالسفر مستحيل الآن ، يا صاحبي . انها
الثورة . . .

كان المتحدث انتوشكا ارنولدوف وهو غير حليق نافر المظهر ،
احمر الجفنين ، جاحظ العينين . وقد غمغم كالهاذى غارزا اصابعه
فى طية معطف إيفان إيليتش :

- هل رايت كيف قطعوا راس عقيد الجندرية ؟ . . . تدرج
مثل كرة القدم . جمال ! . . . انت ، ايها الابله ، لا تفهم . انها الثورة !
كان الرجلان واقفين فى ممر محطة القطار مضغوطين فى زحام
الناس . وتابع انتوشكا كلامه :

- فى الصباح رفض الفوج الليتوانى وفوج فولينسكى
اطلاق النار . . . وخرجت سرية من فوج بافلوفسكى الى الشارع
ومعها سلاحها . . . والمدينة فى فوضى ، ولا احد يفهم شيئا . . .
والجنود فى جادة نيفسكى كتار كالذباب ، يتسكعون ، ويخافون
الذهاب الى الكنتات . . .

٣٦

كانت داشا وكاتيا تسييران بغطى سريعة على طبقات الجسد
الرقيقة المتكسرة تحت اقدامها فى شوارع مالايا نيكيتسكايا الباهت
الاضاءة . كانتا ترتديان معطفين فرائيين ، وتلفان راسيهما بلقاحين

ازغبين . ارتفع فى السماء الباردة الضاربة الى الخضرة هلال مذهب
الطرفين صافى . وترامسى الى السمع نباح كلاب وراه بسواية .
ضحك داشا فى زغب لفاحها الرطب ، وهسى تنصت الى تكسر
الجليد .

- كاتيا ، لو ان احدا من الناس اخترع آلة ووضعها هنا
- ووضعت داشا يدها على صدرها - فانها ستسجل اشياء فريدة .
وترنمت داشا بصوت خافت . فتناولت كاتيا يدها .

- دعينا نذهب ، هيا !

توقفت داشا ثانية بعد بضع خطوات .

- كاتيا ، اعتقدين انها الثورة حقاً ؟

من بعيد شمع فى عبورها مصباح كهربائى صغير موضوع فوق
مدخل نادى الحقوقيين ، حيث دعت كتلة الكاديت ، تحت تأثير
الشاغعات الجنونية القادمة من بتروغراد ، الى اقامة اجتماع عام فى
الساعة التاسعة والنصف مساء لتبادل الآراء ، وايجاد قاعسة
مشتركة للعمل فى هذه الايام العرجة . صعدت الشقيقتان السلم
الى الطابق الثانى ركضا ، ودخلتا القاعة دون ان تخلعا معطفيهما ،
بل اكتفتا بك لفاحيهما . كانت القاعة غاصة بالناس تستمع بتوتر
الى سيد بدين مورد الخدين ملتص يحرك يديه الكبيرتين حركات
لطيفة . كان هذا الرجل يقول بصوت جميل متوسط الجهارة :

- . . . الاحداث تتنامى بسرعة تدبر الراس . فى بتروغراد نقلت
كل السلطة يوم امس الى الجنرال خابالوف الذى الصق فى انحاء
المدينة كلها هذا الاعلان : «فى الايام الاخيرة حدثت فى بتروغراد
قلاقل مصحوبة بالعنف والاعتداء على حياة ضباط الجيش والشرطة .
امنع كل تجمع فى الشوارع ، وابنه سكان بتروغراد الى اننى اكدت
للقوات اللجوء الى السلاح عند الحاجة ، وعدم التوقف امام اى شيء
فى سبيل اعادة النظام الى العاصمة . . .»

- جزارون !

رن صوت طالب جهير من جوف القاعة .

- . . . ان هذا الاعلان ، كما كان متوقعا ، قد جعل كاس
الصبر تطفح . فانضم الى جانب المنتفضين خمسة وعشرون الف
جندي من حامية بتروغراد يمثلون مختلف اصناف السلاح . . .

وقيل ان ينهى كلامه ضجت القاعة بالتصفيق . وقفز بعض الرجال على مقاعدهم ، وهتفوا ، واوماوا بأيديهم ، وكانهم يوجهون الطعنات الى النظام القديم . نظر الخطيب الى القاعة الهادئة مبتسما ابتسامة عريضة ، ثم رفع ذراعه ، وتابع كلامه :

- وصلت قبل حين برقية تلفونية غاية في الهمية - وهنا دس يده في جيب سترته ذات المربعات ، وبسط ورقة مطوية ، وقال : اليوم ارسل رودزيانكو رئيس مجلس دوما الدولة الى القيصر برقية تلفونية على الخط المباشر : «الوضع ينذر بالخطر . الفوضوية في العاصمة . الحكومة مشلولة . النقل والتموين والوقود في انهيار تام . الرصاص يُطلق في الشوارع بلا نظام . القوات تطلق النار بعضها على بعض احيانا . من الضروري اسناد الوزارة الجديدة الى رجل يتمتع بثقة البلاد . لا يجوز الابطاء . كل ابطاء صنو الموت . ندعو الله الا يوقع المسؤولية على رأس العاهل في هذه الساعة العرجة » .

انزل السيد ذو الخدين الموردين الورقة ، وادار عينيه البراقبتين في القاعة . لم يذكر الموسكوفيون مثل هذه المسرحية الغلابة . وتابع الخطيب كلامه بصوت ناعم منمّم :

- نحن الآن ، ياسادة ، على عتبة اعظم حدث موشك على الوقوع في تاريخ بلادنا . ولربما في هذه اللحظة تحقق هناك - ومد ذراعه مثل تمثال دانتون - مطمح العديد من الاجيال ، واخذ الثار لطوفوا ديسمبريين المفجوعة . . .

- تاهت امرأة ولم تتمالك نفسها .
- آه ، يا إلهي !

- ولربما ستندمج روسيا غدا في جوقة اخوية فرحة تردد
كلمة : الحرية ! .

رددت اصوات صارخة :

- عاشت الحرية ! . . .

وهبط السيد في مقعده ، ومرر ظاهر كله على جبهته . نهض من طرف الطاولة رجل مديد القامة ذو شعر طويل كثاني اللون ، ووجه ضيق ، ولحية صهباء ذابلة . واخذ يتكلم بصوت فيه نبرة هسهة دون ان ينظر الى احد .

- منذ لحظة سمعت بعض الرفاق يهتفون : عاشت الحرية . شيء صحيح . وای شيء يمكن ان يكون افضل من اعتقال نيقولاي الثاني في موغيليف ، ومحاكمة الوزراء ، وطرد حكام الولايات ورجال الشرطة . . . ورفع راية الثورة الحمراء . . . انها بداية صحيحة . . . العملية الثورية ، حسب المعلومات المتوفرة ، قد بدأت بداية صحيحة وبطاقة حيوية . وفي هذه المرة ، على ما يبدو ، ستنجح . ولكن ها انتم قد سمعتم السيد الفاضل الذي تحدث قبل يقول كلاما جميلا جدا . فقد اعرب - ان لم تخش اذني - عن الرضى التام بالثورة الموشكة الحدوث ، وافترض انه سيندمج بروسيا كلها في المستقبل القريب جدا في جوقة اخوية واحدة . . .

اخرج الرجل ذو الشعر الكثاني مندبلا ، ووضع على فمه ، كمن يحاول ان يخفي ضحكة هازئة . الا ان وجهه تبعثت ، وسعل ، ورفع كتفيه العظميين . سال شخص وراءه داشا التي كانت تشارك اختها في مقعد واحد :

- من المتكلم ؟

همس ادهم في الاجابة همسا سريعا :

- الرفيق كوزما . كان في عام ١٩٠٥ عضوا في مسوفيت نواب العمال . قبل مدة قصيرة عاد من المنفى .

وتابع الرفيق كوزما كلامه :

- لو كنت في مكان الخطيب السابق لتريثت قليلا في ابداء الغبطة - وفجأة اكسى وجهه الشمعي موجدة وحزما وهو يقول : ان اثني عشر مليونا من الفلاحين قد اعدوا للقتال ، وهم ما يزالون في الجبهات . . . وملايين من العمال يختنقون في الاقبية ، ويقفون جياعا في الطوابير امام حوانيت الطعام . فلعلكم تريدون ان تغنوا جوقة اخوية واقفين على ظهور العمال والفلاحين . . .

وصدرت في القاعة هسهسة ، وصرخ صوت حائق : «هذا استفزاز !» من السيد ذو الوجنتين المحمرتين كتفيه ، ومس الجرس . وواصل الرفيق كوزما كلامه :

- . . . التقى الامبراليون اوروبا في حرب مريعبة ، واعتبرتها الطبقات البرجوازية عاليا وسافلها حربا مقدسة - تلك الحرب من اجل الاسواق العالمية ، من اجل انتصار منقطع النظير للراسمال . . .

اما الخونة ، الاشتراكيون-الديموقراطيون فقد ابدوا السادة متواطئين معهم ، واقروا معهم بان الحرب وطنية ومقدسة . وسيق الفلاحون والعمال الى المجزرة . . . وانا اريد ان اسأل : من الذي رفع صوته في هذه الايام الدموية ؟

- ماذا يقول ؟ ! اجعلوه يخرس !

ارتفعت اصوات حانقة ، وعلا الضجيج ونهض بعض الناس قافزين من اماكنهم مؤشرين بايديهم .

- . . . الساعة دقت . . . ولهب الثورة سيمتد ، لا محالة ،

الى صميم الفلاحين والعمال . . .

وبعد ذلك تعذر تماما ان تلتقط الاذن كلامه ، بسبب الصخب في القاعة . هرع بعض الاشخاص المرتدين ستر النهار الى الطاوله .

ارتد الرفيق كوزما عن المنصة ، وتوارى وراء الباب . واحتلت مكانه خيرة مشهورة في تربية الاطفال .

- ان الكلمة المشيرة للاستياء التي القاها الخليلي السابق . . .

وفي تلك اللحظة همس شخص على مقربة شديدة ممن اذن

داشا بصوت متفعل رقيق :

- مرحبا ، يا عزيزتي . . .

نهضت داشا مسرعة حتى دون ان تجد الوقت لتلتفت ، فأت

ايفان ايليتش واقفا عند الباب . نظرت اليه - الى رجلها ، فبدأ لها اجمل رجل في العالم . اما هو فقد اذهله مرة اخرى ، كما حدث له

مرارا من قبل ، ان يرى داشا مختلفة تماما عما كان يتصورها في ذهنه في غيابها ، ولكنها اكثر جمالا بما لا حد له : شاعت حمرة

حارة في خديها ، وبدت عيناها الرماديتان الزرقاوان مثل بحيرتين لا تترار لهما . كانت صورتها كاملة ، ولا ينقصها شيء . ردت داشا

التحية بصوت خافت ، وتناولت يده ، وخرج الاثنان الى الشارع . توقفت داشا في الشارع ورنّت الى ايفان ايليتش مبسمة .

ثم تنهدت ، ورفعت ذراعها الى كتفيه ، وقبلته من سفتيه . وفاحت منها الفتنة الاثوية لعطر فيه بعض المرارة . امسكت داشا يده

ثانية وهي صامئة ، وسار الاثنان على قشرات الجليد المخشخشة ، والملمتعة بضوء الهلال المتدل منخفضا هناك ، في اعماق الشارع .

- آه ، كم احبك ، يا ايفان ! كم انتظرتك . . .

- لم استطع القدوم ، انت تعرفين . . .

- لا تغضب اذا كنت قد كتبت لك رسائل سينة . فانا لا

احسن الكتابة .

توقف ايفان ايليتش ، وحقق في وجهها المرفوع اليه ، الباسم بصمت . كان المنديل المزغب يضيء عليه مسحة خاصة من العلاوة

واليساطة ، ويجعل الحاجبين المغطيين تحته اكثر اسودادا . جذبها ايفان ايليتش اليه برفق ، فالتصقت به منقلبة قديمها . قبلها مرة

اخرى . وعادا يسيران .

- هل ستمكث طويلا ، يا ايفان ؟

- لا اعرف . هذه الاحداث . . .

- نعم ، انها الثورة .

- تصوري ! اننى جئت على قاطرة . . .

- اتعرف ، يا ايفان ان . . .

وسارت معه على خطو واحد نظارة الى طرفي حداثيها .

- ماذا ؟

- ساذهب هذه المرة معك الى بيتك . . .

لم يرد ايفان ايليتش عليها . ولم تشعشع داشا الا بأنه يحاول ان يعلل صدره بالهواء عدة مرات . واحست بالحنان والاشفاق

عليه .

٣٧

كان اليوم التالي رائعا لأنه اثبت مفهوم نسبية الزمن فقد نقلت العربة ايفان ايليتش من فندقه في شارع تيريسكايا الى

شارع ارباب بحوالى عام ونصف عام . وقد قال الحوذى : «لا ، يا حضرة المحترم فات ذلك الزمان الذى تستطيع ان تستاجر فيه

عربة بنصف روبل . في بتروغراد كسب الناس حريتهم وسنفعل ذلك في موسكو في القريب العاجل . انظر الى ذلك الشرطى الواقف

هناك . اود لو اسوق العربة عليه ، والهب وجهه بسوطي . ابن الكلية ذاك . انتظر ، يا محترم ، وسنصنفي حسابنا مع الجميع» .

استقبلت داشا ايفان ايليتش عند باب غرفة الطعام .

كانت في روبها البيتي ، وشعرها الاشقر قد صُف على عجل ، وعيق الماء الطازج يفوح منها . ودق جرس الزمن ، وتوقف الزمن . وامتلا كله بكلمات داشا ، وضحكها ، وشعرها الناعم الخفيف المشع في شمس الصباح . وكان ايفان ايليتش يحس بالاضطراب حتى حين كانت داشا تنثقل الى الطرف الآخر من المائدة . فتحت داشا باب دولاب الاواني ، ورفعت فزاعمها ، وانحسر كمن روبا العريضان . وفكر ايفان ايليتش مع نفسه بان من المستحيل ان يكون للناس مثل هاتين الذراعين ، ولكن الاثرين الابيضين للتطعيم ضد الجدرى فوق العرق كانا يؤكدان وحدهما بان هاتين الذارعين انسانيتان على الرغم من ذلك . تناولت داشا قححا ، وادارت راسها الاشقر الشعر ، وقالت شيئا مدهشا ، وضحكت .

جعلت ايفان ايليتش يشرب عدة اقداح من القهوة . كانت تنطق بكلمات ، وايفان ايليتش ينطق باخرى ، ولكن كلمات الناس ، على ما يبدو ، لا يكون لها معنى الا في الزمن المتحرك بشكل طبيعي . اما اليوم فلم تكن للكلمات معان . كانت يكاترينا ديمتريفنا جالسة معها في غرفة الطعام تسمعهما يثرثران بالتواقة عن القهوة ، وعن مخفظة جلدية لا أدوات الزينة ، وعن راس قُطع في بتروغراد ، وعن شعر داشا الذي يبدو اصهب في الشمس الساطعة - وباللعجب ! وهما في ذلك ما بين دهشة شديدة ، ونسيان سريع للموضوع .

جلبت الخادمة الصحف . نشرت يكاترينا ديمتريفنا «روسكيه فيدوموستي» ، وتأوهت واخذت تتلو بصوت مسموع بيان الامبراطور عن حل دوما الدولة . اندهشت داشا وتليغين من هذا الخبر اندهاشا كبيرا . الا ان يكاترينا ديمتريفنا بعد ذلك ، واصلت قراءتها «روسكيه فيدوموستي» في سرها . قالت داشا لتليغين : «تعال الى غرفتي» وقادته عبر دهليز مظلم صغير الى غرفتها . دخلت داشا الغرفة قبله ، وقالت بعجالة : «انتظر لحظة ، لا تنظر» ، واخذت شيئا ابيض في جراب الخزانة .

كان ايفان ايليتش يرى غرفة داشا لأول مرة . يرى منضدة الزينة باشيايها العديدة الغريبة عليه ، والسريز الابيض الضيق بوسادتين كبيرة وصغيرة . وكانت داشا تتوسد الاولى في نومها ،

وترتفق الثانية حين تهوّم ، والمقعد الوثير عند النافذة ، وقد اُلقي على ظهره لفاح مزغب .

طلبت داشا الى تليغين ان يجلس في ذلك المقعد ، وقربت منه كرسيها بلا ظهر ، وجلست عليه قبائلته مسندة مرفقيها على ركبتيها ، موسدة حنكها على يديها ، وحدقت في وجهه دون ان يرف لها جنن ، طالبة منه ان يقول لها كم يعجبها . دق جرس الزمن مرة اخرى .

قال تليغين :

- داشا ، لو وهبوني كل ماهو موجود ، كل الارض لسا اسعدني ذلك . هل تفهمين؟ - فهزت داشا راسها . - ما الحاجة الى اذا كنت وحيدا في الدنيا ؟ صحيح ؟ . وما نفع نفسي لنفسي ؟ - هزت داشا راسها . - ولاى شيء آكل ، واسير ، وانام ؟ وما نفع هاتين اليدين ، وهاتين القدمين ؟ . وماذا وراء امتلاكك لثروات اسطورية ؟ . ولكن انتصوريين اية وحشة اشعر بها وانا وحيد ؟ - هزت داشا راسها . - ولكن الآن ، حين تجلسين هذه الجلسة بقربي . . . انسى وجود نفسي . . . اشعسر فقط بوجودك ، انك تتنفسين ، وانك حية ، وانك لي . داشا ، اتفهمين شيئا مما اقوله ؟

قالت داشا :

- اتذكر جلوسنا على ظهر السفينة ، وقد هب التسيم ، وتلألا النبيذ في الاقداح ، وقد احسست انذاك باننا نمخر نحو السعادة . . .

وهل تذكرين الظلال الزرق هناك ؟

هزت داشا راسها ، وخيل اليها على الفور بانها هي ايضا تتذكر ظلالا زرقا رائعة . وطافت في ذاكرتها طيور التورس التي كانت تطير وراء السفينة ، والشنطان الواطئة ، والدرب المتلالي الذي لفته الشمس بعيدا على الماء ، والذي بدا لها كأن نهايته الاخرى تلتقي ببحر السعادة الازرق المتالحق . بل وتذكرت داشا اللوب الذي كانت ترتديه . . . الا كم من سنين طويلة قد مرت منذ ذلك الحين . . .

في المساء عادت يكاترينا دميترييفنا وراكضة من نادى الحقوقيين وهي منفعلة متهللة ، وروت قائلة :

- في بروفغراد انتقلت كل السلطة الى لجنة الدوما . واعتقل الوزراء ، ولكن شائعات رهيبية تسرى بين الناس تقول ان القيصر غادر مقر القيادة ، وان الجنرال ايفانوف يزحف على بتروفغراد بفيلق كامل ليضع حدا للغلاقل ... اما هنا فقد حدد يوم غسد لاقتحام الكرملين والترسانة ... يا ايفان ايليتش ، غدا سنأتي ، انا وداشا ، اليك في الصباح لنشاهد الثورة ...

٣٨

كان في وسع المشاهد ان يرى من نافذة الفندق سيل الناس الاسود يتقدم ببطء ، في شارع تفيرسكايا الضيق ، وتتحرك الرؤوس ، وطاقيات كثيرة العدد ، وقبعات ، ومناديل رأس ، ووقع الوجوه الصفراء . والفصوليون يطلون من جميع النوافذ ، والاولاد على السطوح .

وكانت يكاترينا دميترييفنا واقفة عند النافذة وقد رفعت برقعها حتى حاجبها . كانت تمسك يد تليغين مرة ، ويد داشا اخرى وتقول :

- ما ارهب ذلك ! .. ما ارهب ذلك !

فكان ايفان ايليتش يقول :

- يكاترينا دميترييفنا ، اؤكد لك ان الشعور السائد في المدينة مسالم للغاية . قيل مبيتكما هرعتم الى الكرملين ، فعلمت ان المفاوضات جارية هناك . والظاهر انهم سيسلمون الترسانة دون اطلاق رصاصة ...

- ولكن لماذا هم ذاهبون الى هناك ؟ .. انظر اى عدد ضخم من الناس ... ماذا يريدون ان يفعلوا ؟ ..

كانت داشا تنظر الى سيل الرؤوس المتمسج والى خطوط السطوح والابراج . كان الصباح باهت الضمور ، خفيف البرد . وكان ثمة سرب من غربان الزروع يحوم

بعيدا فوق القباب الذهبية لكنائس الكرملين وفوق النسبور المقوسة الارجل في اعلى الابراج المدبية .

وخيل لداشا ان انهارا عظيمة قد اكتسحت الجليد ، وطفعت على الارض وانها وعزيرها محمولان بهذا التيار ، وليس عليها الا ان تلمس يده بقوة . وخفق قلبها قلقا وفرحا ، مثل قلب طائر يحلق في اعلى الجو .

قالت كاتيا :

- اريد ان ارى كل شىء ، لنخرج الى الشارع .

كانت الاعلام الحمراء تزين بناية دوما المدينة الاجرية الداكنة اللون - مقر قيادة الثورة - ذات الاعمدة الشبيهة بالقناني ، والدرابزينات العديدة ، والشرفات والابراج . وكانت شرائط القماش الاحمر تلف الاعمدة ، وتتدفق فوق افرين المدخل الرئيسى . وامام المدخل اربعة مدافع رمادية على عجلات عالية رابضة على الرصيف المتجمد . وعلى المدخل جلس جنود الرشاشات متكورين على انفسهم ، وقد زينوا كتافياتهم بأشرطة حمراء . وكانت جماهير غفيرة من الناس تنظر بتوجس مرح الى الاعلام الحمراء ، والى نوافذ الدوما المتربة السوداء . حتى اذا ظهر في الشرفة الصغيرة فوق مدخل البناء شخص صغير الجسم يادى الانفعال ، ولوح بيديه ، وصرخ بشىء غير مسموح . ارتفع من الحشد هدير الفرح .

وكان الناس اذا ملأوا ابصارهم بالنظر الى الاعلام والمدافع اضعفوا سماعتين على التلج اللذائب قليلا والقدر عبر اطواق كنيسة ايفرسكايا العميقة خارجين الى الساحة الحمراء ، حيث كانت الوحدات العسكرية الثائرة تجرى مفاوضات عند بوابتى سباسكيسه ونيكولسكيه مع المنتدبين من الفوج الاحتياطى المرابط والمتحصن في الكرملين .

دفعت الجماهير كاتيا وداشا وتليغين بسيلها الى مدخل الدوما تماما . كان الصباح يترامى متعاليا من شارع تفيرسكايا حتى ملا ارجاء الساحة .

- يارفاق ، تنحوا ... يارفاق راعوا النظام !

ارتفعت بذلك اصوات شابة منفعة . انشق حشد الناس على مريض ، فاندفع خلاله الى مدخل الدوما اربعة طلاب يلوحون ببنادقهم ، وشابة مليحة الوجه شعشاها الشعر في يدها سيف . كانوا يسوقون عشرة معتقلين من رجال الشرطة ضخام مشوربين مطرقي الرؤوس عابسين شدت ايديهم وراء ظهورهم . سار في مقدمتهم ضابط شرطة له رأس حليق مرق حاسر ، والدم قد تخثر مسودا عند صدغه . مرر عينيته الصهباوين اللامعتين بسرعة على وجوه الحشد المستهزئة . كانت كتافيتا معطفه قد انتزعتا مع قطعة منه .

وتردد اصوات من الحشد :

- جاء ماكان ينظركم ، يا اصحاب ! لعبتم علينا ، وكفى .
- وحكمتكم حكم القياصرة ...
- عترة ملعونة ! ...
- امسكوهم ، واجعلوهم يذوقون العذاب ...
- يا اولاد ، هيا ! ...

صاح الطلبة مبجوحى الاصوات :

- يارفاق ، يارفساق . اتركوهم يمررون . راعوا النظا، الثورى !

وصعدوا الى مدخل الدوما راكضين دافعين رجال الشرطة ، وغيبتهم الابواب . وعندئذ تدافع وراءهم بعض الاشخاص ، ومن بينهم كاتيا وداشا وتليغين .

كان بعض جنود الرشاشات يقرضون عند رشاشاتهم على الارض الرطبة في دهليز عار على السقف بامت الاضائة . وكان احد الطلبة - وهو فتى متلى الخدين صمغه الصياح والتعب على ما يبدو - يصيح بكل داخل :

- لا اريد ان افهم شيئا ! اعطني الترخيص بالدخول ! ..

وكان بعض الداخلين يبرزون له تراخيصهم ، والبعض الآخر يكتفون بهز اذرعهم عليه ، ويرتقون السلم العريض الى الطابق الثانى ، حيث كان الجنود المتربون العسكى الصموتون مستلقين او قابعين قرب جدران الممرات العريضة غير تاركين بنادقهم . كان بعضهم يمضغ الخبز ، والبعض الآخر يشغى ، وسيقانهم الملفوفة

بلفائفها منطوية تحتهم . وكان المتفرجون يمررون متسكعين وبقراون الاعلانات الغربية المدبسة على الابواب ويتطلعون الى المفوضين المبحوحين الراكضين من حجرة الى اخرى ، المهتاجين الى آخر حدود الطاقة الانسانية .

اعتلا بسر كاتيا وداشا وتليغين بكل هذه الغرائب ، وشقوا طريقهم الى قاعة ذات علو مزدوج تغطى نوافذها ستائر ارجوانية حائلة اللون ، وتصطف فيها المساطب المبطنة بالارجوان على شكل انصاف دوائر . وكان على الجدار الامامى اطاران مذهبان فارغان كانا يضمنان من قبل صورتي القيصر والقيصرة ويبدوان الآن مثل بقعتين سوداوين شخصيتين . امام الاطارين تمثال مرمسى للامبراطورة يكاترينا في رويها البرونزى المتباعد الطرفين . تبتسم منطلقة الاسارير مداهنة شعبيها .

وعلى مساطب القاعة جلس اناس مرهقون يسندون رؤوسهم على ايديهم وقد بدت وجوههم مسودة غير حليقة . وكان بعض الرجال نائمين دافنين وجوههم في لوحة الكتابة امامهم ، والبعض الآخر ينزعون القشرة عن قطع السجق في غير ما رغبة ، وياكلون الخبز . وفي الاسفل ، امام تمثال يكاترينا المبتسمة ، جلس شبان ممتقعو الوجوه في قمصان سود الى المنضدة طويلة فرش عليها غطاء من المخمل الاخضر المذهب العواشى . وبين هؤلاء رجل اصهب اللحية طويل الشعر . . . قالت كاتيا :

- انظري يا داشا . هذا هو الرفيق كوزما وراء المنضدة . وفي تلك اللحظة تقدمت من الرفيق كوزما فتاة قصيرة الشعر ، مدبية الانف ، واخذت تهمس بشئ . اصغى الرجل دون ان يلتفت ثم نهض وقال :

- اعلن غوتشكوف رئيس البلدية للمرة الثانية انه لن يوزع الاسلحة على العمال . اقترح التصويت بدون مناقشة على احتجاج ضد عمل اللجنة الثورية .

واخيرا استطاع تليغين ان يعرف (بعد ان استجوب طالبا قصيرا مستغفرا في تدخين سيكارة) ان اجتماع سوفييت نواب العمال مستمر هنا في قاعة يكاترينينسكى هذه لليوم الثانى بلا انقطاع . في فترة الغداء رأى جنود الفوج الاحتياطى الموجودون في

الكريملين دخان مطابخ الميدان المتقلبة في الساحة الحمراء، فاستسلموا ، وفتحوا البوابة . وعم الصباح الساحة ، وارتفعت القبعات في الهواء . وارتقى جندي صغير لوبنويه ميستو * الموضع الذي قتل فيه دميتري الدعي * في زمانه ، فانطرح عاريا تماما ، وقناع خروف على وجهه ، ومزمار البهلوان على يطنه ، ذلك المكان الذي كان يعلن فيه تتويج القيصرية وتحنيتهم عن العرش ، وتذاع فيه جميع حريات الشعب الروسي وقيوده ، ارتقى تلك المنصة الواطئة التي كان الارقطيون يتناثر عليها احيانا كثيرة ، ثم يعود الدم المسفوك فيروها . وكان هذا الجندي الضئيل يرتدى معظفا صلبا ، وبدا يتكلم عن شيء متحنيا للناس ، دافعا طاقته العالية الى اذنيه بكلتا يديه ، ولم يتبين احد شيئا من كلامه لشدة الصخب . وكان الجندي ضئيلا جدا ، غربل في آخر موجة للتجنيد من احدى الاماكن النائية ، ومع ذلك فان سيدة كانت تضع على راسها بقعة بريش مائلة الى جانب قد شقت طريقها اليه ، وقبلته . وبعد ذلك انزله الناس من «لوبنويه ميستو» ، ورفعه على اذرعهم ، وحملوه هاتفين .

وفي تلك الاثناء صعد شاب من المحتشدين على تمثال الجنرال سكوبليف مقابل دار الحاكم العام في شارع تفيرسكايا ، وشد قطعة من القماش الاحمر على سيفه . وتعالى الهتاف له . وانسل بعض الاشخاص الغامضين الى قسم البوليس السري من الزقاق وسمع من هناك صوت زجاج يتكسر ، ثم طلع دخان . وهتف اناس : «هورا» . وعند نصب بوشكين في بولفار تفيرسكايا تحدثت كاتبة مشهورة والدمع يسبح من مآفئها عن فجر الحياة الجديدة ، وبعد ذلك وضعت بمساعدة طالب علما احمر صغيرا على يد بوشكين الواقف في لحظة استغراق . وهتف الناس : «هورا» . وكانت المدينة كلها

* منصة حجرية مستديرة الشكل كانت تعلن من فوقها مراسم القيصرية واحكام الاعدام . (المترجم) .

** الدعي الثالث على عرش روسيا ، وقد سُمي باسم دميتري ابن القيصر ايفان الرابع (الرييب) واعدِم سنة ١٦١٢ في موسكو في لوبنويه ميستو . (المترجم) .

كالسكرى طيلة ذلك اليوم . ولم يعد احد الى بيته حتى ساعة متأخرة من الليل ، وقد تجمهر الناس في تجمعات ، وراحوا يتحدثون ، ويبكون من الفرح ، ويتعانقون ، وينظرون بقرقيات . فان روح امالي المدينة تطفئ بعد ثلاثة اعوام من الجزع والكراهية والدم .

عادت كاتيا وداشا وتليغين الى البيت عند هبوط الظلام فعرفوا ان الغادسة ليزا قد خرجت الى بولفار برتشستنسكي لحضور اجتماع ، وان الطباخة قد حبست نفسها في المطبخ ، وانها تبكي وتطلق صرخات خافتة . افلحت كاتيا بعد لاي في اجبارها على فتح الباب :

— ماذا حدث لك ، يامارفوشا ؟

— ... ست... لوا... قيصرنا .

قالت وغطت يدها ففها الممتلئ ذا الشفتين المنتفختين من البكاء . وكانت رائحة الكحول تفوح منها .

قالت كاتيا منزعة :

— انت تقولين هراء . ان احدا لم يقتله .

وضعت سخان الشاي على هوقد الغاز ، وذهبت لتعد المائدة . استلقت داشا على الاركة في غرفة الجلوس وجلس تليغين عند قدميها . قالت داشا :

— ايفان ، ياعزيزي ، اذا اخذتني غفوة دون ان ادري ، فابقظني حين يعد الشاي فانا مشوقة اليه جدا .

وانقلبت ، ووضعت كفيها تحت خديها ، وقالت بصوت ادركه النعاس :

— احبك كثيرا .

في الشفق كان اللقاح الذي كان تلتف به داشا يلوح ابيض . وكان تنفسها غير مسموح . جلس ايفان بلا حراك ، وقد انغم قلبه . ظهر ضوء في شق الباب في نهاية الغرفة ، ثم انفتح الباب ، ودخلت كاتيا ، وجلست الى جانب ايفان ايليتش على مسند الاركة وطوقت ركبتيها . وبعد برهة من الصمت سألت بصوت خفيض :

— غفت داشا ؟

— طلبت ان توقظ عند تهيئة الشاي .

- ومارفوشا تبكى في المطبخ لأن القصر قتل . ماذا سيحصل ، يا إيفان إيليتش ؟ .. يخامرني شعور بان جميع السدود قد حُرقت .. وقلبي يوجعني خوفا على نيقولاى إيفانوفيتش .. ارجو ، يا عزيزى ، ان ترسل له برقية في الصباح الباكر غدا .. قل لى متى تنويان - انت وداشا - السفر الى بتروغراد ؟

لم يجب إيفان إيليتش . ادارت كاتبا له رأسها وتفرست في وجهه بعينها الواسعتين كعيني داشا تماما ، سوى انها عينا امرأة جديتان ، وإبتسمت ، وجذبت إيفان إيليتش ، وقبلته من جيبيته . في صباح اليوم التالي خرج الناس جميعا الى الشارع . سارت الشاحنات المملوءة بالجنود في شارع تيفرسكايا وسط زحام الناس ، والهتافات المتواصلة ، فكان الجنود مسلحين بالحرب والسيوف . واعتلى الصبيان متون المدافع المقرقة ووقفت على اكرام الثلج القذرة وعلى الاصفحة لحراسة النظام فتيات في ريعان الشباب شاهرات السيوف متواترات الوجوه وطلاب مدججون بالسلاح لا يعرفون الرحمة . انهم الميليشيا المتطوعة . صعد اصحاب الحوانيت على السلالم وانزلوا النور الامبراطورية من لافتاتهم . وسارت في شارع المدينة فتيات سقيعات المظهر - هن عاملات من معمل التبغ يحملن صورة ليف تولستوى الذى كان ينظر بجهامة من تحت حاجبيه المعقودين الى كل هذه الغرائب . وبدا وكان من المستحيل ان تكون بعد الان حرب او بغضاء ، ولم يبق الا ان ترفع الراية الحمراء على احد ابراج الاجراس العالية حتى يدرك العالم اجمع اننا جميعا اخوة ، وان القوة الوحيدة في الدنيا هى الفرح والحرية والحب ، والحياة ..

وحين حملت البرقيات النبا الصاعق عن تنحية القصر وانتقال المُلك الى كبير الامراء ميخائيل ، وعن رفضه للعرش القيصرى بدوره ، لم يدهش احد كثيرا ، فقد بدا وكان تلك الايام حبل باعظم من هذه العجائب .

وتجمدت البرك على الرصيف وراحت تتكسر تحت الاقدام . توقفت داشا ، ودون ان تفك يديها المتشابكتين اللتين طوقت بهما يد إيفان إيليتش مدت بصرها عبر السياج الواطى في الضوء الباهت في النافذة الصغيرة العميقة في كنيسة القديس نيقولا .

كانت الكنيسة وفناؤها في الظل تحت اشجار الزيزفون . ترامى من بعيد صوت انصفاق باب وسار في الفناء رجل قصير في معطف طويل يصل الى الارض ، وقبعة معكوفة الحافة . وكان الجليد يتكسر تحت حذائه اللبائى ، وترامت صلصلة المفاتيح . اخذ الرجل يرتقى برج الجرس على مهل . همست داشا :

- ذهب القندلفت ليدق الجرس .
ورفعت داشا رأسها . كان اتق الغروب يرتدى على ذهب

القبعة الصغيرة على برج الكنيسة .
دق الجرس الذى يدعو الناس منذ ثلاثمائة عام الى سكنية النفس قبل النوم . وقفزت الى ذكارة إيفان إيليتش في الحال تلك الكنيسة الصغيرة في الطريق ، والراة التى كانت تبكى بصمت على عتبتها وهى بردائها الابيض ، والطفل الميت على ركبتيها . ضغط إيفان إيليتش بكوعه على يد داشا ضغطة قوية . نظرت داشا اليه نظرة تساؤل . وسالته بهمس سريع :

- اتريد ؟ لنذهب ..
ابتسم إيفان إيليتش ابتسامة عريضة ، فعبست داشا وضربت الارض بحذائها .

- ليس فى الامر ما يضحك حين تسير امرأة ويدها بيد الشخص الذى تحبه اكثر من أى شىء آخر على الارض ، وتبصر ضواها في نافذة فيدخلان الكنيسة ، ويعقدان قرانها ..
وتناولت داشا يد إيفان إيليتش ثانية ، وسالت :

- هل انت فاهمى ؟

- ايها المواطنين ، جنود الجيش الروسى الحر منذ الآن فصاعدا . لقد حطيت بشرف نادر ، هو ان اهنكم بيوم مجيد : ان قيود العبودية قد حطمت ، وقام الشعب الروسى خلال ثلاثة ايام

بأعظم ثورة في التاريخ دون اراقة قطرة من الدماء . فقد خلع القيصر المتوج عن العرش ، واعتقل الوزراء القيصريون . وتنازل ميخائيل ولي العهد من تلقاء نفسه عن عيب العرش الثقيل . ومنذ اليوم انتقلت السلطة بكامل ميثقتها الى الشعب ، واصبحت على رأس الدولة حكومة مؤقتة لكي تجرى الانتخابات الى الجمعية التأسيسية لعموم روسيا في اقرب وقت مستطاع ، على اساس التصويت السري المباشر المتساوي العالم . . . فلنهنئ منذ اليوم : عاشت الثورة الروسية . عاشت الجمعية التأسيسية . عاشت الحكومة المؤقتة ! . . .

تعالى عناف طويل من آلاف الجنود المحتشدين . اخرج نيقولاى ايفانوفيتش سموكوفنيكوف مندبلا كبيرا كاكي اللون من جيب سترته الشمو ، ومسح رقبته ووجهه ولبعته . كان يتكلم وهو واقف على منصة مصنوعة باربجال من الواح خشبية ، يضطر الضاعد اليها الى التسلق في عوارض متقاطعة . وكان يقف وراء ظهره أمر الكتيبة تيتكين الذي رقى قبل حين الى رتبة مقدم ، وقد ارتسم الانتباه المتوتر على وجهه المسفوح بلحيته القصيرة وانفه الممتلئ . وحين تعالى الهتاف رفع يده الى طرف طاقتيه بتحية ساهمة . وكان زهاء الفى جندي يقفون امام المنصة في الحقل المنبسط المرقش ببقع سوداء من الارض والتلج المشخ . كانوا يقفون فاغرى الافواه معتمرين بالوخذ الحديدية لابسين المعاطف المتجمدة بلا احزمة ، وبلا سلاح ، يصفون الى الكلمات المذمعة الذي كان ينطق بها سيد احمر كالدك الجبشى . وفي المدى البعيد كانت مداخن قرية محروقة تلوح بارزة من خلال الضباب الرمادى . ووراء القرية كانت تبتدا مواقع الالمان .

— ايها الجنود !

تابع نيقولاى ايفانوفيتش خطابه ، وقد مد الى الاسام يده منفرجة الاصابع ، وتدفق الدم الى رقبته :

— بالامس فقط كنتم اناسا من درجة واطنة ، قطعيا اعجم كانت القيادة العليا القيصرية ترسله الى المذبحة . ولم يكونوا يسألونكم ما الذى يجب ان تموتوا من اجله . . . كانوا يجلدونكم على اقل ذنب ، ويمرونكم بالرصاص دون محكمة . (سعل المقدم

تيتكين ، ورفع قدما ووضع اخرى ، الا انه صمت ، وانزل رأسه ثانية ، وعاد الى اصغاله) . لقد عينتني الحكومة المؤقتة مفوضا لجيوش الجبهة الغربية - وهنا شد نيقولاى ايفانوفيتش على اصابعه كمن يمسك بعنان - واصرح لكم انه منذ اليوم لا توجد رتب واطنة ، ولا القاب . وانتم الجنود ، منذ اليوم ، مواطنون متساوون للدولة الروسية ولا يوجد الان فرق بين الجنود وقائد الجيش . وقد لقيت القاب صاحب السيادة ، صاحب المعالي ، صاحب الفخامة . منذ اليوم ستقولون «مرحبا ايها السيد الجنرال» و«لا ، ايها السيد الجنرال» و«نعم ، ايها السيد الجنرال» . وصنع الجواب المهينة مثل «بالامر والخدمة ، يا صاحب السيادة» قد لقيت كما لقي اداء الجندي التحية العسكرية لكل ضابط مهما تكن رتبته . وفي امكانكم ان تصافحوا الجنرال اذا شئتم ذلك . . .

ها - ها - ها -

سرت هذه الوهومة مرحة في حشد الجنود . وابتسم تيتكين ايضا ، ورفق زموشه خوفا .

— واخيرا ناتي الى الشيء الهم : ايها الجنود ، من قبل كانت الحكومة القيصرية هي التي تخوض الحرب ، ومنذ اليوم سيخوضها الشعب ، انتم انفسكم . ولهذا تقترح الحكومة المؤقتة عليكم تشكيل لجان الجنود في جميع الجيوش - لجان السرايا والكتائب والافواج صعودا حتى لجان الجيوش . . . ارسلوا الى هذه اللجان الرفاق الذين تنفون بهم ! . . . ومنذ اليوم سيتحرك اصبع الجندي على الخارطة العسكرية الى جانب قائم القائد الاعلى . . . ايها الجنود ، اهتؤمكم بمكسب الثورة الرئيسى ! . . .

وضجت الهتافات في الحقل مرة اخرى . وقف تيتكين بهيئة استعداد ، وادى التحية العسكرية . واكتسى وجهه لونا زغاديا . واخذت الصيحات ترتفع من الجنود المحتشدين :

— هل سنعتقد الصلح مع الالمان عن قريب ؟

— كم سيخصصون من الصابون للفرد الواحد ؟

— وماذا بخصوص الاجازات ؟ ماهى التعليمات ؟

— ايها السيد المفوض . ماذا سيكون عندنا الآن ؟ هل

سننتخب ملكا ؟ ومن سيحارب ؟

ولكى يرد على الاستئسلة على نحو افضل نزل نيقولاى
إيفانوفيتش من المنصة ، فحاطه الجنود الهتاجون في الحال . اسند
المقدم تيتكين مرفقه على درابزين المنصة ، وراقب رأس المفوض
العربى الحليق الحسير وقفاه الممتلئ وهو يتحرك وسط الخوذ
الحديدية ، ويدور ويبتعد . امسك جندى احمر الشعر يلوح عليه
المرح والغضب يضع معطفه على كتفيه (كان تيتكين يعرفه جيدا ،
من سرية المغابرة) امسك نيقولاى إيفانوفيتش من حزام سترته ،
وراح يسأله مطوقا بصره فيما حوله :

- ايها السيد المفوض العربى ، انت تحدثت لنا حديثا مشوقا ،
ونحن اصغينا اليه بشوق ... والآن اجبني على هذا السؤال .

ضج الجنود فرحين ، واشتد زحامهم . تعبس المقدم
تيتكين ، ونزل من المنصة واجما .

قال الجندى وهو يكاد يمس انف نيقولاى إيفانوفيتش باظفره
الاسود :

- اطرح عليك هذا السؤال . تلقيت من قريتي رسالة
تخبرني بأن البقرة التى كانت في بيتي قد فطست ، وانا لا املك
حصانا ، زوجتي راحت تطوف في الارض مع اولادنا تستجدى الناس
كسر الخبز ... اريد ان اسأل : ايحق لك الآن ان ترميني
بالرصاص اذا حاولت الهرب ؟

- اذا كانت سلامتك الشخصية اغلى عندك من الحرية ،
ففى وسعك ان تخونها ، تخونها كيهودا . عندئذ ستقول روسيا
لك في وجهك : لا تستحق ان تكون جنديا في الجيش الثورى ...
اذهب الى بيتك !

صرخ نيقولاى إيفانوفيتش بحدة ، فقال الجندى :

- لا تصرخ على !

- ومن انت لتصرخ علينا !

- ايها الجنود- ورفق نيقولاى إيفانوفيتش جسمه على
اطراف اصابعه- هنا يجرى سوء تفاهم ... ان الوصية الاولى
للتورة هى الاخلاص لحقائنا ... وعلى الجيش الروسى الثورى
الحر ان يهاجم بقرة جديدة عدو الحرية الالد ، المانيا الامبريالية ...
فارتفع صوت غليلظ :

- وانت هل سبق لك ان غذيت القمل من دمك في الخنادق ؟

- انه لم ير قملة واحدة منذ ولادته ...

- اهد له ثلاثا للتكاثر ...

- لا تحدثنا عن الحرية . حدثنا عن الحرب . نحن نحارب منذ

ثلاث سنوات ... انت في طيب مقام في المؤخرة ، تغذى لك كرشا

اما نحن فيجب ان نعرف كيف انتهى الحرب ...

صاح نيقولاى إيفانوفيتش مرة اخرى :

- ايها الجنود ، ان راية الثورة قد رفعت . الحرية والحرب

حتى النصر الاخير ...

- اوه ، ابله ملعون لا فائدة منه ...

- نحن نحارب منذ ثلاث سنوات ، ولم نجد نصرا ...

- ولماذا اذن خلعوا القيصر ؟ ...

- خلعوا القيصر عن قصد . كان يعرقل عليهم تطويل

الحرب ...

- انه ماجور ، يا رفاق ...

شق المقدم تيتكين طريقه الى نيقولاى إيفانوفيتش دافعا

الجنود بكوعه ، وشاهد مدفعا ضخما مكرور الكتفين اسود الشعر

يمسك المفوض من صدره ، ويهزه ويصرخ في وجهه :

- لماذا جئت الى هنا ؟ قل : لماذا جئت الينا ؟ جئت لبيعنا ،

يا ابن الكلبة ...

وغار قفا المفوض المستدير في رقبته ، واهتزت لحيته

الشائلة الى فوق ، الشبيهة بلحية مستعارة . دفع الجندى ، ومزق

باصابع مرتجفة ياقة قميصه . تعبس الجندى وخلع خوذته

الحديدية ، وضرب بها رأس نيقولاى إيفانوفيتش ووجهه عدة

ضربات قوية ...

٤٠

جلس حارس ليلي ورجل من رجال الميليشيا عند باب مخزن

المجوهراتى مورافيتشيك يتبادلان الحديث بغفوت . وكان الشارع

خاليا ، والمخازن مغلقة ، وريح آذار الخفيفة تصفر في اشجار الحور

التي لم تكتسب اوراقا بعد ، وتختشخس في اعلان «قرض الحرية» المصنق على سياج ، والقمر الرضاء قمر الجنوب ، الحى ، مثل قنديل البحر يتدلى عاليا فوق المدينة .

وكان العارس الليلي يتحدث ببطء :

- وكان هو يصطاف في منزله على الساحل البحرى في بالطا . وكان قد خرج الى التنزه في سروال ابيض ، حسب الاصول ، بكل نياشينه . واذا بهم يسلمونه برقية في الشارع عن خلغ صاحب الجلالة الامبراطور . ويقرا البرقية ، وتنفجر الدموع من عينيه امام الناس جميعا .

ردد رجل الميليشيا متعجبا :

- اى ، اى ، اى .

- وبعد اسبوع اقبل .

- والسبب ؟

- لانه حاكم ، والحاكم غير مقبول في هذه الايام .

- اى ، اى ، اى . .

كرر رجل الميليشيا تعجبه ، ناظرا الى قط ضاو كان ماضيا في شؤونه بحذر في ظل القمر تحت شجيرات الاقاسيا .

- . . . وكان جلاله الامبراطور يعيش في ذلك الوقت في مونغيليف بين قواته وحياته رخيصة مطمئنة . في النهار يشبع من النوم ، وفي الليل يطالع التقارير عن المعارك الحاصلة . . .

قال رجل الميليشيا :

- الملعون عظمتان بالتاكيد ، وذهب لشرب الماء :

- عمن تتحدث ؟

- عن قط مخزن سينوبلي للدخان . خرج يتمشى .

- حسنا . وفجأة يتصلون بجلالة الامبراطور بالخط المباشر ، ويبلغونه بكذا وكيت ، ويقولون ان شعب بتروغراد نائر ، والجنود لا يريدون التصدى للشعب ، بل يتغون العودة الى بيوتهم . ولكن صاحب الجلالة لا يظن ذلك بالامر الخطير . ويستمدى جميع الجنرالات ، ويلبس النياشين والوشائج ، ويخرج اليهم ليقول : «الشعب نائر في بتروغراد ، والجنود لا يريدون التصدى للشعب بل يبتغون العودة الى بيوتهم . فماذا يجب ان

افعل ؟ ادلوا لى برايمكم . وماذا تحسبون ؟ نظر جلالته الى الجنرالات ، ولكن هؤلاء ، يا صاحبي ، لم يقولوا برايمهم ، بل اداروا وجوههم جميعا . . .

- اى ، اى ، اى ، مصيبة !

- واحد منهم فقط لم يدر وجهه عن الامبراطور ، وهو جنرال عجوز سكير . قال له : «ياصاحب الجلالة ، مرنى اضع رقبتي لك» . هن صاحب الجلالة راسه ، وابتسم بمرارة ، وقال : «من بين جميع رعاياى الاحباء لم يبق الا واحد مخلص ، وحتى هذا تجده سكران كل يوم منذ الصباح . والظاهر ان ملكى قد انتهى . ناولونى ورقة فيها شعار الدولة لاوقع على تنازلى عن العرش» .

- ووقع بالفعل ؟

- وقع ، وذرف دموعا مريرة .

- اى ، اى ، اى ، مصيبة . . .

وفي تلك الاثناء مر بالمخزن رجل طويل ليس كيبه ذات راس مذبب كبير غاطسة حتى حاجبيه . وكان ردن مسترته الفارغ محشورا في حزامه . ادار وجهه نحو الرجلين الجالسين عند المخزن ، ولعمت اسنانه بوضوح . قال العارس خافت الصوت :

- هذا الرجل يمر للمرة الرابعة .

- انه لص بالتاكيد .

- هذه الحرب هى التى ولدتهم بهذه الكثرة يا صاحبي . ظهور في اماكن لم تعرفهم من قبل . فنانون في صنعتهم .

دقت الساعة على برج الجرس ثلاث دقائق من مسافة بعيدة ، وابعقها صياح ديكة الفجر . وظهر ذو الذراع الواحدة في الشارع مرة اخرى . وقد اتجه هذه المرة الى العارسين تماما ، نحو المخزن . صمت الرجلان وراحا يتطلعان اليه . وفجأة قال العارس بهمس متسارع :

- وقتنا في داعية ، يا ايفان . اطلق صفارتك .

اخذ رجل الميليشيا يخرج صفارته الا ان ذا الذراع الواحدة وثب عليه ، وضربه بقدمه على صدره ، وفي نفس اللحظة ضرب العارس الليلي بمقبض المسدس على راسه . وفي تلك البرهة ركض رجل ثان نحو المبعطل : كان قصيرا بارز الشاربين في معطف جندى ،

سافر تليغين وداشا الى بتروغراد ، وبقيت كاتيا وحيدة .
وقد رافقتهما الى محطة القطار - كانا في حالة من شرود الذهن ،
وكأنهما في حلم - وعادت الى البيت وحدها عند حلول الظلام .

كان البيت خاليا . فقد خرجت مارفوشا وليزا الى اجتماع
خدام البيوت . كانت غرفة الطعام ما تزال عابئة برائحة تبغ
وزهور ، وشجيرة الكرز المزهرة ماتزال واقفة في موضعها بين
اواني الطعام غير المرفوعة . سقت كاتيا الشجيرة بدورق الماء ،
وجمعت اواني الطعام وجلست على مقعد دون ان تشعل الضوء ،
ووجهها الى النافذة فزات السماء وراها مظلمة ملغمة بالسحب .
دقت ساعة الحائط في غرفة الطعام . وستمضي في دقائقها ، حتى لو
تمزق القلب حزنا وكمدا . ظلت كاتيا جالسة في سكون وقتسا
طويلا ، ثم تناولت لفاحا ازغب من على الكرسي الوثير ، وألقته على
كتفها ، وذهبت الى غرفة داشا .

كان الفراش المخطط على السرير العاري بلوح في الظلمة .
وعلى احد المقاعد علبه كرتونية فارغة من علب القبعات ، وعلى
الأرض تناثرت اوراق ومزق . وبعد ان عرفت كاتيا ان داشا اخذت
معها كل حاجياتها ، ولم تبق او تنس شيئا . فكبرها ذلك عظيم
التكدر حتى تندت عينهاها . جلست على السرير ، على الفراش
المخطط ، ساكنة ايضا وبلا حراك كما كانت في غرفة الطعام .

دقت ساعة غرفة الطعام العاشرة ذقات رنانة . عدلت كاتيا
اللفاح على كتفها ، وذهبت الى المطبخ ووقفت هناك برهة ،
وارهفت سمعها ، ثم رفعت جسمها على اطراف اصابعها ، وتناولت
من الرف دفتر المطبخ ، انتزعت منه ورقة بيضاء ، وكتبت بقلم
رصاص : «ليزا ومارفوشا . كان يجب ان نخجل على ترككما البيت
طوال النهار وحتى الليل» . ونزلت دمعة على الورقة . وضعت كاتيا
الورقة على طاولة المطبخ ، وذهبت الى مخدعها . فخلعت ملابسها
على عجل ، وانسلت الى سريرها ، وهدأت .

في منتصف الليل صفق باب المطبخ ، ودخلت ليزا ومارفوشا
تطبطبان باقدامهما وتعدنان بصوت عال ، وراحتا وجاءتسا في

وقد انقض على رجل الميليشيا ، ولوى ذراعيه وراء ظهره بحركة
سريعة قوية .

واخذ ذو النزاع الوحدة والتصير بعالجان القفل صامتين حتى
فلاه ، ودخلا مخزن مورافيشيك ساحبين الى داخله الحارس
المصعوق ورجل الميليشيا المشدود النزاعين ، وسدا الباب
وراءهما .

وانتهى كل شيء في بضع دقائق . شدد الاحجار الكريمة
والذهب في صرتين . وبعد ذلك قال التصير :

- وهذا؟

ورفس بحدائه رجل الميليشيا الذي كان منظرها على الارض
قرب البسطة .

تمتم رجل الميليشيا بصوت ضعيف :

- ياغريزي ، لا داعي للقتل لا تغلعه ايها الطبيب ..

قال ذو النزاع الواحدة بعدة :

- لنذهب .

- اقول لك انها سيبلغنا عنا .

- لنذهب ، يا سافل !

وامسك اركادي جادوف الصرة باسنانه ، ووجه مسدسه
«الموزر» على شريكه . فضحك هذا بتهكم ، وسار نحو الباب .
وكان الشارع ما يزال خاليا . خرج الاثنان بهدوء ، وانعطفا في ركن
الشارع ، وسارا نحو «قصر كاريني» . قال جادوف للرجل القصير
اثنا سيره :

- سافل ، قاتل ، وغد . تجنب ذلك ، اذا كنت تريد العمل

معي . فهمت ؟

- فهمت .

- والآن ، اعطني الصرة . واذهب في الحال واعد القارب .

ساذهب انا لاحضار زوجتي . يجب ان تكون في البحر عند الفجر .

- نذهب الى يالطا ؟

- ليس هذا شأنك . الى يالطا او الى القسطنطينية ..

انا صاحب الأمر .

المطبخ ، ثم هدأت حركتهما . وبعد ذلك ارتفع ضحكها فجأة ، بعد ان قرأتا الورقة . طرفت كاتيا بعينها ، ولم تبد حراكا . ساد السكون في المطبخ في آخر الامر . ودقت الساعة معلنة الواحد بعد منتصف الليل . وترامت هذه الدقة رنانة ومؤرقة . انقلبت كاتيا على ظهرها ، وازاحت البطانية عنها بضربة من قدمها ، وتهدت بصعوبة عدة مرات ، وكانها لا تجد الكفاية من الهواء ، وقفزت من السرير ، واضادت المصباح الكهربائي ، وقلصت عينها من ضوءه المفاجيء واقتربت من المرأة الكبيرة القائمة . كان قميص النوم الخفيف لا يصل الى ركبتيها . نظرت كاتيا الى صورتها في المرأة بسرعة وسهوم ، الى صورة تبدو جد اليقة لها ، وارتعش حنكها . دنت من المرأة كثيرا ، ورفعت شعرها من الجانب الايمن . «نعم ، نعم ، بالطبع ، هذا ثم هذا . . .» وتعمنت في وجهها كله - نعم ، نعم ، طبعاً . . . وبعد عام سيستعمل راسي شيئا ، ثم تدركنى الشيخوخة» . اطفأت الكهرياء ، واستلقت على السرير ثانية ، وغلظت عينها بكوعها . «لم ادق لحظة من الهناء طوال حياتي . والان انتهى كل شيء . . . لن يوطنني احد يذراعاه ، ولا يعترضني ، ولا احد يقول لي : يا عزيزتي ، يا حبيبتي ، يا فرحتي . . .»

ومن بين الافكار العرة والتاسفات طاف في ذاكرة كاتيا فجأة درب رملي رطب عبر مرج من الارض مزوروق من المطر ، وأشجار زيزفون كبيرة . . . وهي نفسها - كاتيا - تسير في هذا الدرب في ثوب بني ومؤزر اسود ، والرمل يسهس تحت نعلها ، وهي تحس بخفتها ، وورشاقتها ، والنسيم يداعب شعرها ، والطالب اليوشا يقود دراجته على العشب الرطب ، لا على الدرب ، ولكن على العشب المبيل . وانقلبت كاتيا لتمتع نفسها من الضحك . . . واليوشا يقول بصوت اجوف : «انا اعرف - انا لاامل بان تبادليني شعوري . وقد جئت لغاية واحدة فقط ، هي ان افضي ذلك لك . سأنهى حياتي يوما ما في محطة قطار نائية ، فوداعا . . .» ويمطى دراجته ويسير عبر المرج ، مخلفا وراءه اثرا ازرق على العشب . . . ظهره مكسور في سترته الرمادية ، وطاقته البيضاء تخفى ورا الخضرة . وتصرخ كاتيا : «اليوشا ، عد!»

... احقا ان هذه التي يعذبها الارق الآن ، كانت واقفة آتند في ذلك الدرب الرطب ، والنسيم الضيفى العبق برائحة المطر يداعب منزهها الاسود ؟ قعدت كاتيا في السرير ، ووضعت راسها بين يديها ، واستندت كوعها على ركبتيها العاريتين ، ولاحت في خيالها اضواء مصابيح شاحبة ، ورذاذ تلجي ، وريش تدوي في اشجار جرداء ، وصرير زلاجة زاعق موحش قانط ، وعينا بيسونوف الجليدتان قريبتين من عينها . . . حلالة الغور وشلل الارادة . . . رعشة الفضول المعززة . . .

اضطلعت كاتيا مرة اخرى . ورن الجرس بعدة في سكون البيت . سرت البرودة في جسد كاتيا . ورن الجرس للمرة الثانية . سارت ليذا في المهلز حافية تصف نائمة ترسل زفرات غاضبة ، وصلصل مزاج الباب الخارجي ، وبعد دقيقة سمعت كاتيا طرقا على باب مخدعها : «جات برقية لك ، ياسيدة» . تناولت كاتيا الطرف الضيق متغضبة الا سارير ، وفضت الغتم ، ونشرت الورقة ، واذا بصهرها يفيم .

- ليذا - قالت وهي تنظر الى الفتاة التي اخذت شفتاهما ترتجفان من الذعر - مات نيقولاى ايفانوفيتش .

صرخت ليذا ، وانفجرت بالبكاء . طلبت كاتيا اليها ان تنصرف . ثم اعادت قراءة الحروف الشنبعة على شريط البرقية للمرة الثانية : «توفى نيقولاى ايفانوفيتش متأثرا بجرح بليغفة اصابته اثنا تادية واجبه النبيل نقطة سينقل جثمانه الى موسكو على نفقة الاتحاد . . .»

احسنت كاتيا بنقل الغثيان تحت نهدا ، وغشاوة وسوداء امام عينها ، مدت جسمها الى الوسادة ، وفقدت الوعي . . . في اليوم التالي جاء لزيارة كاتيا ذلك السيد الملتحي المورود الوجنتين الذي سمعته في اليوم الاول للثورة يتحدث في نسادى الحقوقيين - وهو شخصية اجتماعية شهيرة ورجل لبرالى يدعى الامير كابوستين - اونجسكى - وقد اخذ يديها بيديه ، وضغظهما على صدره المورب ، وراح يقول انه باسم المنظمة التي كان يعمل فيها مع الفقيه نيقولاى ايفانوفيتش ، وباسم مدينة موسكو الذي هو الآن مساعد مفوضها ، وباسم روسيا والثورة ينقل الى كاتيا

التعازي والاسف على فقد متاضل مجيد في سبيل الفكرة تخطفه الردى قبل الاوان .

كان الامير كابوستين - اونجسكى بطبعه مفعما بالسعادة والعافية والمرح ، وصادقا في اظهار اساه وتفوح من لحيته وصداره رائحة سيفغار مهذبة حتى ان كاتيا احست لبرعة من الوقت بان انقباض نفسها يتراخي . فرفعت اليه عينيها اللامعتين من السهاد وباعدت شفقتها الجافتين :

- شكرا على ما قلته عن نيقولاي ايفانوفيتش ...

اخرج الامير مندليا كبيرا ومسح عينييه . انه قد ادى واجبا تقبلا وانصرف . زعقت سيارته في الشارع الجانبى بصوت كصوت الغول . وعادت كاتيا تطوف في الحجرة . توقفت امام الصورة الفوتوغرافية لجنرال لا تعرفه له وجه اسد ، وتناولت البومبا للصور ، وكتابا ، وعلبة من صنع الصين رسم على غطائها مالك الخزين ممسكا بشفدعة . ثم ستمت من جديد ، ناظرة الى ورق الحائط ، الى الستائر ... ولم تمس طعام الغداء . قالت الخادمة ليزا : «على الاقل لو اكلت مهلبية الفواكه» . هزت كاتيا راسها رفضا دون ان تحرك شفيتها . كتبت لداشا رسالة قصيرة ، ولكن مزقتها في الحال .

كانت تود لو ترقد وتنام . ولكن الرقود في السرير كالرقود في التابوت - رهيب بعد الليلة البارحة ... وكان اشد ما يوجعها هو اسفها الياس على نيقولاي ايفانوفيتش ، فقد كان انسانا طيبا رقيق القلب مشوش الفكر ... كان يجب ان تحبه على ما هو عليه ... اما هي فعذبتة ؛ فشاب قبل الاوان . نظرت كاتيا في النافذة الى السماء الكئيبة الحائلة اللون . ولوت اصابعها حتى فرقت .

وفي اليوم التالى اقيم قداس تذكارى لنيقولاي ايفانوفيتش . وبعد يوم دفن رفاتة . وقيلت كلمات جميلة على قبره ، فشبه الفقيده بقادوس بحرى هلك في اعماق اليم ، وبرجل حمل المشعل الملتهب طوال حياته المجيدة . وحضر الدفن رجل قصير القامة يلبس نظارة هو احد الاثريين-الثوريين المشهورين ، وقد جاء متأخرا ، وقال لكاتيا بدمعة غاضبة : «تنحى ، يا مواطنة» . وضح

طريقه حتى حافة القبر ، واخذ يتكلم قائلا ان موت نيقولاي ايفانوفيتش يؤكد مرة اخرى صحة سياسة حزبه حول مسألة الارض . وكانت التربة تفتت تحت حذائه القبيح المظهر ، وتسقط مرتطمة بالتابوت . شعرت كاتيا بنوبة غثيان تصك حلقومها ، فانسلت من الجمع خلعة ، وعادت الى البيت .

كانت تراودها رغبة واحدة : ان تغتسل ، وتنام . ولكن حين دخلت البيت استولى عليها الرعب ؛ اذ وقع بصرها على ورق الحائط المخطط ، والصور الفوتوغرافية والعلبة بمالكها الخزين ، والغوان المدعوك في غرفة الطعام والتوافد المتربة . فاي وحشة كانت تنبعث من هذه الاشياء ! طلبت كاتيا ان يبلأ حوض الحمام ، واستلقت في الماء الدافئ وهي تنن . فان جسمها كله قد احس اخيرا بتعب قاتل . ثم جرت نفسها الى مخدعها بجهد شديد ، وغفت دون ان ترفع غطاء الفراش الخارجى . وهجست لها في نومها رنات جرس ، ووقع خطوات ، واصوات ، وطرق على الباب ولم ترد عليها .

استيقظت كاتيا حين خيم الظلام التام ، وقلبها منقبض موجه . وتساءلت مدعورة شاكية «ماذا ؟ ماذا ؟» ورفعت جسمها في السرير قليلا ، وللحظة املت ان يكون كل ذلك مجرد حلم مرعب تراهى لها ... ثم شعرت ، وللحظة ايضا ، بالغبن واللانصاف . فعلام تتعذب ؟ وعادت الى عالم اليقظة تماما ، وعدلت شعرها ، ولبست خفيها على قدمين عاريتين ، وقالت لنفسها بوضوح وهدهو : «لا اريد ان اتحمل اكثر من ذلك» .

فتحت كاتيا ، على مهل ، باب صندوق الادوية البيتي المعلق على الحائط ، واخذت تقرا الاوراق الملصقة على القوارير . فتحت قارورة المورفين الصغيرة ، وشمتها وضمت عليها راحتها ، ودعبت لتخرج قدحا من غرفة الطعام ، الا انها توقفت في الطريق اليها اذ رات صوتا في غرفة الجلوس . وسالت بغفوت : «اهذا انت يا ليزا ؟» وفتحت باب الغرفة قليلا ، ورات رجلا ضخما في قميص عسكري يجلس على الارنيكة ورأسه الحليق مضمد بضمادة سوداء . نهض بسرعة حين رآها . اخذت ركبتيها كاتيا ترتعشان ، واحست بخواء تحت قلبها . حدق الرجل فيها بعينين مخيفتين متسعيتين ، زاما شفقيته المستقيمتين . لقد رات امامها فاديم بتروفيتش روتشين . وضعت

كاتبا كلتا يديها على صدرها . وقال روتشين ببطء وعزم دون ان يصرف بصره عنها :

- جئت لاقدم لك احتراماتي . ان خادمك اخبرتنى بمصابك . وقد بقيت لاننى رايت من الواجب ان اخبرك بان فى وسعك ان تضعينى انا وحياتي كلها تحت تصرفك .

وارتعش صوته حين قال الكلمات الاخيرة ، وامتلا وجهه النحل بحمرة داكنة . ضغطت كاتبا يديها على صدرها بكل قوتها . وقرأ روتشين فى عينها الحاجة الى ان يدنو منها ويعينها . وحين اقترب قالت واستانها تصطك :

- اهلا بك ، يا فاديم بتروفيتش ...

وبحركة لا ارادية رفع ذراعيه ، وهو يهيم بتلويحها ، فقد بدت متهافئة تعيسة ، وهى تضم قبضتها على القارورة بتشنج ، الا انه احجم فى اللحظة التالية ، وانزل ذراعيه وتقلب . ادركت كاتبا فجأة بفطرة المرأة انها ، وهى المرأة التعيسة الصغيرة ، الغاطسة ، العاجزة بكل دموعها التى لم تذرف بعد ، وبقارورة المورفين البانسة اصبحت ضرورية وعزيزة على هذا الرجل المتأهب بصمت وتجهم الى ان يمزج روحها بروحه . حسبت كاتبا دموعها غير قادرة على ان تقول شيئا وان تفك استانها ، وانحتت على يد فاديم بتروفيتش ، وضغطتها على شفتيها ، وعلى وجهها .

٤٢

وضعت داشا كوعبها على القاعدة العمرية ، ونظرت فى النافذة . كان الشفق يملأ نصف السماء وراء الغابات الداكنة فى نهاية جادة كامينو اوستروفسكى . وكانت السماء مسرحا تصنع فيه عجائب . كان ايفان ايليتش يجلس جنب داشا يحقد فيها بلا حراك ، رغم انه كان يستطيع ان يتحرك على هواه ، فان داشا لن تغادر الا ان غرفتها التى انعكس الشفق القانى على جدارها الابيض . قالت داشا :

- ما اشجى الجو ، وما اعذبه ! كاننا نطير فى سفينة جوية ...

هن ايفان ايليتش راسه موافقا . رفعت داشا يديها من قاعدة النافذة وقالت :

- يعذبنى شوق طاغ الى الموسيقى . فكم مضى من الوقت دون ان اعرف ؟ منذ ان بدأت الحرب ... تصور ومما تزال الحرب قائمة ... ونحن ...

تحرك ايفان ايليتش ، ومضت تقول :

- حين تنتهى الحرب سنهتم بالموسيقى ... اتذكر يا ايفان كيف استلقينا على الرمل ، وقد جرى البحر على الرمل تماما ؟ انت تذكر اى لون كان للبحر ؟ ازرق فاتح ... واتصور اننى قد احببتك طوال حياتى .

وتحرك ايفان ايليتش ثانية ، وهم ان يقول شيئا ، الا ان داشا سبقته قائلة :

- السخان يغلى !

وخرجت من الحجرة واكضه ، الا انها توقفت عند الباب . وكان لا يرى فى الظلام الوليد غير وجهها ، ويدها الممسكة بالستارة ، وقدمها فى جورب رمادى . اخفتت داشا ، والقى ايفان ايليتش ذراعيه وراء راسه ، وانمض عينيه .

كان تليفين وداشا قد وصلوا اليوم فى الساعة الثانية بعد الظهر . وكانا قد اضطررا الى قضاء الليل كله جالسين على الحفائب فى ممر العربية المكتظة . وعند وصولهما مباشرة شرعت داشا فى فك امتعتهما والنظر فى جميع الاركان ، ومسح الغبار . اعجبت بالشقة ، وعزمت ان تعيد ترتيب كل شىء فيها . وكان يجب القيام بذلك فوراً . استمدعى البواب من الاسفل ، وتعاون مع ايفان ايليتش لنقل الاصونة والارائك من غرفة الى اخرى . وحين تم تغيير وضع الاثاث طلبت داشا من ايفان ايليتش ان يفتح جميع نوافذ التهوية الصغيرة فى اعالي الشبايك ، وذهبت هى لتستحم . وظلت وقتا طويلا تسكب الماء على جسدها ، وصنعت شيئا لوجهها ولشعرها ، ومنعت ايفان ايليتش من دخول هذه الغرفة مرة وتلك الغرفة اخرى ، رغم ان ايفان ايليتش كان يمنى النفس طوال اليوم بان يلتقى بداشا كل لحظة ويطلق النظر فيها .

ومع هبوط الظلام هدأت داشا اخيرا . دخل ايفان ايليتش غرفة

الجلوس وقد اغتسل وحلق ، وجلس الى جانب داشا . وكانا يختليان في سكون للمرة الاولى بعد مفارقتها موسكو . جاهدت داشا ان تملأ الوقت بالحديث وكانها كانت تخاف من هذا السكون . فقد ارهبها ، كما اعترفت لايفان ايليتش فيما بعد ، ان يقول لها بصوت «خاص» : «اذن ، يا داشا ...»

ذهبت لتتنظر في امر السخان . وجلس ايفان ايليتش مغمض العينين . انصرفت ، والهواء ما يزال مملوءا بانفاسها . ودق كعبها على ارض المطبخ بفتنة لا توصف . وفجأة رن شيء يتوشم هناك ، وتناهى صوت داشا الشاكي : «كوب !» وانغمس قلب ايفان ايليتش بفرح حار فانلا لنفسه : «حين استيقظ غدا سأرى صباحا غير اعتيادي ، سأجد داشا معي» . ونهض مسرعا وظهرت داشا عند الباب .

— كسرت كوبا ... ايفان ، اتريد شايا حقا ؟

— لا ...

وتقدمت منه ، ولما كانت الغرفة غارقة في ظلام . فقد وضعت ذراعها على كتفيه وسالت بخفوت :

— قيم كنت تفكر ؟

— فيك .

— اعرف . وماذا كنت تظن في ؟

وبدا وجهها المغمبش في الظلمة عيوسا ، بينما كانت تبسم في الواقع . وكان صدرها يرتفع وينخفض منتظم الانفاس .
— فكرت في ان ذهني غير قادر على ان يتصورك كزوجي . ثم فهمت فجأة ، وبحث اليك لآخر . اما الآن فلا اتذكر شيئا .

قالت داشا :

— آى ، آى . اجلس ، ودعنى اجلس جنبك .

وجلس ايفان ايليتش على الكرسي وجلست داشا جنبه على ذراع الكرسي وقالت :

— وفيهم فكرت ايضا ؟

— جلست هنا عندما كنت في المطبخ ، قلت لنفسى : «حلت في البيت مخلوقة مدهشة ...» اهذا سيمى ؟

اجابت داشا مفكرة :

— نعم ، هذا سيمى جدا .

— هل تحبيننى يا داشا ؟

— اوه— وحركت رأسها من الاسفل الى الاعلى— احبك حتى

شجرة البتولا .

— حتى شجرة البتولا ؟

— احقا انك لا تعرف ان لكل امرئ في نهاية عمره حبة من

الارض تظلها شجرة بتولا باكية ؟

امسك ايفان ايليتش داشا من كتفها . فاستجابت لعناقته برقة . وتبادلا قبلة طويلة مثلما فعلا منذ زمن بعيد على ساحل البحر . وتقطعت انفاسهما . قالت داشا : «آه ، ايفان» وطوقت عنقه ، وسمعت قلبه يدق دقات ثقيلة فاشفت عليه . تنهدت ، ونهضت من ذراع المقعد ، وقالت ببساطة :

— ايفان ، لنذهب .

تلقت داشا رسالة من شقيقتها في اليوم الخامس من وصولها تخبرها كاتيا فيها بوفاة نيقولاى ايفانوفيتش .

«... مررت بفترة من الشقاء والياس . وشعرت في وضوح باننى سائل وحيدة الى ابد الدهر . اوه ، ما ارهب ذلك !... ولرهبته عزمت على ان اتخلص منه باسرع وقت ... اتفهين ؟ ... واتقدتني معجزة ... وربما مصادفة ... لا ، لا ، كانت معجزة حقيقية ... ولا يمكننى ان اكتب عن ذلك ... سأخبرك به حين نلتقى ...»
وصعدت داشا بنعى نيقولاى ايفانوفيتش وبرسالة كاتيا ، فعزمت على السفر الى موسكو في الحال ، الا انها تلقت في اليوم التالي رسالة اخرى من كاتيا تخبرها فيها بان تنهيا للسفر الى بتروغراد ، وتسألها ان تبعث لها عن غرفة غير غالية الايجار . وقد احتوت الرسالة على ملاحظة تقول فيها : «سينزوركما فاديم بتروفيتش روتشين وسيروى لكما كل شيء بالتفصيل . فهو لى اخ واب وصديق العمر» .

كان تليغين وداشا يتمشيان في شارع معرشف في يوم احد من نيسان . كانت قطع مهلهلة من السحاب الذائب من الشمس تطوف في السماء الزرقاء زرقاة ربيعية وفي الجو برودة . وكان ضوء الشمس

ينفذ خلال الشوارع المعرش ، وكأنه ينفذ من خلال ماء . ويرتمى على ثوب داشا الأبيض وكانت جذوع صنوبر الجافة الضاربة الى الحمرة تقترب منها بينما كانت الريح تضج في اعاليها ، وتحرك اوراقها . رنت داشا الى ايفان ايليتش الذى كان قد خلع قبعته ، وعقد حاجبيه مبتسما . كان يغمرها احسانا بالسكينة والامتلاء - بسحر النهار والبهجة لانها تنففس بيسر ، وتسير خفيفة مستسلمة كلياً الى هذا النهار والى هذا الرجل السائر بجانبها .

- ايفان .

نادت داشا مقتره الشجر ، فتساءل ايفان في بسمة :

- ماذا ، يا داشا ؟

- لا . . . فكرت بشئ ما .

- عم ؟

- مجرد فكرة .

- عم ؟

- فيما بعد .

- انا اعرف عم .

التفت داشا التفاتة سريعة .

- اتسم على انك لا تعرف . . .

وصلا الى شجرة صنوبرية كبيرة . نزع ايفان ايليتش قطعة من القشرة مقطاة بقطرات ناعمة من الصمغ ، وكسرها بين اصابعه والقى على داشا نظرة حائية من تحت حاجبيه :

- كلا ، اعرف .

ارتجفت يد داشا وقالت هامسة :

- احسن وكان كيانى كله يجب ان ينصب في فرج اشد

واعظم . . . كل كيانى ممتلئ . . .

هن ايفان ايليتش راسه . وكانا قد خرجا الى فرجة بين اشجار مكسوة بعشب اخضر ناعم ، وشقائق صفر تهتز بالريح . وكان ثوب داشا يغفق في الريح بين حين وآخر ، فكانت تنحنى في كل مرة ساهمة ، وتعدل تنورتها ، وتقول :

- هذه الريح مقاب ! . .

في نهاية الفرجة امتد سياج مشبك عال ل احد القصور ، تقشر

الطلاء المذهب عن رؤوس قضبانه بفعل الزمن . دخلت حصة صغيرة في حذاء داشا . قعد ايفان ايليتش ، وخلص الحذاء من قدم داشا الدافئة المكسوة بجورب ابيض ، وقبل القدم قرب اصابعها . لبست داشا حذاءها وطبقت بقدمها ، وقالت :

- اريد ان يكون لي ولد منك . . . هذا ماكنت افكر فيه . . .

٤٣

اقامت يكاترينا دميتريفنا في بيت خشبي غير بعيد عن شقة داشا تديره امرأتان عجوزتان ، كانت احدهما تدعى كلافديا ايفانوفنا - مغنية في سالف الايام ، والاخرى - وتدعى سوفوتسكا - مرافقة لها . كانت كلافديا ايفانوفنا تخطط حاجبها منذ الصباح ، وتضع على راسها لمة مستعارة فاحمة السواد ، وتجلس لتلعب لعبة الحظ والتمنى في الورق . بينما كانت سوفوتسكا ذات الصوت الرجولى الخشن تقوم بتدبير شؤون البيت . وكان البيت نظيفاً مكتظاً على الطراز القديم بالعديد من افرشة المائدة الصغيرة والسدائل ، والصور المصغرة لعهد الشباب الغابر . وفي الصباح كانت الحجرات تمتلئ برائحة القهوة المشوية ، وعند اعداد الغداء كانت كلافديا ايفانوفنا تشم الملح لأنها لا تطيق رائحة الطبخ ، وكانت سوفوتسكا تصيح بصوتها الرجولى من المطبخ : « اين اذهب بهذه الرائحة المقرزة لك ، فانا لا استطيع ان اقل البطاطس بماء الكولونيه » . وفي المساء كانت توقد مصابيح الكيروسين ذات الزجاجات المغنشة الكروية الشكل . وكانت العجوزتان تحيطان كاتيا بالرعاية .

كانت كاتيا تعيش حياة هادئة في هذا الماوى القديم الطراز ، السالم من عوادي الزمن . كانت تستيقظ في الصباح الباكر وترتب الحجرة بنفسها ، وتجلس قرب النافذة ترتق الثياب ، وترفأ الجوارب ، او تصنع من فساتينها الانيقة القديمة لباسا بسيط . وبعد الفطور كانت تخرج في العادة الى الجزر وتتنول ومعها كتاب او صرة تطريز ، وتجلس على مسطبة في المكان المفضل لها بالقرب

من البحيرة الصغيرة ، وتراقب الاطفال يلعبون عند تلييلة الرمل ، وتطالع ، وتطرز وتفكر . وتعود في نحو السادسة لتناول الغذاء عند داشا . وفي الساعة الحادية عشرة كانت داشا وتليغين يوصلانها الى البيت . كانت الشقيقتان تسيران في المقدمة وذراعاهما متشابكتان ، بينما كان ايفان ايليتش يسيرواها مسرعا قبعته على علبانه صافرا وبمشابة «غطاء للمؤخرة» ، لان الخروج في المساء لم يعد مأمونا في تلك الأيام .

كانت كاتيا تكتب لغاديم بتروفيتش ورتشين كل يوم ، وكان روتشين طيلة هذه المدة موقفا في مهمة الى الجبهة . وكانت كاتيا تروى في رسائلها بعناية وصدق كل ما فعلته وفكرت فيه خلال ذلك اليوم . وكان روتشين يسألها ذلك ، ويؤكد لها في رسائله الجوابية : «كم كان عزيزا على ان تكتبى لى ، يكاترينا دميترييفنا ، ان المطر قد بدأ يرد رذاذا حين عبرت جسر بلاغين اليوم ، ولم تكن لديك مظلة فاحتيمت تحت الاشجار ريشما يتوقف المطر ! ان كل دقائق حياتك عزيزة على ، واريده ان اعرفها حتى لم يعد في وسعى الا ان اعيش بدونها» .

كانت كاتيا تعرف ان روتشين يبالي ، وان في وسعه بالطبع ان يعيش بدون ان يعرف دقائق حياتها ، ولكن التفكير في ان تظل وحيدة مع نفسها كان يزعجها اشد الزعج حتى انها كانت تحاول الاتتشكك ، بل تصدق بان حياتها كلها لازمة لغاديم بتروفيتش وعزیزة عليه . ولهذا فان كل ما كانت تفعله الان يتخذ مغزى خاصا . اضاعت الكشتبان وبحثت عنه ساعة بكاملها ، واخيرا وجدته في اصبعها . ولعل فاديم بتروفيتش سيضحك من ذهولها الشديد هذا . والان كانت كاتيا تنظر الى نفسها كما تنظر الى شئ غريب عنها تماما . ذات مرة ، حين كانت تعمل عند النافذة وتفكر لاحظت ان اصابعها ترتجف . رفعت راسها ، وغرزت الابر في تنورتها عند الركبة وحدثت الى الامام طويلا . واخيرا ميز بصرها وجهها نجلا امامها في المكان الذى كانت فيه مرآة الصوان ، وجهها نجلا له عينان واسعتان حزینتان ، وشعر بسيط التصفيف ، مضموم في عقدة الى الخلف . . . وتسألت كاتيا مع نفسها : «امعقول ان هذه انا ؟» وغضت بصرها ، وتابعت خياطتها ، الا ان قلبها وجب في صدرها ،

ووخزت اصبعها بالابرة ، فرفعت الاصبع الى فيها ، وعادت تنظر الى المرآة ، ولكنها رأت صورتها في المرآة هذه المرة ، اقبح من الصورة التي رأتها في المرة الاولى . . . وفي تلك الليلة كتبت لغاديم بتروفيتش : «فكرت فيك طوال هذا اليوم وقد اشتقت اليك ، يا صديقى العزيز . اجلس عند النافذة وانتظر . ان ما يحدث في نفسى الآن يشبه شيئا قد نسيته منذ زمان طويل . . . مشاعر فتاة . . .»

وحتى داشا المشاردة الفكر ، الفارقة في علاقاتها مع ايفان ايليتش ، تلك العلاقات المعقدة التي لم يشهد العالم مثيلا لها منذ بدء الخليقة ، حسب ظننا ، لاحظت تغيرا طرا على كاتيا ، وفي احد الامسيات اثناء شرب الشاي ، راحت تبرهن طويلا على ان كاتيا ينبغي ان تردى الآن ، والى الابد ، ثيابا سوداء تغطي العنق . وانشأت تقول : «اؤكد لك انك لا ترين نفسك يا كاتوشا ، ان مظهرك مظهر فتاة في التاسعة عشرة . . . حقا يا ايفان ، الا تراها تبدو اصغر منى ؟»

- نعم ، اقصد ، ليس تماما ، ولكن اظن . . .

قالت داشا :

- آه . انت لا تفهم شيئا . شباب العراة ليس له علاقة بالعمر ، بل باسباب اخرى ، ليس للعمر اية اهمية هنا . . .

واوشكت على النفاذ النقود القليلة التي تركها نيقولاى ايفانوفيتش لكاتيا . فاشار تليغين عليها بان تبعد شقتها القديمة في شارع بانتيليمونوفسكايا . الفارغة منذ شهر آذار . فوافقت كاتيا ، ودعت مع داشا الى الشقة لتأخذ منها بعض الاشياء العزيزة لازتباطها بالذكريات .

حين صعدت كاتيا الى الطابق الثانى ، ووقع بصرها على الباب البلوطى ذى الرقعة النحاسية التي تحمل اسم «ن . ي . سموروفنيكوف» شعرت بان الحياة توشك على اتمام دورتها . خلج البواب قبعته تحية ، وفتح باب الشقة بمفتاحه . انه نفس البواب العجوز المألوف لكاتيا ، الذى كان يفتح الباب الخارجى بعد منتصف الليل ناخرا من انه بغضب ، والنحاس عالق في اجفانه ، وعنته ملوف بياقة معطفه الملقى على كتفيه ، وكان

دائما يطفى الضوء الكهربائي قبل ان تلتحق كاتيا بان تصعد الى شقتها ، اما الان فقد جعل كاتيا وداشا تدخلان قبله ، وقال مطمئنا :
- تاكدي ، يكاترينا دميترييفنا ، من ان اى قلامة لم تضع من شقتك . كنت اراقب المستاجرين ليل نهار . انهم قتل في الجبهة والا لظلوا ساكنين فيها حتى الان ، فقد كانوا راضين عن الشقة ...

كان الرواق مظلما ليست في هوائه رائحة انفاس حية . وكانت الستائر مسدلة في جميع الغرف . ذهبت كاتيا الى غرفة الطعام ، وادارت مفتاح الضوء . شععت الثريا الهلورية بنور ساطع فوق المائدة المغطاة بغفرش من الجوخ الرمادي ، وكانت سلة الزهور الخزفية ما تزال في وسطها ، وفيها غصن اليمورا الذابل منذ زمان . وكانت الكراسي ذات الظهور العالية والبطون الجلدية - الشهود اللامبالون على الحياة المرحة العاصفة التي فاتت - تقف في امامكها على طول الجدران . وكانت احد ابواب صوان الاواني المنحوت الضخم كالبيانو مفتوحا تلوح الاقداح المقلوبة من خلال فتحته . وكان الغبار يغطي المرأة الفينيسية البيضوية ، والصمبي الذهبي ما يزال واقفا فوقها مادا يده الى خصلة ذهبية .

وقفت كاتيا عند الباب بلا حراك ، وقالت لداشا بخفت :

- داشا ، انت تذكرين الوضع ... ! تصوري ، والان لا وجود

لاحد ...

ثم ذهبت الى غرفة الجلوس ، واشعلت الثريا الكبيرة واجالت بصرها ، ثم هزت كتفيها . كانت اللوحات التكميلية ، والمستقبلية التي كانت تبدو في وقت ما متحدية ومخيفة تتدل على الجدران بانسة كايية ، وكانها ، زينات كرنفالية مهملة بعد ان انتفت الحاجة اليها .
- وهل تذكرين هذه ، يا كاتيوشا ؟

قالت داشا ، و اشارت الى لوحة «فينوس الحديثة» القابعة في ركن اصفر مع زهورها ، واكملت قولها :

- انذاك بدت لي وكانها علة كل المصائب .

وضحكت داشا وشرعت بتصفح النوات . ذهبت كاتيا الى مخدعها السابق . كان كل شيء فيها على حالته تماما كما كان منذ ثلاثة

اعوام ، يوم ارتدت ثياب السفر والبرقع وهرعت الى هذه الغرفة للمرة الاخيرة لتأخذ قفازاها من طاولة الزينة .

والان كان كل شيء كاييا وبدا اصغر حجما مما كان من قبل . فتحت كاتيا الدولاب المملوء بفضلات المخمرات والحريز وفضلات القماش والجوارب والاخفاف البيئية . وكانت رائحة عطر خفيفة ما تزال تفوح من هذه الاشياء التي كانت تبدو لها فيما مضى ضرورية . اخذت كاتيا ثقلها دون غابة ، فقد كان كل غرض منها مرتبطا بذكرى الحياة التي ذهبت بلا رجعة ...

وفجأة تحطم السكون الذي كان يعيم على البيت كله وملاّت انغام الموسيقى جنبااته ، حين اخذت داشا تعزف السوناتة التي كانت تتدرب عليها اثناء تحضيرها لامتحانات قبل ثلاثة اعوام . سدت كاتيا باب الدولاب ، وذهبت الى غرفة الجلوس وجلست بالقرب من شقيقتها .

استدارت داشا نصف استدارة ، وقالت :

- اليس ذلك رائعا ، يا كاتيا ؟

وعزفت بعض الفواصل الاخرى وتناولت كراسية اخرى من الارض . قالت كاتيا :

- لنخرج . بدأت اشعر بصداع .

- والحاجيات ؟

- لا اريد ان اخذ شيئا من هنا . سأنقل البيانو وحده الى

شقتك . اما سائر الاشياء فلا حاجة اليها ...

جاءت كاتيا الى الغداء منتمة من المشى السريع ، مرحة ، في قبة جديدة ، وبرقع سماوي اللون . قالت ، وهي تلتشم خد داشا بشفتيها الداقتين :

- وصلت بالكاد قبل ان يهطل المطر الغزير . وحذائي قد تبلل على اية حال . اعطيني تعالا استبدله به .

وسارت نحو النافذة في غرفة الجلوس ، وهي تخلع قفازاها . كان المطر الذي راح يكر ويفر عدة مرات يهطل الان سيولا رمادية ويدور في شفتات الريح ، ويضج في انايب التصريف . رأت كاتيا بعيدا في الاسفل مظلات تجرى راكضة . وخرق ضوء ابيض الهواء

المعتم امام النوافذ ، وسرت فرقة جعلت نفس داشا يتقطع في صدرها . سألت كاتيا وقد افترقها عن ابتسامه :

- اتدري من سيزوركما مساء اليوم ؟

سألت داشا :

- من ؟

الا ان الجرس رن في الرواق ، فركضت داشا لتفتح الباب وترددت ضحكة ايفان ايليتش ، وخفيف قدميه على بساط الرواق ثم مر وداشا الى غرفة نومها وهما يتعادنان بصوت عال وضحكان . خلعت كاتيا قفازها ، وقبعتها وعدلت شعرها ، والابتسامه المتكتمه الناعمة ما تزال ترف على شفيتها .

جلس ايفان ايليتش الى المائدة مرحا موردا ميلل الشعر وروى لهما الاخبار . العمال في مصنع البليطيق مضطربون مثل جميع العمال الا في المصانع والعمال الاخرى . والسوفيئات تؤيد مطالبهم باستمرار . والمشروعات الخاصة اخذت تخلق ابوابها شيئا فشيئا ، والمشروعات الحكومية تعمل بخسارة ، ولكن لا احد يهتم بان تجنى الارباح الا ان الحرب والثورة قائمتان . واليوم عقد في المصنع اجتماع حاشد اخر خطب فيه بلاشفة ، قالوا جميعا كلاما واحدا : «يجب انهاء الحرب ، ولا تنازلات ، ايا كانت ، للحكومة البرجوازية ، ولا اتفاقيات مع اصحاب المشاريع ، وكل السلطة للسوفيئات التي ستتكلف بالنظام ..!»

- وانا ايضا صعدت لاخطب . ولكنهم سحبروني من المنصة . وجاء فاسيلي روبيليف ليقول : «انا اعرف انك لست لنا عدوا فلماذا تقول سخافات . ان اسلك محشو بالسفاسف» . فقلت له : «فاسيلي ، بعد ستة اشهر ستتوقف المصانع ولا يجد الناس شيئا ياكلونه» . فرد علي قائلا : «باريف ، قبل ان يهل العام الجديد سنتقل الارض كلها ، والمصانع جميعا الى الشغيلة . ولن نترك برجوازيا واحدا في الجمهورية ولو للمتعف . ولن يكون للنقود وجود . اشتغل وعش وكل شيء لك . انها الثورة الاجتماعية ، فافهمي!»

وعد ان يكون كل ذلك في العام الجديد .

وضحك ايفان ايليتش ضحكة متزنة الا انه هن راسه ، واخذ يجمع الفتات على الخوان باصبعه . وتنهدت داشا :

- قلبي يخبرني بان بلايا كبيرة ستحصل .

قال ايفان ايليتش :

- نعم . ان الحرب لم تنته ، وفي ذلك علة الامر . ما الذي تغير منذ شباط ؟ اطاحوا بالقصر ، ولكن الفوضى استنفحت . هناك حفنة من المحامين واساتذة الجامعات وهم اناس مثقفون دون ريب يؤكدون للامة كلها قائلين : اصبروا ، حاربوا وسياتي زمن تعطيم فيه دستورا انجليزيا ، بل واحسن منه بكثير . ان هؤلاء الاساتذة لا يعرفون روسيا ، ولم يطلعوا على التاريخ الروسي بشكل جيد . ان الشعب الروسي ليس كما مجردا . ان الشعب الروسي شعب فياض الشعور موهوب قوى . فلا عجب ان يشق الفلاح الروسي طريقه الى المحيط الهادي وهو يحدانه الليفي . اما الالمانى يبق في مكانه ويسعى الى بغيته خلال مائة عام ويصير . بينما الروسي غير صبور . ومن الممكن ان يحفزه الحلم بالاستيلاء على الكون فيسير في سرهوال المصنوع يدويا ، وحدانه الليفي ، وفاسه في حزامه ... اما الاساتذة فيريدون ان يحضروا خضم الشعب الهدار في اطار دستور وقور . نعم ، يبدو اننا سنشهد احدانا خطرة جدا .

كانت داشا واقفة عند المائدة تصب القهوة في اقداح . فاذا بها تترك كوة القهوة فجأة ، وتضغط وجهها الى صدر ايفان ايليتش . فقال ايفان ايليتش وهو يمسد شعرها :

- لا ، لا ، لا حاجة الى القلق يا داشا . لم يحدث شيء فظيح حتى الان ... حدث ان وقعنا في مأزق اسوأ ... فاننا اذكر - اسمعيني - اذكر اننا وقعنا في «الجب العفن» ...

واخذ يتذكر المشاق العسكرية التي صادفته . رفعت كاتيا بصرها الى الساعة الحائطية ، وخرجت من غرفة الطعام . نظرت داشا الى وجه زوجها الهادي القوي الملامع والى عينيه الرماديتين الضاحكتين ، وهذات شيئا فشيئا : ان المرأة تشعر بالاطمننان في صحبة هذا الرجل . حين فرغت من سماع قصته «الجب العفن» ذهبت الى المخدع لتبودر وجهها . فرات كاتيا جالسة امام منضدة الزينة هناك تفعل شيئا لوجهها . قالت لها بصوت ناعم :

- عزيزتي داشا ، السم يبق لديك شيء من ذلك العطن الباريسى ؟ انت تذكرينه ؟

جلست داشا على الارض امام اختها ، وحدقت فيها بدهشة
بالغة ثم سألت همسا :

- اراك تنفسي ريشك ، يا كاتيوشا ؟

احمرت كاتيا وهزت رأسها :

- ماذا بك اليوم ، يا كاتيوشا ؟

- اردت ان اخبرك ، ولكنك لم تسمعي كلامي الى آخره .
سيصل فاديم بتروفيتش مساء اليوم ، وسيأتي الى شقتكما من
محطة القطار مباشرة ... ليس من اللائق ان استقبله في بيتي لان
الساعة متأخرة ...

دق جرس الباب في الساعة التاسعة والنصف . هرعت كاتيا
وداشا وتليغين الى الرواق . فتح تليغين الباب فدخل روتشين وعلى
كتفيه مطف عسكري مدعوك وطاقيته نازلة على جبينه . واذ وقع
بصره على كاتيا رقت ملامح وجهه التحيل الكئيب الملوح حين افتر
عن ابتسامه . نظرت كاتيا اليه مرتبكة فرحة . القى روتشين معطفه
وطاقيته على مقعد وسلم قائلا بصوت قوى فيه بعة : «اعذروني على
دخولي في هذه الساعة المتأخرة . رغبت ان اراك هذه الليلة ، انت
يا يكاترينا دميترييفنا ، وانت ، يا داريا دميترييفنا» فتالقت عينا
كاتيا نورا وقالت :

- انا مسرورة لوصولك ، يا فاديم بتروفيتش .

وحين انحنى ليقبل يدها لثمت رأسه بشفتيها المرعشتين .

قال ايفان ايليتش :

- كان يجب ان تجلب امتعتك معك . اننا لن نتركك

تفادرننا ، ستبتاب عندنا ...

قالت داشا :

- على الاريكة التركية في غرفة الجلوس ، واذا كانت قصيرة

فستضع كراسي في طرفها .

سمع روتشين ما يقوله هؤلاء الناس العطوفون الانيقون ،
وكانه في حلم . وكان قد جاء اليهم وهو ما يزال وعقا ، بعد ليالي السفر
المؤرقة ، والتسلل في النهار من نوافذ العربة بحثا عن الطعام ،
والكفاح المستمر في سبيل مكان من ستة اقطار في مقصورة وسط
سباب يثقب الاذان . وكان ما يزال يستشعر الغرابية من ان يفرح

بوجود هؤلاء الثلاثة المتنعون بهذا القدر غير المعقول من الجمال
والنظافة ، والعبقون بروائح زكية ، والواقفون على ارض صقيلية
كالمرأة ... يفرحون به هو ، روتشين ... وحدق كالنائم في عيني
كاتيا البهيتين الوردتين مسرورة ، مسرورة ، مسرورة ...

عدل نطقه ، وسوى كتفيه ، وارسل زفرة عميقة ، وقال :

- شكرا ، دلوني اين اتوجه ؟

دلوه على الحمام ليغتسل ، ثم دعوه الى غرفة الطعام وقدموا
الطعام له . اكل وهو لا يميز ما كان يقدم له ، وشبع سريعا ووضع
الماعون جانبا ، واشعل سيكارة ، ولان وجهه التحيل الحليق الصارم
الذي اخاف كاتيا حين رآته في الرواق وبدا اكثر تعبا . وحين اشعل
عود القشاب ارتشمت يدها الكبيرتان العلونتان بضوء المصباح
بظليلته البرتقالية . كانت كاتيا تجلس في ظل الظليلة ، فراحت من
هناك تطيل النظر في فاديم بتروفيتش ، وتشعر بانها تحب كل شعرة في
يده ، وكل زر في سترته البنية الداكنة المدعوكه . وقد لاحظت انه
كان يطبق فكيه احيانا وهو يتحدث ، وينطق من بين اسنانه . كانت
عباراته منقطعة مشوشة . والظاهر انه كان يتحسس بنفسه ،
ويحاول ان يكبت في نفسه شعورا بالحنق يعتمل فيه منذ زمن
طويل ... تبادلت داشا النظرات مع اختها وزوجها فسألت روتشين
عما اذا كان يريد ان يستريح بعد تعب السفر ؟ توجه ، وجلس
منتصبا على الكرسي .

- لم اجب هنا لاجد مكانا انام فيه ، لا ، على الاطلاق ...

وخرج الى الشرفة ، ووقف تحت المطر الليل الدقيق . اشارت
داشا بعينها الى الشرفة ، وهزت رأسها . وجاء صوت روتشين من
هناك :

- اعذروني ، يا داريا دميترييفنا ، يعق الرب ... تلك

نتيجة تلك الليالي الاربعة المؤرقة ...

وعاد من الشرفة ، ومسد الشعر على قمة رأسه وجلس في

مكانه . وقال :

- جئت اليكم من مقر القيادة العليا مباشرة احمل الى وزير

الحربية اخبارا مقلقة جدا ... وحين رايتكم احسست بالآلم ...

فاسمحو لى بان اقض عليكم كل شىء . لىس لى فى الدنيا شخص هو اقرب الى منك ، يا يكاترينا دميتريفنا .
شجبت كاتيا . وقف ايفان ايليتش عند الحائط وذراعه وراء ظهره ، وحدقت داشا فى روتشين بعينين مرتعبتين . سعل روتشين ، وقال :

- ان لم تحدث معجزة فاننا سنهلك . . . لم يعد للجيش وجود . . . والجنود يفرون من الجبهة ويرحلون على سطوح العريات . . . وما من امكانية انسانية لياقاف انهيار الجبهة . . . ذلك مثل مد البحر . . . لم يعد الجندى الروسى يعرف من اجل اى شىء يحارب ، وفقد الاحترام للحرب . فقد الاحترام لكل مايتصل بهذه الحرب - احترامه للدولة ، ولروسيا . يعتقد الجنود بان الحرب ستنتهى فى نفس اليوم الذى ترتفع فيه صرخة تنادى بـ«السلام» . . . ونحن وحدنا الاسياد لا نريد السلام . . . ان الجندى الان يصبغ على المكان الذى خدع فيه خلال ثلاثة اعوام ، ويرمى بندقيته ، ولا يمكن بعد الان اجباره على ان يحارب . . . وفى الخريف او نحوه ، حين تفر الملايين العشرة كلها . . . سينتهى وجود روسيا كدولة ذات سيادة . . .

وصك فكبه بقوة حتى ارتفعت عضلات على وجنتيه . واستمر فى كلامه بصوت عديم الرنين .

- انا احمل خطة الى وزير الحربية وضعها بعض السادة الجنرالات لاناقد الجبهة . . . خطة اصيلة . . . وعلى كسل حال سيكون من الممتنع على الحلفاء لوم جنرالانا على عدم الرغبة فى القتال . ومعنى الخطة : اعلان التسريح التام للجيش فى اسرع وقت ، اى تنظيم الهروب من الجيش والحفاظ بهذه الطريقة على سلامة السكك الحديدية ، والمدفعية واحتياطات التموين والعتاد . التاكيد لحلفائنا عن عزمنا على الضى فى الحرب . وفى الوقت نفسه نقيم فى منطقة نهر الفولغا حاجزا من الوحدات الموثوقة - ومثل هذه الوحدات موجودة - ونبدأ بتكوين جيش جديد كلنا فيما وراء نهر الفولغا ، على ان تكون نواته من وحدات المتطوعين ونقوم فى الوقت ذاته بتشكيل ودعم وحدات للانصار . . . ونبدأ الحرب من جديد معتمدين على مصانع الاورال وفحم سيبيريا وقمحها . . .

صاح تليغين :

- يعنى فتح الجبهة للامان . . . وكشف وطننا للنهب !
- لم يعد لنا وطن ، بل مكان كان فيه وطننا - وضم روتشين يديه المطروحتين على مفرش المائدة - لم تعد روسيا العظيمة قائمة منذ اللحظة التى لقي فيها الشعب سلاحه . . . يبدو انك لا تريد ان تفهم ما بدأ بالفعل . . . هل يستطيع القديس نيقولا ان يعينكم الان ؟ لقد نسيتم ان تصلوا له . . . ان روسيا العظيمة الان مجرد روث لتسميد الارض . . . يجب ان يعاد بناء كل شىء من جديد : القوات ، الدولة ، ويجب ان تصب فينا روح جديدة . . .

واستنشق الهواء بقوة من خلال منخريه ، ووقع راسه على يديه الموضوعتين على المائدة ، واجهش باكيا بصوت عميق خافت كصوت الكلاب . . .

فى تلك الليلة لم تخرج كاتيا لتنام فى حجرتها . ارقدتها داشا معها فى سريرها ، وفرشت لايفان ايليتش فى غرفة المكتب . وخرج روتشين الى الشرفة بعد ذلك المشهد المقبض للجميع ، وبعد ان بلله المطر عاد الى غرفة الطعام واعتذر : وبالفعل كان الرقاد احسن مخرج . وقد غفا ما ان خلع ملابسه . وحين سار ايفان ايليتش على رؤوس اصابعه ليطفى الضوء رآه نائما على ظهره وقد طوى ذراعيه على صدره واضعا راحتيها احدهما على الاخرى ، وكان وجهه النحيل ذو العينين المغضبتين بقوة ، والغضون التى رسمها ضوء الفجر المزوروق وجه رجل يكبت الما فى صدره .

ظلت داشا وكاتيا تتعاهدان همسا لوقت طويل ، وهما تحت غطاء واحد . وكانت داشا ترحف سمعها بين العين والاخر . مازال ايفان ايليتش غير قادر على ان يهجع فى مكتبه . قالت داشا : «ما يزال يذرع المكتب ، بينما عليه ان يخرج الى المصنع فى الساعة السابعة . . .» وانسلت من تحت الغطاء ، وهرولت حافية الى زوجها . كان ايفان ايليتش يجلس على الاركة المفروشة يطالع

في كتاب ضخّم وضعه على ركبتيه ، وقد انزل حمالة البنطلون .
نظر إليها بعينين براتين لا تريان ، وسأل :

- اذن لم تنامي حتى الان ؟ . اجلسي . . . لقد وجدت
شيئا . . . اسمعي . . .
وقلب الصفحة ، واخذ يقرأ بصوت خافت :

«قبل ثلثمائة عام كانت الريح تسرح طليقة في الغابات
والسهول السهبية ، وفي المقبرة الهائلة المسماة الارض الروسية .
كانت هناك اسوار محروقة لمدن مندثرة ، ورماد في اماكن
ماهولة ، وصلبان وعظام عند طرق غطائها العشب ، وعصائب
الغريان ثم عواء الذئاب في الليالي . وكانت اخر عصابات اللصوص
التي كانت قد انفتحت على الشراب ونهبت منذ وقت طويل الفراء
الغالية والاقداح من المعادن الثمينة ، والاطر اللؤلؤية للايقونات
تجوب في بعض دروب الغاب . كان كل شيء في روسيا قد نهب
وقضى عليه .

شاع الدمار في روسيا واقوت من اهله . وحتى تتر القرم
كفوا عن اجتياح السهب الخالي ، اذ لم يبق لهم ما ينهبونه . وخلال
السنين العشر من «الاضطراب الكبير» قطع الادعياء واللصوص
والفرسان البولونيون الارض الروسية كلها بالسيف والنار صقعا
صقعا ، وتفشت المجاعة الشديدة ، فاكل الناس روث الخيول ،
واللحم البشري المملح . وسرى الواب الاسود . ونزع الباقون الى
الشمال ، الى البحر الابيض ، والاورال ، وسيبيريا .

وكان البطريق قد اشار على افراد الفئة العليا الذين اصابهم
الفقر ، والتجار الوافدين بعد كساد بضائعهم والفلاحين الصارمين
من بقاع الشمال والفلغا - ، بان يختاروا صبيبا عينه لهم ليكون قيصر
على موسكو . فجاءوا به مرعوبا في تلك الايام العصيبة على زلاجة
ماضين به خلال طرق الربيع الموحلة الى الاسوار المحروقة المحيطة
بموسكو ، المقفرة المدمرة الى اخرها ، بعد ان حررت من المغيرين
البولونيين بجهود جبارة ، جاءوا به نحو موسكو المحروقة التي لم
تكن الا اكواما من الرماد . وكان القيصر الجديد لا يحسن غير البكاء
والصلاة . فظل يبكي ويصلي ناظرا من نافذة الزلاجة بجزع الى حشود
الروس المهلهل الثياب المتوحشين الذين طلوعوا لاستقباله ورا

بوابات موسكو . ولم تكن للروس ثقة كبيرة بالقيصر الجديد . ولكن
كان يجب ان يعيشوا ، وبداءوا يعيشون . اقترضوا النقود من تجار
ستروغانوف . وشرع سكان المدينة يشيدون ، والفلاحون يحرقون
الارض القفراء . وارسل الطببون من الناس على الخيول وعلى الاقدام
لتنظيف الطرق من اللصوص . عاش الناس في فقر وشنطف ، وقدموا
آيات الاجال للقرم ، والليتوانيين والسويديين . وحافظوا على
ايمانهم ، وعرفوا ان هناك قوة واحدة هي الشعب القوي العاقد النشط
المقتدر . واملوا ان يتغلبوا على المصاعب ، فتغلبوا عليها . ومن
جديد بدا العمران يشيع في الارض الخراب . . .»

صفق ايفان ايليتش الكتاب :

- ها انت تزين . . . لن تهلك الان . . . لن تهلك روسيا
العظيمة بينما احقاد اولئك الفلاحين المهلهلين الذين هبوا والرماح
بايديهم لينفذوا موسكو ، وحروا كارل الثاني عشر ونابليون . .
اما حفيد ذلك الصبي الذي جلبه الى موسكو على زلاجة بالقوة
فشيدي بطرسبورغ . . . لن تهلك روسيا العظيمة ! . . وقضاء
واحد يكفي لان تعيد الارض الروسية . . .

ونخر ، وراح يتطلع في النافذة التي تنور وراءها صباح
رطب . اسندت داشا رأسها الى كتفه ، فاخذ هو يمسه ،
وقبلها من شعرها .

- اذهبى للنوم ، يا خايفة . . .

ضحكت داشا ، ودوعته وذمبت . وعند الباب التفتت
وقالت :

- ايفان ، ان كاتيا متمية به . . .

- حسن ، انه رجل رائع . . .

كان النساء حارا ساكني الريح . والهواء يفوح برائحة بنزين
محروق وقطران الارصفة الخشبية . وكانت حشود الناس تسير في
جادة نيفسكي مبرقشة اللباس وبلا نظام وسط الابخرة ودخان
السيكار . وكانت سيارات الحكومة تنطلق باعلامها المرفرفة مقوقة
زاعقة . وكانت اصوات الصبيان العادة ، باعة الجرائد تصرخ

بالانباء المثيرة التي لم يعد احد يصدق بها . وكان باعة السيكاثر
وعلب الكبريت والاشياء المسروقة يتسمللون شاقين طريقهم عبر
حشود الناس . وفي حدائق الساحات العامة كان الجنود يستلقون
على العشب وسط احواض الزهور يقضون جيوب عباد الشمس .

خرجت كاتيا وحدها من جادة نيفسكى . كان روتشين قد
اتفق معها على ان يكون بانتظارها في حوالى الساعة الثامنة في
رصيف النهر . انعطفت كاتيا نحو ساحة القصر . كانت مصابيح
صفراء تشع من النوافذ السوداء في الطابق الثاني من هذا القصر
القانى الحمره الجهم الذى كانت بعض السيارات تقف عند مدخله ،
والجنود والسواق يروحون ويجيئون ضاحكين . مرت دراجة بخارية
مقرقعة يسوقها ساع صعب وضع على راسه قبعة سائق وقد قتب
الهواء قميصه وراء ظهره .

وفي شرفة في ركن وقف رجل عجوز ذو لحية طويلة بيضاء
مرتفقا على الدرابزين ساكن الحركة . التفتت كاتيا وراها وهي
تستدير حول القصر فرات الخيول البرونزية الخفيفة تحت طاق مقر
هيئة الاركان العامة ما تزال تشب على قوائمها الخلفية باتجاه
مغرب الشمس . عبرت كاتيا الرصيف وجلست على مسطبة
غرائبية قرب النهر . كانت معالم الجسور الشفافة الضاربة الى
الزرقة تتدلى فوق النيفا الجارى بوني . وكان البرج المستدق
لكاتدرائية بطرس وبولس ينعكس في النهر كالذهب الابريز . وفي
النهر كان زورق بانس المظهر يتحرك خلال الانعكاسات المتلألئة .
ووراء منطقة بطرسبورجسكايا ، وراء السطوح والادخنة كان قرص
الشمس المنطفئ* يغوص في وهج برتقالي اللون .

وضعت كاتيا يديها على ركبتيها ، وراحت تحدد بهدوء في هذا
الافول ، وتنتظر فاديم بيتروفيتش وادعة صابرة . وقد جاء فاديم
بيتروفيتش من الخلف دون ان تلمحظه ، اسند مرفقيه على السدة
الغرائبية وزنا اليها من عل . احسنت كاتيا به ، فالتفتت ، ونهضت
وعلى ثغرها ابتسامة . كان ينظر اليها نظرة غريبة ذاهلة . صعدت
السلم الى رصيف النهر ، وامسكت يد روتشين . وسار الاثنان .
سألته كاتيا بخفتون :

- ماذا ؟

تلوت شفتاه ، هن كتفيه ولم يجب . عبرا جسر ترويتسكى ،
وفي بداية جادة كامينواوستروفسكى اوما روتشين برأسه الى
دائرة * كبيرة كسبت جدرانها الغازية بالبلط البني . كانت النوافذ
الواسعة لحديقة الشتاء تطغى بضوء ساطع . وعند المدخل وقفت
بعض الدراجات البخارية .

ان هذه الدائرة العائدة لراقصة باليه مشهورة تحولت الان الى
مقر رئيسي للبلاشفة . كانت دقات الآلات الكاتبة تسمع منها ليل
نهار . وكان جمهور غفير من العمال والجنود العائدين من الجبهة
والبحارة يحتشد كل يوم امامها فيظن من الشرفة زعيم حزب البلاشفة
ويتحدث عن ضرورة اخذ العمال والفلاحين للسلطة بالقوة ، وانهاء
الحرب فوراً ، واقامة نظام جديد عادل في بلادهم وفي العالم اجمع .
قال روتشين من خلال اسنانه :

- قبل حين كنت واقفا هنا مع الحشد فسمعت من هذه
الشرفة كلمات نارية لاهبة . والناس يستمعون ... ليتك شاهدت
كيف كانوا يصغون ! .. اننا لا عرف الا ان : من الغرباء في هذه
المدينة : نحن ام هم ؟ (واوما الى شرفة الدائرة) انهم لم يعودوا
يصغون الينا ... نحن نتمتع بكلمات فارغة من المعنى ... عندما
جئت الى هنا كنت اعرف اننى روسى ... اما هنا فانا غريب ... انا
لا افهم ، لا افهم ...

وتوغلا في جادة كامينواوستروفسكى . لحق بهم شخص في
معطف رث وقبعة من القش . كان يحمل دلوا في احدى يديه ، وحرمة
من اعلانات في الاخرى ...

قال روتشين بصوت اجوف ، واستدار لكيلا ترى كاتيا وجهه
العابس :

- انا افهم شيئا واحدا ، هو ان البقعة الحية المشعة في هذه
الفضي هي قلبك ، يا كاتيا ... انا وانت يجب الا نفرق ...

اجابت كاتيا بخفتون :

- لم اجزؤ ان اقول ذلك لك ... ولكن كيف لنا ان نفرق ،

يا صديقى العزيز ...

* استعملت هذه اللفظة عوضا عن الفيلا (المترجم) .

وصلا الى المكان الذى الصق فيه الرجل حامل الدلو من توه
اعلانا ابيض غير كبير على العائط . ولان كليهما كان متأثرا فقد
توقفا لبرهة . وفي ضوء مصباح الشارع كان من الممكن ان يقرأ فى
الاعلان : «الى الجميع ! الى الجميع ! الى الجميع ! الثورة فى
خطر !...»

- يكاترينا دميتريفنا !

نادى روتشين وتناول يد كاتيا النحيلة ، وتابع سيره البطيء
فى الجادة الواسعة التى ركنت الى الهدوء مع هبوط الظلام ، بينما
الشفق المسائى لم يهد بعد فى طرفه القصى .

- ستبر سنون ، وتزول الحروب ، وتهدأ الثورات ، ويبقى

شيء واحد غير خامد هو قلبك الحبيب الوديع الرقيق ...

ومن خلال النوافذ المفتوحة فى البيوت الكبيرة تناهت اليهما
اصوات مرحة ، ونقاشات ، وانغام موسيقى . ومرة اخرى سبقهما
الرجل المعنى الظهر يحمل دلو ، والثفت وهو يلصق اعلانا آخر .
ومن تحت قبة القش المهلهلة تفرست بهما عيناه المتقدتان
بالكراهية .

آب ١٩٢١

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم
وابديتم لها ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب ،
وترجمته وشكل عرضه ، وطباعته ، واعربتم
لها عن رغباتكم .

العنوان : زووفسكى بولغار ، ٢١

موسكو - الاتحاد السوفييتى

